

# مَنَاهِلُ الْعُرْفَانِ

## فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ

طبق مافقره مجلس الأزهر الأعلى في دراسة تخصص الكليات الأزهرية

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ

محمد عبد العظيم الزرقاني

مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بتخصص الدعوة والإرشاد

بكلية أصول الدين سابقاً

جميع الحقوق محفوظة

الجزء الأول

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ  
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ  
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. آمِينَ.

# تصدير الطبعة الثالثة وفهرسها

## ١ - التصدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » . أما بعد ، فهذه الطبعة الثالثة من كتاب « مناهل العرفان في علوم القرآن » أقدمها لقرأني الأكرمين بعد أن أعدتُ النظر فيه ، رجاء أن أدرك الكمال أو أقارب ، فزدتُ وحذفتُ ، وقدمتُ وأخرتُ ، وصححتُ واستدركتُ ، ثم هَيَّا اللَّهُ - تباركت آلاؤه - مطبعةًعاونتني على حسن إخراجها ، فضبطته وشكلته ، ونظمته وصقلته . ولولا أزمة الورق الحادة للبس الكتاب حلةً أبهى من هذه الحلة . ولكن إذا سلم لك الجوهر واللباب ، فلا عليك من القشر والإهاب . « خُذْ بِنَصْلِ السِّيفِ وَاتْرِكْ غِمْدَهُ » واعتبر فضل الفتى دون الحلال . على أن الذنب في ذلك هو ذنب هذه الحرب الضروس الطاحنة ، التي طفت وبفت ، وطمّت وعمّت ، حتى لم ينبج من شرها شرق ولا غرب ، ولا ضيق ولا رعب ، بل قعدت للناس بكل صراط ، وأثرت في جميع المرافق حتى أدوات الطبع ( بالطبع ) .

لطف الله بالبلاد والعباد ، وأخرج الإسلام من هذه المحنة قوى السناد ، رفيع العباد ، على الكلمة ، مسموع الصوت ، حتى يفيء الجميع إلى محبوبته ، ويتفسيئوا وارِفَ ظلاله وسلامه ، وأمنه وإيمانه ، وعدله ورحمته ، وبصره وسماحته ، وحتى يعلموا أن نهضة العلم جنابة على الإنسانية جائحة ، إن لم تسيرها نهضة روحية صالحة ، توفّق بين مطالب الروح والجسد ،

وتواخي بين إنسان الشرق والغرب، وتستأصل النعرات الجنسية والطائفية، وتنظم من الكل جبهةً متحدةً على صراط الحق والخير، « حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » .

وهل توجد هذه المزايا مجتمعةً إلا في الإسلام؟ وهل يوجد الإسلام بغير القرآن؟ وهل يفهم القرآن إلا « بعلوم القرآن »؟ وهو موضوع كتابنا الآن؟ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ \* قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ \* » .

### محاولاتي :

ولقد حاولت في هذا التأليف أموراً خمسة :

أولها - أن تكون كتابتي من النسق الأزهرى الجديد في تفكيره وفي تعبيره ، بحيث يتيسر فهمه وهضمه للقراء من أبناء هذا الجيل ، سواء منهم المحقق الأزهرى والمثقف اللدنى ، فإن لكل زمان لغةً ولساناً ، ومنطقاً وبرهاناً . « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِنَبِّئَ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

على أنى في هذه المحاولة لا ادعى أنى أنشأت وابتكرت ، ولا أحدثت وابتدعت . بل قصارى أنى فهمت وأحسننت العرض إذا كنت قد وقفتُ . أما المادة نفسها فالفضل فيها لعلماء هذه الأمة الذين أبلّغوا في جمعها بلاءً حسناً ، ولم يخرجوا من الدنيا إلا بعد أن شقوا لنا الطريق ، وقرّبوا البعيد ، وجمعوا الشقيت ، وتركوا من خلفهم ثروةً علمية هائلة ، وكنوزاً ثقافية زاخرة ، لا يوجد مثلها ولا قريبٌ منها في أية أمة من أمم الأرض إلى يوم الناس هذا ! وأعتقد أننا لو أحسننا القيام على هذه التركة لكان لنا شأن غير هذا الشأن ، ومكانة وسلطان لا يدانها مكانة ولا سلطان !

ولكن ما قضى كان . ولعل المستقبل القريب يكون أسعد من هذا الحاضر الحزين  
الأسوان ! .

ثانيها — أن أعالج شبهات عصرنا الراهن علاجاً ينحى الأذى عن طريق عشاق الحق ،  
وطلاب الحقيقة ، ورواد البحث ، ومريدي الإسلام .

ولقد التزمت في علاج هذه الشبهات أدب الباحث وواجب المناظر . ورأيت لمثل  
هذا الاعتبار أن أرخي الستر على أسماء أصحاب هذه الشبه خصوصاً المعاصرين منهم .  
وتعمدت هذه السياسية محاسنة لهم عسى أن يرعوا ، وحباً في سلام البحث وهدوئه عسى  
أن يسلموا ويهدوا ، وغضاً من شأنهم إن كان لهم شأن كيلا يقلدوا ، فإننا أصبحنا في  
زمان افتتن كثير من الناس فيه بالأسماء والرتب ، والأموال والنسب . وباتوا لا يعرفون  
الرجال بالحق وإنما يعرفون الحق بالرجال ، فالباطل إن صدر من فلان النابه فهو عندهم حقٌّ  
وزين ، والحق إن جاء به فلان الخامل فهو عندهم باطل وشين ! وهكذا اختلت الضوابط  
واتقلبت الموازين ! .

ثالثها — أن أظهر عند كل مناسبة جلال التعاخي بين الإسلام والعلم ، لتفكشفت  
تلك الدسيسة الرخيصة المفضوحة التي خيلت إلى المخدوعين أن بين الدين والعلم خصومةً  
قائمة ، و حرباً طاحنة ، وعداوة متأصلة ، كأن الدين رديف الجهل ، وكأن العلم حليف  
الكفر ! « كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » .

رابعها — أن أُجِّلِيَّ أسرار التشريع وحكمه كلما دعاني المقام ، ليعلم من لم يكن يعلم  
أن هذا الدين هو حاجة الإنسانية ، ودواء البشرية ، وكمال الفرد ، وصلاح الجماعة ، ولتنقطع  
أنفاس تلك الدعاية الضالة ، دعاية فصل الدين عن السياسة ، والثقافة الدينية عن الثقافة المدنية ،

وقوانين العدل ودساتير الحكم عن مقررات العقيدة وشعائر العبادة! وهي أخبث الدعوات وأفسقها فيما نعلم!

ولئن صحَّ أن يقال هذا في أديانٍ قاصرة عن الوفاء بحاجات الإنسانية في مناحي الإصلاح البشري، فما كان يصحُّ أن يقال هذا في دين الإسلام بحال من الأحوال، لأنه دين عقيدة وعمل، وعبادة وقيادة، وعلم وخلق، وحكم وعدل، ورحمة وحق، ومصحف، وسيف، ودنيا وآخرة!

ومن كان في ريب فليسأل التاريخ عن جليل الآثار التي تركها الحكم الإسلامي الصالح في أتباعه ومن انضوى تحت لوائهم من الأقليات الأجنبية، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم الطائفية.

بل ليسألوا العالم وأحداه، والدهر وتصاريفه: أي الحكيم كان أنجح في تربية الأفراد، وأنجح في إصلاحات الجماعات، وأهدى سبيلاً في الاعتدال والاستدلال؟ أحكم السماء أم حكم الأرض؟ وقانون الخالق أم قوانين الخلق؟ وتشريع العليم الحكيم المنزه عن الغرض والهوى، أم تشاريع الإنسان القاصر النظر والاطلاع، المتأثر بطغيان الغرائز وجسوح القوى؟ « وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُ أَنْ مَا يُدْعَى اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ \* أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟ »

وإن لم يكفهم هذا فليسألوا المنصفين من مشاهير الغرب، كغوستاف لوبون الفرنسي وبرناردشو الانجليزي، وأمثالهما من الذين درسوا الإسلام وبحوثه، ثم حكموا له وأنصفوه، وأطروه وامتدحوه. « والفضل ماشهدت به الأعداء! »

ولنمسك القلم عن الجولان في هذا الميدان، فالكلمة هنا للتصدير والتنوير، لا للمقارنة والتنظير. وحسبنا أن نردّد قول الشاعر العربي :

« ملكنا فكان العفو منا سجيةً      فلما ملكتم سال بالدم أبطحُ »  
« فحسبكو هذا التفاوتُ بيننا      وكلُّ إناءٍ بالذى فيه ينضحُ »

خامسها: أن أنفخ الروح من بوق هذا الكتاب في الكرام القارئين، لاسيما حلالي الأعراء الذين هم على وشك النزول إلى ميادين الدعوة والإرشاد، فأوقظهما أخاف أن تكون قد نامت، وأحي عزائم معاذ الله أن تكون قد ماتت. والروح هي كل شيء! هي القوة الدافعة، وهي الحياة الرائعة! والروح الصحيحة لا توجد إلا في القرآن بل الروح الصحيحة هي القرآن! « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا! إِنْ إِسْلَامَ لَا يَرِيدُ مِنَ الْمَسْلُومِ وَلَا يُرِضِي لَهُ أَنْ يَكُونَ هَيْكَلًا جَامِدًا، وَلَا أَنْ يَكُونَ مِثْلًا هَامِدًا، فَإِنَّ إِسْلَامَ عَدُوٌّ الْهَيْكَلِ وَالْجَمُودِ، خَصِيمُ التَّمَائِيلِ وَالْهَمُودِ.

إنما يريد الإسلام أن يكون المسلم روحاً يبعث الروح، وحياةً مملأً الدنيا حياة، ورسولاً من رسل السلام والرحمة والنجاة! أجل. ويريد الإسلام أن يكون أهل العلم من أتباعه أصحاب هم علمية، ونفوس أبية، لا يشترن بعهد الله ثمناً قليلاً، ولا يريدون بعلمهم عرض هذا الأدنى. إنما همهم ورائة الأنبياء في إصلاح العالم؛ وتبليغ دعوة الإسلام على وجهها لطبقات الخلق، وتنفيذ أحكام الله في الأفضية وسائر شئون الحكم. « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ »!

وهنا في هذه الآية الحكيمة تتجلى رسالة العالم والطالب. ويألها رسالة! ثم يألها أمانة! نسأل الله السلامة والإعانة.

## رجائي

تلك محاولاتى وأهدافى، فإذا كنت قد أصبتها فذلك الفضل من الله، « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ». وإن كانت الثانية فإنما هى نفسى، وأستغفر الله .  
ورجائى من كل ناظر يطلع على عيبٍ أن يدلئى عليه، ويرشدنى إليه . فالدين النصيحة، والمسلمون بخيرٍ ماتعاونوا . وما ينجح سلفنا الصالح وكانوا خير أمة أخرجت للناس إلا بهذه الفضيلة . وإنه ليحلولى أن أقول هنا ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه :  
« رحم الله رجلاً أهدى إلى عيوب نفسى » .

## شكرى

وإلى مدينٍ ببالغ الشكر، وسابغ الحمد، لأولئك السادة الأماجد الذين طوفوا عنقى بجميل معاونتهم وتشجيعهم، وجميل تقريظهم وتقديرهم .  
ولا أزال أحفظ بالإجلال والإكبار، ما لقيته فى هذه المناسبة السعيدة من بعض رجالات الدولة، وكبار العلماء ورؤساء الجماعات الإسلامية، وأصحاب المجلات والصحف اليومية، وإخوانى أبناء الأقطار الشقيقة، خصوصاً الذين عملوا منهم على ترجمة هذا الكتاب ونقله فى دقة وأمانة إلى بعض اللغات الشرقية .  
وأعتذر عن عدم نشر تقاريزهم والتنويه بفضلهم فى هذه المرة، لخلج فى طبعى، وضيق فى طبع الكتاب .

عجل الله الفرجَ للأنام، وأعاد عهد الرخاء واليسر والسلام، وجعل العاقبة للإسلام وبلاد الإسلام « إِنَّ اللَّهَ بِأَلْبَعُ أَمْرِهِ . قَدْ جَمَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » .

المؤلف



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً » ، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالقرآن رحمة للعالمين وفرجاً ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحابه ، وأتباعه ومحبيه وأمه .

أما بعد ، فهذا كتاب « مناهل العرفان في علوم القرآن » . كتبه تحقيقاً لرغبة طلابي المتخصصين في الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية . مستمداً معارفه - بعد فتوح الله وتوفيقه - مما كتب علماء الإسلام قديماً وحديثاً ، في القرآن الكريم وعلومه ، والتفسير ومقدماته ، وعلم تاريخ التشريع ، وعلمي الكلام والأصول ، وعلوم اللغة العربية ومعالجتها ، وعلمي الفلسفة والاجتماع ، وعلمي النفس والأخلاق ، وبعض البحوث المنثورة هنا وهناك ، في غضون الرسائل والمجلات ، من عربية صميمة ، و مترجمة منقولة .

وإلى الله تعالى أضرع ، أن يكتب لي فيه النجاح والتوفيق والقبول ، وأن يحقق به النفع المرجو والأثر المأمول . « إِنَّ رَبِّي أَسْمِيعُ الدُّعَاءِ » .

## مقدمة

في القرآن وعلومه ومنهجي في التأليف

القرآن الكريم : كتاب ختم الله به الكتب، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء، بدين عام خالد ختم به الأديان .

فهو دستورُ الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض ، أنهى إليه مُنزله كلَّ تشريع ، وأودعه كلَّ نهضة ، وناط به كلَّ سعادة .  
وهو حجة الرسول وآيته الكبرى : يقوم في فم الدنيا شاهداً برسالته، ناطقاً بنبوته ، دليلاً على صدقه وأمانته .

وهو ملاذ الدين الأعلى : يستند الإسلامُ إليه في عقائده وعباداته، وحكمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه ، وقصصه ومواعظه ، وعلومه ومعارفه . !

وهو عماد لغة العرب الأسمى : تدين له اللغة في بقائها وسلامتها، وتستمدُّ علومها من على تنوعها وكثرتها ، وتفوق سائر اللغات العالمية به في أساليبها ومادتها .

وهو - أولاً وآخرأ - القوة المحوِّلة التي غيرت صورة العالم ، ونقلت حدود الممالك ، وحوّلت مجرى التاريخ ، وأنقذت الإنسانية العائرة ، فكأنما خلقت الوجود خلقاً جديداً . !

لذلك كله ، كان القرآنُ الكريم موضعَ العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته ، ومن سلف الأمة وخلقها جميعاً إلى يوم الناس هذا .

وقد اتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة ، فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه ، وأخرى إلى أسلوبه وإيجازه ، وثالثة إلى كتابته ورسمه ، ورابعة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك .

ولقد أفرد العلماء كل ناحية من هذه النواحي بالبحث والتأليف ، ووضعوا من أجلها العلوم ودوتوا الكتب ، وتباروا في هذا الميدان الواسع أشواطاً بعيدة ، حتى زخرت المكتبة الإسلامية بثرات مجيد من آثار سلفنا الصالح ، وعلمائنا الأعلام . وكانت هذه الثروة ولا تزال مفخرة تتحدى بها أمم الأرض ، ونفعم بها أهل الملل والنحل في كل عصر ومصر !

وهكذا أصبح بين أيدينا الآن مصنغات متنوعة ، وموسوعات قيّمة ، فيما نسميه علم القراءات ، وعلم التجويد ، وعلم النسخ العثماني ، وعلم التفسير ، وعلم النسخ والنسخ ، وعلم غريب القرآن ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم إعراب القرآن ، وماشا كل ذلك من العلوم الدينية والعربية ، مما يعتبر بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب ، وبات هذا المظهر معجزة جديدة مصدّقة لقوله سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

ولقد أنجبت تلك العلوم الآلفة وليدأً جديداً ، هو مزيج منها جميعاً ، وسليل لها جميعاً ، فيه مقاصدها وأغراضها وخصائصها وأسرارها ، و « الولد سرُّ أبيه » .

وقد أسموه ( علوم القرآن ) وهو موضوع دراستنا في هذا الكتاب إن شاء الله . وسأحاول فيما أكتبه أن أمزج بين حاجة الأزهريين إلى البحث والتحليل ، وبين رغبات جماهير القراء المعاصرين في تقريب الأسلوب وتعبيد السبيل ، ما وسعني الإمكان . وسأضطر بسبب ذلك إلى شيء من الإسهاب والتطويل ، ولسكنها تضحية ضئيلة بجانب تأدية رسالتنا في وجوب الاتصال الديني بالجاهير .

وسأعرض - بعون الله وتأيمده - لعلاج الشبهات التي أطلق بخورها أعداء الإسلام ، وسددوا سهامها الطائشة إلى القرآن ، ولكن عند المناسبة وسنوح الفرصة .

وسأجتزى في كل مبحث ببعض أمثلة من القرآن الكريم ، دون أن أحاول ما حاوله سلف الكتابين من استيعاب كل فرد لكل نوع ؛ فإن حبل ذلك طويل وثقيل ، على حين أن الناظر يكفيه الإيضاح بقليل من التمثيل .  
وسأجعل نقاط المنهج المقرر عناوين بارزة بين المباحث التي يقوم عليها هذا الكتاب مقتفياً في الغالب أثر تلك النقاط في التسمية وفي الترتيب . « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » .

## المبحث الأول

### في معنى علوم القرآن

①

بقتضينا منهج البحث التحليلي لهذا المركب الإضافي ، أن نتحدث عن طرفيه ، وعن الإضافة بينهما ، ثم عن المراد بهذا المركب بعد نقله وتسمية هذا الفن المدون به .  
(١) أما العلوم : فجمع علم ، والعلم في اللغة مصدر يرادف الفهم والمعرفة ؛ ويرادف الجزم أيضاً في رأى . ثم تداولت هذا اللفظ اصطلاحات مختلفة :  
فالحكماء : يريدون به صورة الشيء الحاصلة في العقل ، أو حصول الصورة في العقل ، أو تعلق النفس بالشيء على جهة انكشافه . والتحقيق عندهم هو الإطلاق الأول .  
( والمتكلمون : يعرفون العلم : بأنه صفة يتجلى بها الأمر لمن قامت به ) ، وهو مراد من قال منهم : « إنه صفة توجب لحلها تمييزاً لا يَحْتَمِلُ النقيض » ولو كان هذا التمييز بوساطة الحواس كما هو رأى الأشعري .

( ويطلق العلم في لسان الشرع العام : على معرفة الله تعالى وآياته ، وأفعاله في عباده وخلقه ) قال الإمام الغزالي في الإحياء : « قد كان العلم يطلق على العلم بالله تعالى وآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، فتصرفوا فيه بالتخصيص حتى اشتهر في المناظرة مع الخصوم

في المسائل الفقهية وغيرها . ولكن ماورد في فضل العلم والعلماء أكثره في المعنى الأول « اه وهو يفيد أن العلم الشرعي الخاص يطلق على أخص من هذا الذي ذكره الغزال في لسان الشرع العام ، ولكن بحسب ما يقتضيه المقام . بل لقد نص الغزالي نفسه في الإحياء أيضاً على أن الناس اختلفوا في العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ، وقال : إنهم تفرقوا فيه إلى عشرين فرقة . ثم ذهب إلى أن المراد به علم المعاملة الشامل لما يصلح الظاهر من عبادات وعبادات إسلامية ، ولما يصلح الباطن من عقائد الإسلام وأخلاقه .

والماديون : يزعمون أن العلم ليس إلا خصوص اليقينيات التي تستند إلى الحسّ وحده . وسنناقش مذهبهم في مبحث نزول القرآن .

ولسنا بسبيل بيان تلك الاصطلاحات الآفة الذكر ، فلها علومها وكتبها ومباحثها ، إنما هو عرض عام ، يعرف منه كيف أن لفظاً واحداً - هو العلم - أنه كته الاصطلاحات المتعددة ، وتداولته النقول المتنوعة ، فلا تقعن في لبس إذا ورد عليك في صورة شبه متعارضة .

### العلم في عرف التدوين العام :

والذي يعيننا كثيراً هو العلم في اصطلاح آخر ، هو اصطلاح علماء التدوين ؛ لأننا بصدد الكلام في علوم القرآن كفنّ مدون .

( قالوا : يطلق العلم على المسائل المصبوطة بجهة واحدة ) والغالب أن تكون تلك المسائل نظرية كلية ، وقد تكون ضرورية ، وقد تكون جزئية . أقول : وقد تكون شخصية أيضاً كمسائل علم الحديث رواية ، فإنها في الواقع قضايا شخصية موضوعها ذات النبي ﷺ .

وقال السمد في « المقاصد » وعبد الحكيم على المطول : ما يفيد أن العلم المدون قد يطلق على طائفة من التصورات ، أي المفردات التي يتصورها العقل مضبوطة بجهة واحدة . وأقول : يمكن أن نستخلص من ذلك كلاً أن العلم في عرف التدوين العام يقال على المعلومات المنضبطة بجهة واحدة سواء كانت وحدة الموضوع أم وحدة الغاية ؛ وسواء

أ كانت تلك المعلومات تصورات كعلم البديع ، أم تصديقات . وسواء أ كانت تلك التصديقات قضايا كاية - وهو الغالب - أم جزئية أم شخصية كعلم الحديث رواية .

هذا كله إطلاق واحد من إطلاقات ثلاثة لعلماء التدوين . والإطلاق الثاني عندهم :

( هو الإدراك أى إدراك تلك المعارف السالفة ) والإطلاق الثالث : هو على ما يسمونه ملكة الاستحصاى أى التى تستحصل بها تلك المعارف . أو ملكة الاستحضار أى التى تستحضر بها المعارف بعد حصولها . وأول هذه الإطلاقات هو أولها بالقبول لأنه المتبادر من نحو قولهم : « تعلمتُ علماً من العلوم ، وموضوع العلم كذا » والتبادر كما يقولون - أمانة الحقيقة . ذلك ما أردنا بسطه فى الكلام على لفظ « علوم » من قولنا : « علوم القرآن » .

( ٢ - أما لفظ القرآن : فهو فى اللغة مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى : « إن

عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ ، من باب إطلاق المصدر على مفعولاه .

ذلك ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة ، وقوانين الاشتقاق ، وإليه ذهب اللحياني وجماعة . أما القول بأنه وصف من القرء بمعنى الجمع ، أو أنه مشتق من القرائن . أو أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء ، أو أنه مرتجل أى موضوع من أول الأمر علماً على الكلام المعجز المنزل ، غير مهموز ولا مجرد من أل ، فكل أولئك لا يظهر له وجه وجيه ، ولا يخلو توجيه بعضه من كلفة ، ولا من بعد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة .

وعلى الرأى المختار فلفظ قرآن مهموز ؛ وإذا حذف همزه ، فإنما ذلك للتخفيف ،

وإذا دخلته « أل » بعد التسمية فإنما هى للمح الأصل لا للتعريف

( ويقال للقرآن : فرقان أيضاً ، وأصله مصدر كذلك ، ثم سمي به النظم الكريم ،

تسمية للمفعول أو الفاعل بالمصدر ، باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق

بعضه عن بعض في النزول ، أوفى السور والآيات . قال تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ  
الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » ثم إن هذين الاسمين هما أشهر أسماء  
الفظم الكريم . بل جعلهما بعض المفسرين مرجع جميع أسمائه ، كما ترجع صفات الله على  
كثرتها إلى معنى الجلال والجمال . وبلى هذين الاسمين في الشهرة : هذه الأسماء الثلاثة :  
الكتاب ، والذكر والتزليل . وقد تجاوز صاحب البرهان حدود القسمية ، فبلغ بعدها  
خسة وخسين ، وأسرف غيره في ذلك حتى بلغ بها نيفاً وتسعين ، كما ذكره صاحب  
التبيان . واعتمد هذا وذلك على إطلاقات واردة في كثير من الآيات والسور ، وفاتهما  
أن يفرقا بين ما جاء من تلك الألفاظ على أنه اسم ، وما ورد على أنه وصف ، ويتضح  
ذلك لك على سبيل التمثيل ، في عدما من الأسماء ، لفظ « قرآن » ولفظ « كريم » أخذاً  
من قوله تعالى « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » كما عدّا من الأسماء لفظ « ذكر » ولفظ « مبارك »  
اعتماداً على قوله تعالى : « وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ » على حين أن لفظ قرآن وذكر  
في الآيتين ، مقبول كونهما اسمين . أما لفظ كريم ومبارك ؛ فلاشك أنهما وصفان كاترى .  
والخطب في ذلك سهل يسير ، بيد أنه مسهب طويل ، حتى لقد أفردوه بعضهم بالتأليف .  
وفيا ذكرناه كفاية « وَكَلَى اللَّهُ قَصْدُ السَّبِيلِ » .

### القرآن في الاصطلاح

معلوم أن القرآن كلام الله ، وأن كلام الله غير كلام البشر ، ما في ذلك ريب .  
ومعلوم أيضاً أن الإنسان له كلام ، قد يراد به المعنى المصدرى ، أى التكلم ، وقد يراد  
به المعنى الحاصل بالمصدر ، أى المتكلم به . وكل من هذين المعنيين : لفظى ونفسى .  
فالكلام البشرى اللفظى بالمعنى المصدرى : هو تحريك الإنسان للسانه وما يساعده في  
إخراج الحروف من الخارج . والكلام اللفظى بالمعنى الحاصل بالمصدر : هو تلك الكلمات

المنطوقة ، التي هي كيفية في الصوت الحسى ، وكلا هذين ظاهر لا يحتاج إلى توضيح .  
أما الكلام النفسى بالمعنى المصدرى ، فهو تحضير الإنسان في نفسه بقوته المتكلمة الباطنة ،  
الكلمات التي لم تبرز إلى الجوارح ؛ فيتكلم بكلمات متخيلة يرتبها في الذهن بحيث إذا  
تلفظ بها بصوت حسى كانت طبق كلماته اللفظية . والكلام النفسى بالمعنى الحاصل  
بالمصدر : هو تلك الكلمات النفسية والألفاظ الذهنية المترتبة ترتيباً ذهنياً منطبقاً عليه  
الترتب الخارجى .

ومن الكلام البشرى النفسى بنوعيه قوله تعالى : « فَاسْرَّهَا يُوَسَّفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ  
يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ : أَنَسَمُ شَرًّا مَكَانًا » . ومنه الحديث الشريف الذى رواه الطبرانى  
عن أم سلمة أنها سمعت رسول الله ﷺ وقد سأله رجل فقال : « إِنِّي لِأُحَدِّثُ نَفْسِي  
بِالشَّيْءِ لَوْ تَكَلَّمْتُ بِهِ لِأُحْبَطُ أُجْرِي » فقال عليه السلام : « لَا يَلْقَى ذَلِكَ الْكَلَامَ  
إِلَّا مُؤْمِنٌ » فانت ترى أن النبى ﷺ سَمَّى ذلك الشئ الذى تحدثت به النفس كلاماً ،  
مع أنه كلمات ذهنية لم ينطق بها الرجل مخافة أن يحبط بها أجره . وهذا الإطلاق من  
الرسول يحمل على الحقيقة لأنها الأصل ولا صارف عنها .

كذلكم القرآن كلام الله - والله المثل الأعلى - قد يطلق ويراد به الكلام النفسى ،  
وقد يطلق ويراد به الكلام اللفظى . والذين يطلقونه إطلاق الكلام النفسى هم المتكلمون  
فحسب ، لأنهم المتحدثون عن صفات الله تعالى النفسية من ناحية ، والمقررون لحقيقة  
أن القرآن كلام الله غير مخلوق من ناحية أخرى . أما الذين يطلقونه إطلاق الكلام  
اللفظى ، فالأصوليون والفقهاء وعلماء العربية ، وإن شاركهم فيه المتكلمون أيضاً ،  
بإطلاق ثالث عندهم كما يقين لك بعد . وإنما عني الأصوليون والفقهاء بإطلاق القرآن  
على الكلام اللفظى ، لأن غرضهم الاستدلال على الأحكام وهو لا يكون إلا بالألفاظ .  
وكذلك علماء العربية يعينهم أمر الإعجاز ، فلا جرم كانت وجهتهم الألفاظ .



والمتكلمون يُعْنَوْنَ أيضاً بتقرير وجوب الإيمان بكتب الله المنزلة ومنها القرآن ،  
وبإثبات نبوة الرسول ﷺ بمعجزة القرآن . وبدهى أن ذلك كله مناطه الألفاظ ، فلا  
يدع أن ساهموا في هذا الإطلاق الثالث .

### القرآن عند المتكلمين

ثم إن المتكلمين حين يطلقونه على الكلام النفسى يلاحظون أمرين :  
( أحدهما : أن القرآن علم أى كلام ممتاز عن كل ما عداه من الكلام الإلهى .  
ثانيهما : أنه كلام الله ، وكلام الله قديم غير مخلوق ، فيجب تنزهه عن الحوادث  
وأعراض الحوادث )

وقد علمت أن الكلام النفسى البشرى يطلق بإطلاقين أحدهما : على المعنى المصدرى  
وثانيهما على المعنى الحاصل بالمصدر . فكذلك كلام الله النفسى . يطلق بإطلاقين أحدهما :  
على نظير المعنى المصدرى للبشر . وثانيهما : على نظير المعنى الحاصل بالمصدر للبشر . وإنما  
قلنا (على نظير) لما هو مقرر من وجوب تنزه الكلام الإلهى النفسى عن الخلق وأشباه  
الخلق . فعرفوه بالمعنى الأول الشبيه بالمعنى المصدرى البشرى . وقالوا : « إنه الصفة  
القديمة المتعلقة بالكلمات الحكيمية . من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس » .

وهذه الكلمات أزلية مجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية . وهى مترتبة  
غير متعاقبة . كالصورة تنطبع فى المرآة مترتبة غير متعاقبة . وقالوا فى تعريفهم هذا :  
إنها حكيمية لأنها ليست ألفاظاً حقيقية مصورة بصورة الحروف والأصوات . وقالوا :  
إنها أزلية ، ليتها لها معنى القدم . وقالوا : إنها مجردة عن الحروف اللفظية والذهنية  
والروحية لينفوا عنها أنها مخلوقة . وكذلك قالوا : إنها غير متعاقبة ، لأن التعاقب يستلزم  
الزمان ، والزمان حادث . وأثبتوا لها الترتب ، ضرورة أن القرآن حقيقة مترتبة بل بمقارزة  
بكمال ترتبها وانسجامها .

إذا عرفت هذا الإطلاق الأول عند المتكلمين ، سهل عليك أن تعرف إطلاقهم الثاني للقرآن الكريم (وهو أنه تلك الكلمات الحكيمية الأزلية المترتبة في غير تعاقب الحروف المجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية . وهو تعريف للقرآن كلام الله بما يشبه المعنى الحاصل بالمصدر لكلام البشر النفسى . ذانك إطلاقان اختص بهما للتكلمون كما رأيت .

وهناك إطلاق ثالث للقرآن يقول به المتكلمون أيضاً لكن يشاركون فيه الأصوليون والفقهاء وعلماء العربية . ذلك أنه هو :  
أولاً لك « اللفظ المنزل على النبي ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس » المتماز بخصائصه التي سنذكرها بعد قليل .

فهو مظاهر وصور لتلك الكلمات الحكيمية الأزلية ، التي أشرنا إليها آنفاً .  
ويطلق القرآن إطلاقاً رابعاً على النقوش المرقومة بين دفتي المصحف ، باعتبار أن النقوش دالة على الصفة القديمة ، والكلمات الغيبية ، واللفظ المنزل . وهذا إطلاق شرعى عام . ولنضرب لك مثلاً بوضح ذلك المقام الذى ضلّت فيه الأفهام ، وزلّت فيه الأقدام .

رجل شاعر ، كشرف الدين البوصيرى - رحمه الله - لا ريب أنه كان يحمل في نفسه قوّة شاعرة ، يستطيع أن يصوغ بها ما شاء من غرر القصائد ، وعندما اتجهت شاعريته فعلاً ، أن يمتدح أفضل الخليفة صلوات الله وسلامه عليه بقصيدته المعروفة بالهمزية ، لا شك أنه عاجل النظم في نفسه ، واستحضر المعانى والألفاظ والأوزان ، حتى تمثل له ذلك القصيد في نفسه وتأثرت نفسه به ، على وجه إذا تكلم به بصوت حسى كان عين نظمه المتقى الموزون . ثم لاشك أنه نطق بقصيده بعد ، ثم كتبه بعد أن أنشده . فهذا الاسم الشهير بالهمزية في مدح خير البرية ، يمكن أن تقرب

به الإطلاقات الأربعة التي أطلقنا بها القرآن الكريم : يصح أن نطلق المهرزية على القوة الشاعرة لذلك الرجل باعتبار اتجاهها إلى هذا النظم الخاص ، الذي تمثل في نفسه من قبل أن يأخذ صورة اللفظ والنقش . ويصح أن نطلقها على هذا النظم الخاص ، الذي تمثل في نفسه من قبل أن يظهر بمظهر الألفاظ والنقوش كذلك . ويصح أن نطلقها على هذا النظم بعد أن تمثل أصواتاً ملفوظة وحروفاً موزونةً . ويصح أن نطلقها على هذا النظم متمثلاً في صورته المرسومة ، ونقوشه المكتوبة .

### القرآن عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية

أظنى قد أطلت عليك ولكن المقام دقيق وخطير ، فلا تضق ذرعاً بهذا التطويل والتمثيل ، ثم استمع لما وعدتك إياه من بيان (معنى القرآن على أنه اللفظ المنزل على النبي ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس) هذا الإطلاق كما علمت — ينسب إلى علماء الأصول والفقه واللغة العربية . ويوافقهم عليه المتكلمون أيضاً . غير أن هؤلاء الذين أطلقوه على اللفظ المنزل الخ اختلفوا في تعريفه : فمنهم من أطل في التعريف وأطنب ، بذكر جميع خصائص القرآن الممتازة . ومنهم من اختصر فيه وأوجز . ومنهم من اقتصد وتوسط . فالذين أطنبوا عرفوه (بأنه الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ ، المكتوب في المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته) وأنت ترى أن هذا التعريف جمع بين الإعجاز ، والتنزيل على النبي ﷺ ، والكتابة في المصاحف ، والنقل بالتواتر ، والتعبد بالتلاوة . وهي الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم . وإن كان قد امتاز بكثير سواها . ولا يخفى عليك أن هذا التعريف كان يكفي فيه ذكر بعض تلك الأوصاف ويكون جامعاً مانعاً ، غير أن مقام التعريف مقام إيضاح وبيان ، فيناسبه الإطناب لغرض زيادة ذلك والبيان . لذلك استباحوا لأنفسهم أن يزيدوا فيه ويسهبوا .

والذين اختصروا وأوجزوا في التعريف : منهم من اقتصر على ذكر وصف

واحد هو الإيجاز . ووجهة نظرهم في هذا الاختصار أن الإيجاز هو الوصف الذاتي للقرآن .  
وأنه الآية الكبرى على صدق النبي ﷺ ، والشاهد العدل على أن القرآن كلام الله .  
ومنهم من اقتصر على وصفين : هما الإنزال والإيجاز ، وحجتهم أن ما عدا هذين  
الوصفين ليس من الصفات اللازمة للقرآن . بدليل أن القرآن قد تحقق فعلاً بهما دون  
سواهما على عهد النبوة .

ومنهم من اقتصر على وصفي النقل في المصاحف والتواتر ، لأنهما يكفيان في تحصيل  
الغرض ، وهو بيان القرآن وتمييزه عن جميع ما عداه .

والذين توسطوا : منهم من عرض لإنزال الألفاظ ، وللكتاب في المصاحف والنقل  
بالتواتر فحسب ، موجهاً رأيه بأن المقصود هو تعريف القرآن لمن لم يدركه زمن النبوة ،  
وأن ما ذكره من الأوصاف هو من اللوازم البينة لأولئك الذين لم يدركوها ، بخلاف  
الإيجاز فإنه غير بين بالنسبة لهم ، وليس وصفاً لازماً لما كان أقل من سورة من القرآن .  
ومن أولئك الذين توسطوا من عرض للإنزال والنقل بالتواتر والتعبد بالتلاوة فقط ،  
مستنداً إلى أن ذلك هو الذي يناسب غرض الأصوليين . وعرفوه بأنه : (اللفظ المنزل على  
النبي ﷺ ، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبد بتلاوته) فاللفظ جنس في التعريف ، يشمل المفرد  
والمركب . ولا شك أن الاستدلال على الأحكام كما يكون بالمركات يكون بالمفردات ،  
كالعام والخاص والمطلق والتقييد . وخرج بالمنزل على النبي ﷺ ما لم ينزل أصلاً مثل  
كلامنا ، ومثل الحديث النبوي ، وما نزل على غير النبي ﷺ كالتوراة والإنجيل . وخرج  
بالمنفرد تواتراً جميع ما سوى القرآن من منسوخ التلاوة والقراءات غير المتواترة ، سواء  
أ كانت مشهورة نحو قراءة ابن مسعود « متتابعات » عقيب قوله تعالى « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ  
فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » أم كانت آحادية كقراءة ابن مسعود أيضاً لفظ « مُتَتَابِعَاتٍ » عقيب  
قوله سبحانه « وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » فإن شيئاً

من ذلك لا يسمى قرآناً، ولا يأخذ حكمه . وخرجت الأحاديث القدسية إذا تواترت بقولهم « المتعبد بتلاوته » .

✕

### هل القرآن علمٌ شخص ؟

أسلفنا أن القرآن يطلق على الصفة القديمة ، ويطلق على الكلمات الحكمية الأزلية ، وهذان الإطلاقان لا تعدد فيهما ألبتة ، لا حقيقة ولا اعتباراً . بل هما منزهان عنه ، لأن التعدد من أمارات الحدوث . كيف وهما قديمان ؟

وإذا فلفظ القرآن علم شخص بهذين الإطلاقين لا محالة . أما إذا أريد بالقرآن « اللفظ المنزل » فهنا يكون الخلاف . فالرأي السائد أنه علم شخص ، مدلوله تلك الآيات للنزلة المتأخرة بخصوصها العليا من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس . وهذه الألفاظ المعينة لا يقدر في تشخيصها اختلاف المتلفظين ولا تعدد القارئ ، كما لا يقدر في تشخيص محمود مثلاً أن يكون في مكة أو في المدينة ، ولا أن يتقلب في أطوار مختلفة من طفولة إلى شيخوخة ، ومن صحة إلى مرض ، ومن حياة إلى موت ، ونحو ذلك . وبمضمون يجعله علم جنس ، نظراً إلى تعدد هذه الألفاظ المنزلة بتعدد قارئها وكتابتها . وهذا مردود من وجهين :

أحدهما : أن علم الجنس ضرورة نحوية اقتضتها أحكام لفظية ، كما متناع إضافته ، ودخول أل عليه . ولا ضرورة هنا لفظية .

ثانيهما : أن علم الجنس نكرة في المعنى . وأفراده منتشرة متعددة حقيقة لا اعتباراً . والتعدد الملحوظ هنا اعتباري لا حقيقي . للقطع بأن ما يقرؤه أو يكتبه كل منا فهو القرآن عينه لا فرد من أفراده .

### هل يُصاغ للأعلام تعاريف

بقي علينا أن نتساءل : إذا كان القرآن علماً فكيف صاغ أن يُصاغ له تعريف

بل تعاريف على نحو ماسبق؟ مع أن التعاريف لا تكون إلا للكليات، والعلْم جزئي مركب من الماهية ومشتخصاتها. والمشتخصات لا يمكن معرفتها إلا بالاطلاع عليها بالحواس كالإشارة مثلا، أو بالتعبير عنها باسم علم؟  
ولنا على ذلك أجوبة ثلاثة :

أولها : أنا نمنع أن التعاريف لا تكون إلا للكليات . لم لا يجوز أن تعرف الجزئيات بأموركلية لا يتحقق مجموعها في الخارج إلا في هذا الشخص بخصوصه . وهذا الجواب قريب مما ذكره صاحب التلويح؛ إذ قال : « الحق أن الشخص يمكن أن يُحدَّ بما يفيد امتيازَه عن جميع ما عداه بحسب الوجود ، لا بما يفيد تعينه وتشخصه بحيث لا يمكن اشتراكه بين كثيرين بحسب العقل . فإن ذلك إنما يحصل بالإشارة لا غير » اهـ .

ثانيها : أنا نسلم أن التعاريف لا تكون إلا للكليات . لكن ما ذكره ليس بتعريف حقيقى إنما هو ضابط مميز ، وليس بمعرّف .

ثالثها : أن هذا تعريف على رأى الأصوليين الذين لا يشترطون في التعاريف أجناساً ولا فصولاً . بل الحد عندهم هو الجامع المانع مطلقاً . وعليه فيصح أن يحد الشخص عند الأصوليين دون المناطقة .

### إطلاق القرآن على الكل وعلى أبعاضه

لاشك أن القرآن يطلق على الكل وعلى أبعاضه . فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله : إنه قرأ قرآنًا . وكذلك يقال لمن قرأ ولو آية منه : إنه قرأ قرآنًا . لكنهم اختلفوا : فقيل : إن لفظ قرآن حقيقة في كل منهما ، وإذاً يكون مشتركاً لفظياً . وقيل : هو موضوع للقدر المشترك بينهما ، وإذاً يكون مشتركاً معنوياً ، ويكون مدلوله حينئذ كلياً .

وقد يقال : إن إطلاقه على الكل حقيقة وعلى البعض مجاز . والتحقيق أنه مشترك لفظي ، بدليل التبادر عند إطلاق اللفظ على الكل وعلى البعض كليهما ، والتبادر أمانة الحقيقة . والقول بعلمية الشخص فيه كما حققنا آنفا يمنع أنه مشترك معنوي ، فتمين أن يكون مشتركاً لفظياً . وهو ما يفهم من كلام الفقهاء إذ قالوا مثلاً : ( يحرم قراءة القرآن على الجنب ) فإنهم يقصدون حرمة قراءته كله أو بعضه على السواء .

### ٣ — معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافي

الآن وقد انتهينا من الكلام على المتضامين في لفظ « علوم القرآن » نتقل بك إلى أن الإضافة بينهما تشير إلى طوائف المعارف المتصلة بالقرآن سواء أكانت تصورات أم تصديقات ، على ما عرفت وجه اختياره في مدلول لفظ العلم في عرف التدوين العام . وإنما جمعت هذه العلوم ولم تفرد لأنه لم يقصد إلى علم واحد يتصل بالقرآن . وإنما أريد شمول كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه . وينتظم ذلك علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الرسم العثماني ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم أسباب النزول ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم إعراب القرآن ، وعلم غريب القرآن ، وعلوم الدين واللغة إلى غير ذلك . وتلك أشتات من العلوم توسع السيوطي فيها حتى اعتبر منها علم الهيئة والهندسة والطب ونحوها . ثم نقل عن أبي بكر بن العربي في قانونه التأويل أنه قال : « علوم القرآن ٧٧٤٥٠ خمسون وأربعمائة وسبعة آلاف وسبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة . إذ أن لكل كلمة ظهراً وبطناً ، وحداً ومطلماً . هذا في المفردات فحسب . أما إذا اعتبرت التراكيب وما بينها من روابط كان ما لا يحصى ، مما لا يعلمه إلا الله تعالى » اهـ بتصرف قليل .

وأحب أن تعرف أن هذا الكلام من السيوطي وابن العربي ، محمول على ضرب

كبير من التأويل والتوسع ، بأن يراد من العلوم كل ما يدل عليه القرآن من المعارف ، سواء أكانت علوماً مدوّنة أم غير مدوّنة ، وسواء أكانت تلك الدلالةً تصرّحية أم تلميحية ، عن قرب أم عن بعد . فأما أن تُراد العلوم المدوّنة صراحة فدون ذلك خرط التقاد وصعود السماء .

### القرآن كتاب هداية وإعجاز

وتحقيق القول في هذا الموضوع : أن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز ، من أجل هذين المصطلحين نزل ، وفيهما تحدّث ، وعليهما دلّ . فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته ، أو يتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه ، فذلك من علوم القرآن - وهذا ظاهر في العلوم الدينية والعربية .

أما العلوم الكونية ، وأما المعارف والصناعات ، وما جدّ أو يحدّ في العالم من فنون ومعارف كعلم الهندسة والحساب ، وعلم الهيئة والفلك ، وعلم الاقتصاد والاجتماع ، وعلم الطبيعة والكيمياء ، وعلم الحيوان والنبات ، فإن شيئاً من ذلك لا يحمل عدّه من علوم القرآن ؛ لأن القرآن لم ينزل ليُدلّل على نظريةٍ من نظريات الهندسة مثلاً ، ولا ليقرّر قانوناً من قوانينها . وكذلك علم الهندسة لم يوضع ليخدم القرآن في شرح آياته ، أو بيان أسرارها . وهكذا القول في سائر العلوم الكونية والصناعات العالمية . وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلمها وحذقها والتمهّز فيها خصوصاً عند الحاجة إليها . وإنما قلنا : إنه لا يحمل اعتبار علوم الكون وصناعاتها من علوم القرآن مع أن القرآن يدعو إلى تعلمها ؛ لأن هناك فرقاً كبيراً بين الشيء يحثُّ القرآن على تعلمه في هوماته أو خصوصاته ، وبين العلم يدلُّ القرآن على مسائله أو يرشده إلى أحكامه ، أو يكون ذلك العلم خادماً للقرآن بمسائله أو أحكامه أو مفرداته . فالأول ظاهر أنه لا يعتبر من علوم القرآن بخلاف الثاني . وهو ما يزيد أن نرشده إليه ، وأن نحرص أنت بدورك عليه .



## القرآن يحضُّ على الانتفاع بالكون

أجل: إن القرآن حضَّ على معرفة علوم الكون وصنائع العالم، وحثَّ على الانتفاع بكل ما يقع تحت نظرنا في الوجود. قال سبحانه وتعالى «قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» وقال جلَّتْ حكيمته «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَائِنَ السَّمَوَاتِ وَمَائِنَ الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطبون بهذا أن يفرِّقوا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهدوا في علوم الكون، ولا أن يجرموا أنفسهم فوائد التمتع بشيرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله خلقه، في خزائن سمواته وأرضه. ولهذا نصَّ علماؤنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية، وحقق هذه الصناعات الفنية، فرضٌ من فروض الكفايات، ماداموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع. وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح، والحياة في هذا الوجود للسلام المسلح، والأسلحة في كل عصر عامَّة وفي هذا العصر خاصَّة إنما تقوم على التمهُّر في العلوم وعلى السبق في حلبة الصناعات والفنون. والويل فينا للضعيف، والحظ كلُّ الحظ للقوى، والله تعالى يقول: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»، والنبى ﷺ يقول فيما رواه مسلم عن أبي هريرة: المؤمنُ القوىُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف، وفي كل خيرٍ. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان.»

## إعجاز علمي للقرآن

وأحبُّ ألا أنتهى من هذا الموضوع حتى أنبهك إلى شيء آخر جدير بالنظر والتقدير: وهو أن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم، وفتح عيونهم إلى الكون ومافي الكون من سماء وأرض،

وبر وبحر ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ؛ ونواميس وسنن . وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقاً كل التوفيق ، بل كان معجزاً أبهر الإعجاز ؛ لأن حديثه عن تلك الكونيّات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها ، على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رَجُلٌ أُمِّيٌّ ، نشأ في أمة أمية جاهلة ، لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمام لها بكتبتها ومباحثها . بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال . فأتى بكون لرجل أمي كمحمد ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم ؟ قال سبحانه مقررأ لهذا الإعجاز العلمي : « وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » ولعل من الحكمة أن أن نسوق لك نموذجين من القرآن على سبيل التمثيل ؛ أولهما في سورة النور إذ يقول الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَابًا مُمًّا يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » قل لي - بربك - ألا يملكك العجب حين تقرأ هذا النص الكريم الذي يتفق وأحدث النظريات العلمية في الظواهر الطبيعية : من سحاب ، ومطر ، وبرق ، ١٩ .

النموذج الثاني : يقول الله تعالى في سورة القيامة مبيناً ومقررأ كمال اقتداره على إعادة الإنسان وبمته بعد موته : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَهُ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّيَ بَنَانَهُ » . أرجو أن تقف قليلا عند تخصيصه « البنان » بالتسوية في هذا المقام . ثم تستمع بعد ذلك إلى هذا العلم الوليد ( علم تحقيق الشخصية ) في عصرنا الأخير ، وهو يقرر أن أدق شيء وأبدعه في بناء جسم الإنسان ، هو تسوية البنان ، حتى إنه لا يمكن أن تجد بنانا لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال . وقد انتهوا من هذا القرار إلى أن حكموا البنان في كثير من القضايا والحوادث

« فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » ! ولا أريد أن أطيل عليك في هذا ؛ فمعجزات القرآن العلمية لها ميدان آخر . إنما هي نظرة خاطفة نوضح بها المراد بعلوم القرآن ، ونوجه بها كلام السيوطي في الإتيان ، ونعتذر فيها عن ابن العربي في التأويل . والله وحده هو المحيط بأسرار كتابه . ولا يزال الكون وما يحدث في الكون من علوم وفنون وشؤون : لا يزال كل أولئك بشرح القرآن ويقسره ، ويميط اللثام عن نواح كثيرة من أسرارهِ وإعجازهِ ، مصداقاً لقوله جلّ ذكره « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » . « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

٤ — معنى علوم القرآن كفن مدون ، وموضوعه ، وقائده

أما بعد ، فقد تبين لك فيما سبق ، أن لفظ علوم القرآن يراد بمعناه الإضافي ما يشمل العلوم الدينية والعربية ، ونفيك هنا أن هذا اللفظ نقل من ذلك المعنى الإضافي ، ثم جعل علماً على الفن المدون ، وأصبح مدلوله بعد النقل وهو علم ، غير مدلوله قبل النقل وهو مركب إضافي ، ضرورة أن هذا الفن ليس هو مجموعة العلوم الدينية والعربية ، بل هو غيرها ، وإن كان مستمداً منها ، ومأخوذاً عنها ، ويمكن أن نعرفه : بأنه مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله ، وترتيبه ، وجمعه ، وكتابته وقرآته وتفسيره ، وإعجازهِ ، وناسخه ومنسوخه ، ودفع الشبه عنه ، ونحو ذلك .

وموضوعه القرآن الكريم من أية ناحية من النواحي المذكورة في التعريف . بخلاف علوم القرآن بالمعنى الإضافي ، فإن موضوعه هو مجموع موضوعات تلك العلوم المنضوية تحت لوائهِ . وموضوع كل واحد منها هو القرآن الكريم من ناحية واحدة من تلك النواحي . فعلم القراءات مثلاً موضوعه القرآن الكريم من ناحية لفظه وأدائه ، وعلم التفسير موضوعه القرآن الكريم من ناحية شرحه ومعناه ، وهلمَّ جراً .

وقائده هذا العلم : ترجع إلى الثقافة العالية العامة في القرآن الكريم ، وإلى التسلح بالمعارف القيّمة فيه ، استعداداً لحسن الدفاع عن حمى الكتاب العزيز ، ثم إلى سهولة

خوض غمار تفسير القرآن الكريم به كمفتاح للمفسرين ، فمثله من هذا الناحية كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث .

وقد صرح السيوطي بذلك في خطبة كتابه الإتقان إذ قال : « ولقد كنت في زمان الطلب أتعجب من المتقدمين ، إذ لم يدونوا كتاباً في أنواع علوم القرآن ، كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث » ٥١ .

ثم رأيت صاحب كتاب التبيان في علوم القرآن ، يشير إلى ذلك المعنى ؛ إذ وضع على طرّة كتابه الكلمة الآتية :

« وهذا هو المقدمة الصغرى من مقدمتي التفسير » .

هذا - وإتماسمى هذا العلم القرآن ( بالجمع دون الأفراد ) . للإشارة إلى أنه خلاصة علوم متنوعة ، باعتبار أن مباحثه المدوّنة تتصل اتصالاً وثيقاً - كما علمت - بالعلوم الدينية والعلوم العربية ، حتى إنك لتجد كل مبحث منها خليقاً أن يُسلك في عداد مسائل علم من تلك العلوم .

فنسبته إليها كنسبة الفرع إلى أصوله ، أو الدليل إلى مدلوله . وما أشبهه ببقائه منسقة من الورود والياسمين ، إزاء بستان حافل بألوان الزهور والرياحين . « والحمد لله رب العالمين » .

## المبحث الثاني

في تاريخ علوم القرآن وظهور اصطلاحه

عهد ما قبل التدوين

كان الرسول ﷺ وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ، ما عرف العلماء وفوق ما عرف العلماء من بعد . ولكن معارفهم لم توضع على ذلك العهد كفنون مدوّنة ، ولم تجمع في كتب مؤلفة ، لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف .

أما الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فلأنه كان يتلقى الوحي عن الله وحده .  
 والله تعالى كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعه له في صدره ، وليطلقنَّ لسانه بقراءته  
 وترتيله ، ولِيَمِظْنَ له اللثام عن معانيه وأسراره . اقرأ إن شئت قوله سبحانه :  
 « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ  
 قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

ثم بلغ الرسول ما أنزل عليه لأصحابه ، وقرأه على الناس على مُكْتَبٍ أى على  
 مهل وتؤدة ، ليحسنوا أخذه ، ويحفظوا لفظه ، ويفهموا سره . ثم شرح الرسول  
 لهم القرآن بقوله ، وبعمله ، وبتقريره ، وبخلفه ، أى بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله ،  
 وتقريراته ، وصفاته ، مصداقاً لقوله سبحانه « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ  
 مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . ولكن الصحابة وقتئذ كانوا عرباً خلصاً ،  
 متمتعين بجميع خصائص العروبة ومزاياها الكاملة من قوة في الحافظة ، وذكاء في  
 القريحة ، وتدقيق للبيان ؛ وتقدير للأساليب ، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير ، حتى  
 أدركوا من علوم القرآن ومن إعجازه بسليقتهم وصفاء فطرتهم ، ما لا نستطيع نحن أن ندرکه  
 مع زحمة العلوم وكثرة الفنون .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم مع هذه الخصائص أميين ، وأدوات الكتابة  
 لم تكن ميسورة لديهم ، والرسول نهام أن يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن وقال لهم أول  
 العهد بنزول القرآن فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه :  
 « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي . وَمَنْ كَتَبَ غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمِجْهُ . وَحَدِّثُوا عَنِّي فَلَا حَرَجَ . وَمَنْ  
 كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . وذلك مخافة أن يلبس القرآن بغيره ، أو  
 يختلط بالقرآن ما ليس منه ؛ ما دام الوحي نازلاً بالقرآن . فلتلك الأسباب المتضاربة لم  
 تكتب علوم القرآن ، كما لم يكتب الحديث الشريف . ومضى الرعيل الأول على ذلك في عهد  
 الشيخين أبي بكر وعمر . ولكن الصحابة كانوا مضرب الأمثال في نشر الإسلام

وتعاليمه ، والقرآن وعلومه ، والسنة وتحريرها ، تلقيناً لا تدويناً ، ومشافهةً لا كتابةً .

### عهد التمهيد لتدوين علوم القرآن

ثم جاءت خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقد اتسعت رقعة الإسلام ، واختلط العرب الفاتحون بالأُم التي لا تعرف العربية ، وخيف أن تذوب خصائص العروبة من العرب من جراء هذا الفتح والاختلاف ، بل خيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه إن لم يجتمعوا على مصحف إمام ، فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير . لهذا أمر رضى الله عنه أن يجمع القرآن في مصحف إمام ، وأن تُنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام ، وأن يحرق الناس كل ما عداها ولا يعتمدوا سواها . كما يأتيك تفصيله في مبحث جمع القرآن وكتابته .

وبهذا العمل وضع عثمان رضى الله عنه الأساس لما نسميه علم رسم القرآن أو علم الرسم العثماني .

ثم جاء على رضى الله عنه فلاحظ المعجزة تحييف على اللغة العربية ؛ وسمع ما أوجس منه خيفةً على لسان العرب فأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع بعض قواعد لحماية لغة القرآن من هذا العبث والخلل ، وخط له الخطط وشرع له المنهج . وبذلك يمكننا أن نعتبر أن علياً رضى الله عنه قد وضع الأساس لما نسميه علم النحو ، ويقبعه علم إعراب القرآن . (على الخلاف في هذه الرواية) .

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة ، وجاء عهد بني أمية ، وهمة مشاهير الصحابة والتابعين متجهةً إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين ، لا بالكتابة والتدوين . ولكن هذه المهمة في هذا النشر يصح أن نعتبرها تمهيداً لتدوينها . وعلى رأس من ضرب بسهم وفير في هذه الرواية : الأربعة الخلفاء ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير وكلهم من الصحابة رضوان الله عليهم .

وعلى رأس التابعين في تلك الرواية : مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ،  
والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم بالمدينة ، وعنه أخذ ابنه عبد الرحمن  
ومالك بن أنس من تابعى التابعين ، رضى الله عنهم أجمعين . وهؤلاء جميعاً يعقبون أنهم  
واضعو الأساس لما يسمى علم التفسير ، وعلم أسباب النزول ، وعلم الناسخ والمنسوخ ،  
وعلم غريب القرآن ، ونحو ذلك . وستجد بسطاً لهذا الإجمال في بحث طبقات المفسرين .

### عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإضافي

ثم جاء عصر التدوين ، فألفت كتب في أنواع علوم القرآن ، واتجهت المهم قبل  
كل شيء إلى التفسير ، باعتباره أمّ العلوم القرآنية لما فيه من التعرّض لها ، في كثير  
من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز . ومن أوائل الكتّاب في التفسير : شعبة بن  
الحجاج ، وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، وتفسيرهم جامعة لأقوال الصحابة  
والتابعين . وهم من علماء القرن الثاني . ثم تلاهم ابن جرير الطبرى للتوفى سنة ٣١٠ هـ  
وكتابه أجل التفاسير وأعظمها ؛ لأنه أول من عرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها  
على بعض ، كما عرض للإعراب والامتنباط . وبقيت العناية بالتفسير قائمة إلى عصرنا  
هذا ، حتى وجدت منه مجموعة رائعة فيها المعجب والمطرب ، والموجز والمطول والمتوسط ،  
ومنها التفسير بالمعقول والتفسير بالمأثور ، ومنها تفسير القرآن كله ، وتفسير جزء ، وتفسير  
سورة وتفسير آية ، وتفسير آيات الأحكام إلى غير ذلك .

أما علوم القرآن الأخرى ، ففي مقدمة المؤلفين فيها : على بن المدينى شيخ البخارى ؛  
إذ ألّف في أسباب النزول ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ؛ إذ كتب في الناسخ والمنسوخ ؛  
وكلاهما من علماء القرن الثالث . وفي مقدمة من ألّف في غريب القرآن : أبو بكر  
السجستاني ، وهو من علماء القرن الرابع . وفي طليعة من صنّف في إعراب القرآن :  
على بن سعيد الحوفى ، وهو من علماء القرن الخامس . ومن أوائل من كتب في

مبهمات القرآن: أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بالسبيلي، وهو من علماء القرن السادس. كذلك تصدّر للتأليف في مجاز القرآن: ابن عبد السلام، وفي القراءات: علم الدين السخاوي، وهما من علماء القرن السابع.

وهكذا قويت العزائم، وتبارت المهمم، ونشأت علوم جديدة للقرآن. وظهرت مؤلفات في كل نوع منها، سواء في ذلك أقسام القرآن، وأمثال القرآن، ووجج القرآن، وبدائع القرآن، ورسم القرآن، وما أشبهها مما يروعك تصوّره بآه الاطلاع عليه، وبما يملأ خزائن كاملة من أعظم المكتبات في العالم. ثم لا يزال المؤلفون إلى عصرنا هذا يزدون، وعلوم القرآن ومؤلفاته تنبى وتزدهر وتزيد، بينما الزمان يفتى والعالم يبيد! أليس إجمازاً آخر للقرآن؟ يريك إلى أي حد بلغ علماء الإسلام في خدمة التنزيل. ويريك أنه كتاب لا تفتى مجائبه، ولا تنقض معارفه، ولن يستطيع أن يحيط بأسراره إلا صاحبه ومُنزله!

إذا أضفت إلى علوم القرآن ما جاء في الحديث النبوي الشريف وعلومه وكتبه وبحوثه باعتبارها من علوم القرآن، نظراً إلى أن الحديث شارح للقرآن يبيّن مبهمات، ويفصل مجملاته، ويخصّص عامّه، كما قال سبحانه لنبيه ﷺ: « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أقول: إذا أضفت الحديث النبوي وعلومه إلى علوم القرآن، تراءى لك بحر متلاطم الأمواج. فإذا زدت عليها سائر العلوم الدينية والعربية باعتبارها خادمة للقرآن أو مستمدة منه، رأيت نفسك أمام مؤلفات كالجبال، وموسوعات تكاثر الرمال، ولا يسمعك حينئذ إلا أن تردّد قول الله « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ».

وتزداد عجيباً إذا علمت أن طريقة أولئك المؤلفين في تأليفهم، كانت طريقة استيعاب واستقصاء، يعمد أصحابها أن يحيطوا بجزئيات القرآن من الناحية التي كتبوا فيها بقدر طاقتهم البشرية. فمن يكتب في غريب القرآن مثلاً يذكر كل مفرد



من مفردات القرآن التي فيها غرابة وإبهام ، ومن يكتب في مجاز القرآن يقتفي أثر كل لفظ فيه مجازاً أياً كان نوعه في القرآن ، ومن يكتب في أمثال القرآن يتحدث عن كل مثل ضربه الله في القرآن ، وهكذا سائر أنواع علوم القرآن . ولا ريب أن تلك الجهود الجبارة لا يتهيأ لإنسان أن يحيط بها ولو أفنى عمره ، واستنفد وسعه ! .

لهذا اثمراً ثبت أعناق العلماء أن يمتصروا من تلك العلوم علماً جديداً يكون كالفهرس لها ، والدليل عليها ، والمتحدث عنها . فكان هذا العلم هو ما نسميه ( علوم القرآن ) بالمعنى المدون .

ولا نعلم أن أحداً قبل المائة الرابعة للهجرة ألف أو حاول أن يؤلف في علوم القرآن بالمعنى المدون ، لأن الدواعي لم تكن موفورة لديهم نحو هذا النوع من التأليف . وإن كنا نعلم أنها كانت مجموعة في صدور المبرزين من العلماء ، على الرغم من أنهم لم يدونوها في كتاب ، ولم يفردها باسم .

أجل : كانت علوم القرآن مجموعة في صدور المبرزين من العلماء . فنحن نقرأ في تاريخ الشافعي رضي الله عنه أنه في محنته التي أشهم فيها بأنه رئيس حزب العلويين باليمن ؛ وسبق بسبب هذه التهمة إلى الرشيد مَكْبَلًا بالحديدي بغداد ؛ سأله الرشيد حين لمح علمه وفضله ، فقال : كيف علمك يا شافعي بكتاب الله عز وجل ؟ فإنه أولى الأشياء أن يُبتدأ به . فقال الشافعي : عن أي كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين ؟ فإن الله تعالى قد أنزل كتباً كثيرة . قال الرشيد : قد أحسنت ، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمي محمد ﷺ . فقال الشافعي : إن علوم القرآن كثيرة ؛ فهل تسألني عن محكمه ومتشابهه ، أو عن تقديمه وتأخيرها ، أو عن ناسخه ومنسوخه ، أو عن . . . أو عن . . . ؟؟ وصار يسرد عليه من علوم القرآن ، ويجيب على كل سؤال بما أدهش الرشيد والحاضرين .

فأنت ترى من جواب الشافعي هذا ، ومن فليحه بالصواب في هذا الموقف الرهيب ،

ما يفتك على أن قلوب أكابر العلماء كانت أناجيل لعلوم القرآن من قبل أن يُجمع في كتاب ، أو تدون في علم . وقد نوه جلال الدين البلقيني في خطبة كتابه بكلمة الشافعي التي ذكرناها إذ قال : « قد اشتهر عن الإمام الشافعي رضي الله عنه مخاطبة لبعض خلفاء بني العباس ، فيها ذكر بعض أنواع علوم القرآن يحصل منها لمقصدنا الاقتباس . ونحن لا نستبعد على الشافعي هذا ، فقد كان آية من آيات الله في علمه وذكائه ، وفي ابتكاره وتجديده ، وفي قوة حجته وتوفيقه . حتى إنه وضع كتابه ( الحجة ) في العراق يستدرك به على مذاهب بعض أهل الرأي ، وألف في مصر كتاباً يستدرك بها على مذاهب بعض أهل الحديث . ثم وضع دستوراً للاجتهاد والاستنباط لم يقس لأحد قبله ، إذ كان أول من صنف في أصول الفقه وهو من علوم القرآن كما علمت . قال ابن خلدون في مقدمته « كان أول من كتب فيه - أي علم أصول الفقه - الشافعي رضي الله عنه ، أملى فيه رسالته المشهورة ، تكلم فيها على الأوامر والنواهي ، والبيان ، والخبر ، والنسخ ، وحكم العلة المنصوصة من القياس » ا هـ .

وقال الزركشي في كتابه البحر المحيط في أصول الفقه « الشافعي أول من صنف في أصول الفقه . صنف فيه كتابه الرسالة ، وكتاب أحكام القرآن ، واختلاف الحديث ، وإبطال الاستحسان ، وكتاب جماع العلم ، وكتاب القياس الذي ذكر فيه توضيل المعزلة ورجوعه عن قبول رسالتهم » ا هـ رضي الله عنه وعن سائر الأئمة المجتهدين .

## أول عهد لظهور هذا الاصطلاح

ولقد كان المعروف لدى الكاتبين في تاريخ هذا الفن ، أن أول عهد ظهر فيه هذا الاصطلاح أي اصطلاح علوم القرآن ، هو القرن السابع .

لكني ظفرت في دار الكتب المصرية بكتاب لعلي بن إبراهيم بن سعيد الشهير

بالخوفى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ « اسمه البرهان فى علوم القرآن ». وهو يقع فى ثلاثين مجلداً ،  
والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً ، غير مرتبة ولا متعاقبة ، من نسخة مخطوطة .  
وإذن نستطيع أن نتقدم بتاريخ هذا الفن نحو قرنين من الزمان أى إلى بداية القرن  
الخامس بدلا من القرن السابع . ولقد كنت مشغولاً أن أقرأ مقدمة كتابه هذا ،  
لأخذ اعترافاً صريحاً منه بمحاولته إنشاء هذا العلم الوليد . ولكن ماذا أصنع ، والجزء  
الأول مفقود ؟ غير أن اسم الكتاب يدلنى على هذه المحاولة . وكذلك استعرضت  
بعض الأجزاء الموجودة فرأيت أنه يعرض الآية الكريمة بترتيب المصحف ثم يتكلم  
عليها من علوم القرآن ، خاصاً كل نوع منها بعنوان ، فيسوق النظم الكريمة تحت عنوان :  
( القول فى قوله عز وجل ) . وبعد أن يفرغ منه يضع هذا العنوان : ( القول فى  
الإعراب ) ويتحدث عنها من الناحية النحوية واللغوية : ثم يتبع ذلك بهذا العنوان ( القول  
فى المعنى والتفسير ) ويشرح الآية بالمأثور والمعقول . ثم ينتقل من الشرح إلى العنوان  
الآتى : ( القول فى الوقف والتمام ) مبيناً تحتها ما يجوز من الوقف وما لا يجوز . وقد  
يفرد القراءات بعنوان مستقل فيقول ( القول فى القراءة ) . وقد يتكلم فى الأحكام  
الشرعية التى تؤخذ من الآية عند عرضها ، فى آية ( وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ  
وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ) من سورة البقرة يذكر أوقات  
الصلاة وأدائها ، وأنصبة الزكاة ومقاديرها . ويتكلم على أسباب النزول ، وعلى النسخ ،  
وما إلى ذلك عند المناسبة . فأنت ترى أن هذا الكتاب أتى على علوم القرآن ، ولكن  
لا على طريقة ضم النظائر والأشباه بعضها إلى بعض تحت عنوان واحد لنوع واحد ، بل  
على طريقة النشر والتوزيع تبعاً لانتشار الألفاظ المتشكلة فى القرآن وتوزيعها . حتى كأن  
هذا التأليف تفسير من التفاسير عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات .  
وأياً ما يكن هذا الكتاب فإنه مجهد عظيم ، ومحاولة جديرة بالتقدير فى هذا الباب . جزى  
الله مؤلفه خير الجزاء .

ثم جاء القرن السادس فألف فيه ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابين : أحدهما اسمه « فنون الأفتان في علوم القرآن » والثاني اسمه « المجتبي في علوم تتعلق بالقرآن ». وكلاهما مخطوط بدار الكتب المصرية.

وفي القرن السابع ألف علم الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤١ هـ كتاباً سماه « جمال القراء » وألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتاباً أسماه « المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز » وما - كما قال السيرطى - عبارة عن طائفة يسيرة ، ونبذ قصيرة ، بالنسبة للمؤلفات التي ألفت بعد ذلك في هذا النوع .

ثم أهل القرن الثامن فكتب فيه بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ كتاباً سماه « البرهان في علوم القرآن » وتوجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة التيمورية ، في دار الكتب المصرية ، تقع في مجلدين ناقصين . ثم طلع القرن التاسع على هذا العلم باليمن والبركة ، فدرج فيه وترعرع ، إذ ألف محمد بن سليمان الكافيحي المتوفى سنة ٨٧٣ هـ كتاباً يقول السيوطى عنه : « لأنه لم يسبق إليه ، وقد اشتمل على بايين : الأول في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية . أما الثانى ففي شروط القول في القرآن بالرأى . وبمدها خاتمة في آداب العالم والمعلم » غير أنه قال أخيراً : « ولكن ذلك لم يشف لى غليلاً ؛ ولم يهدنى إلى المقصود سبيلاً » ١ هـ . وفي هذا القرن أيضاً وضع جلال الدين البلقينى كتاباً سماه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » . وقد رتبّه على ستة مباحث : الأول في مواطن النزول وأوقاته ووقائمه ، وفيه اثنا عشر نوعاً<sup>(١)</sup> . الثانى في سند القرآن وهو ستة أنواع<sup>(٢)</sup> . الثالث في أدائه وهو ستة

(١) المكى ، المدنى ، السفرى ، الحضرى ، اللبلى ، النهارى ، الصبى ، الشتائى ، الفراشى ، أسباب النزول ، أول ما نزل ، آخر ما نزل .

(٢) للتواتر ، الأحاد ، الشاذ ، قراءات النبي صلى الله عليه وسلم ، الرواة ، الحفاظ .

أنواع أيضاً<sup>(١)</sup> . الرابع في ألفاظه وهو سبعة أنواع<sup>(٢)</sup> . الخامس في معانيه المتعلقة بأحكامه ، وهو أربعة عشرة نوعاً<sup>(٣)</sup> . السادس في معانيه المتعلقة بألفاظه وهو خمسة أنواع<sup>(٤)</sup> . وبذلك يكمل الكتاب كله خمسين نوعاً غير ما فيه من أنواع الأسماء والكنى والألقاب والمبهمات . وهي لا تدخل تحت حصر .

وفي هذا القرن التاسع أيضاً ألف السيوطي كتاباً سماه « التحبير في علوم التفسير » ضمنه ما ذكره البقيني من الأنواع مع زيادة مثلها ، وأضاف إليه فوائد سمحت قريحته بنقلها . وقد أوفى هذا الكتاب على الاثنى عشر بعد المائة من الأنواع . وفرغ الإمام من تأليف تحبيره هذا سنة ٨٧٢ هـ غير أن نفسه الكبيرة لم تقنع بهذا الجهد العظيم بل طمّح إلى التبحر والتوسع والترتيب ، فوضع كتابه الثاني « كتاب الإتيان في علوم القرآن » ، وهو عمدة الباحثين والكتّابين في هذا الفن . ذكر فيه ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج ، ثم قال بعد أن سردّها نوعاً نوعاً : « ولو نُوعتْ باعتبار ما أدجمتها فيها لزادت على الثلاثمائة » ا هـ .

وتوفى السيوطي رحمه الله سنة ٩١١ هـ في مفتتح القرن العاشر ، وكان نهايته كانت نهاية لهضة التأليف في علوم القرآن ، عليه سحائب الرحمة والرضوان ، فلم نر من صار في هذا المضمار مثله بعده ، كما لم نر من برّه فيه قبله .

(١) الوقف ، الابتداء ، الإمامة ، اللد ، تخفيف الهزرة ، الإدغام .

(٢) الغريب ، العرب ، المجاز ، المشترك ، المترادف ، الاستعارة التشبيهية .

(٣) العام الباق على عمومته ، العام الخصوص ، العام الذي أريد به الخصوص ، ماخص فيه الكتاب السنة ، ماخصت فيه السنة الكتاب الجمل ، المبين ، المؤول ، المفهوم ، المطلق ، المقيد ، الناسخ ، للنسوخ ، نوع من الناسخ والنسوخ وهو ما عمل به مدة معينة والعامل به واحد من المكلفين .

(٤) الفصل ، الوصل ، الإيجاز ، الإطناب ، القصر .

## علوم القرآن في القرن الأخير

بيد أنه ظهرت في أيامنا بوادر استئناف لحركة النشاط والتأليف في هذا العلم. إذ ألفت العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري كتاباً جليلاً سماه «التبيان في علوم القرآن» يقع في قريب من ثلاثمائة صفحة. و فرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥ هـ .

وألف العلامة المرحوم الشيخ محمود أبو دقيقة مذكرة قيّمة لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين . وقفاه العلامة الشيخ محمد علي سلامة فوضع كتاباً حافلاً لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد كذلك سماه « منهج الفرقان في علوم القرآن » .  
وتوجد مؤلفات في بعض مباحث علوم القرآن لكثير من أفاضل العلماء والأدباء، نذكر من بينهم الأعلام المرحومين : الشيخ محمد نجيت ، والشيخ محمد حسين العدوي والشيخ محمد خلف الحسيني ، إذ كتبوا في نزول القرآن على سبعة أحرف ، وفي بعض مباحث أخرى ، والمرحوم السيد مصطفى صادق الرافعي؛ إذ ألفت في إعجاز القرآن كتاباً جليلاً طبعه المغفور له الملك فؤاد الأول على نفقته . ومنهم المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش، إذ كتب محاضرات موضوعها : أثر القرآن في تحرير العقل البشري وألقاها في نادي دار العلوم . والمرحوم الشيخ عبد العزيز الخولي؛ إذ وضع كتابه « للقرآن الكريم : وصفه ، أثره ، هدايته ، وإعجازه » . والمرحوم الشيخ طنطاوي جوهرى؛ إذ وضع رسالة سماها : القرآن والعلوم العصرية .

ثم انبرى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر للقول بجواز ترجمة القرآن ، وكتب في ذلك رسالة عظيمة الشأن وأيده آخرون ، وتصدّى العلامة الكبير الشيخ مصطفى صبرى شيخ الإسلام بتركيا سابقاً للردّ على ذلك في كتاب دقيق سماه « مسألة ترجمة القرآن » وظهره آخرون .  
وقد اطلعت أخيراً على صدر كتاب اسمه : « النبأ العظيم عن القرآن الكريم » .

والطريقة المثلى في دراسته ، فراعنى دقة بحثه وتفكيره ، وراقى رقة أسلوبه وتعبيره  
ووددت لو تم هذا الكتاب ، وهو لصديقى العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز مبعوث  
الأزهر إلى فرنسا الآن ( رده الله سالماً غانماً وأمتع به الإسلام والمسلمين آمين ) .

### خلاصة

ويمكنك أن نستخلص مما سبق أن علوم القرآن كفن مدوّن استهلت صارخة على  
يد الحوفى في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، ثم تربّت في حجر ابن الجوزى والسخاوى  
وأبى شامة في القرنين السادس والسابع . ثم ترعرعت في القرن الثامن برعاية الزركشى .  
ثم بلغت أشدها واستوت في القرن التاسع بعناية الكافيجى وجلال الدين البلقينى . ثم  
اهتزّت وربّت وأنبئت من كل زوج بهيج في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر ، بهمة  
فارس ذلك الميدان صاحب كتابى التحبير ، والإتقان في علوم القرآن : للسيوطى  
عليه ألف رحمة من الله ورضوان . ثم وقف نموّها بعد ذلك حتى هذا القرن الأخير .  
ثم بدأت تنتعش في هذه السنين من جديد ، وعسى أن تعود سيرتها الأولى ( ألا إن  
فصر الله قريب ) .

### كلمة لا بد منها

وقبل أن ننتهى من هذا البحث نلفت نظرك إلى أن هذا العلم يسير على سنة غيره  
حن العلوم بين جزر ومدّ . وزيادة ونقص . على مقدار ما يستهدف له من مؤثرات  
خاصة . فلا بدع أن تجد في منهج دراستك اليوم مباحث جليدة ، ومواضع مبتكرة ،  
لم تنتظم قبل في سمط علوم القرآن ؛ ذلك لأن الأفكار متحركة ومتجددة ، ولأن  
الشبهات التى تحوم في رءوس بعض الناس في هذا العصر ، والطاعن التى يوجهها

أعداء الإسلام في هذا الجيل ، قد تكون هي الأخرى جديدة ومبتكرة . ومن الحكمة أن تقاوم الناس بمثل سلاحهم ، وأن ندرس في علوم القرآن ما يحمي حمي القرآن الشريف ، من هذا العدوان الخبيث . أضف إلى ذلك أن العلوم تخبو بالإهمال والترك ، وتزكو بالدرس والبحث . سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

## المبحث الثالث

### في نزول القرآن

هذا مبحث مهم في علوم القرآن بل هو أهم مباحثه جميعاً ، لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله ، وأساس للتصديق بنبوة الرسول ﷺ وأن الإسلام حق . ثم هو أصل لسائر المباحث الآتية بعد في علوم القرآن . فلا جرم أن يتصدَّرها جماء ليكون من تقريره وتحقيقه ، سبيل إلى تقريرها وتحقيقها . وإلا فكيف يقوم البناء على غير أساس ودعام ؟ .

ولأجل الإحاطة بهذا المطلب العزيز ، نتكلم - إن شاء الله - على معنى نزول القرآن ، ثم على مرات هذا النزول ، ودليل كل نزول ، وكيفية ، وحكمته ، ثم على الوحي وأدلته العقلية والعلمية ، مع دفع الشبهات الواردة في ذلك المقام .

### ١ - معنى نزول القرآن

جاء التعبير بمادة نزول القرآن وما تصرف منها في الكتاب والسنة ، ومن أمثله قوله سبحانه في سورة الإسراء : « وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ » . وقوله



ﷺ : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ » . وهو حديث مشهور بل قيل فيه بالتواتر كما سيأتي .

لكنّ النزول في استعمال اللغة يطلق ويراد به الحلول في مكان والأوئى به . ومنه قولهم « نزل الأمير المدينة » . والمتعدّي منه وهو الإنزال يكون معناه إحلال الغير في مكان وإيواءه به . ومنه قوله جلّ ذكره « رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » ويطلق النزول إطلاقاً آخر في اللغة على انحدر الشيء من علو إلى سفلى نحو « نَزَلَ فُلَانٌ مِنَ الْجَبَلِ » . والمتعدّي منه يكون معناه تحريك الشيء من علو إلى سفلى ومنه قوله سبحانه : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » .

ولا ريب أن كلا هذين المعنيين لا يليق إرادته هنا في إنزال الله للقرآن ، ولا في نزول القرآن من الله ، لما يلزم هذين المعنيين من المكانية والجسمية . والقرآن ليس جسماً حتى يحلّ في مكان أو ينحدر من علو إلى سفلى ، سواء أردنا به الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الغيبية الأزلية ، أم أردنا به نفس تلك الكلمات ، أم أردنا به اللفظ المعجز ؛ لما علمت من تنزه الصفة القديمة ومتعلقها وهو الكلمات الغيبية عن الحوادث وأعراض الحوادث ، ولما تعرفه من أن الألفاظ أعراض سيالة تنقضي بمجرد النطق بها ، كما يقولون .

إذن فنحن بحاجة إلى التجوّز ، والمجاز بابيه واسع وميدانه فسيح . وليكن المعنى المجازي لإنزال القرآن هو الإعلام في جميع إطلاقاته . أما على أن المراد بالقرآن الصفة القديمة أو متعلقها ، فإنزاله : الإعلام به بواسطة ما يدل عليه من النقوش بالنسبة لإنزاله في اللوح المحفوظ وفي بيت العزة من السماء الدنيا ، وبواسطة ما يدل عليه من الألفاظ الحقيقية بالنسبة لإنزاله على قلب النبي ﷺ ، والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هي اللزوم ؛ لأن إنزال شيء إلى شيء يستلزم إعلام من أنزل إليه ذلك الشيء به إن كان عاقلاً ، ويستلزم إعلام من يطلع عليه من الخلق به مطلقاً ، وإذن فالمجاز مرسل .

وأما على أن المراد بالقرآن اللفظ المعجز، فعنى إنزاله الإعلام به أيضاً ، ويمكن  
بوساطة إثباته هو أو إثبات دالّه ، فإثباته هو بالنسبة لإنزاله على قلب النبي ﷺ ،  
وإثبات دالّه بالنسبة إلى اللوح المحفوظ وبيت العزة ، والعلاقة للزوم كذلك ، والحاز  
مرسل كتابه .

ويمكن أن يكون هذا التجوّز من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، بأن  
يُشَبَّه إعلام السيد لعبدّه بإنزال الشيء من علو إلى سفلى ، بجماع أن فى كل من طرفى  
التشبيه صدوراً من جانب أعلى إلى جانب أسفل ، وإن كان العلو والسفلى فى وجه  
الشبه حسيّاً بالنسبة إلى المشبه به ، ومعنويّاً بالنسبة إلى المشبه .

وأنت خبير بأن النزول مطاوع الإنزال ، فما يجرى من التجوّز فى أحدهما يجرى  
نظيره فى الآخر . وقل مثل ذلك فى التنزيل والتنزل .

وكان وجه اختيار التعبير بمادة الإنزال وما تصرف منها أو التقى معها ، هو التنويه  
بشرف ذلك الكتاب ، نظراً إلى ما تشير إليه هذه المادة من علو صاحب هذا  
الكتاب المنزل علواً كبيراً ، كما قال تعالى فى فاتحة سورة الزخرف : « حَمَّ وَالْكِتَابِ  
الْمُبِينِ ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَإِنَّهُ فى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا  
لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ » .

ثم إن تأويل الإنزال بالإعلام على ما رأيت هو الأقرب والأوفق بالمقام ، وذلك  
من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن تعلق الكلام تعلق دلالة وإفهام ، ولا ريب أن القرآن كلام ،  
فتأويل إنزاله بالإعلام ، رجوع إلى ما هو معلوم من تعلقه ، ومفهوم من تحقّقه .

ثانيها : أن المقصود من ثبوت القرآن فى اللوح وفى سماء الدنيا وفى قلب النبي  
ﷺ ، هو إعلام الخلق فى العالمين العلوى والسفلى بما شاء الله دلالة البشر عليه من  
هذا الحق .

ثالثها: أن تفسير الإنزال بالإعلام ، ينسجم مع القرآن بأى إطلاق من إطلاقاته ، وعلى أى تنزّل من تنزلاته .

## ٢ - تنزلات القرآن

شرف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزّلات :

١- التنزيل الأول إلى اللوح المحفوظ . ودليله قول سبحانه : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ » . وكان هذا الوجود في اللوح بطريقة وفي وقت لا يعلمها إلا الله تعالى ، ومن أطلعه على غيبه . وكان جملة لامفرقا ، لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ، ولا صارف عنه . ولأن أسرار تنجيم القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم لا يعقل تحقّقها في هذا التنزيل .

وحكمة هذا النزول ، ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه ، وإقامته سجلا جامعا لكل ما قضى الله وقدر ، وكل ما كان وما يكون من هوالم الإيجاد والتكوين . فهو شاهد ناطق ، ومظهر من أروع المظاهر ، الدالة على عظمة الله ، وعلمه ، وإرادته ، وحكمته ، وواسع سلطانه وقدرته . ولا ريب أن الإيمان به يقوّي إيمان العبد بربه من هذه النواحي ، ويبعث الطمأنينة إلى نفسه ، والثقة بكل ما يظهره الله خلقه ، من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أفضيته وشؤونه في عباده ، كما يحمل الناس على السكون والرضا ، تحت سلطان القدر والقضاء ، ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرّائها ، وسرّائها ، كما قال - جلّ شأنه - « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير » . ليكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » اه من سورة الحديد . وللإيمان باللوح وبالكتابة فيه ، أثر صالح في استقامة المؤمن على الجادة ، وتفانيه في طاعة الله ومراضيه ، وبمده عن مساخطه ومعاصيه ، لا اعتقاده أنها مسطورة عند الله في لوحه . مسجلة لديه في

كتابه . كما قال - جل ذكره - : « وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مستطرٌّ » ا هـ من سورة القمر .

( ب — التنزيل الثاني للقرآن كان هذا التنزل الثاني إلى بيت العزّة في السماء الدنيا ، والدليل عليه قوله سبحانه في سورة الدخان « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ » . وفي سورة القدر « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . وفي سورة البقرة « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » . )

دلّت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة ، توصف بأنها مباركة أخذاً من آية الدخان ، وتسمى ليلة القدر أخذاً من آية سورة القدر ، وهي من ليالي شهر رمضان أخذاً من آية البقرة . وإنما قلنا ذلك جمعاً بين هذه النصوص في العمل بها ، ودفعاً للتعارض فيما بينها . ومعلوم بالأدلة القاطعة - كما يأتي - أن القرآن أنزل على النبي ﷺ مفرقاً لا في ليلة واحدة ، بل في مدى سنين عدداً ، فمعين أن يكون هذا النزول الذي نوهت به هذه الآيات الثلاث نزولاً آخر غير النزول على النبي ﷺ . وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبيّنةً لمكان هذا النزول وأنه في بيت العزّة من السماء الدنيا ، كما تدل الروايات الآتية :

١٧ - أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : « فُصِّلَ القرآن من الذكر فَوُضِعَ في بيتِ العزّةِ من السماء الدنيا فجعلَ جبريلُ ينزلُ به على النبي ﷺ » .

١٨ - وأخرج النسائي والحاكم والبيهقي من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : « أنزلَ القرآنُ جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزلَ بعد ذلك في عشرين سنة » ثم قرأ « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا . « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتَبٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » .

٣ — وأخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بمضه في إثر بعضه .

٤ — وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال : أوقع في قلبي الشك قوله تعالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » وقوله : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . وهذا أنزل في شوال ، وفي ذى القعدة ، وفي ذى الحجة ، وفي المحرم ، وصفر ، وشهر ربيع . فقال ابن عباس : « إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام » . قال أبو شامة : رسلاً أى رفقا . وعلى مواقع النجوم أى على مثل مساقطها . يريد أنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقا ، يتلو بعضه بعضاً على تودة ورفق .

هذه أحاديث أربعة من جملة أحاديث ذكرت في هذا الباب ، وكلها صحيحة كما قال السيوطي ، وهى أحاديث موقوفة على ابن عباس ، غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ ، لما هو مقرر من أن قول الصحابي ما لا مجال للرأى فيه ولم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات ، حكمه حكم المرفوع . ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تُعرف إلا من المعصوم ، وابن عباس لم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات ، فثبت الاحتجاج بها .

وكان هذا النزول جملة واحدة في ليلة واحدة هي ليلة القدر كما علمت ؛ لأنه المتبادر من نصوص الآيات الثلاث السابقة ، وللتنصيص على ذلك في الأحاديث التي

عرضناها عليك قبل ذكر السيوطي أن القرطبي نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا .

وهناك قول ثان ينزل القرآن إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ينزل في كل ليلة قدر منها ما يقدر الله إنزاله في كل السنة ، ثم ينزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة على النبي ﷺ .

وثمة قول ثالث : أنه ابتدئ بإنزاله في ليلة القدر ؛ ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأزمان على النبي ﷺ . وكان صاحب هذا القول ينفي النزول جملة إلى بيت العزة في ليلة القدر .

وذكروا قولاً رابعاً أيضاً هو أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة ، وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة ، وأن جبريل نجمه على النبي ﷺ في عشرين سنة . ولكن هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة بعزل عن التحقيق ، وهي محجوجة بالأدلة التي سقناها بين يديك تأييداً للقول الأول .

والحكمة في هذا النزول ، على ما ذكره السيوطي نقلاً عن أبي شامة - هي تفخيم أمره (أى القرآن) وأمر من نزل عليه ، بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم ، وإنزاله مرتين ، مرة جملة ومرة مفرداً . بخلاف الكتب السابقة ، فقد كانت تنزل جملة مرة واحدة .

وذكر بعضهم أن النزول إلى السماء الدنيا إلهاباً لشوق النبي ﷺ إليه على حد قول القائل :

« وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام »

أقول : وفي تعدد النزول وأما كنهه ، مرة في اللوح ، وأخرى في بيت العزة ، وثالثة على قلب النبي ﷺ : في ذلك التعداد صياغة في نفي الشك عن القرآن وزيادة

للإيمان وباعث على الثقة فيه، لأن الكلام إذا سُجِّلَ في سَجَّلات متعددة، وصنعت له وجودات كثيرة، كان ذلك أنفى للريب عنه وأدعى إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به، مما لو سُجِّلَ في سَجِّلٍ واحد، أو كان له وجود واحد.

(ج - التنزيل الثالث للقرآن هذا هو واسطة عقد التنزيلات، لأنه المرحلة الأخيرة التي منها شمع النور على العالم، ووصلت هداية الله إلى انطلق، وكان هذا النزول بوساطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي ﷺ. ودليله قول الله تعالى في سورة الشعراء مخاطباً لرسوله عليه الصلاة والسلام: « نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ . على قلبك لتكونَ من المنذرين . بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ » .)

### كيفية أخذ جبريل للقرآن، وعن أخذ

هذا من أنباء الغيب . فلا يطمئن الإنسان إلى رأى فيه إلا إن ورد بدليل صحيح عن المعصوم ، وكل ما عثرنا عليه أقوال منشورة هنا وهناك، نجمعها لك فيما يأتي مع إبداء رأينا في كل منها :

(أولها : قال الطيبي : « لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقَّفه تلقِّفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ ، فينزل به على النبي ﷺ فيلقيه إليه » اهـ )  
وأنت خير بأن كلمة ( لعل ) هنا لا تشفى غليلاً ، ولا تهدينا إلى المقصود سبيلاً ، ولا نستطيع أن نأخذ منها دليلاً .

(ثانيها : حكى الماوردي أن الحفظة نجمت القرآن على جبريل في عشرين ليلة ؛ وأن جبريل نجمه على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة اهـ . ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الحفظة نجومًا عشرين) وإسكتنا لا نعرف لصاحب هذا الرأى دليلاً ولا شبه دليل .

ثالثها: قال البيهقي في معنى قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» يريد  
- والله أعلم - «إِنَّا أَسْمَعْنَا الْمَلِكَ وَأَفْهَمْنَاهُ إِيَّاهُ وَأَنْزَلْنَاهُ بِمَا سَمِعَ» . ومعنى هذا أن جبريل  
أخذ القرآن عن الله سماعاً . وذلك فيما أرى أمثل الأقوال من ناحية أخذ جبريل عن الله  
لأن ناحية تأويل النزول في الآية بافتداء النزول . ويؤيده ما أخرجه الطبراني من حديث  
النواس بن سيمان مرفوعاً إلى النبي ﷺ «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَاءُ رَجْفَةً  
شَدِيدَةً مِنْ خَوْفِ اللَّهِ ، فَإِذَا سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ صُعِقُوا وَخَرُّوا سَجْدًا فَيَكُونُ أَوْلَهُمْ يَرْفَعُ  
رَأْسَهُ جِبْرِيلُ ، فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ بِوَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ ، فَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ فَكَلَّمَا مَرَّةً بِسْمَاءِ  
سَأَلَهُ أَهْلُهَا : مَا قَالَ رَبُّنَا ؟ قَالَ : الْحَقُّ ، فَيَنْتَهِي بِهِ حَيْثُ أَمَرَ » .  
وأياً ما تكن هذه الأقوال ، فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير غرض ، مادامنا  
نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله تعالى وحده .

### ما الذي نزل به جبريل ؟

ولتعلم في هذا المقام ، أن الذي نزل به جبريل على النبي ﷺ هو القرآن باعتبار أنه  
الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس . وتلك الألفاظ هي كلام  
الله وحده ، لا دخل لجبريل ولا لمحمد في إنشائها وترتيبها ، بل الذي رتبها أولاً هو الله  
سبحانه وتعالى ، ولذلك تنسب له دون سواه ، وإن نطق بها جبريل ومحمد ، وملايين  
المخلوق من بعد جبريل ومحمد ، من لدن نزول القرآن إلى يوم الساعة . وذلك كما ينسب  
الكلام البشري إلى من أنشأ ورتبه في نفسه أولاً دون غيره ، ولو نطق به آلاف  
المخلوقات ، في آلاف الأيام والسنين إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

فإنه - جلّت حكمته - هو الذي أبرز ألفاظ القرآن وكلماته مرتبة على وفق ترتيب  
كلماته النفسية لأجل التفهيم والتفهيم ، كما نبرز نحن كلامنا اللفظي على وفق كلامنا النفسي



لأجل التفهيم والفهم ، ولا ينسب الكلام بحال إلا إلى من رتبته في نفسه أولاً ، دون من اقتصر على حكايته وقراءته ، ولذلك لا يجوز إضافة القرآن على سبيل الإنشاء إلى جبريل أو محمد ، ولا لغير جبريل ومحمد ، كما لا يجوز نسبة كلام أنشأه شخص ورتبه في نفسه أولاً إلى شخص آخر حكاؤه وقراءه حين اطلع عليه أو سمعه .

وقد أسفَّ بعضُ الناس فزعم أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بمعاني القرآن ، والرسول يعبر عنها بلغة العرب . وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحى إليه المعنى فقط ، وكلاهما قول باطل أثيم ، مصادم لصريح الكتاب والسنة والإجماع ، ولا يساوى قيمة اللمداد الذي يكتب به . وعقيدتي أنه مدسوسٌ على المسلمين في كتبهم . وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزاً واللفظ لمحمد أو لجبريل ؟ ثم كيف تصح نسبته إلى الله واللفظ ليس لله ؟ مع أن الله يقول : ( حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ) ، إلى غير ذلك مما يطول بنا تفصيله .

والحق أنه ليس لجبريل في هذا القرآن سوى حكايته للرسول وإيحاؤه إليه ، وليس للرسول ﷺ في هذا القرآن سوى وعيِّه وحفظه ، ثم حكايته وتبليغه ، ثم بيانته وتفسيره ، ثم تطبيقه وتنفيذه . نقرأ في القرآن نفسه أنه ليس من إنشاء جبريل ولا محمد نحو « وَإِنكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » . ونحو « وَإِذْ لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْ لَا أَجْتَبِيَّتِهَآ . قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي » . ونحو « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغَاتٍ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ . قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنِ اتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنِ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ » . ونحو « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

ثم إن ما ذكرناه هو تحقيق ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن، وإن كان قد نزل عليه أيضاً غير القرآن؛ نقل السيوطي عن الجويني أنه قال: «كلام الله المنزل فساق: (قسم) نقل الله لجبريل: قل للنبي الذي أنت مرسل إليه: إن الله يقول افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل على ذلك النبي، وقال له ما قاله ربه. ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول للملك لمن يثق به: قل لفلان يقول لك الملك: اجهد في الخدمة واجمع جندك للقتال، فإن قال الرسول: يقول لك الملك: لا تنهون في حديثي، ولا تترك الجند يتفرق، وحُثِّمهم على المقاتلة، لا ينسب إلى كذب ولا تبصير في أداء الرسالة. (وقسم آخر) قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب، فنزل به جبريل من الله من غير تغيير، كما يكتب للملك كتاباً ويسلمه إلى أمين، ويقول اقرأه على فلان، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً» ٥١.

قال السيوطي بعد ذلك: قلت: «القرآن هو القسم الثاني والقسم الأول هو السنة، كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى؛ لأن جبريل أداها بالمعنى. ولم تجز القراءة بالمعنى لأن جبريل أدى القرآن باللفظ، ولم يبح له أداؤه بالمعنى. والسر في ذلك أن المقصود منه التعمد بلفظه والإيجاز به، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، وأن تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرة، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه. والتخفيف على الأمة حيث جعل المنزل إليهم على قسمين: قسم يروونه بلفظه الموجب به وقسم يروونه بالمعنى. ولو جعل كله مما يروى باللفظ لسق، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف فتأمل» ٥١.

أقول: وهذا كلام نفيس، بيد أنه لا دليل أمامنا على أن جبريل كان يتصرف في الألفاظ الموحاة إليه في غير القرآن. وما ذكره الجويني فهو احتمال عقلي لا يمكن في هذا الباب. ثم إن هذا التقسيم خلا من قسم ثالث للكتاب والسنة، وهو الحديث القدسي الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى، فهو كلام الله تعالى أيضاً،

غير أنه ليست فيه خصائص القرآن التي امتاز بها عن كل ما سواه. والله تعالى حكمة في أن يجعل من كلامه المنزل معجزاً وغير معجز ، لمثل ما سبق في حكمة التقسيم الأنف، من إقامة حجة للرسول ولدين الحق بكلام الله المعجز ، ومن التخفيف على الأمة بغير المعجز ، لأنه تصح روايته بالمعنى ، وقراءة الجنب وحمله له ومسه إياه ، إلى غير ذلك .

وصفة القول في هذا المقام أن القرآن أوحيت ألفاظه من الله اتفاقاً ، وأن الحديث القدسي أوحيت ألفاظه من الله على المشهور ، والحديث النبوي أوحيت معانيه في غير ما اجتهد فيه الرسول والألفاظ من الرسول صلى الله عليه وسلم . بيد أن القرآن له خصائصه من الإعجاز والتعبدية ووجوب المحافظة على أدائه بلفظه ونحو ذلك (وليس للحديث القدسي والنبوي شيء من هذه الخصائص) والحكمة في هذا التفريق أن الإعجاز منوط بألفاظ القرآن ، فلو أبيض أداؤه بالمعنى لذهب إعجازه ، وكان مظنة للتغيير والتبديل ، واختلاف الناس في أصل التشريع والتنزيل . (أما الحديث القدسي والحديث النبوي فليست ألفاظهما مناط إعجاز ، ولهذا أباح الله روايتهما بالمعنى ، ولم يمنحهما تلك الخصائص والقداسة الممتازة التي منحها القرآن الكريم ، تخفيفاً على الأمة ، ورعاية لمصالح الخلق في الحالين من منحٍ ومنعٍ « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » )  
مدة هذا النزول

وابتداءً هذا الإنزال من مبعثه عليه الصلاة والسلام ، وانتهى بقرب انتهاء حياته الشريفة ، وتقدّر هذه المدة بعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً ، تبعاً للخلاف في مدة إقامته صلى الله عليه وسلم في مكة بعد البعثة ، أكانت عشر سنين أم ثلاث عشرة أم خمس عشرة سنة . أما مدة إقامته بالمدينة فعشر سنين اتفاقاً . كذلك قال السيوطي . ولكن بعض محققي تاريخ التشريع الإسلامي يذكر أن مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من ١٧ رمضان سنة ٤١ من مولده

الشريف إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ منه . أما مدة إقامته في المدينة بعد الهجرة فهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٥٤ من مولده إلى تاسع ذى الحجة سنة ٦٣ منه . ويوافق ذلك سنة عشر من الهجرة . وهذا التحقيق قريب من القول بأن مدة إقامته ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة وفي المدينة عشر سنين ، وأن مدة الوحي بالقرآن ثلاثة وعشرون عاماً .

لكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاثة ؛ ذلك لأنه أهمل من حسابه باكورة الوحي إليه ﷺ عن طريق الرؤيا الصادقة ستة أشهر ، على حين أنها ثابتة في الصحيح . ثم جرى فيه على أن ابتداء نزول القرآن كان ليلة السابع عشر من رمضان وهي ليلة القدر على بعض الآراء ، غير أنه يخالف المشهور الذي يؤيده الصحيح ثم ذهب فيه مذهب القائلين بأن آخر ما نزل من القرآن هو آية « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » وذلك في تاسع ذى الحجة سنة عشر من الهجرة ، وسرى في مبحث آخر ما نزل من القرآن أن هذا المذهب غير صحيح .

### دليل تنجيم هذا النزول

والدليل على تفرق هذا النزول وتنجييمه ، قول الله تعالى حكيمته - في سورة الإسراء : « وَقَرَأْنَا مَا قَرَفَنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » وقوله في سورة الفرقان : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً . كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » . روى أن الكفار من يهود ومشركين عابوا على النبي ﷺ نزول القرآن مفرقاً ، واقترحوا عليه أن ينزل جملةً ، فأنزل الله هاتين الآيتين ردّاً عليهم ، وهذا الردُّ يدلُّ على أمرين :

أحدهما : أن القرآن نزل مفروقاً على النبي ﷺ . والثاني : أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملةً ، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً .  
ووجه الدلالة على هذين الأمرين ، أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملةً ، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفروقاً ، ولو كان نزول الكتب السماوية مفروقاً كالقرآن لردّ عليهم بالتكذيب ، ويأعلان أن التنجيم هو سنة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل ، كما ردّ عليهم بقوله : ( وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ) . حين طعنوا على الرسول وقالوا : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » (١٠١) .  
من سورة الفرقان .

### الحكم والأسرار في تنجيم القرآن

لتنجيم نزول القرآن الكريم أسراراً عدّة وحكم كثيرة ، نستطيع أن نجملها في أربع حكيم رئيسية :-

#### الحكمة الأولى

تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، وتقوية قلبه ، وذلك من وجوه خمسة :

الوجه الأول : أن في تجدد الوحي ، وتكرار نزول الملك به من جانب الحق إلى رسوله ﷺ ، سروراً يملأ قلب الرسول ، وغبطة تشرح صدره ، وكلاهما يتجدد عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلهية ، وتعهده مولاه إياه في كل نوبة من نوبات هذا النزول .

الوجه الثاني : أن في التنجيم تيسيراً عليه من الله في حفظه وفهمه ، ومعرفة أحكامه وحكمه ، وذلك مطمئن له على ما يوحي إليه حفظاً وفهماً ، وأحكاماً وحكماً ، كما أن فيه تقويةً لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله .

كَيْدِ يَدِ الْمَعْجُزَةِ

الوجه الثالث : أن في كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجم معجزة جديدة غالباً حيث تدهام كل مرة أن باتوا بمثل نوبة من نوب التنزيل ، فظهر مجرم عن المعارضة ، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت . ولا شك أن المعجزة تشدُّ أزره وترهيفُ عزمه ، باعتبارها مؤيدة له ولجزبه . خاذلةً لأعدائه وخصمه .

الوجه الرابع : أن في تأييد حقه ودحض باطل عدوه - المرة بعد الأخرى - تكراراً للذة فوزه وفلجحه بالحق والصواب ، وشهوده لضحايا الباطل في كل مهبطٍ للوحي والكتاب . وإن كل ذلك إلامشجع للنفس مقوياً للقلب والفؤاد . والفرق بين هذا الوجه والذي قبله ، هو الفرق بين الشيء وأثره ، أو الملزوم ولازمه ، فالمعجزة من حيث إنها قوة للرسول ومؤيدة له مطمئنة له ومثبتة لفؤاده ، بقطع النظر عن أثر انتصاره وهزيمة خصمه بها . ثم إن هذا الأثر العظيم وحده مطمئن لقلبه الكريم ومثبت لفؤاده أيضاً ، أشبه شيء بالسلاح : وجوده في يد الإنسان مطمئن له ولو لم يستعمله في خصمه ثم اتصل الإنسان وهزيمة خصمه به إذا عمل في نفسه مطمئن للفؤاد مريح للقلب مرة أخرى .

الوجه الخامس : تمهد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يهون عليه هذه الشدائد ، ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تحدث في أوقات متعدّدة ، فلا جرم كانت التسلية تحدث هي الأخرى في مرات متكافئة . فكما أحرجه خصمه ، سلّاه ربه . وتجيء تلك التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والرسلين ، التي لها في القرآن عرضٌ طويل ، وفيها يقول الله : « وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَنْبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ » من سورة هود . وتارة تجيء التسلية عن طريق وعد الله لرسوله بالنصر والتأييد والحفظ ، كما في قوله سبحانه في سورة الطور : « وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » وقوله في سورة المائدة : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ونحو ما في

سورتي الضحى وألم نشرح من الوعود الكريمة ، والعطايا العظيمة . وطوراً تأتيه التسلية عن طريق إبعاد أعدائه وإنذارهم نحو قوله تعالى في سورة القمر : « سَيُهْزَمُ الْجَنْعُ وَيُبُلِّغُونَ الدُّبُرَ » وقوله سبحانه في سورة فصلت : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » . وطوراً آخر <sup>(٣)</sup> يرد التسلية في صورة الأمر المصريح بالصبر نحو قوله جل شأنه في سورة الأحقاف : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤَا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » أو في صورة النهي عن التفجع عليهم ؛ والحزن منهم . نحو قول الله في سورة طاهر : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » ونحو قوله سبحانه في خواتم سورة النحل : « وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » .

ومن موارد تسلية الله لرسوله أن يخوفه عواقب حزنه من كفر أعدائه نحو : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » في فاتحة سورة الشعراء . ومنها أن يؤسه منهم ليستريح ويفسلي عنهم نحو : « وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ نَمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ » من سورة الأنعام .

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة بوجوهها الخمسة تحت قول الله في بيان الحكمة من تنجيم القرآن « كَذَلِكَ لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ » من سورة الفرقان .

### الحكمة الثانية

التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعملاً . وينصوي تحت هذا الإجمال أمور خمسة أيضاً :

أولها : تبسير حفظ القرآن على الأمة العربية ، وهي كما علمت كانت أمة أمية .

وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكتّابين منهم على ندرتهم ، وكانت مُستغلةً بمصالحها المباشرة ، وبالذّفاع عن دينها الجديد بالحديد والدم ، فلو أنزل القرآن جملةً واحدة لعجزوا عن حفظه ، فاقضت الحكمة العليا أن ينزله الله إليهم مفرقاً ليسهل عليهم حفظه ، وتهيئاً لهم استظهاره .

ثانيها : تسهيل فهمه عليهم كذلك ، مثل ما سبق في توجيه التيسير في حفظه .

ثالثها : التمهيد لكامل تحلّيهم عن عقائدهم الباطلة ، وعباداتهم الفاسدة ، وعاداتهم للرذولة . وذلك بأن يُراضوا على هذا التخلّي شيئاً فشيئاً ، بسبب أنزول القرآن عليهم كذلك شيئاً فشيئاً ، فكلمة نجاح الإسلام معهم في هدم باطل ، انتقل بهم إلى هدم آخر ، وهكذا يبدأ بالأهم ثم بالهم ، حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهرهم منها وهم لا يشعرون بعنتٍ ولا حرج ، وطمعهم عنها دون أن يرتكبوا في سابق فتنه أو عادة . وكانت هذه سياسةً رشيدة ، لا بد منها في تربية هذه الأمة المحمّدية ، لاسيما أنها كانت أئبى معاندة ، تتحمّس لموروثاتها ، وتستमित في الدفاع عما تعتقده من شرفها ؛ وتتهوّر في سفك الدماء وشنّ الفارات ، لأنّقه الأسباب .

رابعها : التمهيد لكامل تحلّيهم بالعقائد الحقّة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة ، بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة . ولهذا بدأ الإسلام بقطامهم عن الشرك والإباحة ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء ، من جرّاء ما فتح عيونهم عليه من أدلة التوحيد ، وبراهين البعث بعد اللوت ، وحجج الحساب والمسئولية والجزاء . ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرة ، وثنى بالزكاة وبالصوم في السنة الثانية من الهجرة ، وختم بالحج في السنة السادسة منها . وكذلك كان الشأن في العادات : زجرهم عن الكبائر وشدّد التنكير عليهم فيها . ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق ، وتدرّج بهم في تحرّم ما كان مستأصلاً فيهم



كالخمر . . . تدرُّجاً حكماً حَقَّقَ الغاية ، وأنقذهم من كابوسها في النهاية . وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطة المثلى أبعد نظراً ، وأهدى سبيلاً ، وأنجح تشريعاً ، وأنجح سياسةً ، من تلك الأمم المتعدنية المتحضرة التي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أقطع إفلاس ، وفشلت أمرٌ فشل . وما عهد أمريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد . !

أليس ذلك إجمازاً للإسلام في سياسة الشعوب ، وتهذيب الجماعات ، وتربية الأمم ؟ بلى ، والتاريخ على ذلك من الشاهدين ! ! .

خامسها : تثبيت قلوب المؤمنين وتسلحهم بعزيمة الصبر واليقين ، بسبب ما كان يقضه القرآن عليهم القينة بعد القينة والحين بعد الحين ، من قصص الأنبياء والمرسلين وما كان لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين ، وما وعد الله به عباده الصالحين ، من النصر والأجر والتأييد والتمكين . والآيات في ذلك كثيرة حسبك منها قول العليِّ الكبير في سورة النور : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا . وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » . وقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده « فَقَطَعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثانية بما انضوى تحتها في قول الله تعالى في سورة الإسراء « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْنٍ » كما يمكن أن يُفسر بها قوله تعالى في سورة الفرقان في بيان أسرار التنجيم « وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » باعتبار أن التنبؤين العظيم إشارة إلى المعاني المنطوية تحت هذا الترتيل .

### الحكمة الثالثة

مُسايرةُ الحوادث والطوارئ في تجمُّدها وتفريقها ، فكلمة جِدَّ منهم جديد ، نزل من القرآن ما يناسبه ، وفصل الله لهم من أحكامه ما يوافقهم . ومنتظم هذه الحكمة أموراً أربعة :

أولها : إجابة السائلين على أسئلتهم عند ما يوجهونها إلى الرسول ﷺ . سواء أكانت تلك الأسئلة لفرض التثبيت من رسالته . كما قال الله تعالى في جواب سؤال أعدائه إياه . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » في سورة الإسراء ، وقوله « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقُرْآنِ قُلِ سَأَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا » النج الآيات في هذا الموضوع من سورة الكهف . أم كانت لفرض التنوير ومعرفة حكم الله كقوله تعالى في سورة البقرة : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمُعْتَفَى » . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ : إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ . وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ » .

ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت تُرفع إلى النبي ﷺ في أوقات مختلفة ، وعلى فتراتٍ متعدِّدة ، حاكية أنهم سألوا ولا يزالون يسألون . فلا بدع أن ينزل الجواب عليها كذلك في أوقاتها المختلفة ، ونوباتها المتعدِّدة .

ثانيها : مجازاة الأفضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها . ومعلوم أن تلك الأفضية والوقائع لم تقع جملةً ، بل وقعت تفصيلاً وتدرجياً ، فلا مناص إذن من فصل الله فيها بنزول القرآن على طهرها تفصيلاً وتدرجياً . والأمثلة على هذا كثيرة ، منها قوله سبحانه في سورة النور : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » إلى قوله سبحانه « أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهنَّ عشر آيات نزلن في حادث من أروع الحوادث : هو اتهام السيدة الجليلة

أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها بالإفك . وفيها دروس اجتماعية لا تزال تُقرأ على الناس ، كما لا تزال تُسجّل براءة هذه الحصانِ الطاهرة من فوق سبع سموات .  
ومن الأمثلة قوله تعالى في مُفتتح سورة المجادلة : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » إلى قوله تعالى « وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . ومن ثلاث آيات نزلن عندما رفعت خولة بنت ثعلبة شكواها إلى رسول الله ﷺ من أن زوجها أوس بن الصامت ظاهراً منها ، وجادلت الرسول بأن معها صبياً صغيراً إن ضمّتم إلى زوجها ضاعوا ، وإن ضمّتم إليهما ضاعوا .

ثالثها : لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها ، وإرشادهم إلى شاكلة الصواب في الوقت نفسه . ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت في أزمان متفرقة ، فمن الحكمة أن يكون القرآن النازل في إصلاحها ، متكافئاً معها في زمانها .  
اقرأ إن شئت قوله سبحانه في سورة آل عمران : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » إلى آيات كثيرة بعدها ، وكلها نزلت في غزوة أحد إرشاداً للمسلمين إلى مواضع أخطائهم في هذا الموقف الرهيب والمأزق العصيب . وكذلك اقرأ قوله سبحانه في سورة التوبة : « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَابْتِئْتُمُ الْمُدِيرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وهي آيات تردع المؤمنين عن رذيلة الإعجاب والاعتزاز في يوم من أيام الله ، وتلفت نظرهم إلى مقدار تدارك الله لهم في شدتهم ، وإلى وجوب أن يتوبوا إلى رشدهم ، ويتوبوا إلى ربهم .

رابعها: كشف حال أعداء الله المنافقين، وهتك أستارهم وسرائرهم للنبي والمسلمين،  
كما يأخذوا منهم حذرهم فيما نوا، شرهم . وحتى يتوب من شاء منهم . اقرأ - إن شئت -  
قوله تعالى في سورة البقرة: « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » إلى قوله « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وهن ثلاث عشرة آية  
فضحت للمنافقين ، كما فضحتهم سورة التوبة في كثير من الآيات ، وكما كشف القرآن  
أستارهم في كثير من المناسبات . ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثالثة بمضامينها  
الأربعة في قول الله تعالى في تلك الآية من سورة الفرقان: « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا  
جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » .

### الحكمة الرابعة

الإرشاد إلى مصدر القرآن ، وأنه كلام الله وحده ، وأنه لا يمكن أن يكون كلام  
محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه .

وبيان ذلك . أن القرآن الكريم تفرؤه من أوله إلى آخره ، فإذا هو مُحْكَمُ السرد،  
دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوى الاتصال ، أخذت بعضه برقاب بعض في سورته  
وآياته وجملة ، يجرى دمُ الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة ، ولا يكاد  
يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة ! أو كأنه سبط وحيد وعقد  
فريد يأخذ بالأبصار : نُظِّمَتْ حُرُوفُهُ وَكَلِمَاتُهُ ، وَنَسَقَتْ جَمَلُهُ وَآيَاتُهُ ، وَجَاءَ آخِرُهُ مُسَارِقًا  
لأوله ، وبدا أوله مؤتياً لآخره . . .

وهنا نتساءل : كيف اتسق للقرآن هذا التألف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق  
للدهش؟ على حين أنه يتنزل جملة واحدة بل تنزل آحاداً مفرقة تفرق الوقائع  
والحوادث في أكثر من عشرين عاماً . . .

الجواب : أننا نلتح هنا سراً جديداً من أسرار الإعجاز ، ونشهد سمة فذة من

سميات الربوبية ، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن ، وأنه كلام الواحد الديان  
« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

وإلا فحدثني - بريك - كيف تستطيع أنت ؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن  
يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط ، متين النسيج والسرود ، متآلف البدايات والنهايات ،  
مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر ، وهي وقائع الزمن وأحداثه  
التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها ، ومتحدثاً عنها : سبباً بعد سبب ،  
وداعية إثر داعية ، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي ، وتغاير ما بين تلك الأسباب ،  
ومع تراخي زمان هذا التأليف ، وتطاول آماذ هذه النجوم ، إلى أكثر من عشرين  
عاماً .

لأريب أن هذا الانفصال الزماني ، وذاك الاختلاف للمحوظ بين هاتيك الدواعي ،  
يستلزمان في مجرى المادة التفكير والانهلال ، ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال  
بين نجوم هذا الكلام .

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً : نزل مُفْرَقاً منجماً ،  
ولكنه تمّ مترابطاً مُحْكَمًا . وَتَفَرَّقَتْ نَجُومُهُ تَفَرَّقَ الْأَسْبَابُ ، ولكن اجتمع نظمه  
اجتماع شمل الأحياب . ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاماً ، ولكن تكامل انسجامه  
بدايةً وختاماً !! .

أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القومى والتقدير ، ومالك الأسباب  
والتسببات ، ومدبر الخلق والكائنات ، وقويم الأرض والسماوات ، العليم بما كان  
وما سيكون ، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شئون ؟؟ .

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات ،  
قال « ضحواها في مكان كذا من سورة كذا » . وهو بشر لا يدري (طبعاً)  
- ما ستجئ به الأيام ، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان ، ولا يدرك ما سيحدث

من الدواعي والأحداث فضلاً عما سينزل من الله فيها . وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد ، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم ، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم ، وينتظم وينأخي ويأنف ويأنم ، ولا يؤخذ عليه أدنى تحاذل ولا تفاوت ، بل يعجزُ انطلق طراً بما فيه من انسجامٍ ووحدةٍ وترابط : « كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » ١١ .

وإنه ليستبين لك سرُّ هذا الإعجاز ، إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام ، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط ، لا في كلام الرسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء .

خذ مثلاً حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما هو في روعته وبلاغته ، وطهره وسموه : لقد قاله الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة ، لدواعٍ متباينة ، في أزمان متطاولة فهل في مكنتك ومكنة البشر معك ، أن ينظموا من هذا السرد الشتيت وحدة ، كتاباً واحداً يصفقه الاسترسال والوحدة ، من غير أن ينقصوا منه أو يزيّدوا عليه أو يتصرفوا فيه ؟؟

ذلك ما لن يكون ، ولا يمكن أن يكون ، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث ، ويخرج للناس شوب مرقع ، وكلام ملفق ينقصه الترابط والانسجام ، وتعمّزه الوحدة والاسترسال ، وتعمّجه الأسماع والأفهام .

إذن : فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجماً بأنه كلام الله وحده . وتلك حكمة جليلة الشأن ، تلك انطلق على الحق في مصدر القرآن ! : « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » .

### ٣ - المعركة الطاحنة

أو الوحي بين معتقديه ومنكريه

كل ما قدمناه إليك في نزول القرآن لا يسلمه ولا يقبله إلا من آمن بالوحي وأساليبه ، والاتصالات الروحية بالملأ الأعلى ، واستمداد الإنسان لمعارفه عن الله تعالى بوساطة الملك ، على غير الطريقة المعتادة بين البشر . ولكن العقلية المصرية أصابها مس من المادية والإلحاد والإباحة ، فأصبح كثير من المتعلمين تعليماً مدرسياً ناقصاً ، لا يهضمون هذه الحقائق العكسية ، ولا يستسيغون فهمها ، بل يلقنون حبلاً وعصياً في سبيل المؤمنين بها ، ولا شبهة لهم فيما ذهبوا إليه إلا شكوك تلقفوها من هنا وهناك ، يروجونها باسم العقل مرة ؛ وباسم العلم مرة أخرى .

لهذا نرى لزماً علينا أن نقف هنا بجانب الوحي وقفة نرفع فيها النقاب عن حقيقته وأنواعه وكيفياته ، ثم ننبع ذلك بالأدلة العلمية على الوحي وإمكانه ، ثم نردفها بالأدلة العقلية على تحققه ووقوعه . ثم نختم هذا المبحث بعلاج الشبهات التي تعترضهم ويعترضون بها في هذا الموقف الجلل . والموضوع الخطير .

تلك نقاط أربع إذا وقفتنا في بحثها ، قطعنا الطريق على عصابات مجرمة ، اتخذت مبحث الوحي أداة للفتنة ، وستاراً يقضون من ورائه وطراً للغواية ، ومآرباً للإباحة ، وسبيلاً إلى هدم الأديان ، وضلال الإنسانية والإنسان .

### ١ - حقيقة الوحي وأنواعه وكيفياته

أما الوحي فعناه في لسان الشرع : أن يُعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة سرية خفية ، غير معتادة للبشر .

١

ويكون على أنواع شتى : منه ما يكون مكالمةً بين العبد وربّه ، كما كلم الله موسى تكليماً . ومنّه ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب مُصطفىه على وجهٍ من العلم الضروري لا يستطيع له دفعاً ، ولا يجد فيه شكاً . ومنّه ما يكون مناماً صادقاً يجيء في تحقّقه ووقوعه ، كما يجيء فلقُ الصبح في تبلّجه وسطوعه . ومنّه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام : وهو ملكٌ كريم ذو قوّة عند ذى العرش مكين ، مطاعٌ ثمّ أمين . وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها . ووحى القرآن كلّهُ من هذا القبيل ، وهو المصطلح عليه بالوحي الجليّ . قال الله تعالى في سورة الشعراء : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » .

٢

ثم إن ملك الوحي يهبط هو الآخر على أساليب شتى : فتارة يظهر للرسول صورته الحقيقية الملكية . وتارة يظهر في صورة إنسانٍ يراه الحاضرون ويستمعون إليه . وتارة يهبط على الرسول خفية فلا يرى ، ولكن يظهر أثرُ التغيير والانفعال على صاحب الرسالة فيعط غطيظاً النائم ، ويفيب غيبة كأنها غشبية أو إغماء وما هي في شيء من الغشبية والإغماء ، إن هي إلا استغراقٌ في لقاء الملك الروحاني ، وانخلاعٌ عن حالته البشرية المادية ، فيؤثر ذلك على الجسم ، فيعطّ ويثقل ثقلاً شديداً ، قد يتصبّب منه الجبين عرقاً في اليوم الشديد البرد . وقد يكون وقع الوحي على الرسول كوقوع الجرس إذا صلّصل في أذن سامعه ، وذلك أشدّ أنواعه . وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسول كأنه دويّ النحل ، لكنهم لا يفقهون كلاماً ، ولا يفقهون حديثاً . أما هو - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه يسمع ويبى ما يوحى إليه ، ويعلم علماً ضرورياً أن هذا هو وحى الله دون لبسٍ ولا خفاء ، ومن غير شك ولا ارتياب ، فإذا انجلي عنه الوحي وجد ما أوحى إليه حاضرّاً في ذاكرته ، منتقشاً في حافظته ، كأنما كتبت في قلبه كتابةً .



والأدلة الشرعية على ما ذكرنا كثيرة في الكتاب والسنة ، منها ما قصصنا عليك في تنزلات القرآن ، ومنها قوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » .

ومنها الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علي - فيفهم عني وقد وعيت عنه ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة : ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفهم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

### ب - الوحي من ناحية العلم

اعلم أن أعداء الوحي ومنكره لا يؤمنون بالشرع وأدلة الشرع . إنما يؤمنون بالعقل على الطريقة التي يستمغنونها ، وبالعلم الذي تواضعوا عليه في اصطلاحهم الحديث ، وهو جملة المعارف اليقينية التي أنتجها دستور البحث الجديد في الوجود وكائناته ، من جعل الشك أساساً للبحث ، والاستناد إلى القاطع الذي يؤيده الحس دون سواه ، فهم يقدّمون الشك ويمعنون فيه ، ثم لا يعترفون إلا بالحسيات ، ولا يحفلون بمجرد العقليات . ومن هنا سجنوا أنفسهم في سجن المادة ، ومكثوا حيناً من الدهر ينكرون ما وراء المادة ، ويسرفون في الشكوك إلى أبعد الحدود ويستخفون بأمر الإلهيات والنبوءات والوحي إلى مدى بعيد لم تصل إليه أظلم عهود الجاهلية ، لولا أن صدمتهم العلم نفسه صدمة عنيفة غيرت رأيهم في إنكار ما وراء المادة كما يأتي إن شاء الله . وإنا نبداً هنا بأدلة الوحي العلمية ؛ لأنها في الواقع أدلة لإمكان الوحي وتقريبه إلى العقول . وإمكان الوحي هو الخطوة الأولى في الموضوع ،

وهو ملحوظ في المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلي الآتي ، فلا غرو أن يكون لتلك الأدلة العلمية مكان الصدارة والتقديم .

« الدليل الأول » التنويمُ الصناعي ، أو التنويم المغناطيسي ، وهو من المقررات العلمية الثابتة . كشفه الدكتور « مسمر » الألماني في القرن الثامن عشر ، وجاهد هو وأتباعه مدى قرن كامل من الزمان في سبيل إثباته وحل العلماء على الاعتراف به وقد نجحوا في ذلك ، فاعترف العلماء به علمياً ؛ بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق واطمأنوا إلى تجاربه . وأخيراً أثبتوا بوساطته ما يأتي :

١ - أن للإنسان عقلاً باطنياً أرق من عقله المعتاد كثيراً .

٢ - أنه وهو في حالة التنويم يرى ويسمع من بعد شاسع ، ويقرأ من وراء حجب ، ويخبر عما سيحدث ، مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامة لحدوثه .

٣ - أن للتنويم درجات بعضها فوق بعض يزداد العقل الباطن سموًا بقتله فيها .

٤ - أنه قد يصل إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده ؛ وتمثل إلى جانبه غير مرئية ، بينما يكون الجسم في حالة تشبه الموت ، لولا علاقة خفية بين الروح والجسم .

٥ - أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحاً .

٦ - أن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال .

٧ - أن الروح لا تنحل بانحلاله .

٨ - أنها تتصل بالأرواح التي سبقتها إذا تجردت عن المادة ، إلى غير ذلك مما

لا نسلم جميع تفاصيله تقليداً ، وإن كنا نسلم هذا العلم وتجاربه . ومقرراته في الجملة ، لثبوت الدليل بها في الجملة أيضاً بواسطة التجارب العديدة .

والمشاهدات الكثيرة . وله في الغرب أنصار من علماء وطلاب ؛ وله دورٌ وكتب ، وله  
مستشفياتٌ يؤمها الناس للتداوى به .

وليس من موضوعنا أن نتوسّع لك في هذا العلم وتاريخه وتجاربه وفوائده ، ولكننا  
نريد أن نتقدّم إليك بفكرة مجملةٍ عنه ، تريك إلى أيّ حدّ أظهر الله في هذا العصر  
آياتٍ باهراتٍ ، على أيدي الطبيعيين الذين ينكرون ما وراء المادة ويسرفون في الإنكار ،  
فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ يثبتون ما وراء المادة ويسرفون في الإثبات . تحميّقاً لقوله  
سبحانه « سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَدَّبُّبِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » ١٥  
من خاتمة سورة فصلت .

وإننا نضع بين يديك هنا تجربةً واحدةً من تجارب التنويم ، تقرّب إليك الوحي  
كل التقريب ، وهذه التجربة رأيتها بعيني ، وسمعتها بأذني ، بنادي جمعية الشبان المسلمين ،  
على مرأى ومسمع من جمهور مثقف كبير ، حضر ليشهد محاضرةً مهمةً في التنويم المغناطيسي  
وإثبات أنه يمكن أن يتخذ سلاحاً مسموماً لتغيير عقيدة الشخص ودينه ، كما نسفل إلى  
ذلك بعض المبشرين ، إذ فتن بهذا العدوان الخبيث شاباً من خيرة الشبان المسلمين حول  
سنة ١٣٥١ هـ في حادثة مشهورة مروّعة ، وما هي منكم ببعيد .

قام المحاضر ، وهو أستاذ في التنويم المغناطيسي ، وأحضر الوسيط وهو فتى فيه  
استعداد خاص للتأثر بالأستاذ ، والأستاذ فيه استعداد خاص للتأثير على الوسيط ، فالأول  
ضعيف النفس ، والثاني قويها . وللضعف والقوة وجوه ليس هذا موضع بيانها .  
نظر الأستاذ في عين الوسيط نظرات عميقة نافذة ، وأجرى عليه حركاتٍ يسمونها  
سحبات ، فما هي إلا لحظة حتى رأينا الوسيط يغطّ غطيظ النائم ، وقد امتنع لونه ، وهدم  
جسمه ، وفقد إحساسه المعتاد ، حتى لقد كان أحداً يخرجهُ بالإبرة وخزّات عدة ،  
ويخرجه كذلك ثانٍ وثالث ، فلا يبدى الوسيط حرّاً كماً ، ولا يظهر أيّ عرضٍ لشعوره  
وإحساسه بها . وحينئذٍ تأكّدنا أنه قد نام ذلك النوم الصناعي أو المغناطيسي .

وهناك تسلط الأستاذ على الوسيط بسأله: ما اسمك؟ فأجاب به باسمه الحقيقي. فقال الأستاذ: ليس هذا هو اسمك، وإنما اسمك كذا (وافترى عليه اسماً آخر) ثم أخذ يقرر في نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق، بوساطة أغاليط يلقنها إياه في صورة الأدلة، وبكلام يوجهه إليه في صيغة الأمر والنهي. وهكذا أملى عليه هذه الأكذوبة إملاءً، وفرضها عليه فرضاً؛ حتى خضع لها الوسيط وأذعن!

ثم أخذ الأستاذ وأخذنا نناديه باسمه الحقيقي المرة بعد الأخرى في فترات متقطعة، وفي أثناء الحديث على حين غفلة، كل ذلك وهو لا يجيب. ثم نناديه كذلك باسمه الموضوع فيجيب، دون تردد، ولا تلعثم.

ثم أمر الأستاذ وسيطه أن يتذكر دائماً أن هذا الاسم الجديد هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته. ثم أيقظه وأخذ يتم محاضراته ونحن نفتحاً الوسيط بالاسم الحقيقي فلا يجيب، ثم نفجوه باسمه الثاني فيجيب، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب عاد الوسيط إلى حاله الأولى من العلم باسمه الحقيقي!

وبهذه التجربة أثبت الأستاذ أن النوم «بكسر الواو» يستطيع أن يمحو من نفس وسيطه كل أثر يريد محوه، مهما كان ثابتاً في النفس، كاسم الإنسان عينه، ومهما كان مقدساً فيها كعقائد الدين.

وإنما اختار الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين: أحدهما أن محو الدين عدوانٌ أليم، وإجرام شنيع، لم تقبله نفسية المحاضر ولا الحاضرين. ثانيهما: أن الاسم أثبت في نفس صاحبه من دينه؛ فمحوه منها أعجب، ومنه تعلم أن محو الدين منها أيسر! وبهذه التجربة أيضاً ثبت لي أنا من طريق علمي، ما قرّب إلى الوحي عملياً، وما جعلني أعلمه تعليلاً علمياً: فالوحي «عن طريق الملك» عبارة عن اتصال الملك

بالرسول اتصالاً يؤثر به الأول في الثاني ، ويتأثر فيه الثاني بالأول ، وذلك باستعداد خاص في كليهما ، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير ، لأنه روحاني محض ، والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك لصفاء روحانيته ، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك . وعند تسلط الملك على الرسول ينسأخ الرسول عن حالته العادية ، ويظهر أثر التغيير عليه ، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك ، وينطبع ما تلقاه في نفسه ، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالته الأولى ، وجد ما تلقاه ماثلاً في نفسه ، حاضراً في قلبه ، كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتاباً .

أتظن - أيها القاري الكريم - أن الخلق يستطيع أن يؤثر في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسي ، ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي ؟ كلا ثم كلا « إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » .

« الدليل العلمي الثاني » أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما تعرفه ونشاهده ونتفجع به ، مما يسمونه التليفون ، واللاسلكي ، والميكروفون ، والراديو . وعن طريق أولئك أمكن الإنسان أن يخاطب من كان في آفاق بعيدة عنه وأن يفهمه ما شاء ويرشده إلى ما أراد . فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر ، عن أن يوحى إلى بعض عباده ما شاء ، عن طريق الملك أو غير الملك ؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

« الدليل الثالث » استطاع العلم أيضاً أن يملأ بعض أسطوانات من الجراد الجامد الجاهل ، بأصوات وأنغام ، وبقرآنٍ وأغانٍ وكلامٍ ، على وجه يجعلها حاكية له بدقة وإتقان ، وبين أيدينا من ذلك شيء كثير لا سبيل إلى إنكاره بسمونه (بالقوافر) . أبعد هذه المخترعات القائمة ، يستبعد على القادر تعالى بواسطة ملك ومن غير وساطة ملك ؛ أن يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده ، بكلام مقدس

يهدى به خلقه . ويُظهر به حَقَّه ، على وجهٍ يجعل ذلك الكلام منتقشاً في قلب رسوله ،  
حتى يحكمه بدقة وإتقان كذلك ؟

« الدليل الرابع » أننا نشاهد بعض الحيوانات الدنيا تأتي بمجانب الأنظمة  
والأعمال ، مما يُحْمِلُ معه أن يكون صادراً عن تفكير لها ، أو غريزة ساذجة فيها ،  
ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصدر في ذلك إلا عن إرادة عليا ، توحى إليها وتلهمها تلك  
العجائب والغرائب ، من الصناعات والأعمال ، والدقة والاحتتيال .

وإذا صحَّ هذا في عالم الحيوان ، فهو أولى أن يصح في عالم الإنسان ، حيث استمداده  
للانصال بالأفق الأعلى يكون أقوى ، وأخذه عنه يكون أتمّ ، ومن ذلك ما يكون  
بطريق الوحي .

وإن شئت أمثلةً لتلك الحيوانات التي ضربناها لك مثلاً في إلهاماته العلوية ،  
فدونك النمل والنحل ، وما تأتيتان من ضروب الأعمال ، ودقّة النظام . وهاك  
حيواناً غريباً أسموه « اكسيكلوب » . وقال عنه الأستاذ « ميلن إدوار » المدرس  
بجامعة ( السوربون ) بفرنسا ما ترجمته : « إن الحيوانات المسماة « اكسيكلوب »  
تعيش منفردة ، وتموت بعد أن تبيض مباشرة ، وتخرج صفارها على حالة ديدان  
لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أكلة عادية ، كما لا تستطيع الحصول على  
غذائها . ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة في مسكن مقفل ، وفي هدوء تام ،  
وإلا هلكت .

فترى الأم متى حان وقت بيضها ، تعمد إلى قطعة من الخشب ، فتحفر فيها  
سرداباً طويلاً ، فإذا أتمته أخذت في جلب ذخيرة إليه ، تسكني صغيراً واحداً مدة  
سنة ، تلك الذخيرة هي طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، فتحشوها بها قاع  
السرداب ، ثم تضع عليه بيضة واحدة ، ثم تأتي بنشارة الخشب ، وتكوّن منها  
عجينة تجعلها سقفاً على تلك البيضة ، ثم تأتي بذخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك

السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهلمَّ جرّاً حتى يفرغ بيضها ، ثم تترك الكل ونموت « ١١ .

فن ذا الذى علمَّ هذه الحشرة الضعيفة الساذجة ، تلك الصفاة المحيرة للعقل ؟ ومن أفهمها وهى تموت بعد أن تبيض مباشرة أن صفارها التى ستولد ، فى حاجة إلى البقاء سنةً فى حالة ضعفٍ وعجز ؟ من الذى غرس فى قلبها هذه العناية بنوعها ، حتى كلفتها كلَّ هذه المشقة فى وضع بويضاتها ؟ ١٢ .

لا ريب أن قيوم الوجود يؤتى الكائنات علماً بما يقيمها وبما يصلحها ، من غير طريق الحواس التى لا تستطيع أن تكتسبه بها . ومن العبث وضلال الرأى أن يثبت الباحث الطبيعى إلهاماً تبعثه القدرة الإلهية إلى أحقر الحشرات ، ثم ينفيه عن النوع البشرى وهو أشدُّ ما يكون حاجة إلى هذا الوحي والإلهام فى حياته الفردية والاجتماعية .

« الدليل الخامس » العبقرية ، ويعرّفها أفلاطون بأنها حالٌ إلهيةٌ مولدةٌ للإلهامات العلوية للبشر ، ويقرر الفلاسفة أنها حال علوية لا شأن للعقل فيها . ويقول الطبيعيون : إنها هبة من الطبيعة نفسها لا تحصلها دراسة ، ولا يوجد لها تفكير .

وهاك أمثلةً للعبقرية والعباقرة ، نشعُّ على موضوع الوحي نوراً كشافاً يهدى الحيارى الضالين ، إلى سواء السبيل .

١ - قال الأستاذ « ميرس » الانجليزى مدرس علم النفس بجامعة « كامبردج » فى كتاب كبير له أسماء « الشخصية الإنسانية » ما ترجمته : كان للمستر بيدلر خاصّة تكاد تلتحق بالمعجزات ؛ فإنه كان يعين على البديهية العوامل التى إذا ضرب بعضها فى بعض أنتجت عدداً من سبعة أو ثمانية أرقام . فإذا سئل مثلاً : ما هما العددان اللذان إذا ضرب أحدهما فى الآخر نتج العدد ( ١٧٨٦١ ) أجابك على الفور بأنهما

(٥٣٣٣٧). وهو يقول : إنه لا يدري على أية حال يأتي بهذا الجواب ، فكانت الإجابة عنده كأنها غريزة طبيعية .

(٢) ونقل عن الشاعر الكبير (سوللي برودوم) الفرنسي أنه قال : « حدث لى فى بعض الأحايين أنى كفت أجد فجأة برهان نظرية هندسية أقيت إلى منذ سنة ، وذلك بدون أن أتى إليها أقل التفات » .

(٣) وذكر الميسو (رينيه) الشاعر الفرنسي أنه ينام غالباً وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم ، ثم يستيقظ فيجدها تامة .

(٤) وكذلك يقول الشاعر (موسيه) الفرنسي « أنا لا أعمل شيئاً ولكن أسمع ما يلقى إلى فأنتله ، فكان إنساناً مجهولاً يناجيني فى أذنى » .

وهذه الأمثلة التى سقناها تثبت وجود اتصالات روحانية باطنة فى بعض الأفراد ، تُمدُّ الإنسان بعلم وهداية من طريق غير معتاد ؛ وذلك يقرب الوحي أَيْما تقريب ؛ فى وقت اشتد شك الناس فيه حتى كذبوا بالإلهيات والنبوات ، وسخروا بالأديان والشرائع ، مع أنها أعظم عوامل التحول الاجتماعى والفكرى فى الإنسان ؛ وأكبر الأحداث التى غيرت العالم وحوّلت مجرى التاريخ ، ومن العار الجارح لكرامة البشر ، أن تكون تلك العوامل والأحداث العظمى ، قامت على أوامير خاطئة ، أو على أكاذيب متعمدة !

« الدليل السادس » قرّر العلم الحديث أنه شوهد على بعض الناس أنهم يظهرون بمظاهر روحانية ، تعتبر من الخوارق التى لم يكن يحلم بمحدثها العلماء ، على حين أن هؤلاء الذين أتوا بتلك الظواهر الخارقة كانوا فى حالة ذهول ، وقد استحال تحليل ما أتوا تحليلاً مادياً يستند إلى الحس ، وقد اختبروا تلك الظواهر ، واستحضروا لشهودها أكبر مشعوزى الأرض ، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة فى شيء ؛ وإنما هى أحداث روحانية ، لا أثر فيها للمهارة وخفة اليد .



تلك حقيقة من حقائق العلم الحديث الحاضر ، يقررون فيها أنه قلّة يفتح على بعض الناس في حالة من حالات ذهولهم بانكشافات وظواهر روحية ، فكيف يُستبعد بجانب هذا الكشف العلمى أن يفتح الله على بعض الممتازين من خلقه بانكشافات علمية عن طريق الوحي ، بينما هم من كلمة العقول والأخلاق ؟ لقد أسفر الصبح لذى عينين !

### ج - الوحي من ناحية العقل

عرفت فيما سقناه لك من الأدلة العلمية أن الوحي ممكن وقريب من الوقوع ، ونقيم لك الدليل العقلى هنا على أن هذا الأمر الممكن قد وقع فعلاً : ذلك أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم محمد ﷺ ، وكل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت ، وذلك هو المطلوب ، أما الدليل على أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم ، فما مرّ عليك من أنباء الوحي في الكتاب والسنة . وأما الدليل على أن كل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت ، فإن ذلك هو مقتضى الصدق والعصمة . وأما الدليل على أن محمداً ﷺ صادقٌ معصومٌ فإنما هي للعجزة القائمة مقام قوله تعالى لعباده في شأن تصديق رسوله : « صَدَقَ عَبْدِي فِي كُلِّ مَا يُبَلِّغُنِي عَنِّي . » ومن ذلك أنه يوحى إليه منى .

وهنا نجد أنفسنا قد انتهينا إلى المعجزة ، فما هي المعجزة ؟ .

### المعجزة

هي أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله ، أو هي أمرٌ خارق للعادة ، خارجٌ عن حدود الأسباب المعروفة ، يخلقه الله تعالى على يد مدعى النبوة عند دعواه إياها شاهداً على صدقه . فإذا قام إنسان ما ، وادعى أنه مبعوث الله إلى

خلقه ؛ ورسوله إلى عباده ؛ وقال : إن آية صدقي فيما أدعيه ؛ أن يغير الله الذي أرسلني عادة من عاداته على يدي ، وأن يخرج الآن عن سنة من سنة العامة في وجوده ، ثم قال : وسيايتكم الله بهذا الأمر العجيب من باب ترون أنيكم فيه نابون ، وعليه قادرون ، وإني أحمداكم زراقاتٍ ووحداً أن تأتوا بمثل هذه الآية ، وأمامكم الباب مفتوحاً كما تعتقدون ، وفيكم النبوغ موفور كما تدعون ، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدي . قال ذلك بلغة الواثق ؛ وتحداًنا هذا التحدي الظاهر ، في وقت يثور فيه على عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا ، ويسفه فيه أحلامنا وأحلام أمثالنا من آباءنا ، ونحن أحرص ما نكون على تعجيزه وتبهيته والغلبة عليه والظفر به ، دفاعاً عن كرامتنا ، وانتصاراً لأعز شيء لدينا .

ثم لم يلبث أن قام وقمنا ؛ وأجمع أمره وأجمعنا ، وإذا نحن جميعاً بعد محاولات ومُصاولات ؛ لم نستطع أن نأتي بمثل ما أتى به ، فضلاً عن أعظم منه . مع أننا أمة وهو فرد . ومع أنه قد دخل علينا من أيسر الطرق في نظرنا ؛ ومن أشهر فن في زماننا ، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظرته ، وأنصفنا كل إنصافٍ من نفسه !!

هل يشكُّ ذو مُسكة من عقل ، في أن هذا الإنسان المفقوق الممتاز ، صادق في رسالته ، محق في دعايته ؟ خصوصاً إذا عرفنا فوق ذلك كله ، أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق ، من لدن صباه وطفولته ، إلى يوم مبعثه ورسالته ! .

لأنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه ، لقلنا : رجل حدق فنا من الفنون التي لا علم لنا بها ، أو تعلم صناعة من الصناعات التي لم نُحطُ بخبرها . أما وقد جاءنا من الناحية التي نشهد لأنفسنا فيها بالفوق والسبق ، فلا يسعنا إلا الإذعان له ، والإيمان بما جاء به ، ما دمنا منصفين .

مولنضرب لك مثلاً : جاء موسى عليه السلام بمعجزته عصاً من الخشب ، لا روح

فيها ولا حركة ، ولا لين ولا رطوبة ، ثم ألقاها باسم الذي أرسله ؛ فإذا هي حية تسعى  
بينما الأمة التي تحداها بذلك كانت قد تفوقت في السحر وحدقته ؛ وضربت فيه بأوفر  
سهم وأوفى نصيب ، خصوصاً أنهم أمة وهو فرد . وهم نابغون في السحر وهو مع نشأته  
فيهم لم يُعرف يوماً من الأيام بمعالجة السحر . وهم معتزّون بعدادهم وعددهم وسلطانهم ،  
وهو خلو من هذه الأسباب والمظاهر .

فهل يبقى للشك ظل بعد أن أتى موسى عصاه فإذا هي تلتفت ما يأنفكون ، ووقع  
الحق وبطل ما كانوا يعملون ، وَالَّذِي السَّحَرَهُ سَاجِدِينَ قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ  
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ . / فَعَسَىٰ لَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ أَجْلِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

الحق أبلج . ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم ، لأنهم أعرف بالسحر  
ومقدماته ونتائجها ، وقد رأوا رأى العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع هذا السحر المبنى  
على مقدمات يستطيع كل إنسان أن يزاولها ، ولها نتائج محدودة لا يمكن أن يتجاوزها  
نعم لم يطق السحرة صبراً عن المسارعة إلى الاعتراف والخضوع للحق بعدما تبين ،  
مهما كلّفهم ذلك أن يُقتلوا أو يُصلبوا ؛ وقالوا لفرعون مليكهم ومعبودهم بالأمس  
« لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا . فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا  
تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » . اقرأ إن شئت الآيات بعدها في سورة طه إلى قوله  
سبحانه : « وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى » .

قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله : قلّه في عيسى عليه السلام وإبرائه  
الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى وخلقته من الطين كهيئة الطير بإذن الله ؛ أمام قوم  
نبغوا في الطب أيّما نبوغ ومهروا فيه أيّما مهارة<sup>(١)</sup> !

(١) لا تعباً هنا بما يُعزى إلى الميسو رينان من إنكاره نبوغ قوم عيسى في الطب .  
فإنه ناف ، والمثبتُ مقدّم على النافي . وعلى فرض صحة هذا النفي فإن هذا لا يضرنا  
شيئاً لأن المعجزة يكفي في تحقّقها عجز البشر عن مثلها . وليس تفوق المواجّهين بها  
شرطاً ، إنما هو أمر زائد غير مشروط .

شبهاً

وقل مثل ذلك وأكثر من ذلك في خاتم الأنبياء سيدنا ومولانا محمد ﷺ وما جاء به من آيات بينات ، ومعجزات واضحة وحسبك القرآن وحده برهاناً ساطعاً بل براهين ساطعات : كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم في فم الدنيا إلى يوم الساعة . تتحدّى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان ، والعلوم والمعارف ، وأنبياء الغيب وشواهد الحق .

أضف إلى ذلك أن الذين شوفوا بخطابه عند مهبط الوحي كانوا أئمة الفصاحة ، وفُرسان البلاغة ، بضاعتهم الكلام والتفنن في إجادته . وصناعتهم التنافس في النثر وديباجته ، والشعر ورويقه . وكرامتهم مرتبطة بما يُحمّدون في هذا الباب ، لا بما يجمعون من الذهب أو يمحّلون من ألقاب . حتى بلغوا في هذا الميدان شأواً لا يُبارى ، وغاية لا تُدرك . وما يكون لنا أن نطلق العنان هنا للقلم . وإلا ضاق بنا التأليف والزمن . وأنت خبير بإعجاز القرآن ، وما كتبت في إعجاز القرآن . فاكتمف بهذه الإشارة الخاطفة . وإن أردت المزيد فعليك بما كتبت في إعجاز القرآن .

### د - دفع الشبهات

ولكنني أعالج بين يديك لهذه المناسبة شبهاتٍ عشرًا يردّها كثيرٌ من المفتونين : « الشبهة الأولى » يقولون : إن المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات . فإذا كان فيها طرفة أو دهشة أو عجب ، فكذلك آثار العلم ومدعشاته فيما نرى ونسمع . والجواب : تعرفه مما ذكرناه آنفاً في بحث المعجزة . مما يقين به الفرقُ بعيداً والبونُ شاسعاً بين المعجزة وما جدّ أو يجدّ في العالم من عجائب العلم ، وروائع الفن ، وبدائع الاختراع . فالمعجزة ليست لها أسباب معروفة حتى تلمس وبؤى بمثلها . أما هذه المخترعات فإن لها أسباباً معروفة عند أصحابها ، ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها يبسر وسهولة متى التمسها من طريقها .

« الشبهة الثانية » يقولون : إن المعجزة كالسحر والشعوذة وما إليهما : إن هي إلا تخييلات وتضليلات .

والجواب : يتبين لك مما قصصنا عليك في المعجزة وفي ضرب المثل لها بمصى موسى . ويمكن تلخيصه بأن المعجزة نفحة من نفحات الحق تخرج عن أفق الأسباب المعتادة ، والوسائل للمشاهدة ، والغايات المألوفة . أما السحر وما أشبهه ، فإنها فنون خبيثة ، ذات قواعد وأوضاع يعرفها كل من ألمَّ بها ، ويصل إلى وسائلها وغاياتها كل من عالجها من بابها . ولهذا كان أول من آمن بموسى هم السحرة أنفسهم ، لأنهم أعلم بهذا الفرق الواضح ، والبون الشاسع ، كما تقدم .

« الشبهة الثالثة » يقولون : إن ما تسمونه معجزات من العلوم والمعارف التي اشتغل على مثلها القرآن ، ما هي إلا آثار لمواهب بعض النابغين من الناس ، وهذه المواهب وآثارها وُجدت ويمكن أن توجد في كل أمة .

والجواب : أن مواهب النابغين ، ونبوغ الموهوبين ، وما يكون منهم من آثار وأفسار كل ذلك له وسائل وعوامل ، ثم له أشباه معتادة ونظائر ، في كل أمة وجيل ، وفي كل عصر ومصر ، أما المعجزات فلن تجد لها من وسائل ولا عوامل ، وإن تستطيع أن تصل إلى أشباه معتادة لها ، نظائر ، اللهم إلا إذا خرجنا عن نطاق الكون المعروف ، وسنن الوجود المألوف .

« الشبهة الرابعة » يقولون : إن خرق الله لعاداته على أيدي رسله كما تقولون ، يعتبر خروجاً عن النظام العام الذي تقتضيه الحكمة ، وتتناط به المصلحة .

والجواب : أن المعجزة - وإن كانت خارجة عن حدود الأنظمة المعتادة لا تعتبر خروجاً على النظام العام الذي تقتضيه الحكمة ، وتتناط به المصلحة ، بل هي من مقتضيات ذلك النظام العام الذي تملية الحكمة ، وتوجيه المصلحة . وأي حكمة أجل من تأييد الحق وأهل الحق ؟ وأي مصلحة أعظم من اهتداء الخلق إلى طريق سعادتهم ؟ بواسطة تلك المعجزات التي يفهمون منها مراد الخالق من تأييد رسله ، ووجوب تصديقهم لهم ، واتباعهم بإمام .

« الشبهة الخامسة » يقولون : لو كان الوحي ممكناً لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة ، ولم يخص به شريحة قليلة من خلقه .

الجواب : أن عامة البشر ليس لديهم استعداد لتلقي الوحي عن الله ، لا مباشرة ولا بواسطة الملك ، حتى لو جاءهم ملك لم يستطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر في صورة إنسان ، وحينئذ يعود اللبس ويبقى الإشكال . فقضت الحكمة أن يجعل الله من بنى الإنسان طائفة متميزة لها استعداد خاص يؤهلها لأن تتلقى عن الله الوحي ، ثم تؤديه في أمانة إلى العامة من إخوانهم في الإنسانية ، بعد أن وضع الله في أيديهم شواهد الحق الناطقة التي تدل العالم على مراده سبحانه من تصديقهم ، وبعد أن سلّحهم بالآيات التي تطمئن الناس على أنهم رسل لإفناذهم وإرشادهم من عند ربهم . ثم إن اختصاص بعض أفراد النوع الإنساني بالوحي والنبوة ، فيه نوع من الاختبار والابتلاء ، الذي بنى الله عليه هذه الحياة وميز به الخبيث من الطيب . « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

وتلك الشبهة يقول الله في مثلها من سورة الأنعام : « وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ . وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » .

« الشبهة السادسة » يقولون : كيف تدلُّ المعجزة على تصديق الله لرسوله ، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه .

الجواب : أن دلالة المعجزة على تصديق الرسول ، كدلالة الكون على خالقه مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه . ولنضرب لهم للمثال ، كيلا تبقى لهم شبهة ولا يقوم لهم عذر : افرض أنك حضرت مجلساً عاماً فيه ملك من الملوك ، وكان من تقاليد هذا الملك ألا يكشف رأسه في مجلس من المجالس العامة ، وبينما القوم جلوس في حضرة صاحب الجلالة إذ نهض رجل من الحاضرين معروف للجميع بصدقه وأمانته ، وأدبه واستقامته ، وحسبه ونسبه . وإذا هذا الرجل يقول على مرأى ومسمع من المليك ورعيته : أيها القوم إن مولاي الملك حملني هذه الرسالة أبلغكم إياها ، وهي أن تفعلوا

كذا ، وتتركوا كذا ، ثم سكت الملك ولم يكذبه ، ثم لم يكتف الرجل بطهارة ماضيه ، وسكوت مليكه في ترويح دعوته ، وتأيد رسالته . بل قال إن آية صدق أن يُعَيَّر مولاى الملك عادته الآن ، ويخرج عن تقليد من تقاليده المعروفة لكم جميعا ، وذلك بأن يُعرِّى رأسه فى هذا المجلس العام . ثم ما كاد ينتهى حتى غرَّى للمليك رأسه وخلع تاجه . أفلا يعتبر ذلك دليلا كافيا على صدق هذا الرجل وصدق ما جاء به ؟ ثم ما باللك إذا هو قد عزز دليله بالتحدى فقال : إني أتحداكم أن يجيبكم الملك إلى مثل ما أجبني إليه . فأخذوا يطلبون ويلحُّون ، فلم يستجب لهم الملك ، ولم يغير عادته معهم ولا مرة واحدة . أفلا يكون ذلك برهاناً أبلغ من الصبح على أن هذا الداعى هو رسول هذا الملك حقاً ؟ ثم ألا يكون المكذب بعد ذلك معانداً ومكابراً ، ويكون بالحيوان الذى لا يفهم ولا يعقل ؛ أشبه منه بالإنسان الذى يفهم ويعقل ؟ « **أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ؛ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .** »

وذلك المثل هو مثل رُسُل الله ، تؤيدهم معجزات الله . « **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .** »

« **الشبهة السابعة** » يقولون : إن هذا الوحي الذى تدعونه وتدعون تنجيته ، جاء بهذا القرآن غير مرتَّب ولا منظم ، فلم يُفرد كلَّ غرض من أغراضه بفصل أو باب ، شأن سائر الكتب المنظمة . بل مُزجت أغراضه مزجاً غير مُراعى فيه نظام التأليف ، فيبعد أن يكون وحيًا من الله . وهذه الشبهة واردة كما ترى على تنجيم القرآن وترتيبه أيضاً .

والجواب : أن مخالفة القرآن لأنظمة الكتب المؤلفة لا تعتبر عيباً فيه ، ولا فى وحيه ، وموحيه ، بل هى - على العكس - دليل مادى ، على أنه ليس بكتاب وضعى بشرى ؛ يجلس إليه واضعه من الناس ؛ فيجعل لكل طائفة من معلوماته المتناسبة فصلاً ، ولكل مجموعة من فصوله المتناسقة باباً ؛ بل هو مجموع إشارات من الوحي الإلهى الأعلى - اقتضتها الحكمة ودعت إليها المصلحة . على ما هو مفصّل فى أسرار تنجيم القرآن .

ثم إن هذا المزيج الطريف الذي تجده في كل سورة أو طائفة منه ، له أثر بالغ في التذاذ قارئه ، وتشويق سامعه ، واستفادة المستفيد بأنواع متنوعة منه ، في كل جلسة من جلساته أو درس من درسه . وهذا هو الأسلوب الحكيم في التعليم والإرشاد ، خصوصاً لتلك الأمة الأُمّية التي نزل عليها . فما أشبه كل مجموعة من القرآن بروضة يانعة يَتَنَقَّلُ الإنسان بين أفيائها متمتعا بكل الثمرات ، أو بمائدة حافلة بشتى الأطعمة يُشبع الجائع حاجته بما فيها من جميع الألوان .

وهنا دقيقة أحب ألا تغرب عن علمك . وهي أن هذا الروض الرباني اليبانع (القرآن الكريم) يقوم بين جملته وآيه وسوره تناسب بارع ، وارتباط محكم ، واثلاف بدیع ، ينتهي إلى حدّ الإعجاز ، خصوصاً إذا لاحظنا نزوله مُنَجَّمًا على السنين والشهور والأيام .

قال الشيخ ولي الدين الملوي : « قد وهم من قال : لا يُطلب الآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفارقة . وفضل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً . فالصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سورهُ ، كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملةً إلى بيت العزة . ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر ، والذي ينبغى في كل آية أن يُبحث أول كل شيء عن كونها مكتملة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففي ذلك علم جم . وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيمت له » .

وقال الإمام نجر الدين الرازي في تفسيره لسورة البقرة ما نصه :

« ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته . ولعلّ الذين قالوا : إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، إلا أني رأيت جمهور



المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كقليل :

والنجمُ سَمَّصَفَرُ الأَبْصَارُ رُؤْيَتُهُ      والذنبُ للظرفِ لِلنَّجْمِ فِي الصَّغَرِ  
« الشبهة الثامنة » يقولون : إن محمداً كان عصبياً حاداً المزاج ، وكان مريضاً بما  
يسمونه ( المستريا ) فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب  
بها .

والجواب : أن هذه فِرْيَةٌ تدلُّ على جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ . فالمعروف عنه  
بشهادة التاريخ الصحيح ، والأدلة القاطعة ، أنه كان صلى الله عليه وسلم وديعاً ، صبوراً  
حليماً ، بل كان عظيم الصبر ، واسع الحلم ، فسيح الصدر ، حتى إنه وسع الناس جميعاً  
ببسطه وخلقه . وكان شجاعاً مقداماً سليم الجسم ، صحيح البدن ، حتى إنه صارع رُكَّانَةَ  
المشهور بشجاعته فصرعه ، وكان يثبت في الميدان حين يفرُّ الشجعان ، ويقزع الخلق  
ويشتدُّ الأمر ، ويقول : « أنا النبيُّ لَا كَذِبُ ، أنا ابنُ عبدِ المطلب » ويقول :  
« إلىَّ عبادَ الله » ولا يزال كذلك حتى يُنقذ الموقف ويكسب المعركة . ولو أفضنا في  
هذا الموضوع لظال بنا الكلام ، ولكن موضوعه كتب السيرة والشمائل الحمديَّة  
فارجع إليهما إن شئت . . . أما مرض ( المستريا ) الذي يَصِمُونَهُ ﷺ كذباً به فهو داء  
عصبِيٌّ عُضَالٌ ، أكثرُ إصاباتِه في النساء . ومن أعراضه شدوذٌ في الخلق ، وضيقٌ في  
التنفس ، واضطرابٌ في الهضم . وقد يصل بصاحبه إلى شلل موضعي ، ثم إلى تشنُّج ،  
ثم إلى إغماء ، ثم إلى هذيانٍ مصحوبٍ بحركة واضطراب في اليدين والرجلين ، وقَفْزٍ  
من مكان إلى مكان . وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحاً تهدده ، وأعداءً تحاربه أو  
أنه يسمع أصواتاً تحاطبه ، على حين أنه لا وجود لشيء من ذلك كله في الحسِّ والواقع .

فهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه كان أمة وحده  
في أخلاقه ، و ثباته ، وحلمه ، وعقله ، ورباطة جأشه ، وسلامة جسمه ، وقوة بنائه ؟  
ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيا الأطباء ، وما انتدب له محمد ﷺ من  
تكوين أمة شمسٍ أئبية ، وتربيتها على أسس نواميس الهداية ، ودساتير الاجتماع ،  
وقوانين الأخلاق ، وقواعد النهضة والرقى ؟ !

أضف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة للمعجزة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد  
قرن واحد من الزمان ، هي أمة الأمم ، وصاحبة العلم ، وربّة السيف والقلم ! !  
فهل المريض المهووس الذي لا يصلح لقيادة نفسه يقضى له أن يقوم بهذه القيادة  
العالمية الفاتكة ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش ؟ !

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمْدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ  
« الشبهة التاسعة » يقولون : إنكم تستدلون على الوحي بإعجاز القرآن وتستدلون  
على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار البلاغة ، ونحن لا ندرك تلك الأسرار ولا نصلحها ،  
فلا نسلم الوحي المبني عليها .

والجواب : أن للقرآن نواحيَ أخرى في الإعجاز غير ما يحويه من أسرار البلاغة  
والبيان ، ومن السهل معرفتها على من لم يتمهر في علوم العربية واللسان . منها ما يحويه  
هذا التنزيل من المعارف السامية والتعاليم العالية ، في العقائد والعبادات ، وفي  
التشريعات المدنية والجنائية ، والحربية والمالية ، والحقوق الشخصية ، والاجتماعية  
والدولية . وإن مقارنة بسيطة بين تلك الهدايات القرآنية وبين ما يوجد على وجه  
الأرض من سائر التشريعات الدينية وغير الدينية ، توضّح لك ذلك الإعجاز الباهر ،  
خصوصا إذا لاحظت أن هذا الذي جاء بتلك المعارف الخارقة كان رجلا أميا ، نشأ  
وعاش ، وشبّ وشاب ، وسعى ومات ، بين أمة أمية ، كانت لا تدرى ما الكتاب  
ولا الإيمان ! .

كذلك أنباء الغيب التي تحدث بها القرآن - وهي كثيرة - يمكن إدراك وجه الإعجاز فيها بيسر وسهولة لكل منصف . اقرأ إن شئت فاتحة سورة الروم ، لتعرف كيف أخبر القرآن صراحةً بأمرٍ كان لا يزال مستتراً في ضمائر الغيب ، بل كانت العوامل والظواهر لاتساعد عليه ، ذلك أنه أخبر في وقت انتصر فيه الفرس على الروم في أدنى الأرض ، بأن الروم سيُدال لهم على الفرس وينصرون في بضع سنين ؛ وكان كما قال .

ثم اقرأ قوله سبحانه مخاطباً لنبيه في موقف من مواقف الخصومة والمُحاجة بينه وبين أعدائه اليهود : « قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » وهذا من أبرز شواهد الإعجاز والتصدى : إذ كيف يتسنى لرجل عظيم في موقفٍ من المواقف الفاصلة بينه وبين أعدائه ، أن يجروا على تحدّثهم بشيء هو من شأنهم وحدهم ، وكان في استطاعتهم عادةً ، بل في استطاعة أقلِّ واحد منهم ، أن يقول ولو ظاهراً : « إني أتمنى الموت » ليظفروا بذلك التمني على محمد ﷺ ، ويبتلوا به دعوته ، ويستريحوا منه على زعمهم . ولكن كل ذلك لم يكن ، فما تمنى أحد منهم الموت ، بل صرفوا وما زالوا مصروفين عنه أبداً ، ثم سجّل القرآن عليهم ما هو أبعد من ذلك ، إذ قال عقيب تلك الآية : « وَلَتَجِدَنَّهمْ أَعْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » ١٥ من سورة البقرة .

أليست تلك أدلةً ماديةً قامت ولا تزال قائمةً ، على أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه كان مؤيداً بالوحي من ربه ، وأنه إنما يتلقى القرآن من لذن حكيمٍ عليمٍ ؟

أما إعجاز القرآن من ناحية الأسرار البلاغية فلا يقدر فيه أن جمهرة الناس اليوم لا يدركونها ولا يتذوقونها ، فإن ذلك لا يرجع إلى خلو القرآن من أسرار البلاغة والبيان ، إنما يرجع إلى جهل الناس باللغة العربية وأساليبها ، وإلى فساد ذوقهم من غلبة العجمة عليهم ، ومعروف أن عدم الإدراك لشيء ، لا يهض دليلاً على عدم ذلك الشيء . ونظير ذلك أن عدم علمنا بلغة من اللغات الأجنبية مثلاً ، لا يلزم منه أن ننكر أن فلاناً متفوقاً في تلك اللغة بشهادة الإخصائيين فيها والحاذقين لها ، بل نحن نؤمن بوجود لغات لا نعرف منها شيئاً ، كما نؤمن بوجود نابغين فيها لا نعرفهم ولا نعرف من وجوه نبوغهم شيئاً ، اللهم إلا عن طريق سماعنا لذلك من مصادر تثق بها .

كذلك القرآن الكريم ، قد شهد الفنيون والإخصائيون من خُذّاق اللغة العربية ، في أزهي عصور التوفّر عليها والتمثّر فيها ، أنه كتاب فاق الكتب ، وكلام بزّ سائر ضروب الكلام ، وبلغ في سموه وتفوقه حدود الإعجاز والإخام ، من ناحية الفصاحة والبلاغة وما يحمل لها من أسرار ! . ثم نقل إلينا ذلك كله نقلاً متواتراً قاطعاً لا ظلّ فيه للشك والنكران .

فلماذا لا نقبل هذا الحكم العادل ، ومصادره كثيرة محترمة كل الاحترام ؟  
أليس ذلك تمصّباً وعناداً ، على حين أن الباب كان ولا يزال مفتوحاً أمام كل من يحذق علوم اللغة العربية وأساليبها ، أن يتذوق أسرار البلاغة والإعجاز في هذا القرآن ، وأن يحكم هو نفسه بما حكم به الآلاف المؤلفة في كل زمان ومكان !  
وإذالم ترّ الملال فسلمّ لأناسٍ رأوه بالأبصار  
على أن لإعجاز القرآن ميداناً آخر فاطلبه إن شئت . « وَاللّٰهُ الْمُسْتَعَانُ » .

( الشبهة العاشرة ) يقولون : إن إعجاز القرآن للعرب لا يدلّ على أن القرآن كلام الله . بل هو كلام محمد نسبه إلى ربه ليستمدّ قدسيّته من هذه النسبة . وإعجازه جاء من

من ناحية أن محمداً كان الفرد الكامل في بيانه بين قومه ، لذلك جاء قرآنه الفرد الكامل أيضاً بين ما جاء به قومه ، ولم يستطيعوا لهذا الاعتبار وحده أن يأتوا بمثله ، شأن الرجل الفذ بين أقرانه في كل عصر .

ومجيب على هذه الشبهة بأجوبة خمسة :

( أولها ) أن كل مَنْ أوتي حظاً من حِسِّ البيان وذوق البلاغة ، يفرق بين أسلوب

القرآن وأسلوب الحديث النبويّ فرقاً كبيراً يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق . وهما القرآن والحديث النبويّ ، لا يزالان قائمين بيننا ، يفاديان الناس بهذا الفارق البعيد ، إن كان لهم إحساسٌ في البيان وذوق في الكلام .

ولو كان لهذه الشبهة شيء من الوجاهة ، لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم

بهاهم أولئك العرب الخُلص الذين شافهمهم القرآن ؛ لأنهم كانوا أحرص على تمييز محمد وإسكاته للاعتبارات التاريخية المعروفة . لكنهم ما قالوا هذا . بل كانوا أكرم على أنفسهم من أن يقولوه ، إيقاناً منهم بظهور المميزات الفائقة بكلام الربوبية عن كلام النبوة ، بحيث لا يلتبس أحدهما بالآخر في شيء . وهكذا « مَنْ ذَاقَ عَرَفَ وَمَنْ حُرِمَ انْحَرَفَ » .

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا      وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

( الجواب الثاني ) أن القرآن لم يأت الناس من الخلف ، بل جاءهم من أوسع

الأبواب ، ودخل عليهم من طريق العرب الخالص ذوي اللسن والبيان . ومحمداهم من الناحية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام ، تلك الصناعة البيانية الفائقة التي وقفوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم ، حتى صارت موضع تنافسهم وسبقهم ، وموضوع فخرم وفوقهم . شأن سائر معجزات الله تعالى : لم تأت الناس إلا من

الناحية المفهومة لم كل الفهم، وذلك ليظهر أمر الله واضحاً جلياً، لا لبس فيه ولا غوض، ولا شبهة ولا شكوك «ثلاثاً يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيماً».

ومن هنا نعلم، والتاريخ يشهد، أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد - كما يقول أولئك الملاحدة - لأمكن هؤلاء العرب البارزين في البيان أن يعرفوا أنه كلامه، بما أوتوا من ملكة النقد، وما وهبوا من نباهة الحسِّ والدقِّ، ثم لأمكنهم أن يجاروه ولو شوطاً قريباً إن لم يمكنهم مجاراته شوطاً بعيداً. لاسيما أن القرآن قد اكتفى منهم في معرض التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل أقصر سورة، أي بمثل ثلاث آيات قصار من بين تلك الآلاف المؤلفة التي اشتمل عليها الكتاب العزيز. وأنت خير بأن هؤلاء لم تكن لتعميهم تلك المساجلة وهم فرسان ذلك الميدان، وأئمة الفصاحة والبيان، لو كان الأمر من صناعة محمد ﷺ وإنشائه. كما يزعم أولئك الخراصون. فما بالك وقد خرست ألسنتهم، وخشعت أصوات الأجيال كلها من بعدهم.

ومعلوم أن النابغة الفدِّي في أي عصر من العصور، يستطيع أقرانه بيسر وسهولة، أن يحاكوه مجتمعين ومنفردين في الشيء القليل، على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته في الجميع أو الشيء الكثير.

(الجواب الثالث) أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد، لكان من الفخر له أن ينسب إلى نفسه. ولأمكن أن يدعى به الألوهية فضلاً عن النبوة. ولكان مقدساً في نظر الناس وهو إله، أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبي. ولما كان في حاجة إذاً إلى أن يلتمس هذه القدسية الكاذبة بنسبته القرآن إلى غيره «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً» ١٤٤!

(الجواب الرابع) أن هؤلاء الملاحدة غاب عنهم أنهم يتحدثون عن أكرم شخصية عرفها التاريخ طهرأً ونُبلاً، وذهلوا عن أنهم يمسّون أسنى مقامٍ اشتهر أمانةً وصدقاً. فكان ﷺ إذا مرّ بقومه يثيرون إليه بالبنان ويقولون: هذا هو الصادق الأمين. ثم صدروا عن رأيه، ورضوا بحكمه. والعقل المنصف قال ولا يزال يقول: ما كان هذا الأمينُ الصدوقُ لِيَذَرَ الكَذِبَ على الناسِ ثم يكذبَ على الله «وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» .

(الجواب الخامس) أن هذه الشبهة وليدة الغفلة عن مضامين القرآن العليّة، وأنبائه الغيبيّة، وهداياته الخارجة عن أفق العادة في كافّة النواحي البشرية، فردية كانت أو اجتماعية. لاسيّاً أن الآتي بهذا القرآن رجل أمّيٌّ في أمة أمية كانت في أظلم عهود الجاهلية. أضف إلى ذلك ما سجّل القرآن على النبي ﷺ من أخطاء في بعض اجتهاداته، ومن عتاب نحسُّ تارةً بلطفه، وأخرى بعنفه. ولو كانت هذا التنزيل كلامه ماسمح أن يسجّل على نفسه ذلك كله. ولكن الملاحدة سفّها أنفسهم؛ حوزعموارغم هذه البراهين اللائحة أن محمداً افتري القرآن على ربه. كذبوا وضلّوا. « مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى : وَلَكِنْ تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(ذيل لهذه الشبهة) ويتّصل بهذه الشبهة شبهةٌ أخرى قد تعرض لبعض المأفونين. وهي أن هذا البعد الشاسع بين القرآن والحديث لم يحمي من ناحية أن القرآن كلام الله والحديث كلام محمد. إنما جاء من ناحية أن محمداً كان له ضربان من الكلام: أحدهما يحتفل به كلُّ احتفال، وبُعنى مزيد العناية بهتذييه وتنميته وتحضيره، وذلك هو ما سماه بالقرآن ونسبه إلى الله. وثانيهما يُرسله إرسالاً غير معنوي بتحريره وتحريره، وهو المسمّى بالحديث النبوي. ثم يقولون لترويج شبهتهم هذه:

لأن ذلك ليس بدعاً فيما نرى من آثار الأدباء والبلغاء ، بل نحن نلاحظ أن الأديب الواحد يعلو كلامه الصادر عن تأمل وعناية وروية ، علواً كبيراً عن كلامه المرسل على البديهة ، حتى كأنهما لكتابين اثنين ، بينهما بُعد ما بين المشرقين .

( والجواب الأول ) أن هذه الشبهة الجديدة مبنية على قياسٍ فاسد ، وهو تشبيه أدباء ذلك العصر الزاهر الذي نزل فيه القرآن وسلمت فيه السليقة العربية ، بأدباء هذا العصر المولدين الذين فسدت لغتهم ، وتبطلت أسنتهم . وشتان ما بين الطبقتين ، وباعد ما بين العصرين !! .

« أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلًا      عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟  
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ      وَسُهَيْلٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّ يَمَانُ »

فالتفاوت البعيد بين الكلام المرسل والكلام المحرر ، لم يظهر إلا منذُ فسد اللسان العربي ، ونطرت العجمة إلى المولدين من العرب وأشباههم . أما أولئك العرب انخلص الذين كانوا يتكلمون العربية بالسليقة ، فلم يك منهم أحدم البياني مختلفاً هذا الاختلاف الكبير ، تبعاً للإرسال والتحرير . بل العربيُّ التُّحُّ نَهَجُهُ في الكلام نهجٌ واحد ، هو نهج السليقة الصافية والطبيعة السليمة . ولم يكن التحرير ليذهب به مذهب الذبذبة التي تجعل له أسلوبين متباينين في كلامه ، بل قصاره في تحبيره أن يُحيط بأطراف موضوعه دون أن يقدِّع عنه مقصدٌ من مقاصده ، ودون أن يخرج عن أسلوبه الذي ينبعُ من نفسه وتفيض به سَجِيئَتُهُ العَرَبِيَّةُ ، ذلك الأسلوب الذي يُتَعَبُ أهلُ الفنِّ منا أنفسهم في محاكاته وهيئات أن يبلُغوا إلا بعد طول عناء .

على أن مُعَاوَةَ ذلك العربيُّ التُّحُّ إذا عانى التعميق والتزويق ، لم تكن لتزيد كلامه روعةً وحسناً بل كانت تنزل به بمقدار ما يظن أحداً أنها تصعد فيه . ولهذا كان العرب يعافون من الكلام ما ظهرت فيه آثار الصنعة والتكلف ويعدون ذلك من التفاضح النازل إلى مَهْوَاةِ العِيِّ والتنطع ، كما كانوا مأخوذِينَ بالجيدِ السليِّس ، وبالسَّهْلِ المعتمِعِ



ولقد كان النبي ﷺ أبعد العرب عن هذا التعمُّل والتصنُّع والتخبير ، حتى لقد نهى عن ذلك وناط به الهلاك والخسران . تدبر ما يرويه مسلم وأبوه داود من أن النبي ﷺ قال : « هَلَاكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » والمتنطِّع في الكلام : التعمق فيه والتفاسح . وروى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من هذيل يخاصم في دية الجنين ، فقال : يا رسول الله كيف أغرم دية من لا شرب ولا أكل . ولا نطق ولا استهل . فمثل ذلك يُطل . فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ مِنَ أَجْلِ سَجِّعِهِ الَّذِي سَجَّعَ » . وفي رواية أنه قال : « أُسَجِّعُ كَسَجِّعِ الْأَعْرَابِ » . وفي رواية أخرى أنه قال : « أُسَجِّعُ الْجَاهِلِيَّةَ وَكِهَانَهَا » . فانت ترى أنه صلى الله عليه وسلم ذم هذا السجع المصنوع ، وجعل صاحبه من إخوان الكهَّان ومن جهلة الجاهلية . وما ينبغي له صلى الله عليه وسلم أن يذم شيئاً ثم يقع فيه . وحاشاه وحاشا بيان الشريف ، من هذا الإسفاف والتعمُّل الخسيس . ودونك السنة النبوية فقرأ منها ما شئت ، فلن تجد إلا جيداً مطبوعاً ، ومعاذ الله أن تجد فيها متكلفاً مصنوعاً . والقرآن أعلى في هذا الباب وأجل . « وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

(الجواب الثاني) أن هذه الشبهة تخالف في أساسها ما هو واقع معروف : ذلك أن القرآن الكريم منه ما نزل مفاجأة على غير انتظار وتفكير ، وبدون تلبُّث وتدبير ، وهو أكثره . ومنه ما نزل بعد تشوُّفٍ واسقشرافٍ وطول انتظار ، وهو أقله . ومع هذا فأسلوبه الأعلى هو أسلوبه الأعلى ؛ ونظمه المعجز هو نظمه المعجز ؛ في الحالين على سواء . تأمل ما جاء في سبب نزول قوله سبحانه : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » وهو أن اليهود قالت لعريش : سلوا محمداً عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فسألوه ، فقال : « ائتوني غداً أخبركم » ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه ، ثم نزلت الآيات جواباً لتلك الأسئلة ، بعد تلك المدة الطويلة

التي قدّرها بعضهم بأربعين يوماً ، وأنت إذا قرأتها لن تجد فرقاً بين أسلوبها وأسلوب كثرة القرآن الغامرة التي نزلت مُبَاغِتَةً مُفَاجِئَةً .

وهذا الذي يقال في القرآن ؛ يقال مثله في الحديث النبوي . فمنه ما كان وليد التفكير والتدبير والمشاورة والمداولة ، كحديثه ﷺ في شئون الحرب والصلح ، ومنه ما كان وَحْيَ السَّاعَةِ وإرسال البديهة ، كحديثه الكثير فيما هو ظاهر من أمور الدين . ومنه ما كان وَحْيَ اللَّهِ إليه يهبط به الأمين جبريل ، كحديث المَعْتَمِرِ اللَّتَضَمَّخِ بالطيب ، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن طيبه في عمرته هذه . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ساعة حتى جاءه الوحي ، ولَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ : « أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ الْعُمَرَةِ فُجِيءَ بِهِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أُمَّا الطَّيِّبُ الَّذِي بَكَ فَانْغَسِلْهُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ . وَأَمَّا الْجُبَّةُ فَانْزِعْهَا وَأَصْنَعْ فِي عُمُرَتِكَ مَا تَصْنَعُ فِي حَجَّكَ » رواه الشيخان .

نعرف هذه الظروف المختلفة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنهما مع اختلافهما لم يختلف فيها الأسلوب النبوي ، بل هو طراز واحد من أرقى الأساليب البشرية إن لم يكن أرقاها ، وقلما تلحظ فيه تفاوتاً كثيراً . لافرق في ذلك بين ما أرسله على البديهة ، وما أجال فيه الرأي والاستشارة ، وما نزل به وَحْيُ الشَّنَةِ ، وما احتفل به احتفالا ممتازاً ، بالمواقف المشهودة ، والمجامع المحشودة .

إذن هما نمطان متمايزان لا يشتبهان : نمط القرآن كله ونمط الحديث كله لكل منهما مَسْحَةٌ وبيانٌ ودرجةٌ في الفروق والسبق ، بينها وبين الأخرى بُعد ما بين شأنى الخالق والخلق ، وفروق ما بين مَسْكَانَتِي السَّيِّدِ والعبد ، فالقرآن يمتاز بمسحة بلاغية خاصة ، وطابع بياني فريد ، لا يترك باباً لأن يلتبس بغيره أو يشقبه بسواه ، ولا يُعْطَى الفرصة لأحد أن يمارضه أو يحوم حَوْلَ حِمَاهِ ، بل مَنْ خَاصَهُ خُصِمَ ، ومن عَارَضَهُ قُصِمَ ، ومن حَارَبَهُ هُزِمَ . أما الحديث الشريف فهو وإن حَلَقَ فِي جَوْزِ الفصاحة ، وسما في جملته

عن أساليب العرب ، فإنه لا يزال في أرض العبودية لم يصل إلى سماء الإعجاز ، وتُشبهه  
أساليب بعض خواص أصحابه ، وبينه وبين حكم العرب المأثورة قرابة مائة وشبهه  
قريب - بخلاف القرآن فإنه ليس كمثل بيان ، لأنه كلام من ليس كمثل شيء . « وكلام  
الملوك ملوك الكلام » .

### خاتمة البحث

نحسب أننا أفضنا في هذا البحث ، ولكننا نعتقد أن هذه الإفاضة واجب لا بد  
منه ، ما دمتنا بصدد تسليح طلابنا متخصصي الدعوة والإرشاد ، وم على أهبة النزول  
إلى ميادين الوعظ العامة ، وفيها المؤمن والجاهد ، والمتدين والملحد ، والإلهيون  
والطبيعيون ، وفيها ضحايا الطوائف المعادية للإسلام ، وصرعى المذاهب المتطرفة  
في العالم .

ونلفت نظرك إلى أن بعض ما ذكرناه في أدلة الوحي العلمية ، قد اعتمدنا فيه على  
أدلة جدلية يؤمن بها المنكرون أكثر مما يؤمنون بآيات الله .  
وإن أردت التوسع في هذا فارجع إلى ما كتبه العلامة « محمد فريد وجدى » في  
المجلد العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ هـ ، وما كتبناه من قبل في المجلد الخامس من  
مجلة الهدية الإسلامية سنة ١٣٥١ هـ ، وما كتبه العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز في  
كتابه : « النبأ العظيم » . وبالله تعالى التوفيق .

## المبحث الرابع

في أول ما نزل ، وآخر ما نزل من القرآن

مدار هذا المبحث على النقل والتوقيف . ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة ، أو الجمع بينهما فيما ظاهره التعارض منها .

ومن فوائد الإلمام بأول ما نزل وآخره ، تمييزُ الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيات أو آيات على موضوع واحد ، وكان الحكم في إحدى هذه الآيات يفاير الحكم في الأخرى ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع الإسلامى ، ومراقبة سيره التدريجى ، والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته في أخذها الناس بالهوادة والرفق ، والبعد بهم عن غوائل الطفرة والعنف ، سواء في ذلك هدم ما مرَدُوا عليه من باطل ، وبناء ما لم يحيطوا بعلمه من حق .

يضاف إلى هاتين الفائدةين فائدة ثالثة : هي إظهار مدى العناية التي أحيط بها القرآن الكريم ، حتى عُرف فيه أول ما نزل وآخر ما نزل ، كما عُرف مكّته ومدنيته ، وسفريته وحضرته ، إلى غير ذلك . ولا ريب أن هذا مظهر من مظاهر الثقة به ، ودليل على سلامته من التغيير والتبديل . « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وليس من غرضنا في هذا الباب أن نتحدث عن أول ما نزل وآخر ما نزل في كل تعليم من تعاليم الإسلام ، فتلك غاية بعيدة المدى ، ومجهود طويل جدير أن يُفردَ بالتأليف ، وله مواضع أخرى يمكن طلبه منها . إنما الميسور لنا أن نحدّثك عن أمرين :

أحدهما : أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ، وآخر ما نزل منه على الإطلاق ، وهذا هو المقصود المهم .

الثاني : نماذج من أول ما نزل في بعض الأحكام التشريعية وآخر ما نزل منها ، أى أوائل وأواخر إضافية مخصوصة ومتميّدة ببعض الأحكام .

## أول ما نزل على الإطلاق

ورد في ذلك أقوال أربعة :

«القول الأول» وهو أصحها : أنه صدر سورة «اقرأ باسم ربك الذي خلق»

إلى قوله سبحانه : «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» ودليله ما يأتي :

١ — روى البخارى ومسلم (واللفظ للبخارى) عن عائشة أم المؤمنين رضى

الله عنها أنها قالت «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في

النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبَّ

إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه « وهو التعمد » الليالي ذوات

العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة

فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارى . فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارى . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني .

فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارى . فأخذني فغطني الثالثة . ثم أرسلني فقال :

«اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم»

وفي بعض الروايات «حتى بلغ ما لم يعلم» . فرجع بها إلى خديجة برجف

فؤاده» إلى آخر الحديث وهو طويل . وعلق الصبح : ضياؤه . والتحنث المراد به التعمد

وأصله ترك الحنث ؛ لأن هذه الصيغة تدل على التجنب والتنحي عن مصادرها ونظيره

التهجد ، والتأمم ، والتخرج . وغطني بفتح العين وتشديد الطاء المفتوحة أى ضمني ضمًّا

شديداً حتى كان لى غطيظ ، وهو صوت من حُبست أنفاسه بما يشبه الخنق . والجهد بفتح

الجيم : يطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة ، وبضم الجيم : يطلق على الوسع والطاقة لا غير ،

وهما روايتان .

٢ - وصحح الحاكم في مستدرکه ، والبيهقي في دلائله عن عائشة أيضاً رضي الله عنها أنها قالت : « أولُ سورةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ « أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ » .

٣ - وصحح الطبرانی في الكبير بسنده عن أبي رجاء العطاردي قال : كان أبو موسى يُقرئنا فيجلسنا حلقاً وعليه ثوبان أبيضان ، فإذا تلا هذه السورة « أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » قال : هذه أولُ سورةٍ نزلت على محمد ﷺ .

٤ - وردت آثار في هذا المعنى أيضاً في بعضها زيادة تعرفها من رواية الزهري وهي : أن النبي ﷺ كان بمجرد إذ أتى الملكُ بنمطٍ من ديباج مكتوبٍ فيه « أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » إلى « مَا لَمْ يَعْلَمْ » اهـ . والنمط بفتح النون والميم هو الشياح ، والديباج هو الحرير .

« القول الثاني » أن أول منازل إطلاقاً : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » . واستدل أصحابُ هذا الرأي بما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : سألتُ جابرَ بنَ عبد الله : أيُّ القرآنِ أنزلَ قبلُ ؟ فقال : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » قلت : أو « أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ » وفي رواية نبئت أنه « أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » . فقال : أَحَدْتِكُمْ مَا حَدَّثْتَنَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي جَاوَزْتُ بِحِرَاءِ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي نَزَلْتُ ، فَاسْتَبَطَنْتُ الْوَادِي « زَادَ فِي رِوَايَةٍ « فَنُودِيَتْ فَنظَرْتُ أَمَا مِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي ، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا هُوَ ( يعني جبريل ) زَادَ فِي رِوَايَةٍ : جَالِسٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةً فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ ، فَأَمَرَهُمْ فَدَثَرُونِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ » .

لكن هذه الرواية ليست نصاً فيما نحن بسبيله من إثبات أول منازل من القرآن إطلاقاً ، بل تتمثل أن تكون حديثاً عما نزل بعد فترة الوحي ، وذلك هو الظاهر من رواية أخرى رواها الشيخان أيضاً ، مع أني سلمة عن جابر أيضاً « فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي إِذْ

سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصْرِي قِبَلَ السَّمَاءِ ، فَإِذَا أَمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءِ قَاعِدٍ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجَثَّتُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَجَثَّتُ أَهْلِي ، قُلْتُ : زَمَلُونِي فَزَمَلُونِي . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ - وَنَبَأُكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ » قَالَ أَبُو سَلَمَةَ : وَالرُّجُزُ : الْأَوْثَانُ أَهْلُ قَلْتِ : وَجَثَّتُ عَلَى وَزْنِ فَرَحْتُ مَعْنَاهُ ثَقَلْتُ جِسْمِي عَنِ الْقِيَامِ ، وَسَبَبُهُ فَزَعُ الرَّسُولِ وَخَوْفُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

{ فظاهر هذه الرواية يدلُّ على أن جابراً استقند في كلامه على أن أول ما نزل من القرآن هو المدثر ، إلى ما سمعه من رسول الله ﷺ وهو يتحدث عن فترة الوحي ، وكأنه لم يسمع بما حدث به رسول الله ﷺ عن الوحي قبل فترته ، من نزول الملك على الرسول في حراء بصدر سورة اقرأ « كما روت عائشة » فاقصر في إخباره على ما سمع ظاناً أنه ليس هناك غيره ، اجتهاداً منه ، غير أنه أخطأ في اجتهاده بشهادة الأدلة السابقة في القول الأول ، ومعلوم أن النص يقدم على الاجتهاد ، وأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال ، سقط به الاستدلال ، فبطل إذا القول الثاني وثبت الأول .

### القول الثالث :

أن أول ما نزل هو سورة الفاتحة . وقد استدلت أصحاب هذا الرأي بما رواه البيهقي في الدلائل بسنده عن ميسرة عمر بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة « إني إذا خلوت وحدي سمعتُ نداءً فقد والله خشيتُ على نفسي أن يكونَ هذا أمراً » . قالت : معاذ الله ، ما كان الله ليفعلَ بك ، إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث . فلما دخل أبو بكر ذكرتُ خديجة حديثه له وقالت : اذهب مع محمد إلى ورقة . فانطلقا فقصا عليه فقال : « إذا خلوت وحدي سمعتُ نداءً خلقي يا محمد يا محمد ، فانطلق هارباً في الأفق » . فقال : لا تفعل إذا أتاك فأميت حتى تسمع ما يقول . ثم اتفنى فأخبرني . فلما خلا ناداه : يا محمد قل :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . حتى بلغ « وَلَا الضَّالِّينَ »

ولكن هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج به على أولية ما نزل مطلقاً ، وذلك من وجهين :

أحدهما : أنه لا يفهم من هذه الرواية أن الفاتحة التي سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم

كانت في فجر النبوة أول عهده بالوحي الجلي وهو في غار حراء ، بل يفهم منها أن الفاتحة

كانت بعد ذلك العهد ، وبعد أن أتى الرسول إلى ورقة ، وبعد أن سمع النداء من خلفه

غير مرة ، وبعد أن أشار عليه ورقة أن يثبت عند هذا النداء حتى يسمع ما يلقي إليه .

وليس كلامنا في هذا ، إنما هو فيما نزل أول مرة الثاني : أن هذا الحديث مرسل سقط

من مسنده الطحاوي ، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي ، <sup>ذكره لنا في مسنده</sup>

وهو مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فبطل إذاً هذا الرأي الثالث وثبت الأول

أيضاً .

بيد أن صاحب الكشاف عزاه هذا القول الثالث إلى أكثر المفسرين ، ولكن

ابن حجر فنده فيما ذهب إليه من هذا العزو ، وصرح بأن هذا القول لم يقل به إلا عدد

أقل عن القليل .

القول الرابع : - أن أول ما نزل هو « بسم الله الرحمن الرحيم » واستدل قائلوه بما

أخرجه الواحدى بسنده عن عكرمة والحسن قالا : « أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ « بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَأَوَّلُ سُورَةٍ أُقْرَأَ » . وهذا الاستدلال مردود من ناحيتين أيضاً :

إحدهما : أن الحديث مرسل كسابقه فلا يناهض المرفوع . الثانية : أن البسملة كانت

بطبيعة الحال تنزل صدر الكل سورة إلا ما استثنى . إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر

سورة اقرأ ، فلا يستقيم اعتبار الأولية في نزولها قولاً مستقلاً برأسه .

آخر ما نزل على الإطلاق

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق ، واستند كل منهم



إلى آثار ليس فيها حديثٌ مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فكان هذا من دواعي الاشتباه ، وكثرة الخلاف على أقوال شتى :

١) الأول : أن آخر ما نزل ، قول الله تعالى في سورة البقرة « **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ؛ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** » . أخرجه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس ، وكذلك أخرج ابن أبي حاتم قال : « آخر ما نزل من القرآن كله » **« وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ »** الآية . وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليالٍ ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول .

الثاني : أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى في سورة البقرة أيضاً « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** » . أخرجه البخاري عن ابن عباس والبيهقي عن ابن عمر .

الثالث : أن آخر ما نزل آية الدين في سورة البقرة أيضاً وهي قوله سبحانه : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ** » إلى قوله سبحانه : « **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** » وهي أطول آية في القرآن . أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب : « أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين » . أخرج أبو عميد في الفضائل عن ابن شهاب قال : « **آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا وآية الدين** » .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بما قاله السيوطي رضى الله عنه من أن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف لأنها في قصة واحدة ، فأخبر كلٌّ عن بعض ما نزل بأنه آخر ، وذلك صحيح .

أقول : ولكن النفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولاً هو قول الله تعالى : « **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ؛ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** » . وذلك لأمرين أحدهما : ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة

إلى ختام الوحي والدين، بسبب ما تحثُّ عليه من الاستعداد ليوم المعاد، وما تنوّه به من الرجوع إلى الله، واستيفاء الجزاء العادل من غير غبنٍ ولا ظلمٍ، وذلك كله أنسب بالخطام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها. فانيهما. التخصيص في رواية ابن أبي حاتم السابقة على أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها تسع ليالٍ فقط، ولم تظفر الآيات الأخرى بنصٍ مثله.

الرابع : أن آخرَ القرآن نزولاً قبول الله تعالى في سورة آل عمران : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنتَى » الآية . ودليل هذا القول ما أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهدٍ عن أم سلمة أنها قالت : آخر آية نزلت هذه الآية : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ » إلى آخرها . وذلك أنها قالت : يارسول الله . أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت «<sup>(١)</sup> وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ» ، ونزل «<sup>(٢)</sup> إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » ونزلت هذه الآية ، فهي آخر الثلاثة نزولاً ، وآخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة .

ومن السهل ردُّ الاستدلال بهذا الخبر على آخر ما نزل مطلقاً ، وذلك لما يصرّح به الخبر نفسه من أن الآية المذكورة آخر الثلاثة نزولاً وآخر ما نزل بالإضافة إلى ما ذكر فيه النساء أي فهي آخر مقيد لا مطلق ، وليس كلامنا فيه .

الخامس : أنه آية ( وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ) واستدلوا بما أخرجه البخاري وغيره

(١) من سورة النساء وتامها : ( لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أُكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أُكْتَسَبْنَ ، وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ) .

(٢) أي من أولها إلى آخرها وهي في سورة الأحزاب .

عن ابن عباس . قال : هذه الآية : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ » هي آخر ما نزل ، وما نسخها شيء . ولا يخفى عليك أن كلمة « وما نسخها شيء » تشير إلى أن المراد من كونها آخر ما نزل ، أنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً ، لا آخر ما نزل مطلقاً .

السادس : أن آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » وهي خاتمة سورة النساء وأن آخر سورة نزلت سورة « براءة » . واستند صاحب هذا الرأي إلى ما يرويه البخارى ومسلم عن البراء بن عازب أنه قال : آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » وآخر سورة نزلت « براءة » . ويمكن نقض هذا الاستدلال بحمل الخبر المذكور على أن الآية آخر ما نزل في المواريث وأن السورة آخر ما نزل في شأن تشريع القتال والجهاد ، فكلاهما آخر إضافي لا حقيقي .

السابع : أن آخر ما نزل سورة المائدة . واحتج صاحب هذا القول برواية للترمذى والحاكم في ذلك عن عائشة رضى الله عنها . ويمكن ردّه بأن المراد أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام ، فلم تُنسخ فيها أحكام . وعليه فهى آخر مقيد كذلك . الثامن : أن آخر ما نزل هو خاتمة سورة براءة : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخر السورة . رواه الحاكم وابن مردويه عن أبي بن كعب . ويمكن نقضه بأنها آخر ما نزل من سورة براءة لا آخر مطلق ، وبؤيده ما قيل من أن هاتين الآيتين مكيتان بخلاف سائر السورة . ولعل قوله سبحانه : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ » الخ ؛ يشير إلى ذلك من حيث عدم الأمر فيه بالجهاد عند تولى الأعداء وإعراضهم .

التاسع : أن آخر ما نزل هو آخر سورة الكهف : ( فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ) أخرجه ابن جرير

عن معاوية بن أبي سفيان . قال ابن كثير: « هذا أثرٌ مشكل ، ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها بل هي مثبتة بحكمة » ١٥٠ هـ . وهو يفيد أنها آخر مقيده لا مطلق .

العاشر : أن آخر ما نزل هو سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » رواه مسلم عن ابن عباس . ولكم تك تستطيع أن تحمل هذا الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مُشعراً بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم . ويؤيده ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم قال حين نزلت : « نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » وكذلك فهم بعض كبار الصحابة . كما ورد أن عمر رضى الله عنه بكى حين سمعها وقال : « الكمالُ دليلُ الزوال » ويحتمل أيضا أنها آخر ما نزل من السور فقط ، ويدل عليه رواية ابن عباس : آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » .

تلك أقوال عشرة ، عرفت بعضها وعرفت توجيهها ، ورأيت أن الذى تستريح إليه النفس منها هو أن آخر القرآن نزولاً على الإطلاق قولُ الله فى سورة البقرة : « وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » وأن ماسواها أو آخر إضافية أو مقيده بما علمت ، لكن القاضى أبا بكر فى الانتصار يذهب مذهباً آخر إذ يقول : « هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلُّه قال بضربٍ من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلامهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو » ١٥١ هـ ، وكأنه يشير إلى الجمع بين تلك الأقوال المتشعبة بأنها أو آخر مقيده بما سمع كل منهم من النبي ﷺ وهى طريقة مريجة ، غير أنها لا تلقى ضوءاً على ما عسى أن يكون قد اختتم الله به كتابه الكريم .

## مثلان من أوائل وأواخر مخصوصة

نضع بين يديك هنا مثلين من أوائل وأواخر مخصوصة ببعض الأحكام الشرعية لنلاحظ فيهما سير التشريع الإسلامي وتدرجه الحكيم .

### ١ - ما نزل في الخمر

روى الطيالسي في مسنده عن ابن عمر قال : نزل في الخمر ثلاث آيات ، فأول شيء : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ » الآية<sup>(١)</sup> فقيل : حرمت الخمر ، فقالوا : يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله ، فسكت عنهم . ثم نزلت هذه الآية<sup>(٢)</sup> « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فقيل حرمت الخمر قالوا : يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة فسكت عنهم . ثم نزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ »<sup>(٣)</sup> فقال رسول الله ﷺ : « حُرِّمَتِ الْخَمْرُ » .

### ٢ - ما نزل في أمر الجهاد والدفاع

لم يشرع الجهاد دفاعاً في صدر الإسلام على الرغم من أن الأذى كان يُصبُّ على المسلمين من أعدائهم صلباً . بل كان الله يأمر بالعمو والصفح ، ومن ذلك قوله

(١) وهي في سورة البقرة وتتمتها : « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » .

(٢) وهي من سورة النساء وكألفها : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » .

(٣) والآية وما يليها : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » وهي من سورة المائدة .



والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن ، وإتمام جميع الفرائض والأحكام .

والجواب : أن هناك قرآناً نزل بعد هذه الآية حتى بأكثر من شهرين ، ولعلك لم تنس أن آية : « وَأَتَقُوا يَوْمَ مَا تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » كانت آخر الآيات نزولاً على الإطلاق ، وأن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال فقط . وتلك قرينة تمنعنا أن نفهم إكمال نزول القرآن من إكمال الدين في آية المائدة المذكورة . والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذ هو إنجازه وإقراره ، وإظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون . ولا ريب أن الإسلام في حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته وعلت كلمته ، وأدبل له على الشرك وحزبه ، والكفر وجنده ، والنفاق وحشراته ، حتى لقد أُجِّلِيَّ المشركون عن البلد الحرام ؛ ولم يخالطوا المسلمين في الحج والإحرام . قال ابن جرير في تفسير الآية المذكورة : « الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حجَّه المسلمون لا يخالطهم المشركون » وأيد هذا التأويل بما رواه عن ابن عباس قال : « كان المشركون والمسلمون يمجئون جميعاً ، فلما نزلت سورة براءة نُفِيَّ المشركون عن البيت ، وحجَّ المسلمون لا يشاركونهم في البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة « وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » .

نسأل الله أن يتم علينا نعمته آمين .

## ملاحظة

لملك بعد تحقيق أول ما نزل وآخره ، تستطيع أن تستدرك على ما أسلفناه في البحث الثالث ، تقديرًا لمدة نزول القرآن على النبي ﷺ ناقلين إياه عن بعض محققى تاريخ التشريع الإسلامى . ذلك أنه اعتبر يوم التاسع من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة ، هو آخر أيام النزول وكأنه اعتمد على ما فهمه فى قوله سبحانه : « أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » الآية ، من أنه إكمالٌ للدين بإكمال نزول القرآن . لكنك قد علمت ما فيه .

فلتصرف أنت إلى تلك المدة التى ذكرها اثنين وسبعين يوماً ، هى عدة الفرق بين التسعة والواحد والثمانين يوماً ، إذ أن آية « أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » عاش النبي ﷺ بعدها أحدًا وثمانين يوماً كما روى ، وآية « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » عاش ﷺ بعدها تسعة فقط كما عرفت .

أما مبدأ نزول الوحي بالقرآن فمعلوم أنه كان فى اليوم الذى هبط فيه جبريل على النبي ﷺ بغار حراء بصدر سورة اقرأ . وقد قالوا : إنه يوافق السابع عشر من رمضان ، واعتمدوا فى ذلك على قوله سبحانه فى سورة الأنفال : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » . فجعل يوم الفرقان هو يوم التقاء الجمعين فى غزوة بدر . وكان يوافق السابع عشر من رمضان على ما ذكره بعض أصحاب المغازى والسير .

ولا ريب أن هذا احتمالٌ فى الآية مقبول ، ولكن هذا الاحتمال لا يكفى فى مثل هذا المقام ، لأنه احتمالٌ مرجوحٌ ، وظاهر الأدلة على خلافه . ذلك لأن السنة الصحيحة جاء فيها ما يفيد صراحةً أن أَرْجَى ما تكون ليلة القدر التى نزل فيها القرآن ، فى الوتر فى العشر الأخير من رمضان . وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء . بل ثبت من طريق



صحيح يرويه البخارى أيضاً أنه عليه السلام قال : « التمسوها في سابعة تبقي ، في تاسعة تبقي » أى اطلبوا ليلة القدر ليلة الحادى والعشرين أو ليلة الثالث والعشرين من ذلك الشهر . وهو مذهب الشافعى رضى الله عنه . ولا جدال في أن هذه نصوص تنافى أن تكون ليلة القدر ليلة السابع عشر من رمضان . . .

ثم إن هذه الآية التى استدلل بها هؤلاء ليست نصاً صريحاً في أن المراد بما أنزله الله على عبده يوم الفرقان هو ما أنزله على نبيه ليلة القدر من القرآن . بل الظاهر أن قوله سبحانه : « وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » معناه وما أنزلنا على عبدنا محمد عليه السلام من الوحي والملائكة والفتح في ذلك اليوم المشهود الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والكفر ، في أول موقعة تاريخية انتصف فيها الإسلام من أعدائه ، وقام للمسلمين بسببها شوكة ودولة وسلطان . « وهى غزوة بدر الكبرى » . وإلى هذا رأى جنح أكثر المفسرين . ويؤيده سياق النظم القرآنى الكريم ؛ فإن الآية نزلت لتروض قلوب المسلمين على الرضا بما شرع الله في قسمة الغنائم ، وليقطعوا أطعامهم من الخمس الذى قضى الله أن يكون له لا لهم ، وليقتنعوا بعد ذلك بالأربعة الأخماس الباقية ، فإن الفضل في هذه الغنائم إنما هو لله قبلهم ، هو الذى أنزل في هذا اليوم ما أنزل من هدايات وبشائر ثبتت قلوبهم . وهو الذى أنزل مدداً من لدنه ملائكة مقربين كثيرين وهو الذى سخر سائر أسباب الانتصار ، المعروفة في هذه المعركة العظيمة . . . وإذا كان الفضل يرجع إلى الله في هذا الانتصار ، فأطيعوا أيها المسلمون أمره في قسمة الغنائم المتخلفة عنه . « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي آتَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّبَقِ الْجُمُعَانِ . وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

## المبحث الخامس

### في أسباب النزول

القرآن الكريم قسمان : قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبطٍ بسبب من الأسباب الخاصة ، إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق . وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان . وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة . وهو موضوع بحثنا الآن . غير أننا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التي جاءت على أسباب ، فذلك شأؤ بعيد . وقد ائتمدب له جماعة أفردوه بالتأليف ، منهم علي بن المديني شيخ البخاري ، ومنهم الواحدي والجمبري وابن حجر ، ومنهم السيوطي الذي وضع فيه كتاباً حافلاً محرراً سماه ( لباب النقول في أسباب النزول ) .

إنما غرضنا في هذا المبحث أن نحيطك علماً بأسباب النزول من أطرافه الأبدعشر وهي معنى سبب النزول ، وفوائدهمعرفة أسباب النزول ، وطريق هذه المعرفة ، والتعبيرات عن سبب النزول ، وحكم تعدد الأسباب والنازل واحد ، وتعدد النازل والسبب واحد ، والعموم والخصوص بين لفظ الشارع وسببه ، وتحقيق الخلاف في عموم اللفظ وخصوص سببه ، وأدلة الجمهور في ذلك ، وشبهات الخالفين وتفنيدها ، وشبيهه بالسبب الخاص مع اللفظ العام .

### معنى سبب النزول

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدةً عنه أو مُبَيَّنَةً لحكمه أيام وقوعه . والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ ، أو سؤال وُجِّه إليه ، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة ، أو بجواب هذا السؤال .

سواء أ كانت تلك الحادثة خصومةً دبت ، كإخلاف الذى شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج ، بدسيسة من أعداء الله اليهود حتى تنادوا : السلاح السلاح ، ونزل بسببه تلك الآيات الحكيمة فى سورة آل عمران من أول قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقَانًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ » إلى آياتٍ أخرى بعدها هى من أروع ما ينقذ من الانقسام والشقاق ويرغب فى المحبة والوحدة والاتفاق . أم كانت تلك الحادثة خطأ فاحشاً ارتكب ، كذلك السكران الذى أمم الناس فى صلاته وهو فى نشوته ، ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقال : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ » وحذف لفظ ( لا ) من « لا أَعْبُدُ » فنزلت الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَهْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » فى سورة النساء .

أم كانت تلك الحادثة تمنياً من التمنيات ، ورغبةً من الرغبات ، كواقفات عمر رضى الله عنه التى أفردتها بعضهم بالتأليف . ومن أمثلتها ما أخرجه البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر : ( وافقت ربي فى ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت : « وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت يا رسول الله : إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب (١) . واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : « عسى ربه إن طلقك أن يبدله أزواجا خيرا منكن » فنزلت كذلك ( ٥١ هـ . وهذه فى سورة التحريم .

(١) وهى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرٍ مِنْهُ . وَإِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ إِحْدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْخَلْقِ . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكَمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » من سورة الأحزاب

وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي ﷺ يتصل بأمرٍ مضى نحو قوله سبحانه في سورة الكهف: « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ » الخ . أم يتصل بحاضرٍ نحو قوله تعالى في سورة الإسراء: « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أم يتصل بمستقبلٍ نحو قوله جل ذكره في سورة النازعات: « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا » الخ .

والمراد بقولنا (أيام وقوعه) الظروف التي ينزل القرآن فيها متحدثاً عن ذلك السبب، سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة، أم تأخر عنه مدةً لحكمة من الحكم، كما حدث ذلك حين سألت أقرش رسول الله ﷺ عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين . فقال ﷺ (غداً أخبركم) ولم يستثن (أى لم يقل إلا أن يشاء الله) فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً على ما رواه ابن إسحاق، وقيل ثلاثة أيام، وقيل أربعين يوماً، حتى شق عليه ذلك . ثم نزلت أجوبة تلك المقترحات، وفي طيها يرشد الله تعالى رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشبهة ويقول له في سورة الكهف: « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » .

ثم إن كلمة « أيام وقوعه » في تعريف سبب النزول، قيد لا بد منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداءً من غير سبب، بينما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلية، كبعض قصص الأنبياء السابقين وأعمهم وكالحديث عن الساعة وما يتصل بها، وهو كثير في القرآن الكريم .

## ٢ - فوائد معرفة أسباب النزول

زعم بعض الناس أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول، وأنها لا تعدو أن تكون تاريخياً للنزول أو جارية مجرى التاريخ، وقد أخطأ فيما زعم؛ فإن لأسباب النزول فوائد متعددة، لا فائدة واحدة: ( الأولى ) معرفة حكمة الله تعالى على التعيين، فيما شرعه بالتنزيل، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن. أما المؤمن فيزداد إيماناً على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه، لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيّطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر ففسدته تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفاً، حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان، لا على الاستبداد والتحكم والظفیان، خصوصاً إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجته في موضوع واحد. وحسبك شاهداً على هذا تحريم الخمر وما نزل فيه، وقد مرّ بك في البحث السابق، فلا نعيده، ولا تفعل.

( الفائدة الثانية ) الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها. حتى لقد قال الواحدى: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب ا هـ.

والمبين لك ذلك بأمثلة ثلاثة: ( الأول ) قال الله تعالى في سورة البقرة: « وَهُوَ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » فهذا اللفظ الكريم يدلُّ بظاهره على أن للإنسان أن يصلّى إلى أيّة جهة شاء، ولا يجب عليه أن يولى وجهه شطر البيت الحرام، لا في سفر ولا حضر. لكن إذا علم أن هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة، أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه، تبين له أن الظاهر غير مراد، إنما المراد التخفيف على خصوص المسافرين في صلاة النافلة، أو على المجتهد

في القبلة إذا صلى وتبين له خطؤه . عن ابن عمر رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أيما توجهت . وقيل : عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة ، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعدروا . وقيل في الآية غير ذلك ، ولكن ما ذكرناه يكفيك .

(المثال الثاني) روى في الصحيح أن مروان بن الحكم أشكل عليه معنى قوله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » من سورة آل عمران .

وقال : لئن كان كلُّ امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون . وبقي في إشكاله هذا حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه أي طلبوا منه أن يحمدهم على ما فعلوا . وهناك زاو الإشكال عنه ، وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده .

(المثال الثالث) أشكل على عروة بن الزبير رضي الله عنه أن يفهم فرضية السعي بين الصفا والمروة مع قوله سبحانه : « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » .

وإشكاله نشأ من أن الآية الكريمة نفت الجناح ، ونفى الجناح لا يتفق والفرضية في رأيه ، وبقي في إشكاله هذا حتى سأل خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فأفهمته أن نفى الجناح هنا ليس نفياً للفرضية ، إنما هو نفى لما وقر في أذهان المسلمين يومئذ من أن السعي بين الصفا والمروة من عمل الجاهلية نظراً إلى أن الصفا كان عليه صنم يقال له (إساف) وكان على المروة صنم يقال له : (ناثلة) . وكان المشركون إذا سعوا بينهما تمسحوا بهما . فلما ظهر الإسلام وكثر

الأصنام ، تخرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك ، فنزلت الآية . كذلك جاءت بعض الروايات .

لكن جاء في رواية صحيح البخارى مانصه : قال ( أى عروة ) لها ( أى لعائشة ) أريت قول الله تعالى « إِنْ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » : فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفاء والمروة . قالت : بشما قلت يا ابن أختي ، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه ، كانت « لا جناح عليه ألا يطوف بهما » ولكنها أنزلت في الأنصار ، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة . فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، قالوا : يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله « إِنْ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ » الآية . قالت عائشة « وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما » انتهى ما أردنا نقله . ومعنى يهلون : يحجون . ومناة الطاغية : أسم صنم ، وكان صخرة نصبها عمرو بن لحي بجهة البحر فكانوا يعبدونها . والمشلل بضم الميم ، واللام الأولى مشددة مفتوحة : اسم موضع قريب من قديد من جهة البحر . وقديد بضم القاف : قرية بين مكة والمدينة . وكلمة « سن » معناها في هذا الحديث شرع ، أو فرض بدليل من السنة لا من الكتاب .

وهذه الرواية — كما ترى — تدل على أن عروة فهم من جملة « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » أن الجناح منقضي أيضاً عن عدم الطواف بهما وعلى ذلك تنفي الفرضية ، وكأنه اعتمد في فهمه هذا على أن نفي الجناح ، أكثر ما يستعمل في الأمر للباح . أما عائشة رضي الله عنها فقد فهمت أن فرضية السعي بين الصفا والمروة مستفادة من السنة ، وأن جملة « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

لا تُنَافَى تِلْكَ الْفَرْضِيَّةُ كَمَا فَهَمَ عَرُودُهُ إِنَّمَا الَّذِي يَنْفِيهَا أَنْ يُقَالَ : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَإِنَّمَا تَوَجَّهَ نَفْيُ الْحَرَجِ فِي الْآيَةِ عَنِ الطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، لِأَنَّ هَذَا الْحَرَجَ هُوَ الَّذِي كَانَ وَقُرَأَ فِي أُذْهَانِ الْأَنْصَارِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ فَتَدْبِرُ .

( الفائزة الثالثة ) دفع توهم الحصر ، عمّا يفيد بظاهره الحصر : نحو قوله سبحانه في سورة الأنعام : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ ، فَإِنَّهُ رِجْسٌ ، أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » . ذهب الشافعي إلى أن الحصر في هذه الآية غير مقصود ، واستعان على دفع توهمه ، بأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوا إلا أن يحرّموا ما أحل الله ويحلّوا ما حرّم الله عناداً منهم ومحادة لله ورسوله ، فنزلت الآية بهذا الحصر الصوري مشادة لهم ومحادة من الله ورسوله ، لا قصداً إلى حقيقة الحصر .

نقل السبكي عن الشافعي أنه قال مامعناه : « إن الكفار لما حرّموا ما أحل الله ، وأحلّوا ما حرّم الله ، وكانوا على المضادة والمحاداة جاءت الآية مناقضة لغرضهم . فكأنه قال : لا حلال إلا ما حرّمتموه ، ولا حرام إلا ما أحلّتموه . نازل منزلة من يقول لك : لا تأكل اليوم حلاوة فتقول لا آكل اليوم إلا حلاوة ، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة . فكأنه تعالى قال : « لا حرام إلا ما أحلّتموه من الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهلّ لغير الله به » ولم يقصد حل ما وراه ، إذ القصد إثبات التحريم ، لا إثبات الحل ١٥ .

قال إمام الحرمين : وهذا في غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية ١٥ .

( الفائزة الرابعة ) تخصيص الحكم بالسبب ، عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ . فأيات الظهار في مُفْتَتِحِ سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ - وقد تقدمت -



سببها أن أوس بن الصامت ظَاهرَ من زوجته خَوَلة بنت حكيم بن ثعلبة ، والحكم الذي تَضَمَّنَتْه هذه الآيات خاصٌّ بهما وحدهما (على هذا الرأي) ، أما غيرها فيعلم بدليل آخر قياساً أو سواه . وبدَهِي أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم ولا القياس عليه إلا إذا علم السبب . وبدون معرفة السبب نصير الآية مُعْطَلَةً خالية من الفائدة . (للفائدة الخامسة) معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا وَرَدَ مُخْصَّصٌ لها . وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باقٍ قطعاً . فيكون التخصيص قاصراً على ما سواه . فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنه مما خرج بالتخصيص ، مع أنه لا يجوز إخراجها قطعاً للإجماع المذكور . ولهذا يقول الغزالي في المستصفي : « (ولذلك يشير إلى امتناع إخراج السبب بحكم التخصيص بالاجتهاد ) غلط أبو حنيفة رحمه الله في إخراج الأمة المسترشدة من قوله ﷺ (الولد للفراش) . والخبر إنما ورد في وليدة زَمْعَةَ إذ قال عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ : هو أخي وابن وليدة أبي ، وُلِدَ على فراشه . فقال عليه الصلاة والسلام ، ( أولدُ للفراش وللعاهر الحجر ) فأثبت للأمة فراشاً وأبو حنيفة لم يبلغه السبب ؛ فأخرج الأمة من العموم » ا هـ .

(الفائدة السادسة) معرفة من نزلت فيه الآية على التعمين ؛ حتى لا يشق به غيره ، فيتهم البريء ويبرأ المريب (مثلاً) . ولهذا رَدَّتْ عائشة على مروان حين اتهم أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر بأنه الذي نزلت فيه آية « وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دَيْهٍ أَفْ لَكُمَا » الخ من سورة الأحقاف . وقالت : ( وَاللَّهِ مَا هُوَ بِهِ ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أُسَمِّيَهُ لَسَمِيْتُهُ ) إلى آخر تلك القصة .

(الفائدة السابعة) تيسير الحفظ ، وتسهيل الفهم ، وتثبيت الوحي ، في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها . وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات ، والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة . كل أولئك من دواعي

تَقَرَّرُ الأشياءَ وانتقاشِها في الذهن ، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر ، وذلك هو قانون تداعي المعاني ، المقرَّر في علم النفس .

### ٣ — طريق معرفة سبب النزول

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح ، روى الواحدى بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَقُوا الْحَدِيثَ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ فَإِنَّهُ مِنْ كَذَبٍ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ . وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ الْقُرْآنَ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . . . ومن هنا لا يحلُّ القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسمع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها . ٥١ .

وعلى هذا فإن روى سبب النزول عن صحابيٍ فهو مقبول ، وإن لم يعتضدْ أى لم يُعزِّزْ برواية أخرى تُقوِّيه . وذلك لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه ، حكمه حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك من تلقاء نفسه ، على حين أنه خبرٌ لا مردَّ له إلا السماع والنقل ، أو المشاهدة والرؤية .

أما إذا روى سبب النزول بحديثٍ مرسل ، أى سقط من سنده الصحابي وانتهى إلى التابعي ، فحكمه أنه لا يقبل إلا إذا صحَّ واعتضدَ بمرسلٍ آخر وكان الراوى له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة ، كجاهدٍ وعكرمةٍ وسعيد بن جبيرة .

### ٤ — التعبير عن سبب النزول

تختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول . فتارةً يُصرِّح فيها بلفظ السبب فيقال : ( سبب نزول الآية كذا ) وهذه العبارة نصٌّ في السببية لا تحتمل غيرها .

وتارة لا يُصْرَحُ بلفظ السبب ولكن يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرّد حادثة ، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببية أيضاً . ومثاله رواية جابر الآنية قريباً . ومرة يُسأل الرسول ، فَيُوحَى إليه وَيُجِيب بما نزل عليه ولا يكون تعبيرٌ بلفظ سبب النزول ، ولا تعبيرٌ بتلك الفاء ، ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام ، كرواية ابن مسعود الآنية عندما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح . وحكم هذه أيضاً حكم ما هو نصٌّ في السببية . ومرة أخرى لا يُصْرَحُ بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء ، ولا بذلك الجواب للمبنى على السؤال ، بل يقال : نزلت هذه الآية في كذا (مثلاً) . وهذه العبارة ليست نصّاً في السببية ، بل تحتلها وتحتمل أمراً آخر ، هو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام . والقرائن وحدها هي التي تُعَيِّن أحدها هذين الاحتمالين أو تُرَجِّحهما . ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان في موضوع واحد : إحداهما نصٌّ في السببية لنزول آية أو آيات ، والثانية ليست نصّاً في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات ، هنالك نأخذ في السببية بما هو نصٌّ ، ونحمل الأخرى على أنها بيانٌ للمدلول الآية ، لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل .

مثال ذلك : ما أخرجه مسلم عن جابر قال : كانت اليهود تقول « من أتى امرأة من دُبْرها في (قُبْلِها) جاء الولد أحول » ، فأنزل الله « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقِقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » من سورة البقرة . . . وما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال : ( أنزلت « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » في إتيانِ النساءِ في أدبارهنَّ ) .

فالعمل عليه في بيان السبب هو رواية جابر الأولى ، لأنها صريحة في الدلالة على السبب . وأما رواية ابن عمر فتحمل على أنها بيانٌ لحكم إتيانِ النساءِ في أدبارهن وهو التحريم . استنباطاً منه .

أما إذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين أو عبارات ليس شيء منها نصاً ، كأن يقول بعض المفسرين : نزلت هذه الآية في كذا . ويقول الآخر : نزلت في كذا « ثم يذكر شيئاً آخر غير ما ذكره الأول » ، وكان اللفظ يتناولها ، ولا قرينة تصرف إحداهما إلى السببية ، فإن الروایتين كليهما تحملان على بيان ما يتناوله من المدلولات . ولا وجه لملهما على السبب .

وأما إذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين أو عبارات كلها نصٌّ في السببية ، فهنا يتشعب الكلام . ولنفرده بعنوان :

### ٥ - تعدد الأسباب والنازل واحد

إذا جاءت روايتان في نازل واحد من القرآن ، وذكرت كلٌّ من الروایتين سبباً صريحاً غير ما تذكره الأخرى ، نُظر فيهما . فإما أن تكون إحداهما صحيحةً ، والأخرى غير صحيحة . وإما أن تكون كليهما صحيحة ولكن إحداهما مُرَجَّحٌ دون الأخرى . وإما أن تكون كليهما صحيحة ، ولا مُرَجَّحٌ لإحداهما على الأخرى ، ولكن يمكن الأخذ بهما معاً . وإما أن تكون كليهما صحيحة ، ولا مُرَجَّحٌ ، ولا يمكن الأخذ بهما معاً . فتلك صورٌ أربعٌ ، لكل منها حكمٌ خاصٌ نسوقه إليك :

« أما الصورة الأولى » - وهي ما صحَّت فيه إحدى الروایتين دون الأخرى - فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب . وَرَدُّ الأخرى غير الصحيحة . مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جُنْدَبٍ قال : « اشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : يَا مُحَمَّدُ ، مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « وَالضُّحَى ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » . وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة ، عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت

خادم رسول الله ﷺ : « أَنْ جَرَوْا دَخَلَ بَيْتَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَدَخَلَ تَحْتَ السَّرِيرِ فَاتَ ، فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ لَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَقَالَ : يَا خَوْلَةَ مَا حَدَّثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ جَبْرِيْلُ لَا يَا تَبْنِي . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَوْ هَيَّأَتِ الْبَيْتَ وَكَنَسْتِهِ ، فَأَهْوَيْتُ بِالْمِكْنَسَةِ تَحْتَ السَّرِيرِ ، فَأَخْرَجْتُ الْجَرَّو ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ تَرَعْدٌ<sup>(١)</sup> لِحَيْتِهِ ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَتْهُ الرَّعْدَةُ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « وَالضُّحَى » إِلَى قَوْلِهِ « فَتَرَضَى » . فنحن بين هاتين الروايتين نقدّم الرواية الأولى في بيان السبب لصحتها، دون الثانية لأن في إسنادها من لا يعرف . قال ابن حجر : « قِصَّةُ إِبْطَاءِ جَبْرِيْلَ بِسَبَبِ الْجَرِّوِ مَشْهُورَةٌ ، لَكِنْ كَوْنُهَا سَبَبُ نَزْلِ آيَةِ غَرِيْبٍ ، وَفِي إِسْنَادِهِ مِنْ لَا يُعْرَفُ ، فَالْمَعْتَمَدُ مَا فِي الصَّحِيْحِ » ١٠٥ .

« وأما الصورة الثانية » - وهي صحّة الروايتين كليهما وإحداها مرجح - فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة . والمرجح أن تكون إحداها أصحّ من الأخرى ، أو أن يكون راوي إحداها مشاهداً للقصة دون راوي الأخرى . منال ذلك : ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال : « كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِيْنَةِ . وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيْبٍ . فَمَرَّ بِبَنِيٍّ مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ سَأَلْتُمُوهُ . فَقَالُوا : حَدِّثْنَا عَنِ الرُّوحِ . فَقَامَ سَاعَةً وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوْحِي إِلَيْهِ ، حَتَّى صَعِدَ الْوَحْيُ ، ثُمَّ قَالَ : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيْلًا » . وَمَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : « قَالَتْ قَرِيْشٌ لِلْيَهُودِ ، أَعْطَوْنَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ . فَقَالُوا : اسْأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ ، فَسَأَلُوهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » آيَةَ .

(١) قال في القاموس : « وقد رعد كنعصر ومنع . وقال همامش القاموس : وقد استعمل رعد ثلاثياً أيضاً مجهولاً دائماً ، كجُنَّ . قالوا : رعد أي أصابته رعدة . قاله الخفاجي في شرح الشفاء » ١٠٥ .

فهذا الخبر الثاني يدلُّ على أنها بمكة ، وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه . أما الأول فصریحٌ في أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه ، وهو أرجح من وجهين : أحدهما أنه روايةُ البخارى ، أما الثانى فإنه رواية الترمذى ، ومن المقرَّر أن ما رواه البخارىُّ أصحُّ مما رواه غيره . ثانيهما أن راوى الخبر الأول وهو ابن مسعود كان مشاهد القصة من أولها إلى آخرها كما تدلُّ على ذلك الروايةُ الأولى ، بخلاف الخبر الثانى فإن راوِيه ابن عباس لا تدلُّ الرواية على أنه كان حاضر القصة ، ولا ريب أن للمشاهدة قوَّة في التحمل وفي الأداء ، وفي الاستيثاق ليست تغير المشاهدة ، ومن هنا أَعْمَلْنَا الرواية الأولى ، وأهْمَلْنَا الثانية .

« وأما الصورة الثالثة » - وهى ما استوت فيه الروايتان في الصحَّة ، ولا مرجح لإحداهما ، لكن يمكن الجمع بينهما ، بأن كلاً من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولها معاً ، لتقارب زمنيهما فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدُّد السبب لأنه الظاهر ، ولا مانع يمنع . قال ابن حجر : « لا مانع من تعدُّد الأسباب » .

مثال ذلك : ما أخرجه البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قدف امرأته عند النبي ﷺ بِشريك بن سحمة . فقال النبي ﷺ : « البينة أو حدٌّ في ظهرك » . فقال يارسول الله ، إذا وجدنا مع امرأته رجلاً ينطق بكتمس البينة . وفي رواية أنه قال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزلن الله تعالى ما يبئى ظهري من الحد . فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهاده إلا أن نسئهم » حتى بلغ « إن كان من الصادقين » اه وهذه الآيات من سورة النور .

وأخرج الشيخان « واللفظ للبخارى » عن سهل بن سعد « أن عويمراً أتى عاصم ابن عدى ، وكان سيد بني عجلان ، فقال : كيف تقولون في رجل وجد مع

امراته رجلاً يقتله فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ سئل لى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله « وفي رواية مسلم » فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها . فقال عويمر والله لأنتهى حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فجاءه عويمر فقال يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلاً ، أقتله فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك . فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بما سمي الله في كتابه فلاعنها « ١٥ . فهاتان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجح لإحداهما على الأخرى ، ومن السهل أن نأخذ بسكاتيهما لقرب زمانيهما ، على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية ، ثم قفاه عويمر قبل إجابته ، فسأل بواسطة عاصم مرة وب نفسه مرة أخرى ، فأنزل الله الآية إجابةً للحادثين معاً . ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع ، أولى من إعمال إحداهما وإهمال الأخرى ، إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه . ثم لا جائز أن نردّها معاً ، لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما . ولا جائز أيضاً أن نأخذ بواحدة ونرد الأخرى ، لأن ذلك ترجيح بلا مرجح . فتمين المصير إلى أن نأخذ بهما معاً . وإليه جنح النووي وسبقه إليه الخطيب فقال : « لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد » ١٥ .

ويمكن أن يفهم من الرواية الثانية أن آيات الملاعنة نزلت في هلال أولاً ، ثم جاء عويمر فأفناه الرسول بالآيات التي نزلت في هلال . قال ابن الصباغ : قصة هلال تبين أن الآية نزلت فيه أولاً . وأما قوله صلى الله عليه وسلم لعويمر « إن الله أنزل فيك وفي صاحبك » فمعناه ما نزل في قصة هلال ؛ لأن ذلك حكم عام لجميع الناس .

« وأما الصورة الرابعة » - وهي استواء الروايتين في الصحة ، دون مرجح

لإحداها ، ودون إمكان للأخذ بهما معاً يُبعد الزمان بين الأسباب - فحكمها أن  
نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعد أسباب النزول التي تحدث عنها هاتان  
الروايتان ، أو تلك الروايات - لأنه إعمال لكل رواية ، ولا مانع منه . قال الزركشي  
في البرهان : « وقد ينزل الشيء تعظيماً لشأنه ، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف  
نسيانه » ٥١ .

( مثال ذلك ) ما أخرجه البيهقي والبرزاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على  
حزرة حين استشهد وقد مُتَّلَ به ، فقال : « لَأَمِّثَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ » فنزل  
جبريل والنبي ﷺ واقفٌ - بخواتيم سورة النحل « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ  
مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » إلى آخر السورة ، وهن ثلاث آيات .

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال : (لَمَّا كَانَ يَوْمٌ أُصِيبَ مِنَ  
الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُونَ ، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ ، مِنْهُمْ حِزْرَةٌ ، فَتَلَّوْا بِهِ ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ :  
لَنْ أَصْبَنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا الْفُرْيَيْنِ ) ( أى لنزيدن ) عليهم . فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ فَتَحَ  
مَكَّةَ أَنْزَلَ اللَّهُ « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ » الآية .

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد ، والثانية تفيد أنها نزلت يوم  
فتح مكة ، على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين ، فبعد أن  
يكون نزول الآية كان مرة عقيبها معاً . وإذن لا مانع لنا من القول بتعدد نزولها ،  
مرة في أحد ومرة يوم الفتح . وقد ذهب البعض إلى أن سورة النحل كلها مكية .  
وعليه فيكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتين المرتين اللتين في المدينة ،  
وتكون عدّة مرات نزولها ثلاثاً . وبمضمون يقول إن سورة النحل مكية ما عدا  
خواتيمها تلك فإنها مدنية ، وعليه فعدّة مرات نزولها ثنتان فقط .



## شبهة وجوابها

وإذا استشكل على تكرار النزول بأنه عبث مادامت الآية قد نزلت قبل ذلك السبب الجديد ، وحفظها الرسول ﷺ واستظهرها الحُفاظ من الصحابة ، ويمكن الرجوع إليها من غير حاجة إلى نزولها مرةً أخرى .

( فالجواب ) أن هناك حكمةً عاليةً في هذا التكرار ، وهي تنبيه الله لعباده ، ولفت نظرهم إلى ما في طيِّ تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة ، والفوائد الجمة ، التي هم في أشدِّ الحاجة إليها . فخواتيم سورة النحل التي معنا مثلاً ، نلاحظ أن الحكمة في تكرارها هي تنبيه الله لعباده أن يحرصوا على العمل بما احتوته من الإرشادات السامية في تحريِّ العدالة ، وضبط النفس عند الغضب ، ومراقبة الخالق حتى في القصاص من الخلق ، والتدرُّع بالصبر والثبات . والاعتماد على الله والثقة بتأييده ونصره ، لكل من اتقاه وأحسن في عمله ، جعلنا الله منهم أجمعين آمين .

أضف إلى هذه الحكمة ما ذكره الزركشي آتفاً من أن تكرار النزول تعظيم لشأن المكرر ، وتذكير به خوف نسيانه .

## ٦ - تعدد النازل والسبب واحد

قد يكون أمرٌ واحدٌ سبباً لنزول آيتين أو آياتٍ متعددةٍ « على عكس ماسبق » ولا مانع من ذلك ، لأنه لا ينافي الحكمة في إقناع الناس ، وهداية الخلق ، وبيان الحق عند الحاجة ، بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان .

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان ، ما أخرجه ابن جرير الطبري والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً في ظلِّ شجرةٍ فقال : « إنه سيأتيكم إنسانٌ ينظرُ إليكم بعيني شيطانٍ ، فإذا جاء فلا تُكلموه . فلم يلبثوا أن طلع رجلٌ أزرَقُ العينين ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : علامَ تشمتني أنت وأصحابُك ؟ فأطلق الرجلُ فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما طلوا حتى تجاوزَ

عَنهُمْ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بِمَا لَمْ يَتْلَوْا ، وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ . فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » من سورة التوبة .

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالوا : فأَنْزَلَ اللَّهُ : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ شَيْءٍ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ . اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ . أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ . أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » ١٥ من سورة المجادلة .

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذي عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، لا أسمع الله ذَكَرَ النساءِ في الهجرة بشيءٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ، مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُذُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ، لَا أَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخُلُهُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ » ١٥ من سورة آل عمران .

وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت : قلت يا رسول الله : تذكركم الرجال ولا تذكركم النساء فأَنْزَلَ : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ <sup>(١)</sup> » وَأَنْزَلَ « أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى <sup>(٢)</sup> » .

(١) من سورة الأحزاب وتماها : « وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّامِينَ وَالصَّامَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » .

(٢) وهي من آية آل عمران السابقة .

وأخرج الحاكم أيضاً أنها قالت تفرز الرجال ولا تفرز النساء، وإنما لنا نصف الميراث. فأنزل الله « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ » (١) وأنزل : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » (٢) .

## ٧ - العموم والخصوص

بين لفظ الشارع وسببه

هذا مبحثٌ أفردته الأصوليون بالكلام لأن مهمتهم الاستدلال بألفاظ الشارع على الأحكام ، ونحن نلخص لك هنا ما يسمح به المقام لمناسبة أسباب النزول وما ينزل فيها مما يوافقها أو لا يوافقها في العموم والخصوص فنقول : اعلم أن لفظ الشارع الوارد جواباً لسؤال أو سببٍ قد يكون مستقلاً أو مفيداً وحده بقطع النظر عن السبب أو السؤال الوارد فيه . وقد يكون غير مستقل ، بمعنى أنه لا يفيد إلا إذا لوحظ معه السبب أو السؤال .

ولكل من هذين النوعين حكمه :

فأما الجواب الذي ليس بمستقل : فتحكمه أنه يساوى السؤال في عمومه باتفاق

الأصوليين ويساويه أيضاً في خصوصه على الرأي السائد عندهم .

فلو قال سائل : هل يجوز الوضوء بماء البحر ، فأجيب بلفظ ( نعم ) ، أو لفظ

( يجوز ) ، كان المعنى : يجوز الوضوء بماء البحر لكل من أراد من الناس لا لخصوص

هذا السائل ، وذلك لأن السؤال استفهام عن الجواز مطلقاً من غير اعتبار خصوص

المتكلم ، فكذلك جوابه ، لأنه غير مستقل .

ولو قال السائل : توضأت بماء البحر ، فأجيب بلفظ ( يُجْزِيكَ ) ، كان معناه :

(١) من سورة النساء وتامها قد تقدم .

(٢) من سورة الأحزاب ، وتامها قد تقدم أيضاً قريباً .

أن الوضوء بماء البحر يجزى السائل وحده ، لأن السؤال خاصٌ بالمتكلم ، فكذلك جوابه غيرُ المستقل . أما غيرُ المتكلم فلا يُعلم حكمه من هذا الجواب ، بل يُعلم من دليل آخر كالقياس ، أو كقوله ﷺ : « حَكَمَى عَلَى الْوَاحِدِ حَكَمَى عَلَى الْجَمَاعَةِ » . ذلك كله في الجواب غير المستقل .

وأما الجواب المستقل . فتارةً يكون مثل السبب ، في أن كلاً منهما عامٌّ أو خاصٌّ . وحكمه إذن أنه يساويه . فاللفظ العامُّ يتناول كلَّ أفراد سببه العام في الحكم ، واللفظُ الخاصُّ مقصورٌ على شخص سببه الخاصُّ في الحكم . وهذا محل اتفاق بين العلماء ، لمكان التكافؤ والتساوى بين السبب وما نزل فيه . وأمثلة الأول - وهو العامُّ - فيها - كثيرة . منها الآيات النازلة في غزوة بدر ، والآيات النازلة في غزوة أحد من سورة آل عمران . ومثال الثاني - وهو الخاصُّ - فيها - قوله سبحانه في سورة الليل : « وَسَيَجْزِيهَا الْآتِي . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى » .

قال الجلال الحلبي : هذا نزل في الصديق رضى الله عنه ، لما اشترى بلالا العذبة على إيمانه وأعتقه . فقال للكفار : إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فنزلت : « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى » .

واعلم أن هذا التمثيل لا يستقيم إلا على اعتبار أن ال في لفظ « الأتقى » للعهد ، والمهود هو الصديق رضى الله عنه .

وتارة يأتي الجواب المستقلٌ غيرَ متكافئٍ مع السبب في عمومته وخصوصه . وتمت ذلك صورتان : (إحداها) عقليةٌ محضة غير واقعة ، وهى أن يكون السبب عاما واللفظ خاصاً . وإنما كانت عقليةً محضةً وفرضيةً غير واقعة ، لأن حكمة الشارع تجلُّ عن أن تأتي بجوابٍ قاصرٍ ، لا يتناول جميع أفراد السبب . أضف إلى ذلك أنه يخجلُ ببلاغة القرآن ، القائمة على رعاية مقتضيات الأحوال . وهل يعقل أن يسأل

سائلٌ فيقول مثلاً؟ هل يجوز لجماعة المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ويقاتلوا من قاتلهم،  
فيأتي الجواب قائلًا : لك أنت أن تدافع عن نفسك وتقاتل من قاتلك .  
( الصورة الثانية « هي عموم اللفظ وخصوص سببه .

### ٨ - عموم اللفظ وخصوص سببه

ومعناه أن يأتي الجواب أعمّ من السبب، ويكون السبب أخصّ من لفظ الجواب.  
وذلك جائز عقلاً ، وواقعٌ فعلياً ، لأنه لا محذور فيه ولا قصور ، بل إن عمومه مع  
خصوص سببه موفٍ بالغاية ، ومؤدّى للمقصود وزيادة .  
بيد أن العلماء اختلفوا في حكمه : أعمومُ اللفظ هو المعتبر أم خصوصُ السبب ؟ .  
ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول كلَّ أفراد اللفظ ، سواء منها أفراد السبب ، وغير  
أفراد السبب . ولنضرب لك مثلاً : حادثة قذف هلال بن أمية لزوجته ، وقد نزل  
فيها قول الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » الخ ، نلاحظ فيها أن السبب  
خاصٌّ ، وهو قذف هلال هذا ، لكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عامٍّ - كما ترى -  
وهو لفظ « الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » . وهو اسم موصول ، والموصول من صيغ  
العموم ، وقد جاء الحكم بالملاعنة في الآية محمولاً عليه من غير تخصيص . فيتناول بعمومه  
أفراد القاذفين في أزواجهم ، ولم يجدوا شهداء إلا أنفسهم ، سواء منهم هلال بن أمية  
صاحب السبب وغيره ، ولا يحتاج في سحب هذا الحكم على غير هلال إلى دليل آخر  
من قياس أو سواه بل هو ثابت بعموم هذا النص . ومعلومٌ أنه لا قياس ولا اجتهاد  
مع النص . ذلك مذهب الجمهور .

وقال غير الجمهور : إن العبرة بخصوص السبب . ومعنى هذا أن لفظ الآية يكون  
مقصوراً على الحادثة التي نزل هو لأجلها ، أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نصّ الآية ،  
إنما يعلم بدليل مستأنف آخر ، هو القياس إذا استوفى شروطه ، أو قوله ﷺ :

« حُكْمِي عَلَى الْوَاحِدِ حُكْمِي عَلَى الْجَمَاعَةِ ». فَأَيَّةُ الْقَذْفِ السَّابِقَةِ النَّازِلَةِ : بِسَبَبِ حَادِثَةِ هَلَالٍ مَعَ زَوْجِهِ خَاصَّةً بِهَذِهِ الْحَادِثَةِ وَحَدِّهَا ، « عَلَى هَذَا الرَّأْيِ ». أَمَّا حُكْمٌ غَيْرُهُمَا مِثْلُهَا ، فَإِنَّمَا يَعْرِفُ قِيَاسًا عَلَيْهَا أَوْ عَمَلًا بِالْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ .

وَيَجِبُ أَنْ نَلَاظِحَ ، أَنَّ هَذَا الْخِلَافَ الْقَائِمَ بَيْنَ الْجُمْهُورِ وَغَيْرِهِمْ ، مُحْتَمَلٌ إِذَا لَمْ تَقُمْ قَرِينَةٌ عَلَى تَخْصِيسِ لَفْظِ آيَةِ الْعَامِّ بِسَبَبِ نَزْوِلِهِ ، أَمَّا إِذَا قَامَتْ تِلْكَ الْقَرِينَةُ فَإِنَّ الْحُكْمَ يَكُونُ مَقْصُورًا عَلَى سَبَبِهِ لِاحْتِمَالِهِ ، بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ .

كَأَيْبِ أَنْ نَلَاظِحَ أَيْضًا أَنَّ حُكْمَ النَّصِّ الْعَامِّ الْوَاردِ عَلَى سَبَبٍ يَتَعَدَّى عِنْدَهُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ إِلَى أَفْرَادٍ غَيْرِ السَّبَبِ . بَيِّدَنَّ الْجُمْهُورَ يَقُولُونَ إِنَّهُ يَتَنَاوَلُهُمْ هَذَا النَّصُّ نَفْسَهُ ، وَغَيْرِ الْجُمْهُورِ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَا يَتَنَاوَلُهُمْ إِلَّا قِيَاسًا أَوْ بِنَصِّ آخِرِ كَالْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ : « حُكْمِي عَلَى الْوَاحِدِ حُكْمِي عَلَى الْجَمَاعَةِ » .

وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى يُشِيرُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ بِقَوْلِهِ : « قَدِ يَحْيَى كَثِيرًا مِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ : هَذِهِ آيَةُ نَزَلَتْ فِي كَذَا ، لِأَسْمَاءِ إِنْ كَانَ الْمَذْكُورُ شَخْصًا ، كَقَوْلِهِمْ : إِنْ آيَةُ الظَّهَارِ نَزَلَتْ فِي امْرَأَةِ قَيْسِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَإِنْ آيَةُ الْكَلَالَةِ نَزَلَتْ فِي جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ آيَةُ قَوْلِهِ « وَأَنْ أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » نَزَلَتْ فِي بَنِي قَرِيبَةَ وَالنُّضَيْرِ ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ مَا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ ، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنُّصَارَى ، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَالَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمْ يَقْصِدُوا أَنَّ حُكْمَ آيَةِ يَخْتَصُّ بِأُولَئِكَ الْأَعْيَانِ دُونَ غَيْرِهِمْ ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَالنَّاسُ وَإِنْ تَنَازَعُوا فِي اللَّفْظِ الْعَامِّ الْوَاردِ عَلَى سَبَبٍ : هَلْ يَخْتَصُّ بِسَبَبِهِ ؟ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنْ عَمَّوَاتِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَخْتَصُّ بِالشَّخْصِ الْمَعِينِ . وَإِنَّمَا غَايَةُ مَا يُقَالُ : إِنَّهَا تَخْتَصُّ بِنَوْعِ ذَلِكَ الشَّخْصِ ، فَتَعَمُّ مَا يَشْبَهُهُ وَلَا يَكُونُ الْعَمُومَ فِيهَا بِحَسَبِ اللَّفْظِ . وَالآيَةُ الَّتِي لَهَا سَبَبٌ مَعِينٌ إِنْ كَانَتْ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا فَهِيَ مُتَنَاوَلَةٌ لِذَلِكَ الشَّخْصِ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَ بِمَنْزِلَتِهِ » هـ .

ولعل ثمره هذا الخلاف ترجع إلى أمرين: «أحدهما» أن الحكم على أفراد غير السبب مدلول عليه بالنص النازل فيه عند الجمهور. وذلك النص قطعي المتين اتفاقاً، وقد يكون مع ذلك قطعي الدلالة. أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مدلولاً عليه بذلك النص بل بالقياس أو الحديث المعروف، وكلاهما غير قطعي.

«الثاني» أن أفراد غير السبب كلها يتناولها الحكم عند الجمهور، مادام اللفظ قد تناولها. أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس منها دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس.

### د — أدلة الجمهور

استدل الجمهور على مذهبهم بأدلة ثلاثة: «الأول» أننا نعلم أن لفظ الشارع وحده هو الحجة والدليل دون ما احتف به من سؤال أو سبب؛ فلا وجه إذن لأن نخص اللفظ بالسبب. وكيف يسوغ أن نجعل ما ليس حجة في الشرع متحكماً بالتخصيص على ما هو الحجة في الشرع؟

والدليل على أن لفظ الشارع وحده هو الحجة أن الشارع قد يصرف النظر عن السؤال، ويعدل بالجواب عن سنن السؤال لحكمة، نحو قوله تعالى في سورة البقرة: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ مَا أُنْفِقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» فإن ظاهر هذه الآية أن النبي ﷺ سئل عن بيان ما ينفقونه؛ فجاء الجواب ببيان من ينفقون عليهم. وذلك من أسلوب الحكيم؛ لأن معرفة مصارف النفقة والصدقة أهم من معرفة المصروف فيهما، فإن إصلاح الجماعة البشرية لا يكون إلا عن طريق تنظيم النفقة والإحسان، على أساس توجيههما إلى المستحقين دون سواهم. وهذا وجه في الآية نزاهة وجيهاً،

وإن كانت الآية قد أشارت إشارةً خفيفةً إلى بيان ما ينفقونه بقوله سبحانه «من خير» غير أنها إشارةٌ إجمالية لا تشيع حاجة السؤال .

ويمكن أن تنظم من هذا دليلاً منطقيًا من باب القياس الاقترائي ، تقريره هكذا :  
اللفظ العام الوارد على سبب خاصٍ هو الحجة وحده عند الشارع ، وكل ما كان كذلك يعتبر عمومه ، فاللفظ العام الوارد على سبب خاص يُعتبر عمومه . وهو المطلوب .

كما يمكن أن تنظم منه قياساً استثنائيًا تقريره :

لو لم يكن اللفظ العام الوارد على سبب خاص مُعتبراً عمومه لما كان لفظ الشارع وحده هو الحجة ، لكن التالي باطل ، فبطل ما أدى إليه وهو المقدم ، وثبت نقيضه وهو أن اللفظ العام الوارد على سبب خاص يعتبر عمومه ، وهذا هو المطلوب .

«الدليل الثاني» أن الأصل هو حمل الألفاظ على معانيها المتبادرة منها عند الإطلاق أي عند عدم وجود صارفٍ يصرف عن ذلك المتبادر ، ولا صارفٍ للفظ هنا عن إرادة العموم ، فلا جرم يبقى على عمومه . أما ما يتوهمه المخالفون من أن خصوص السبب صارفٌ عن إرادة العموم ، فمدفوعٌ بأن مجرد خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من تناول اللفظ العام إياه . فلا يصلح أن يكون قرينة مانعة من إرادة ما وضع له اللفظ العام . وهو العموم الشامل لجميع الأفراد .

ويمكن أن تنظم من هذا الدليل قياساً اقترائيًا هكذا: اللفظ العام الوارد على سبب خاص يتبادر منه العموم عند الإطلاق ، وكل ما كان كذلك يبقى على عمومه . فاللفظ العام الوارد على سبب خاص يبقى على عمومه وهو المطلوب .

ويمكن أن تنظم من ذلك الدليل قياساً استثنائيًا أيضاً يقول : لو لم يكن اللفظ العام الوارد على سبب خاص باقياً على عمومه عند الإطلاق للزم استعمال اللفظ في غير ما وضع له بلا قرينة ، لكن التالي باطل ، فبطل المقدم وثبت نقيضه وهو أن اللفظ العام



الوارد على سبب خاص يأتي على عمومته عند الإطلاق . وذلك هو المطلوب .  
« الدليل الثالث » احتجاج الصحابة والمجاهدين في سائر الأعصار والأصهار بعموم تلك الألفاظ الواردة على أسباب خاصة في وقائع وحوادث كثيرة من غير حاجة إلى قياس أو استدلال بدليل آخر . وكيف يتكرر هذا ؟ وأكثر أصول الشرح أخرجت على أسباب خاصة ، ويرغم خصوص تلك الأسباب قد فهو من الألفاظ النازلة فيها بمقتضى العموم ، ثم صاغوا من عموماتها كثيراً من الأصول . فاستدلوا بأية السرقة على وجوب قطع كل يد مع أيها نازلة في خصوص سرقة المجنّ أو رداء صفوان ، واحتجوا بأيات الظهار على وجوب الكفارة المذكورة فيها والعمل بأحكامها على كل من ظاهر ، مع أنها نازلة في خصوص من عرفته قبل . وكذلك برهنوا بأيات اللعان على قبول حكمه لكل من قذف زوجته ولم يكن معه شهود على حين أنها نازلة في خصوص من ذكرنا سابقاً .

ويمكن أن تنظم من هذا الدليل قياساً اقترانياً نصه : عموم اللفظ الوارد على سبب خاص قد اعتبره الصحابة والمجاهدون ، وكل ما كان كذلك فهو المعتبر . خصوص اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر .

ويمكن أن تنظم منه دليلاً استثنائياً نصه : لو لم يكن عموم اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر ، لما اعتبره الصحابة والمجاهدون ، لكن الثالي باطل فيطل المقدم ، وثبتت تقييده ، وهو المطلوب .

#### ملاحظة :

لا يبعد عليك أن تستدل للمقدمات الصغرى والكبرى في الأقيسة الاقترانية التي ذكرناها ، خصوصاً بعد أن ننظر فيما نثرناه قبلها من عرض الأدلة بالأسلوب اللغوي الخلال من التبيود الشكلية ، في الاصطلاحات المنطقية .

ويعتدل ذلك تسطع أن تستدل للملازمات وتوازن التوالى، فيما نظمناه بين يدك من  
الأقضية الاستثنائية. **عاطل**

١ - شبهات المخالفين وتفنيدها

المتقد عاتقوا الجمهور إلى شبهات خمس لتأييدها منهم - وهو أن العبارة بخصوص  
السبب لا بصوم اللفظ - ولكنك سترى صريح هذه الشبهات بين يدك :

« الشبهة الأولى » يقولون : إن الإجماع قد انتقد على عدم جواز إخراج السبب من  
حكم العام الواردة على سبب خاص ، إذا ورد مخصص . وذلك يستلزم أن العام مقصور  
على أفراد السبب لا يتناول غيرها ، لأنه لو لم يكن مقصوراً عليها لتساوت هي وغيرها  
في جواز الإخراج عند المخصص . وذلك ممتنع ، للإجماع المذكور .

والجواب : أن الإجماع المذكور لا يستلزم قصر العام على أفراد الخاص  
كما يقولون ، بل هو واقف عند حدوده بصفه من أن أفراد السبب لا يخرج بالمخصص ،  
وذلك المعنى مضمّن لعدم التساوى بين أفراد السبب وغيرها في حالة الإخراج بالمخصص ،  
لكن لا يمنع من جواز إخراج أفراد السبب في حكم العام إذا تناول اللفظ ، وذلك لأدلة الجمهور  
السابقة .

ويمكن أن تنظم من هذا قياساً استثنائياً يقول :

لو لم تكن العبارة بخصوص السبب ، لجاز إخراج أفراد السبب إذا ورد مخصص  
لكن إخراج أفراد السبب عند وجود المخصص ممنوع ، لانقضاء الإجماع على امتناعه .  
فبطل ما أدى إليه وهو للتقدم ، وثبت قبضه ، وهو أن العبارة بخصوص السبب  
دليل للتلازم أن العام تسترى أفرادها ، فإذا أخذنا بصوم اللفظ ولم نخصصه بالسبب

تساوت أفراد السبب وغيرها مما اندرج تحت ذلك العام ، فإذا جاء مخصص جاز أن يخرج أفراد السبب .

ومُجَاب بإبطالِ الملازمة ، ومنع أن أفراد العام متساوية . وسند للنوع أن الإجماع منمقد على أن أفراد السبب تمتاز عن غيرها بأنها لا يخرج بالتخصيص . فإن تساوت هي وأفراد غير السبب دخولاً ، فلن يتساوى الجميع خروجاً . وإذن يبقى العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، للأدلة السابقة .

« الشبهة الثانية » يقولون : إن الرواة نقلوا أسباب النزول واهتموا بها وتدوينها . ولا فائدة لذلك إلا ما نذهب إليه من وجوب قصر العام على أفراد سببه الخاص . وهذا معنى أن العبارة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ .

والجواب : أنه لا وجه لكم في أن تجعلوا فائدة نقل الأسباب هي قصر العام على أفراد سببه ، فإن لأسباب النزول والإحاطة بها علماً عن طريق نقل الرواة فوائد عدة ، ومزايا جمة ، وذكرناها في مطالع هذا البحث . وهي غير ما ذكرتم ، فارجعوا إليها إن شئتم . ويمكن أن ننظم من ذلك قياساً استثنائياً أيضاً هكذا : لو لم تكن العبارة بخصوص السبب لما نقله الرواة واهتموا بديانته وتدوينه لكن التالي باطل بالحس والمشاهدة ، فثبت نقيض التقدم وهو أن العبارة بخصوص السبب دليل للملازمة أنه لا يفهم لنقل الرواة وهنأيتهم ببيان الأسباب فائدة غير التخصيص .

والجواب أننا نمنع دليل الملازمة ، كيف ؟ ولأسباب النزول فوائد متعددة قد قصصناها عليك أول هذا البحث فحذار أن تنسى .

« الشبهة الثالثة » يقولون : إن تأخير البيان عن وقوع الواقعة وتوجيه السؤال في العام الوارد على سبب يدل على أن العبارة بخصوص السبب ، لأن تأخير لفظ الشارع إلى ما بعد حدوث سببه ، يفهم منه أن السبب هو المحفوظ وحده للشارع في الحكم عليه بهذا اللفظ العام النازل فيه ، وإلا لما ربطه بالسبب ، بل لأنزله قبله ، أو أخره عنه .

والجواب أنه يكفي في حكمة تأخير البيان إلى ما بعد السبب أن يكون اللفظ العام بياناً له ولو مع ما يشابهه من كل ما يتدرج تحت اللفظ العام، ولا يستلزم أن يكون بياناً له وحده كما ذكرتم.

ويمكن أن تصور من هذا قياساً هكذا: لو لم تكن العبرة بخصوص السبب، لما أحرَّ البيان إلى وقوع الواقعة أو توجيه السؤال. لكن التالي باطل، فثبت تقيض المقدم وهو الطلوع. دليل الملازمة أن تأخير لفظ الشارع إلى ما بعد وقوع الواقعة وتوجيه السؤال لا يفهم منه إلا أنه بيان لهذا السبب وحده، وذلك معنى أن العبرة بخصوصه.

والجواب: أننا نمنع دليل الملازمة، أي نمنع أنه لا يفهم من تأخير البيان إلى ما بعد وقوع الواقعة وتوجيه السؤال إلا أن يكون اللفظ العام النازل بسببها بياناً لهذا السبب وحده. كيف؟ والتأخير يفهم منه أن اللفظ العام جاء بياناً له مع أشباهه من كل ما ينتظم وإياه في سلك العلم للأدلة السابقة.

« الشبهة الرابعة » يقولون: قد اتفقت كلمة الفقهاء على أنه إذا دعا رجل رجلاً آخر إلى طعام الغداء وقال له: (تعدّ عندي) فرفض وقال: ( والله لا أتعدّي )، ولم يقل « عندك »، ثم تناول الغداء عند غير هذا الداعي، فإنه لا يحتمل. وماذا لك إلا لأن هذا اللفظ العام قد تخصّص بسببه وهو كلمة (تعدّ عندي) التي خصّ بها الداعي نفسه، فكان الحلف قال: (لا أتعدّي عندك وحدك) ولذلك لا يحتمل بغدادته عند غيره.

والجواب: أن حكم الفقهاء في هذا المثال ليس مبنياً على أن كل عام ينتخصّ بسببه كما فهمتم، بل هو مبنّى على أن هذا المثال وأشباهه تخصّص بقريئة خارجية وهي حكم العرف هنا بأن الحالف إنما يريد ترك الغداء عند داعيه فقط. وليس كلامنا فيما تخصّص بقريئة خارجية، سواء أكانت العرف أم سواء، فذلك محتمل وفاق.

ونظيره أن يقال لك (كلم فلاتاً في واقعة معينة) فتقول (والله لا أكلته أبداً) فإنك لا تحنت إذا كلمته في غير تلك الواقعة ، لأن العرف يحكم أيضاً بأنك تريد عدم تكلمه في خصوص تلك الواقعة لا مطلقاً .

ويمكن أن تنظم من هذا قياساً استثنائياً يقول :

لو لم تكن العبارة بخصوص السبب ، لكان من قال ( والله لا أنفدي ) ولم يقل ( عندك ) ، في إجابة من قال له ( تفدّ عندي ) حائثاً إذا نفدّ عند غيره . لكن التالي باطل ، لنص الفقهاء على عدم حنثه حينئذ ، فبطل للقـدم ، وثبت تقيضه ، وهو المطلوب .

دليل الملازمة أن كلمة ( لا أنفدي ) شاملة للتفدي عند المخاطب وعند غيره ، لأن حذف للعمول بؤذن بالعموم . وقد جاءت هذه الكلمة على سبب وهو دعوة المخاطب إياه للعداء . فلر أخذنا بعموم هذا اللفظ ، وأهملنا خصوص هذا السبب ، لكان يحنت بعدائه عند غيره ، لأنه فرد من أفراد ذلك العام .

والجواب : أن التخصيص بالسبب هنا لم يحى من نفس السبب ، إنما جاء من قرينة خارجة هي حكم العرف بأن حالف مثل هذه اليمين إنما يقصد بعدم التفدي عند من دعاه وحده . ولا كلام لنا في ذلك ، لأن التخصيص بالقرينة الخارجة محل وفاق كما تقدم .

« الشبهة الخامسة » يقولون : إن التطابق بين السؤال وجوابه واجب ، في نظر الحكمة ، وبحكم قانون البلاغة . وهذا التطابق لا يستقيم إلا بالتساوي بين لفظ العام وسببه الخاص . والتساوي لا يكون إلا إذا خصصنا اللفظ العام بسببه الخاص . لاسيما إذا وقع ذلك في كلام الشارع الحكيم ، وجاء في أرقى نصوص البلاغة وواحدتها إيجازاً ، وهو القرآن الكريم .

والجواب : أن طرفي العام على عمومه لا يحل بمطابقته لسيبه الخاص ، لأن هذه المطابقة تحصل بكون اللفظ أعم من سببه ، كما تحصل بمساواته إياه ، فإن القصور من المطابقة أن يكون اللفظ مبيهاً لحكم السبب وغير قاصر عن الوفاء به ، وهو إذا جاء أعم يكون قد وفق المراد وزاد .

ويمكن أن تسبك من هذا قياماً استثنائياً صيغته هكذا : لو لم تكن العبارة بخصوص السبب ، لكان اللفظ غير مطابق للسبب . لكن التالي باطل ، فقدت تقيض المقدم . دليل اللازمة : أن الكلام هنا مفروض في سبب خاص ولفظ عام ، ولاشك أن العام لا يطابق الخاص . ودليل بطلان التالي : أن عدم المطابقة منافية للحكمة ، ومغلّ بالبلاغة .

والجواب : أننا نبتل تلك اللازمة ، ونمنع دليلها وهو أن العام لا يطابق الخاص . كيف ؟ والمطابقة كما تحصل بمساواة اللفظ للسبب عموماً وخصوصاً ، تحصل بكون اللفظ أعم من السبب ، لأن المراد من الجواب أن يتحدث عن السبب وبين حكمه ، وذلك حاصل مع كونه أعم منه ، ولا يتوقف على مساواته إياه .

ملاحظة : يمكنك بعد هذا البيان ، أن تحول تلك الأقيسة الاستثنائية إلى أقيسة اقترانية ، ثم تستعمل على مقدماتها بسهولة ويسر ، على نمط ما فعلنا بأدلة الجمهور . فأمامك المجال ، ولا داعي لإطالة المقال .

كما أرجو أن يعذرنى القارى الكريم ، إذا شقّ عليه بعض الشيء أن يهضم تلك الصناعة الفنية في صياغة الأدلة ببعض الأحيان ؛ فإن للوسط قضاء لا يرد ، وللصناعة حكماً لا ينتقض . ومن واجبي أن أشبع حاجة هؤلاء وهؤلاء ، لذلك ترائى طوراً هنا وطوراً هناك . والله هو الفتح العليم ؛ وهو الموفق والمعين .

١١ - شبه السبب الخاص مع اللفظ العام

نوة السيوطي في الإتيان ، وابن الشككي والخلي في جمع الجوامع وشرحه بأن القرآن الكريم قد يرد فيه ما يشبه السبب الخاص مع اللفظ العام النازل فيه ، فيكون لهذا الشبه أثر صالح في تناول الآية العامة للمضمون الخاص في الآية التي معها ، تناولاً ممتازاً يجعله أسبق إلى الذهن من غيره ، وأبعد عن خروجه بالتخصيص إذا ورد مخصص لفظك الآية العامة . فكأنه قطعي الدخول . وكأنه يجمع على عدم خروجه بالتخصيص ، كما أجمعوا على عدم خروج السبب الخاص من لفظ العام النازل فيه .

وهناك مثلاً بوضع لك للقبام : قال الله تعالى في سورة النساء : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ ، يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا » إلى آخر الآيات الواردة في هذا الموضوع .

فانت ترى أن هذه الآيات شتمت على الخيانة والظالمين من اليهود ، وتوعدهم أفظح الوعيد ، ووبختهم أشد التبويخ . وذلك في معنى النهي البالغ عن تلك الخيانة أي خيانتهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، حيث جعلوا للمشركين أهدي سبيلاً منهم . ومن التمرار أن النهي عن شيء أمر بضده ، فلا جرم تضمنت هذه الآيات أيضاً أمر اليهود بالأمانة في الحكم على النبي ﷺ وأصحابه ، ووصفهم بالصفات الحقيقية ، خصوصاً أنهم قد مدحوا في كتابهم التوراة كما قال الله تعالى في سورة الأعراف : « بَيِّنَاتٌ مِّنْهُم مَّا كَتَبْنَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » الخ والضمير للنبي ﷺ ، وكما قال في سورة الفتح بعد أن وصف النبي وأصحابه : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّعًا أَخْرَجَ شَطَاؤَهُ » الخ .

ثم جاء عقيب تلك الآيات في الترتيب الوضعي قوله سبحانه وتعالى : « إِنْ آتَاكَ

بأنهم كرهوا أن يروا الأمانات إلى أهلها ، فكان التماسها فيها رائعا ، والعدة وثيقة  
والاستعانة جارية ، لأن هذه لا تظهر الأمانة في صورتها كما ترى ، وذلك الآيات تأمر  
بأمانتها خاصة كقوله ، وما الحكم العلة بين العام والخاص ، فكان ذلك تشديدا بالسبب  
الخاص بمنزلة قوله لفظ عام ، فإذا كان تناول العام لأفراد الخاص مجعاً عليه ولا يصح  
خروجه بخصوص ، فكانت الأمانة الخاصة التي معنا تنظم في تلك الأمانة العامة  
استظنا بما إذا يوجد على غيرها من الأولياء ، حتى لو قيل إنه لا يحمل إخراجها منها بخصوص  
لم يند ، وذلك ما حقه إبان السبكي أن يحمل امرتية دون السبب وفوق التعمير  
وإعالم يحمل في مرتبة السبب ، لأن الأولى ليست سبباً في الثانية ، ولأن المقارنة بينهما  
ليست إلا في ترتيب آيات القرآن ووضع بعضها بإزاء بعض ، والاستمارة زمانية في النزول  
بل إن بينهما التماس سبباً ، فالثانية تأخرت عن الأولى بنحو ست سنين ، ولا يضر ذلك  
لأن قارب الأمانات ليس شرطاً في وضع آية لصق آية تناسبها ، إنما هو شرط في أسباب  
النزول مع ما يصدق فيها نصيب .

ولعل من تمام الفائدة أن نسوق إليك ما جاء في جمع الجوامع للإمام ابن السبكي  
وشارحه جلال الدين المكي في هذه المناسبة ونصه : « ( ويقرب منها ) أي من صورة  
السبب حتى يكون قلم النزول أو ظنيته ( خلاص في القرآن تلاء في الرسم ) أي  
رسم القرآن بمعنى وضعه مواضعه ، وإن لم يتله في النزول ( عام للناسبة ) بين التالي  
والتالي ، كما في قوله تعالى : « ألم نوح إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ،  
وهم يؤمنون بالبينات والطهورات » الخ فإنه - كما قال أهل التفسير - إشارة إلى كتب  
ابن الأشرف وهو من علماء اليهود لما قدموا مكة وشاهدوا قتلى بدر ، حرصوا  
المشركين على الأمانات ، ومحاربة النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم : من أهدى سبيلا ،  
معد وأصغاره أم نحن ؟ فقالوا : أتم ، مع علمهم بما في كتابهم من نص النبي صلى الله  
عليه وسلم المنطبق عليه ، وأخذ الوثائق عليهم ألا يكتبوه ، فكان ذلك أمانة لازمة لم ولم



يؤدونها، بحسب قول الكفار: أنتم أهدى سبيلاً حسداً للنبي ﷺ . وقد تضمنت الآية مع هذا القول التوجه عليه المفيد للأمر بمقابلته للشتم على أداء الأمانة التي هي بيان صفة النبي ﷺ ، بإفادة أنه الموصوف في كتابهم ، وذلك مناسب لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ لَآتِيكُمْ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » فهذا عام في كل أمانة ، وذلك خاص بأمانة هي بيان صفة النبي صلى الله عليه وسلم بالطريق السابق ، والعالم مثال للخاص في الرسم متراخ عنه في النزول بست سنين ، مدة ما بين بئس في رمضان من السنة الثانية ، والفتح في رمضان من السنة الثامنة ، وإنما قال : ويقرب منها كذا ، لأنه لم يرد العام بسببه بخلافها « ١٥ والحمد لله أولاً وآخراً .

## المبحث السادس

### في نزول القرآن على سبعة أحرف

هذا بحث طريف وشائق ، غير أنه مخيف وشائك ١ . أما طرافته وشوقه ، فلأنه يرينا مظهراً من مظاهر رحمة الله وتخصيئه على عباده ، وتيسيره لكتابه على كافة القبائل العربية ، بل على جميع شعوب الأمة الإسلامية ، من كل جيل وقبيل ، حتى ينظروا به لينة ألسنتهم ، سهلة لسانهم ، برغم ما بينهم من اختلاف في اللغات ، وتنوع في الخصائص والميزات .

ومن طرافة هذا المبحث أيضاً أنك تشاهد فيه عرضاً عاماً لمنتجات أفكار كثيرة ، وتشهد جيشاً جزاراً من مذاهب وآراء . كلها تحاول العمل لخدمة العلم ، وإظهار الحق ، والدفاع عن عرين القرآن والإسلام .

وأما مخافة هذا المبحث وشوكة ، فلأنه كثر فيه القيل والقال ، إلى حدٍ كاد يطمس أنوار الحقيقة ، حتى استعصى فيه على بعض العلماء ولاذ بالفرار منه وقال : إنه

مشكل. وحق اضطرار جماعة من كبار المحققين أن يفردوه بالتأليف قديماً وحديثاً، ما بين  
العلامة المعروف بلقب شامة في القرن السابع الهجري، والعلامة الشيخ محمد نجيب في القرن  
الرابع عشر.

أضف إلى ذلك أن الخطأ في هذا الباب قد يتخذ منه أمداء الإسلام سبيلاً هو جأ إلى  
توجيه الطامع للغيبة إلى القرآن، كما وقعت أو وقع على كتاب لمن يدعون أنفسهم  
مبشرين، أموه «صباح قرآنية» ويطعوا موضوع الجزء الأول منه «هل من تحريف  
في الكتاب الشريف»؟ وتصيدوا فيه من الآراء الزبينة ما الحق منه يرى. وهو أجماعاً  
لم ينالوا.

ونحن نستعين الله ونشهد به، أن يُخلص لنا الورد من الشوك في هذا الموضوع الشائق  
الشائك، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً.

وسنعول في هذا الميدان - إن شاء الله - جوانب عدة، نتحدث فيها عن أدلة  
نزول القرآن على سبعة أحرف، وعن شواهد بارزة في هذه الأحاديث الواردة، بينها فوائد  
كثيرة لاختلاف الجروف والقراءات، وعن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف وعن  
الوجوه السبعة في المذهب المختار، وعن تحقيق النسبة بين المذهب المختار وأشباهه، وعن  
وجوه اختيار هذا المذهب، وعن دفع الاعتراضات الواردة عليه، وعن بقاء هذه الأحرف  
السبعة في المصاحف، وعن الأقوال الأخرى وتفنيدها، وعن دفع إجمالي للأقوال الأخيرة  
منها، ثم نختم البحث بملاج الشبهات الواردة على هذا الموضوع: والله المستعان.

## ١ - أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف

لا سبيل إلى الاستدلال على هذا إلا ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد جاء هذا النقل الصحيح من طرق مختلفة كثيرة ، وروى حديث نزول القرآن على سبعة أحرف عن جمع كبير من الصحابة . منهم عمر ، وعثمان ، وابن مسعود وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو بكر ، وأبو جهم ، وأبو سعيد الخدري ، وأبو طلحة الأنصاري ، وأبي بن كعب ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسلمان بن صرد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمرو بن أبي سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأنس ، وحذيفة ، وأم أيوب امرأة أبي أيوب الأنصاري ، رضى الله عنهم أجمعين . فهؤلاء أحد وعشرون صحابياً ، ما منهم إلا رواه وحكاه .

وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده الكبير أن عثمان رضى الله عنه قال يوماً وهو على المنبر : « أذكر الله رجلاً سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف » لما قام . فقاموا حتى لم يحضوا ، فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف » فقال عثمان رضى الله عنه : « وأنا أشهد معهم » .

وكان هذه الجموع التي يؤمن تواطؤها على الكذب هي التي جعلت الإمام أبا عبيد ابن سلام يقول بتواتر هذا الحديث . لسكنك خبير بأن من شروط التواتر ، توافر جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الرواية . وهذا الشرط إذا كان موفوراً هنا في طبقة الصحابة كما رأيت ، فليس بموفور لدينا في الطبقات المتأخرة .

وهاك طائفة من تلك الأحاديث نسوقها إليك استدلالاً من ناحية ، وتنويراً في بيان المعنى وإقامة لعالم الحق فيه من ناحية ثانية :

(١) روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أقرأنى جبريلُ على حروفٍ فرأيتُها ، فلم أزلُ أستزيدُه ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعةِ أحرفٍ » زاد مسلم : « قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك السبعة فى الأمر الذى يكونُ واحداً لا يختلفُ فى حلالٍ ولا حرامٍ » .

(٢) وروى البخارى ومسلم أيضاً - (واللفظ للبخارى) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأ سورة الفرقانِ فى حياةِ رسولِ الله ﷺ ، فاستمعتُ لقراءتهِ فإذا هو يقرأها على حروفٍ كثيرةٍ ، لم يقرئها رسولُ الله ﷺ ، فكذبتُ أساوره فى الصلاةِ ، فانتظرتُه حتى سلم ، ثم لببتهُ بردائه أو بردائى ، فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسولُ الله ﷺ . قلت له : كذبت ، فوالله إن رسولَ الله ﷺ أقرأنى هذه السورة التى سمعتُك تقرأها ، فانطلقتُ أقوده إلى رسولِ الله ﷺ فقلت : يا رسولَ الله إني سمعتُ هذا يقرأ بسورةِ الفرقانِ على حروفٍ لم تقرأنيها ، وأنت أقرأنى سورةَ الفرقانِ . فقال رسولُ الله ﷺ : أرسله يا عمرُ : اقرأ يا هشامُ ، فقرأ هذه القراءة التى سمعتُ يقرأها . قال رسولُ الله ﷺ : هكذا أنزلت . ثم قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآنُ أنزلَ على سبعةِ أحرفٍ ، فاقرأوا ما تيسرَ منه » .

(٣) وروى مسلمٌ بسنده عن أبي بن كعب قال : « كنتُ فى المسجدِ ، فدخلَ رجلٌ يصلى ، فقرأ قراءةً أنكرتها عليه ، ثم دخلَ آخرُ ، فقرأ قراءةً سوقَ قراءةِ صاحبه ، فلما قضينا الصلاةَ دخلنا جميعاً على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ : إن هذا قرأ قراءةً أنكرتها عليه ، ودخلَ آخرُ فقرأ سوى قراءةِ صاحبه . فأمرها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ، فحسِنَ النبى صلى الله عليه وسلم شأنهما ، فسقطَ فى نفسى من التكذيبِ ولا إذ كنتُ فى الجاهليةِ . فلما رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما قد

عشيني ضرب في صدري ، ففضت عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقاً فقال لي :  
يا أباي ، أرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه : أن هون على أمي ،  
فرد إلي الثانية : اقرأه على حرفين ، فرددت إليه : أن هون على أمي ، فرد إلي  
الثالثة : اقرأه على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة ردتها مسألة تسألنيها . فقلت :  
« اللهم اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي . وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم  
حتى إبراهيم صلى الله عليه وسلم » . . . ٥ .

واعلم أن معنى قول أبي بن كعب رضي الله عنه « فسقط في نفسي من التكذيب  
الح » أن الشيطان ألقى إليه من وساوس التكذيب ما شوش عليه حاله ، حين رأى  
النبي ﷺ قد حسن القراءتين وصورهما على ما بينهما من اختلاف ، وكاننا في سورة  
واحدة هي سورة النحل على ما رواه الطبري . وكان الذي مرَّ بخاطره وقتئذ أن هذا  
الاختلاف في القراءة ينافي أنه من عند الله . لكنه كان خاطراً من الخواطر الرديئة  
التي لا تنال من نفس صاحبها منالاً ، ولا تفتنها عن عقيدة ، ولا يكون لها أثرٌ باقي  
ولا عملٌ دائم .

ومن رحمة الله بعباده أنه لا يؤخذهم بهواجس النفوس وخلجات الضمائر العابرة .  
ولكن يؤخذهم بما كسبت قلوبهم ، حين يفتح الإنسان للشبهة صدره ، وبوجه إليها  
اختياره وكسبه ، ثم يعقد عليها فؤاده وقلبه .

قال القرطبي « فكان هذا الخاطر ( يشير إلى ما سقط في نفس أبي ) من قبيل  
ما قال فيه النبي ﷺ حين سأله : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم  
به . قال : أوقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذلك صريح الإيمان » . رواه  
مسلم ٥ .

ومن هذا تعلم أن ما خطر لسيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه ، لا يمس مقامه

ولا يصادم إيمانه ، مادام قد دفعه بإرشاد رسول الله ﷺ سريعاً كما في الحديث الشريف .

وأى إنسان يستطيع أن يحمى نفسه خواطرَ سوء الهوان ، ورياحِ الهواجس الشنمَاء ؟ إنما الواجب على المؤمن أن يحارب تلك الخواطر الرديئة بأسلحة العلم وتعاليم الشريعة ، ولا يستسلم لها ولا يسترسل معها . وعلينا أن نتعاون في هذا الميدان كما فعل الرسول ﷺ بأبي إذ ضَرَبَ في صدره ، ليصرفه بشدة عن الاشتغال بهذا الخطر ، وليلغته بقوة إلى ما قصه عليه علاجاً لشبهته ، من أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، تهويناً على أمته وتيسيراً لها . ولقد منح الرسول ﷺ في هذا العلاج أيماً نجاح حتى قال أبايُّ نفسه : « فَفِضْتُ عَرَقًا ، وَكَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرَقًا » .

ذلك ما نراه مُخْلِصًا في هذا المقام الذي زلت فيه بعض الأقدام ، وللعلامة الشيخ محمد عبد الله دراز كلامٌ جيدٌ في مثل هذا الموضوع من كتابه المختار ، فارجع إليه إن أردت التوسُّع ومزيد البيان .

أضف إلى ما ذكرنا أن خصومة أبي بن كعب في أمر اختلاف القراءة على هذا النحو ، إنما كانت من قبل أن يعلم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فهو وقتئذ كان معذوراً ، بدليل أنه لما علم بذلك ، واطمأنت إليه نفسه ، عمل بما علم ، وكان مرجعاً مُهماً من مراجع القرآن على اختلاف رواياته ، وكان من رُواة هذا العلم للناس كما تلاحظه في الحديثين المسندين إليه بعدُ .

(٤) روى مسلم بسنده عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غِفَار . قال : « فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ . فَقَالَ : أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ ؛ وَإِنْ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ

ذلك . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمثك القرآن على حرفين فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ؛ وإن أمي لا تطيق ذلك ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمثك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمي لا تطيق ذلك ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمثك القرآن على سبعة أحرف . فأبما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا « ١٥ » .

(وأصاة بني غفار) بفتح الهمة في أصاة وبكسر الغين في غفار : مُسْتَنْقَعُ الْمَاءِ كَالْعَدِيرِ ؛ وَكَانَ بِمَوْضِعٍ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ يَنْسَبُ إِلَى بَنِي غِفَارٍ ، لِأَنَّهُمْ نَزَلُوا عِنْدَهُ .  
(٥) وروى الترمذى عن أبي بن كعب أيضاً قال : لقى رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار الروة قال : فقال رسول الله ﷺ لجبريل : إني بعثت إلى أمة أميين ؛ فيهم الشيخ الفاني ، والعجوز الكبيرة ، والغلام . قال : « فعرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف » قال الترمذى : حسن صحيح . وفي لفظ : « فعر قرأ بحرف منها فهو كما قرأ » ؛ وفي لفظ حذيفة « فقلت : يا جبريل إني أرسلت إلى أمة أمية فيهم الرجل ، والمرأة ؛ والجارية ؛ والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتاباً قط قال : « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف » .

(٦) أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو أن رجلاً قرأ آية من القرآن ، فقال له عمرو : إنما هي كذا وكذا ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فأى ذلك قرأتم أصيبتم ، فلا تماروا » ١٥ .

قال في القاموس : ماراه مُمَارَاةً وَمِرَاءً ، وَأَمْتَرَى فِيهِ وَتَمَارَى : شَكٌّ . وَالْمِرْبَةُ بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ : الشُّكُّ وَالْجَدَلُ . ١٥ .

(٧) روى الحاكم وابن حبان بسندهما عن ابن مسعود قال : « أقرأني رسول الله ﷺ سورة من آل حم ، فرحْتُ إلى المسجد ، فقلتُ لرجلٍ : اقرأها . فإذا هو يقرؤها حروفاً ما أقرؤها . . . فقال : أقرأنيها رسول الله ﷺ فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فأخبرناه فتغير وجهه وقال : « إنما أهلك من قبلكم الاختلاف » ثم أسرَّ إلى عليٍّ شيئاً . فقال عليٌّ : إن رسول الله ﷺ يأمرُكم أن يقرأ كلُّ رجلٍ منكم كما علم . قال : فانطلقنا وكلُّ رجلٍ يقرأ حروفاً لا يقرؤها صاحبه » اهـ .

(٨) وأخرج البخاريُّ عن عبد الله بن مسعود أيضاً أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع النبي ﷺ يقرأ خلافها . قال : فأخذتُ بيده فانطلقتُ به إلى النبي ﷺ فقال : « كلا كما بحسن ، فأقرأ » قال شعبةُ أحد رواة هذا الحديث : أكبرُ علمي أن النبي ﷺ قال : « فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكوا » .

(٩) روى الطبريُّ والطبرانيُّ عن زيد بن أرقم قال : جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : أقرأني ابنُ مسعودٍ سورةً أقرأنيها زيد بن ثابتٍ ، وأقرأنيها أبيُّ ابن كعبٍ فاختلفتُ قراءتهم ، فبقراءةٍ أيُّهم أخذ؟ فسكت رسول الله ﷺ وعليُّ إلى جنبه ، فقال عليٌّ : « ليقرأ كلُّ إنسانٍ منكم كما علم ، فإنه حسنٌ جميلٌ » .

(١٠) وأخرج ابن جرير الطبري عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن أنزلَ على سبعةِ أحرفٍ ، فأقرءوا ولا حرجَ ولكن لا تختصموا ذكرَ رحمةٍ بعذابٍ ، ولا ذكرَ عذابٍ برحمةٍ » .



## ٢ - شواهد بارزة في هذه الأحاديث الواردة

إن الناظر في هذه الأحاديث الشريفة وما مائلها، يستطيع أن يقيم منها شواهد بارزة، تكون منارات هدى، ومصادر إشعاع ونور، ترشده إلى ما عسى أن يكون هو الحق والصواب في بيان معنى الأحرف السبعة، كما يستطيع أن يأخذ منها موازين ومقاييس يحاكم إليها كل ما شجر من هذا الخلاف البعيد، في هذا الموضوع الدقيق.

(الشاهد الأول) أن الحكمة في نزول القرآن على الأحرف السبعة هي التيسير على الأمة الإسلامية كلها، خصوصاً الأمة العربية التي شرفته بالقرآن، فإنها كانت قبائل كثيرة، وكان بينها اختلاف في اللهجات ونبرات الأصوات، وطريقة الأداء وشهرة بعض الألفاظ في بعض المدلولات على رغم أنها كانت تجمعها العروبة، ويوحد بينها اللسان العربي العام. فلو أخذت كلها بقراءة القرآن على حرف واحد، لشق ذلك عليها كما يشق على القاهري منا أن يتكلم بلهجة الأسيوطي مثلاً، وإن جمع بيننا اللسان المصري العام، وألفت بيننا الوطنية المصرية في القطر الواحد. وهذا الشاهد نجده مائلاً بوضوح بين الأحاديث السالفة في قوله ﷺ في كل مرة من مرات الاستزادة « فرددت إليه أن هوّن على أمتي » وقوله: « أسأل الله معافاته ومففرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك » ومن أنه ﷺ لقي جبريل فقال: « يا جبريل إني أرسلت إلى أمة أمية فيهم الرجل والمرأة، والغلام والجاربة، والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتاباً قط » الخ.

قال المحقق ابن الجزري: « وأما سبب وروده على سبعة أحرف فلتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها شرقاً لها، وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق، حيث أتاه جبريل فقال:

« إن الله يأمرك أن تقرأ أمك القرآن على حرف ، فقال ﷺ : أسأل الله معافاته ومعونته فإن أمي لا تطيق ذلك ، ولم يزل يرددُ المسألة حتى بلغ سبعة أحرف » ثم قال : « وكما ثبت أن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف ، وأن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد ، وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين ، والنبي ﷺ بُعث إلى جميع الخلق أحمرم وأسودم ، عربهم وعجمهم ، وكان العرب الذي نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة وأسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر . بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج ، لا سيما الشيخ ، والمرأة ، ومن لم يقرأ كتاباً كما أشار إليه ﷺ ، فلو كلفوا العدول عن لغتهم ، والانتقال عن أسنتهم ، لسكان من التكليف بما لا يستطاع ، وما عسى أن يقكلف المتكلف وتبى الطباع » ١٥١ .

### فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتمدد الحروف

كل ما مرَّ عليك في الشاهد الأول تقريراً لحكمة واحدة ، وفائدة واحدة من فوائد اختلاف القراءات وتمدد الحروف التي نزل عليها القرآن الكريم وهي أبرز الفوائد وأشهرها وأقربها إلى الذهن . ونحيطك علماً هنا بأن لهذا الاختلاف والتمدد فوائد أخرى :  
منها جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسان واحد يوحد بينها ، وهو لسان قريش الذي نزل به القرآن الكريم ، والذي انتظم كثيراً من مختارات السنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وأسواق العرب المشهورة . فكان القرشيون يستملحون ما شاءوا ، وبصطفون مارات لهم من ألفاظ الوفود العربية القادمة إليهم من كل صوب . وحذب ثم يصقلونه ويهذبونه ويدخلونه

في دائرة لغتهم المرنة ، التي أذعن جميع العرب لها بالزعامة ، وعقدوا لها راية الإمامة . وعلى هذه السياسة الرشيدة نزل القرآن على سبعة أحرف يصطفي ما شاء من لغات القبائل العربية ، على نمط سياسة القرشيين بل أوفق . ومن هنا صحح أن يقال : إنه نزل بلغة قريش ، لأن لغات العرب جمعاء تمثلت في لسان القرشيين بهذا المعنى . وكانت هذه حكمة إلهية سامية ؛ فإن وحدة اللسان العام من أهم العوامل في وحدة الأمة ، خصوصاً أول عهد بالتوثب والنهوض .

ومنها بيان حكم من الأحكام ، كقوله سبحانه : « وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ » قرأ سعد بن أبي وقاص « وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ مِنْ أُمِّ » بزيادة لفظ « مِنْ أُمِّ » فتبين بها أن المراد بالإخوة في هذا الحكم الإخوة للأم دون الأشقاء ومن كانوا لأب ، وهذا أمر مجمع عليه .

ومثل ذلك قوله سبحانه في كفارة اليمين : « فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وجاء في قراءة : « أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » بزيادة لفظ « مُؤْمِنَةٍ » فتبين بها اشتراط الإيمان في الرقيق الذي يعتق كفارة يمين . وهذا يؤيد مذهب الشافعي ومن نحا نحوه في وجوب توافر ذلك الشرط .

ومنها الجمع بين حكمين مختلفين بمجموع القراءتين ، كقوله تعالى : « فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ . وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ » قرئ بالتخفيف والتشديد في حرف الطاء من كلمة « يطهرن » ولا ريب أن صيغة التشديد تفيد وجوب المبالغة في طهر النساء من الحيض ؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . أما قراءة التخفيف فلا

تفيد هذه البيافة . ومجموع القراءتين يحكم بأمرين : أحدهما أن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر . وذلك بانتطاع الحيض . وثانيهما أنها لا يقربها زوجها أيضاً إلا إن بالفت في الطهر وذلك بالاغتسال ، فلا بد من الطهرين كليهما في جواز قربان النساء . وهو مذهب الشافعي ومن وافقه أيضاً .

ومنها الدلالة على حكمين شرعيين ولكن في حالين مختلفين : كقوله تعالى في بيان الوضوء « فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ » قرئ بنصب لفظ « أرجلكم » وبجرها . فالنصب يفيد طلب غسلها ؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « وجوهكم » المنصوب ، وهو مفسول . والجر يفيد طلب مسحها ؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « رؤسكم » المجرور ، وهو مسوح . وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسح يكون للابس الخلف وأن الغسل يجب على من لم يلبس الخلف .

ومنها دفع توهم ما ليس مراداً كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وقرئ « فامضوا إلى ذكر الله » . فالقراءة الأولى يتوهم منها وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة ، ولكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم لأن المضي ليس من مدلوله السرعة .

ومنها بيان لفظ مبهم على البعض نحو قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » وقرئ « كالصوف المنفوش » فبينت القراءة الثانية أن العهن هو الصوف . ومنها تجلية عقيدة ضل فيها بعض الناس : نحو قوله تعالى في وصف الجنة وأهلها : « وَإِذَا رَأَيْتَ نَمْرًا رَأَيْتَ نَمِيًّا وَمُلْكًا كَبِيرًا » جاءت القراءة بضم الميم

وسكون اللام في لفظ (وملكاً كبيراً) وجاءت قراءة أخرى بفتح الميم وكسر اللام في هذا اللفظ نفسه ، فرفعت هذه القراءة الثانية نقاب الخفاء عن وجه الحق في عقيدة رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة ، لأنه سبحانه هو الملك وحده في تلك الدار « لَمَنِ أَمَلَكَ أَيُّومَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

والخلاصة : أن تنوع القراءات ، يقوم مقام تعدد الآيات . وذلك ضرب من ضروب البلاغة ، يبتدىء من جمال هذا الإيجاز ، وينتهي إلى كمال الإيجاز .

أضف إلى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة ، والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله ، وعلى صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ ، فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضاد ، ولا إلى تهافت وتخاذل ، بل القرآن كله على تنوع قراءاته ، يصدق بعضه بعضاً ، ويبين بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض ، على نمط واحد في علو الأسلوب والتعمير ، وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم . وذلك - من غير شك - يفيد تعدد الإيجاز بتعدد القراءات والحروف .

ومعنى هذا أن القرآن يُعجز إذا قرئ بهذه القراءة ، ويعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثانية ، ويعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة ، وهملاً جراً . ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف !

ولا ريب أن ذلك أدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أعظم في اشتمال القرآن على مناحججة في الإيجاز وفي البيان ، على كل حرف ووجه ، وبكل لهجة ولسان . « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

(الشاهد الثاني) أن مرات استزادة الرسول للتيسير على أمته ، كانت ستاً غير الحرف الذي أقرأه أمين الوحي عليه أول مرة فتلك سبعة كاملة بمنطوقها ومنهومها ،

تأمل حديث ابن عباس السابق وقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيه : « أقرأني جبريلُ عليَّ حرفاً ، فراجفتهُ ، فلم أزلُ أستزيدُه ويزيدُني حتى بلغَ سبعةَ أحرفٍ » وكذلك جاء في حديث لأبي بكرٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « فنظرتُ إلى ميكائيل فسكتَ فعملتُ أنه قد انتهتِ العدةُ » ، يضاف إلى ذلك المراجعاتُ الثابتةُ في الأحاديثِ الأخرى ، وإن كانت لم تبلغ ستاً صراحةً ، غير أن الحديث جاء بلفظ السبعة ، فهلم من مجموع تلك الروايات ، أن المراد بلفظ سبعة حقيقة العدد المعروف في الآحاد بين الستة والثمانية .

( الشاهد الثالث ) أن من قرأ حرفاً من هذه الحروف ، فقد أصاب شاكلةً للصواب أي كان ذلك الحرف ، كما يدلُّ عليه فيما مضى قوله صلى الله عليه وسلم : ( فأَيُّما حرفٍ قرءوا عليه فقدُ أصابوا ) وقوله صلى الله عليه وسلم لكل من اختلفين في القراءة ( أصبتَ ) وقوله صلى الله عليه وسلم لهما في رواية ابن مسعود : ( كلا كما بحسن ) وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عمرو بن العاص : ( فأَيُّ ذلك قرأتُمُ أصبتمُ ) . وعدم موافقته صلى الله عليه وسلم لعمر ، وأبي ، وابن مسعود ، وعمرو بن العاص ، على معارضة مخالفهم بالطرق الآتية في الأحاديث السالفة . ودفعه في صدر أبي حين استصعب عليه أن يُقرَّ هذا الاختلاف في القراءة . ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهي البالغ عن منع أي أحد من القراءة بأي حرف من الأحرف السبعة النازلة .

( الشاهد الرابع ) : أن القراءات كلها على اختلافها كلام الله ، لا مدخل لبشر فيها . بل كلها نازلةٌ من عنده تعالى ، مأخوذةٌ بالتلقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . يدلُّ على ذلك أن الأحاديث الماضية تفيد أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يرجعون فيما يقرءون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأخذون عنه ويتلقون منه كل حرف يقرءون عليه ، انظر قوله صلى الله عليه وسلم في قراءة كل من اختلفين : ( هكذا أنزلت ) وقول المخالف لصاحبه : « أقرأنيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم » .

ثم أضف إلى ذلك أنه لو صح لأحد أن يغير ما شاء من القرآن بمرادفه أو غير مرادفه ، لبطلت قرآنية القرآن وأنه كلام الله ، ولذهب الإعجاز ولما تحقق قوله سبحانه وتعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ثم إن التبديل والتغيير مردودٌ من أساسه بقوله سبحانه في سورة يونس : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بَقْرَانٌ غَيْرٌ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ . قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

فإذا كان أفضل الخلق محمد ﷺ قد تخرج من تبديل القرآن بهذا الأسلوب ، فكيف يسوغ لأحد مهما كان أمره أن يبدل فيه ويغير ، بمرادف أو غير مرادف ؟ « سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

( الشاهد الخامس ) أنه لا يجوز منع أحد من القراءة بأي حرف من تلك الأحرف السبعة النازلة . يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « فَلَا تُمَارُوا فِيهِ ، فَإِنَّ الْمِرَاءَ فِيهِ كُفْرٌ » وعدم موافقته لعمر ، وأبي ، وابن مسعود ، وعمرو بن العاص ، على معارضة مخالفتهم بالطرق الآنفه ، في الأحاديث السالفة . ويدل على ذلك أيضاً دفعه في صدر أبي حين استصعب عليه أن يقرأ هذا الاختلاف في القراءة . ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهي البالغ عن منع أي أحد من القراءة بأي حرف من الأحرف السبعة النازلة .

( الشاهد السادس ) أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا متحمسين في الدفاع عن القرآن ، مستبسلين في المحافظة على التنزيل ، متيقظين لكل من يحدث فيه حداً ما ولو كان عن طريق الأداء واختلاف اللهجات ، مبالغين في هذه اليقظة حتى ليأخذون

في هذا الباب بالظنّة ، ويناغون عن القرآن بكل عناية وهمية ، وحسبك استدلالاً على ذلك ما فعل عمر بصاحبه هشام بن حكيم ، على حين أن هشاماً كان في واقع الأمر على صواب فيما يقرأ ، وأنه قال لعمر تسويةً لقراءته : أقرأنيها رسول الله ﷺ لكن عمر لم يقنع ، بل لبّيه وساقه إلى المحاكمة ، ولم يتركه حتى قضى رسول الله ﷺ لهشام بأنه أصاب . قل مثل ذلك فيما فعل أبي بن كعب بصاحبه ، وما كان من ابن مسعود وعمرو بن العاص وصاحبيهما . والأحاديث بين يديك عن كعب ، فارجع إليها إن أردت .

(الشاهد السابع) أنه لا يجوز أن يجعل اختلاف القراءات معركة جدالٍ ونزاعٍ وشقاق ، ولا مثاراً ترددٍ وتشكيكٍ وتكذيب ، ولا سلاحاً عصبيّةً وتنطعٍ وجمود . على حين أن نزول القرآن على سبعة أحرف إنما كانت حكمته من الله التيسير والتخفيف والرحمة والتهوين على الأمة ، فما يكون لنا أن نجعل من هذا اليسر عسراً ، ومن هذه الرحمة نقمة . يرشد إلى ذلك قوله ﷺ فيما سبق « فَلَا تُمَارُوا فِيهِ فَإِنَّ الْمَرَاءَ فِيهِ كَفْرٌ » . وكذلك تغير وجه الشريف عند اختلافهم مع قوله : « إِنَّمَا أَهْلُكُمْ مِنْ قِبَلِكُمُ الْاِخْتِلَافُ » وضربه في صدر أبي بن كعب حين جال بخاطره حديثُ السوء في هذا الموضوع الجليل .

(الشاهد الثامن) أن المراد بالأحرف في الأحاديث السابقة وجوهٌ في الألفاظ وحدها لا محالة . بدليل أن اختلاف الذي صورته لنا الروايات المذكورة كان دأراً حول قراءة الألفاظ لا تفسير المعاني ، مثل قول عمر : « إِذَا هُوَ يَقْرُوهَا عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يَقْرَأْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » ثم حكم الرسول أن يقرأ كلٌّ منهما ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « هَكَذَا أَنْزَلْتُ » . وقوله : « أَيُّ ذَلِكَ قَرَأْتُمْ قَدْ أَصَبْتُمْ » ونحو ذلك ولا ريب أن القراءة أداء الألفاظ ، لا شرح المعاني .



### ٣ - معنى نزول القرآن على سبعة أحرف

يهننا بعد الذى أسلفنا إليك أن نبين لك معنى الجملة الشريفة : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فأليك :

أما لفظ القرآن فقد أشبعناه كلاماً فى المبحث الأول . وأما الإنزال فقد استوفيناه تحقيقاً فى المبحث الثالث . وأما السبعة فقد علمت فى الشاهد الثانى من الشواهد الماضية أن المراد بها حقيقة وهى العدد المعروف فى الآحاد بين الستة والثمانية . وأما الأحرف فجمع حرف ، والحرف يطلق على معان كثيرة ، أتى عليها صاحب القاموس ؛ إذ يقول ما نصه : « الحرف من كل شئ طرفه ، وشفيره ، وحدثه ، ومن الجبل أعلاه الحدد ، وواحد حروف التهجى ، والناقة الضامرة أو المهزولة أو العظيمة ، ومسيل الماء ، وآرام سودّ ببلاد سليم . وعند النحاة ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل . « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » أى وجه واحد ، وهو أن يعبد على السراء لا على الضراء ، أو على شك ، أو على غير طمأنينة من أمره ، أى لا يدخل فى الدين متمكناً . « ونزل القرآن على سبعة أحرف » : سبع لغات من لغات العرب . وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه وإن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر ، ولكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن ، وهى الإطلاقات الكثيرة تدل على أن لفظ الحرف من قبيل المشترك اللفظى ، والمشارك اللفظى يراد به أحد معانيه التى تعينها القرائن وتناسب المقام .

وأنسب المعانى بالمقام هنا فى إطلاقات لفظ الحرف أنه الوجه بالمعنى الذى سنتقصه عليك ، لا بالمعنى الذى ذهب إليه صاحب القاموس وغيره من أنه اللغة أو غيرها . فسيأتيك تفنيد هذه الآراء بعد .

ثم إن كلمة (عَلَى) في قوله صلى الله عليه وسلم: « أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ » تشير إلى أن المسألة على هذا الشرط من التوسعة والتيسير، أى أنزل القرآن موسماً فيه على القارىء أن يقرأه على سبعة أوجه، يقرأ بأى حرف أراد منها على البدل من صاحبه، كأنه قال: أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسعة.

وليس المراد أن كل كلمة من القرآن تقرأ على سبعة أوجه؛ إذ لقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ » بحذف لفظ (على). بل المراد ما علمت من أن هذا القرآن أنزل على هذا الشرط وهذه التوسعة، بحيث لا تتجاوز وجوه الاختلاف سبعة أوجه، مهما كثر ذلك التعدد والتنوع في أداء اللفظ الواحد، ومهما تعددت القراءات وطرقها في الكلمة الواحدة. فكلمة « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » التى ورد أنها تقرأ بطرق تبلغ السبعة أو العشرة، وكلمة « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » التى ورد أنها تقرأ باثنتين وعشرين قراءة، وكلمة « أَفٍ » التى أوصل الرماني لغاتها إلى سبع وثلاثين لغة، وكل أولئك وأشباه أولئك، لا يخرج التباين فيه على كثرته عن وجوه سبعة.

#### ٤ - الوجوه السبعة في المذهب المختار

بقي علينا أن نتساءل : ما هي تلك الوجوه السبعة التي لا تخرج القراءات عنها مهما كثرت وتنوعت في الكلمة الواحدة ؟ .

هنا يخدمُ الجدال والخلاف ، ويكثر القيل والقال .

والذي نختاره - بنور الله وتوفيقه - من بين تلك المذاهب والآراء هو ما ذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازي في اللوائح إذ يقول :

الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف :

( الأول ) : اختلاف الأسماء من أفراد ، وثنوية ، وجمع ، وتذكير ، وتأنيث .

( الثاني ) : اختلاف تصريف الأفعال من ماضي : ومضارع ، وأمر .

( الثالث ) : اختلاف وجوه الإعراب .

( الرابع ) : الاختلاف بالنقص والزيادة .

( الخامس ) : الاختلاف بالتقديم والتأخير .

( السادس ) : الاختلاف بالإبدال .

( السابع ) : اختلاف اللغات « يريد اللهجات » كالفتح والإمالة والترقيق

والتفخيم ، والإظهار والإدغام ، ونحو ذلك اهـ ، وغير أن النقل كما ترى لم يشفع بتمثيل فيما عثرنا .

ويمكن التمثيل للوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء . بقوله سبحانه :

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » قرئ هكذا : « لِأَمَانَاتِهِمْ » جمعاً وقرئ « لِأَمَانَتِهِمْ » بالإفراد .

ويمكن التمثيل للوجه الثاني وهو اختلاف تصريف الأفعال بقوله سبحانه :  
« فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » قرئ هكذا بنصب لفظ « ربنا » على أنه منادي  
وبلفظ « باعد » فعل أمر ، وبعبارة أنسب بالمقام « فعل دعاء » . وقرئ هكذا : « رَبَّنَا  
بَعِدْ » برفع « رب » على أنه مبتدأ ولفظ « بعد » فعلاً ماضياً مضعف العين جملته خبر .

ويمكن التمثيل للوجه الثالث ، وهو اختلاف وجوه الإعراب ، بقوله سبحانه :  
« وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » قرئ بفتح الراء وضمها ، فافتح على أن « لا »  
ناهية ، فالفعل مجزوم بعدها ، والفتحة الملحوظة في الراء هي فتحة إدغام المثلين . أما  
الضم ففعل على أن « لا » نافية ، فالفعل مرفوع بعدها .

ومثل هذا المثال ، قوله سبحانه : « ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ » قرئ برفع لفظ « المجيد »  
وجره . فالرفع على أنه نعت لكلمة « ذو » ، والجر على أنه نعت لكلمة « العرش » .  
فلا فرق في هذا الوجه بين أن يكون اختلاف وجوه الإعراب في اسم أو فعل كما رأيت .  
ويمكن التمثيل للوجه الرابع : وهو الاختلاف بالنقص والزيادة . بقوله سبحانه :  
« وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » قرئ بهذا اللفظ . وقرئ أيضاً « وَالذَّكَرِ وَالْأُنثَى »  
بنقص كلمة « ما خلق » .

ويمكن التمثيل للوجه الخامس - وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير - بقوله سبحانه :  
« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ » وقرئ « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

ويمكن التمثيل للوجه السادس - وهو الاختلاف بالإبدال - بقوله سبحانه :  
« وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا » بالزاي وقرئ « نُنَشِرُهَا » بالراء ، وكذلك  
قوله سبحانه « وَطَلَحَ مَمْدُودٌ » بالحاء ، وقرئ « وَطَلَعِ » بالعين . فلا فرق في هذا  
الوجه أيضاً بين الاسم والفعل .

ويمكن التمثيل للوجه السابع - وهو اختلاف اللهجات - بقوله سبحانه : « وَهَلْ  
أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى » تقرأ بالفتح والإمالة في « أتى » ولفظ « موسى » فلا فرق في هذا

الوجه أيضاً بين الاسم والفعل. والحرف مثلها نحو «بلى قَادِرِينَ» قرى بالفتح والإمالة في لفظ «بلى» .

### ٥ — الماذا اخترنا هذا المذهب

وإنما اخترنا هذا المذهب لأربعة أمور :

(أحدها) : أنه هو الذي تؤيده الأدلة في الأحاديث العشرة الماضية وما شابهها .

(ثانيها) : أنه هو الراجح في تلك الموازين التي أقمناها شواهد بارزة من تلك

الأحاديث الواردة . فارجع النظر إليها، ولا داعي لإعادتها. أما المذاهب الأخرى فتدري أن التوفيق أخطأها في رعاية تلك الأدلة أو بعضها، وستطيش بين يديك في موازين هذه الشواهد قليلاً أو كثيراً .

(ثالثها) : أن هذا المذهب يعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات وما ترجع

إليه من الوجوه السبعة ، بخلاف غيره فإن استقراءه ناقص أو في حكم الناقص . فكلما

« أف » التي أوصلها الرماني إلى سبع وثلاثين لغة يمكن رد لغاتها جميعاً إلى هذه الوجوه

السبعة ولا يخرج عنها . وكذلك الاختلاف في اللهجات . وهو اختلاف شكلي - يردُّ

إليها ولا يخرج عنها . بخلاف الآراء الأخرى فإنه يتعذر أو يتعسر الرجوع بالقراءات

كلها إليها . وليس من صواب الرأي أن يحصر النبي ﷺ الأحرف التي نزل عليها

القرآن في سبعة ثم نترك نحن طرقات القراءات المروية عنه دون أن نردّها إلى السبعة ؛

لأن ذلك يلزمه أحد خطرين : فإما أن تكون تلك الطرق المقروء بها غير نازلة ، وإما

أن يكون هنا حرف نازل وراء السبعة الأحرف التي نزل عليها القرآن ، ويكون الحصر

في كلام الرسول ﷺ غير صحيح . وكلا هذين خطأ عظيم وإثم كبير .

(رابعها) أن هذا الرأي لا يلزمه محذور من المحذورات الآتية التي يستهدف لها

الأقوال الأخرى ، وستزجها إليك قريباً ، فاصبر وما صبرك إلا بالله .

## الذين قالوا بهذا المذهب

ولا يميزن عن بالك أن هذا المذهب قد اختاره في مجلته فحول من العلماء ، وقاربه كل القرب مذهب الإمام ابن قتيبة ، والمحقق ابن الجزري ، والقاضي ابن الطيب كما يأتي :

ولا فرق بين آرائهم وبين هذا الرأي إلا اختلاف في طرق التتبع والاستقصاء ، والتعبير والأداء . وسيظهر لك أن الرازي كان أهدى منهم سبيلاً ، وأكثر توفيقاً حتى لقد ذهب العلامة ابن حجر إلى أن مذهب الرازي هو مذهب ابن قتيبة بعد تنقيحه وتهذيبه ، فقال ما نصه : « وقد أخذ ( أى الرازي ) كلام ابن قتيبة ونقحه » ٥١ .

وقد اختار هذا المذهب أيضاً من المتأخرين بعض أعلام المحققين ، كالعلامة المرحوم الشيخ الخضرى الدمياطى والعلامة المرحوم الشيخ محمد بن محمد الطيمى . لكن منهم من تغاضى عن الفروق الدقيقة التى بين الرازي ومذاهب أولئك الثلاثة الذين تشاركت آراؤهم فى الجملة ، ومنهم من صرح بالاتحاد بين هذه المذاهب جميعاً وما شابهها ، واعتبر الخلاف بينها لفظياً فحسب .

لهذا نرى أن نسوق إليك فى هذا المقام تلك المذاهب الثلاثة أيضاً ، جمعاً بين المشابهات من ناحية ، وتمهيداً لتحقيق الفرق بينها وبين مذهب الرازي من ناحية أخرى ، وزيادةً فى تنوير المذهب المختار وغيره من ناحية ثالثة .

أما ابن قتيبة فيقول :

إن المراد بالأحرف السبعة ، الأوجه التى يقع بها التغير :

( فأولها ) ما تتغير حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته ، مثل « ولا يُضَارَّ

كاتبٌ » بفتح الراء وضمها .

( وثانيها ) ما يتغير بالفعل مثل « اَبَمَدَ وَبَاعِدَ » بلفظ الطلب والماضي .  
( وثالثها ) ما يتغير باللفظ مثل « نُنشِرُهَا وَنُنشِرُهَا » بالراء المهملة والزاى المعجمة .  
( ورابعها ) ما يتغير بإبدال حرفٍ قريبٍ المخرج مثل « يَطْلَحُ مَنْضُودٍ وَطَلَعِ مَنْضُودٍ » .

( وخامسها ) ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْخَلْقِ بِالْمَوْتِ » .

( وسادسها ) ما يتغير بالزيادة والنقصان مثل : « وَمَا خَلَقَ آدَمَ كَرًّا وَالْأُنثَى وَالذَّكْرَ وَالْأُنثَى » بنقص لفظ « مَا خَلَقَ » .

( وسابعها ) ما يتغير بإبدال كلمةٍ بأخرى مثل : « كَالْمُهِنِ الْمَنْفُوشِ . وَكَالضُّوفِ الْمَنْفُوشِ » .

وأما ابن الجزرى فيقول :

قد تتبعمت صحيح القراءات وشاذها وضعيفها ومنكرها ، فإذا هي يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه لا يخرج عنها .

١ - وذلك إما فى الحركات بلا تغير فى المعنى والصورة نحو « البُخْلُ » بأربعة أوجه « وَيَحْسَبُ » بوجهين .

٢ - أو بتغير فى المعنى فقط نحو « فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » . برفع لفظ آدم ونصب لفظ كلمات ، وبالعكس .

٣ - وإما فى الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو « تَبَلَّوْا وَتَنَلَّوْا » .

٤ - وعكس ذلك نحو « بَصَطَةٌ وَبَسَطَةٌ » ونحو « الصَّرَاطُ وَالسَّرَاطُ » .

٥ - أو بتغيرها نحو « فَامَضُوا ، فَاسْعَوْا » .

٦ - وإمادى التقديم والتأخير نحو « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » بفتح ياء المضارعة مع بناء الفعل للفاعل في إحدى الكلمتين ، وبضمها مع بناء الفعل للمفعول في الكلمة الأخرى .

٧ - أو في الزيادة والنقصان نحو « أوصى ، ووصى » .

فهذه سبعة لا يخرج الاختلاف عنها .

وأما القاضي ابن الطيب فيقول فيما يحكيه القرطبي عنه :

تدبرّت وجوه الاختلافات في القراءة فوجدتها سبعا :

١ - منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته . مثل « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ،

وَأَطْهَرُ » أي بإسكان الراء وضمها « وَيَضِيْقُ صَدْرِي ، وَيَضِيْقُ صَدْرِي » أي بإسكان القاف وضمها .

٢ - ومنها ما لا تتغير صورته ، ويتغير معناه بالإعراب مثل « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ

أَسْفَارِنَا ، وَبَاعِدْ » أي بصيغة الماضي والطلب .

٣ - ومنها ما تبقى صورته ، ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله « نُنَشِّرُهَا ،

وَنُنَشِّرُهَا » أي بالراء وبالزاي .

٤ - ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه ، مثل « كَالْمُهْنِ الْمُنْفُوشِ ، وَكَالْصُوفِ

الْمُنْفُوشِ » .

٥ - ومنها ما تتغير صورته ومعناه مثل : « وَطَلَحَ مَنْضُودٍ وَطَلَعَ مَنْضُودٍ » .

٦ - ومنها التقديم والتأخير مثل : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، وَجَاءَتْ

سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

٧ - ومنها الزيادة والنقصان نحو : « لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً . وَهُوَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

نَجَّةً أَنْتَى » أي بزيادة لفظ أنتى .



## ٦ — النسبة بين هذه المذاهب

### ومذهب الرازي

ويذهب بعض الجهابذة إلى القول بالاتحاد بين هذه المذاهب الثلاثة ومذهب الرازي ، بل بينها جميعاً وبين ما يشابهها ، ويجعل الخلاف بينها كلها لفظياً لا حقيقياً . وذلك تكلفٌ بعيده فيما أرى ، لأننا نلاحظ وجهاً كاملاً في كلام الرازي ، لم يُنَوِّه به واحدٌ من أولئك الثلاثة . فهو فضلاً عن أنه أدمج وجوههم السبعة في وجوه ستة بطريقته الدقيقة ، نجده قد عقد الوجه السابع لاختلاف اللهجات ، كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم ونحو ذلك .

على حين أننا ما رأينا واحداً من أولئك الأعلام الثلاثة عرض لهذا النوع من الاختلاف . بل وجدنا في كلامهم ما جعلهم يهملون هذا الوجه عن قصد وعمد .

فهذا ابن قتيبة يقول :

« وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام . والروم والإشمام ، والتخفيف والتسهيل ونحو ذلك ، فهذا ليس من الاختلاف الذي يقنوع في اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات للتنوع في أدائه ، لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً » . ٥١

ولكني أرى أن هذا العذر الذي قدّمه ابن قتيبة لإهمال هذا الوجه ، لا يسوغ ذلك الإهمال . فإن المسألة ليست مسألة أسماء وعناوين يترتب عليها أن اختلاف اللهجات في اللفظ الواحد تخرجه عن أن يكون واحداً أو لا تخرجه ، بل المسألة مسألة رعاية أمر واقع تختلف به القراءات فعلاً ويمكن أن يكون مثار النزاع السابق الذي دبّ بين الصحابة في اختلاف القراءات ، كما يكون أيضاً مثاراً للنزاع في كل عصر ومصر بين القراء ، إذالم يملوا أن الجميع من عداد الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن . وذلك لأن تحريف القرآن

يحرم بما يَمَسُّ صورته وطريق أدائه وكيفية لهجته ، كما يحرم بما يَمَسُّ جوهره وتغيير حروفه وكلماته وحركاته وترتيبه .

أمر آخر : هو أن التيسير على الأمة - وفي الحكمة البارزة في نزول القرآن على سبعة أحرف - لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا بحسبان هذا الوجه الذي نوّه به الرازي ؛ وهو اختلاف اللهجات . بل هذا قد يكون أولى بالحسبان وأحرى بالرعاية في باب التخفيف والتيسير ؛ لأنه قد يسهل على المرء أن ينطق بكلمة من غير لفته في جوهرها ، ولا يسهل عليه أن ينطق بكلمة من غير لفته نفسها بلهجة غير لهجته ، وطريقة في الأداء غير طريقته . ذلك لأن التريق والتفخيم ، والهمز والتسهيل ، والإظهار والإدغام ، والفتح والإمالة ونحوها ، ما هي إلا أمورٌ دقيقة ، وكيفياتٌ مُكتنفةٌ بشيء من الفموض والعسر في للنطق على من لم يتعودها ولم ينشأ عليها .

واختلاف القبائل العربية فيما مضى ، كان يدور على اللهجات في كثير من الحالات وكذلك اختلاف الشعوب الإسلامية وأقاليم الشعب الواحد منها الآن ، يدور في كثير من الحالات أيضاً على اختلاف اللهجات .

وإذن فتخفيف الله على الأمة بنزول القرآن على سبعة أحرف ، لا يتحقق إلا بملاحظة الاختلاف في هذه اللهجات . حتى إن بعض العلماء جعل الوجوه السبعة منحصرة في اللهجات لا غير ، كما يأتي .

قال الإمام ابن قتيبة نفسه في كتاب المشكل ما نصّه : - « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه ﷺ أن يُقرئ كل أمة ( لعله يريد بالأمة القبيلة ) بلغتهم ، وما جرت به عادتهم ، فالهذليُّ يقرأ « عَتَّى حَيْنِ » يريد ( حَتَّى حَيْنِ ) هكذا يلفظ بها ويستعملها ( أى يقلب الحاء عينا في النطق ) . والأسديُّ يقرأ « يَعْلَمُونَ ، وَنِعْلَمُ ، وَتَسْوَدُّ وَجُوهُ ، أَلَمْ يَعْبُدْ » بكسر حروف المضارعة في ذلك كله ، والتميميُّ يهمز ، والقرشيُّ لا يهمز . والآخر يقرأ « قِيلَ لَهُمْ ، وَغَيْضَ الْمَاءِ » بإشمام الضم مع الكسر

و « بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » بإشمام الكسر مع الضم . و « مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا » بإشمام الضم مع الإدغام .

ثم قال ابن قتيبة أيضاً : « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لفته وما جرى عليه اعتياده ، طفلاً وياغماً وكهلاً ، لاشتد ذلك عليه ، وعظمت الحنة فيه ، ولا يمكن إلا بعد رياضة النفس طويلاً ، وتذليل اللسان ، وقطع للعادة . فأراد الله برحمته ولطفه ، أن يجعل لهم مُتَّعَمًا في اللغات ، وَمُتَّصِرًا في الحركات ، كتنسيه عليهم في الدين » ا هـ .

فأنت تراه قد اعتبر اللهجات وطرق الأداء صراحةً في هذه الكلمات .

وكذلك نجد العلامة ابن الجزرى ، يعترف بهذا الاختلاف في اللهجات ، ويقول ما نصه :- وهذا يقرأ « عَلَيْهِمْ ، وَفِيهِمْ » بضم الهاء ، والآخر يقرأ « عَلَيْهِمْ ، وَمِنْهُمْ » بالصلة . وهذا يقرأ « قَدْ أَفْلَحَ ، وَقُلْ أَوْحَى ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَاطِينِهِمْ » بالنقل ، والآخر يقرأ « مُوسَى ، وَعِيسَى » بالإمالة . وغيره يُلَطَّفُ . وهذا يقرأ « خَيْرًا بَصِيرًا » بتريق الراء ، والآخر يقرأ « الصَّلَاة ، وَالطَّلَاق » بالتفخيم ، إلى غير ذلك » ا هـ .

ولكن من العجب العاجب أن هذين الإمامين الجليلين ، اللذين اعترفا صراحة باختلاف اللهجات وطرق الأداء على هذا الوجه ، فاتفقا أن ينظما في سلك الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن تيسيراً على الأمة . والعصمة لله وحده .

فالأحق والأدق ما ذهب إليه الرازى ! .

ولعل هذه الدقة ، وهذا الشمول الذى وُفق إليه الرازى في الوجوه السبعة هو التنقيح الذى نوه به ابن حجر ، إذ قال : « وقد أخذ ( أى الرازى ) كلام ابن قتيبة ونقحه » . وليس معناه الاتحاد بينهما ، لما علمت من وضوح الفرق ؛ وأن كلام الرازى أعم من كلام أولئك الثلاثة عموماً مطلقاً .

## ٧ — دفع الاعتراضات الواردة على هذا المذهب

اعترض على هذا المذهب وما قاربه من مذهب ابن قتيبة وابن الجزرى وابن الطيب

بجملة اعتراضات تقدمها إليك ، ثم نفدتها بين يديك ، فيما يأتي :

« الاعتراض الأول » يقولون : إن هذا القول مع اختلاف قائله في بيانه ، لم يذكر واحد منهم دليلاً إلا أنه تتبع وجوه الاختلاف في القراءة ، فوجدوا لا تخرج عن سبعة . وهذا لا ينهض دليلاً لأى واحد منهم على أن المراد بالأحرف السبعة الأوجه التى تختلف فيها القراءة .

ونجيب أولاً : بأن هذا المذهب الذى اخترناه لم يختلف ولم يتردد في بيانه . ثانياً : أنا أيدناهُ بعدة أدلة لا بدليل واحد . ثالثاً : أنا لا نسلم كون تتبع وجوه الاختلاف في القراءة لا يصلح دليلاً لبيان الأحرف السبعة بهذه الوجوه السبعة . كيف؟ والاستقراء التام دليل من جملة الأدلة التى يحتمها المنطق القديم والمنطق الحديث ، مادام مستوفياً لشروطه الثلاثة التى أولها أن تكون القضية الاستقرائية متضمنة حكماً حقيقياً ، وثانيها أن تكون كلية حقيقية أى موضوعها كلياً حقيقياً صادقاً على ما وجد من أفرادها فيما مضى ، وما هو موجود فى الحال ، وما يمكن أن يوجد فى المستقبل . وثالثها أن يكون الوصول إلى القضية الاستقرائية بواسطة الملاحظة والتجربة .

ولا ريب أن الوجوه السبعة التى ذكرها أبو الفضل الرازى تحقق فى استقرائهما الشروط الثلاثة ، لأن الرازى لاحظ كل وجوه الاختلاف فوجدها لا تخرج عن هذه السبعة ، ثم أصدر بعد هذا الاستقراء التام حكماً حقيقياً بأنه لا معنى لهذه الأحرف السبعة فى الحديث الشريف سوى تلك الأوجه السبعة . وهو حكم يقوم على قضية كلية سالبة كما ترى .

« الاعتراض الثاني » يقولون : إن طريق تثبُّع أبي الفضل الرازي ، وابن قتيبة ، وابن الجزري ، وابن الطيب ، يخالف بعضها بعضاً . وهذا يدلُّ على أنه يمكن الزيادة على سبعة وجوه .

ونجيب : بأن مجرد الاختلاف في طرق استقراء هؤلاء الأئمة لا يلزم منه إمكان الزيادة على سبعة في مذهب كل منهم . وإنما يلزم ذلك من كان استقراؤه ناقصاً دون من كان استقراؤه تاماً . وقد أثبتنا أمامك أن استقراء الرازي تامٌ مستوفٍ لجميع شروط الإنتاج . ولا يضيره أن يسلك في طريقة استقرائه سبيلاً لم يسلكها مخالفوه ، فلكل إنسان أن يختار في استقرائه ما شاء من الطرق التي يراها أصوب وأقرب ، مادام ملتزماً لشروط إنتاجه . وإذا كان غيره قد وقع في نقصٍ من تثبُّعه واستقصائه ، فلا يضير ذلك مذهب الرازي إقامته على الاستقراء التام في قليلٍ ولا كثير . « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

« الاعتراض الثالث » يقولون : إنك قد علمت أن الزيادة إلى سبعة أحرف كان الغرض منها الرخصة ، وأكثر الأمة يومئذ أميٌّ لا يكتب ولا يعرف الرسم ، وإنما كانوا يعرفون الحروف ونحوها بحسب ، والرخصة ليست ظاهرة في قراءة الفعل المبني للمجهول أو للمعلوم ، أو في إبدال حركة بأخرى ؛ أو حرف بآخر ، أو تقديم وتأخير ، فإن القراءة بأحدها لا توجب مشقةً ، يسأل النبي صلى الله عليه وسلم المعااة منها ويقول : « إن الأُمَّة لا تُطَيِّقُ ذلك » ، وبطلب التيسير على الأمة بإبدال حرف أو تغيير فعل من المضى إلى الأمر ، أو من البناء للمعلوم إلى البناء للمجهول ، هذا لا تنفيذ الروايات السابقة ولا تدلُّ عليه .

ونجيب : بأننا لا نسلم خفاء الرخصة في قراءة الفعل المبني للمجهول أو للمعلوم أو في إبدال حركة بأخرى ، أو حرف بآخر ، أو تقديم وتأخير . كيف؟ والرخصة في ذلك ظاهرة أيضاً . بل هي ظاهرة فيما كان دونها وهو اختلاف اللهجات مع بقاء الكلمة ، والحرف ،

والحركة، والترتيب بين الكلمات والحروف. وهذا نشأه نحن ونحس في تيسر أو نصير  
بعض صفات الحروف على بعض الناس في النطق، دون صفات أخرى. فالبعض يسهل  
عليه التفتيح دون التريق، أو الفتحة دون الإمالة، أو الإظهار دون الإدغام، والبعض  
يصعب عليه ذلك ويسهل عكسه. فكيف إذا تغيرت الكلمات أو الحروف أو الحركات  
أو الترتيب.

« الاعتراض الرابع » يقولون: إنه لا يتصور وجود أوجه اختلاف في القراءات  
المذكورة في كلمة واحدة، حتى يكون ذلك تيسيراً وتخييراً كما تقدم. وإن أرادوا أن  
ذلك متفرق في القرآن جميعه كالمقائل باللغات السبع المتفرقة في القرآن لم يكن ثمة رخصة  
ولا اختلاف بين الصحابة.

ونجيب: بأن هذا الاعتراض مبني من أساسه على غفلة عن حقيقة هذا المذهب  
المختار وأشباهه، لأنه عبارة عن وجود سبعة إليها ترجع جميع الاختلافات في القراءة  
دون أن تلتزم هذه الوجوه السبعة في الكلمة الواحدة، ودون أن يقال: إنها موزعة  
أشتاتاً على أبعاض القرآن. وإذا فالرخصة متحققة، بل لا تتحقق على الوجه الأكل  
إلا بهذا القول. وماذا عسى أن يبقى من التيسير والتخفيف وقد جمعت هذه الوجوه  
كل اختلاف في القراءات متواتراها وصحيحها وضعيفها وشاذها بكل طريق من  
طرق الاختلاف حتى ولو كان في اللهجات، ولو وصلت لغات الكلمة إلى سبع وثلاثين،  
كما أسلفنا في كلمة « أف » حكاية عن الرماني.

« الاعتراض الخامس » يقولون: إن الرخصة قد وقعت، وأكثرهم يومئذ لا يكتب  
ولا يعرف الرسم، وإنما كانوا يعرفون الحروف ومخارجها.

وأجيب باحتمال أن يكون الانحصار المذكور وقع اتفاقاً، وإنما أطلع عليه  
بالاستقراء.

والأقعد من هذا في الجواب أن يقال : إن الانحصار المذكور عُرف بطريق الاستقراء التام ، وهو دليل من الأدلة القاطعة كما تقدم الكلام عليه جواباً عن اعتراض سابق . وكون الرخصة وقعت وأكثرهم أميون ، لا يقدح في بيان الحروف السبعة المذكورة ، لأن الحاجة لم تكن ماسة إلى تحديد معنى الأحرف السبعة بهذا الوصف العنواي الذي اعتبرت به تلك الوجوه سبعة ، فحسبهم أن يعلموا أن وجوه الاختلاف بينهم سبعة وجوه ، ولا يضيرهم ألا يستطيعوا العنونة عنها بما نُعنونُ نحن ، ماداموا يعرفون السبعة تطبيقاً في جميع مفردات القرآن ، وما داموا يُعَوِّثُونَ في القراءة على تلقِّيهم عن رسول الله ﷺ الذي يؤمنون بأنه لا يقادر في إبلاغ القرآن وجهاً من وجوه السبعة . ونظير ذلك أنهم كانوا لا يعرفون تلك العناوين والأسماء والقوانين التي تتصل بالإعراب والبناء ، ولكنهم كانوا يعرفون أكثر منا كيف ينطقون نطقاً صحيحاً فصيحاً منطبقاً عليه ما عرفنا نحن بعد من تلك الأسماء والقواعد المتصلة بالإعراب والبناء .

## ٨ - بقاء الأحرف السبعة في المصاحف

ننتقل بك إلى نقطة أخرى : هل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم لها وجود في المصاحف العثمانية .

ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن جميع هذه الأحرف موجودة بالمصاحف العثمانية .

واحتجوا بأنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء منها ، وأن الصحابة أجمعوا على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر ، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك . ومعنى هذا أن الصحف التي كانت عند أبي بكر جمعت الأحرف السبعة ، ونقلت منها المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة كذلك .

وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط ، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل متضمنة لها .

وذهب ابن جرير الطبري ومن لفّ لفه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة ، وتأثروا في هذا الرأي بمذهبهم في معنى الحروف السبعة ، وما التزموه فيه من أن هذه السبعة كانت في صدر الإسلام أيام الرسول ﷺ ، وخلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان . ثم رأّت الأمة بقيادة عثمان أن تقتصر على حرف واحد من السبعة جمعاً لكلمة المسلمين فأخذت به وأهملت كل ما عداه من الأحرف الستة ، ونسخ عثمان للمصاحف بهذا الحرف الذي استبقته الأمة وحده . وسيأتي بيان هذا المذهب وما ورد عليه من توهمين .



والتحقيق أن القول باشتغال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة كلها أو بعضها، يتوقف على أمرين : أحدهما تحديد المراد من الأحرف السبعة ، وثانيهما الرجوع إلى ما هو مكتوب وما نزل بتلك المصاحف في الواقع ونفس الأمر .

ولقد أسلفنا لك ما اخترناه في تحديد المراد من الأحرف السبعة ، وأنها الأوجه التي يرجع إليها كل اختلاف في القراءات ، سواء منها ما كان صحيحاً وشاذاً ومنكراً وأنها تنحصر في سبعة على ما ذكره الرازي الذي حالفه التوفيق في الدقة والاستقراء التام .

ونحن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية وما هو مخطوط بها في الواقع ونفس الأمر ، نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقص ، ونصل إلى فصل الخطاب في هذا الباب ، وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها ، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلاً أو بعضاً ، بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرفٍ منها رأساً .

ولنبين ذلك في المذهب الذي اخترناه :

أما الوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء أفراداً وجمعاً نحو قوله سبحانه « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » المقرّوة بجمع الأمانة وإفرادها ، فقد اشتمل عليهما المصحف ؛ إذ كان الرسم العثماني فيه هكذا :

« لأمنتهم » برسم المفرد في الحروف ولكن عليها ألف صغيرة لتشير إلى قراءة الجمع وغير منقوطة ولا مشكولة .

وأما الوجه الثاني وهو اختلاف تصريف الأفعال نحو قوله سبحانه « يَفْكَفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ » المقرّوة بكسر الكاف وضمها في الفعل ، فقد وافقت كلتا القراءتين رسم

المصحف العثماني أيضاً ، لأن هيكل الفعل واحد في الخط لا يتغير في كلتا القراءتين ،  
والمصحف العثماني لم يكن معجماً ولا مشكولاً .

وأما الوجه الثالث وهو اختلاف وجوه الإعراب كقراءة « وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ »  
بفتح الراء وضمها ، فإن الرسم يحتملها كالوجه السابق ، وهو واضح .

وأما الوجه الرابع وهو الاختلاف بالنقص والزيادة ، فنه ما يوافق الرسم في  
بعض المصاحف نحو قوله سبحانه في سورة التوبة : « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ » وقرئ « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا » بزيادة لفظ « مِنْ » . وهما قراءتان متواترتان  
وقد وافقت كلتاها رسم المصحف ، بيد أن ذات الزيادة توافق رسم المصحف المكي لأن  
لفظ « مِنْ » ثابتة فيه . أما حذفها فإنه يوافق رسم غير المصحف المكي حيث لم تثبت  
فيه ، أي في غير المصحف المكي . ومن هذا الوجه ما لا يوافق رسم المصحف بحال من  
الأحوال نحو قوله سبحانه : « وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيحَةٍ غَضَبًا » وقرأ  
ابن عباس هكذا « يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيحَةٍ صَالِحَةٍ غَضَبًا » بزيادة كلمة « صَالِحَةٍ » فإن هذه  
الكلمة لم تثبت في مصحف من المصاحف العثمانية ، نهى مخالفة لخط المصحف ، وذلك  
لأن هذه القراءة وما شاكلها منسوخة بالعرضة الأخيرة أي عرض القرآن من النبي  
صلى الله عليه وسلم على جبريل آخر حياته الشريفة . وبدل على هذا النسخ إجماع الأمة  
على ما في المصاحف فتاخص مما ذكرنا أن بعض هذا الوجه الرابع اشتملت عليه المصاحف ،  
وبعضه لم تشتمل عليه ، لأنه نسخ .

وأما الوجه الخامس : وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير ، فهو مثل سابقه . منه ما هو  
موافق لرسم المصحف نحو قوله سبحانه في سورة التوبة : « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا  
عَلَيْهِ حَقًّا » قرئ الفعل بالبناء للفاعل في الأول ، وللمفعول في الثاني ، وقرئ بالعكس ،  
وهما قراءتان متواترتان ، ولا يخالف شي منهما رسم المصحف . ومنه ما خالف رسم المصحف

نحو قوله سبحانه « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وقرئ « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » فإن هذه القراءة الثانية لا يحتملها رسم المصحف وإن كانت منقولة عن أبي بكر الصديق ، وطلحة بن مطرف ، وزين العابدين (رضى الله عنهم) لكنها لم تتواتر ، فهي منسوخة بالعرضة الأخيرة ، وبإجماع الصحابة على المصحف العثماني ، فلا يجوز القراءة بها بخلاف القراءة الأولى لأنها وافقت خط المصحف ، واستقرت القراءة بها دون نسخ . ومثل ذلك قوله سبحانه : « إِذْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » وقرئ « إِذْ جَاءَ فَتْحُ اللَّهِ وَالنَّصْرُ » فالأولى هي التي وافقت الرسم . والثانية لم توافقه فهي منسوخة أيضاً لما ذكرنا .

وأما الوجه السادس : وهو الاختلاف بالإبطال ، فقد وافق بعضه رسم المصحف ، وخالفه البعض أيضاً . مثال ما وافق الرسم قوله سبحانه : « إِنْ جَاءَكُمْ فَأَسِقُوا بِغَبَايَاتٍ فَتَذَكَّرْتُمْ » وقرئ « فَتَذَكَّرْتُمْ » وهما قراءتان متواترتان . وتوافق كتابهما رسم المصحف . ومثال الثاني قراءة « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وقراءة « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعُفُوفِ الْمُنْفُوسِ » فإنهما مخالفتان لرسم المصحف . وذلك لانسخهما بالعرضة الأخيرة أيضاً ، واستقرار الأمر على ما وافق الرسم منه ، وهو قراءة « فَاسْمِعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وقراءة « كَالْعِينِ الْمُنْفُوسِ » .

وأما الوجه السابع ، وهو الاختلاف بسبب تباين اللهجات فيوافق رسم المصحف موافقة تامة . لأنه اختلاف شكلي لا يترتب عليه تغيير جوهر الكلمة ، وهو ظاهر وتجد شواهد كثيرة في خط المصحف تدلُّ على بعض هذا النوع من الاختلاف نحو « وَهَانَ أُنْتِيكَ حَدِيثُ مُوسَى » فإنها رسمت هكذا بياء في الفعل بعد التاء ، وقلب ألف موسى ياء ، ومن غير شكلي ولا إجماع .

## ٩ - الأقوال الأخرى ووقفها

وهالك مرضاً عاماً تشهد فيه الآراء الأخرى بما لها وما عليها. رأينا من واجبتنا  
أن نسوقها إليك ثم نوهنها بين يديك ؛ كيلا يكون منها حجر عثرة في طريقك إلى  
ما اخترناه وأيدناه .

### القول الأول

إن هذا الحديث مشكل لاسبيل إلى معرفة معناه المقصود. وشبهته أن لفظ «أحرف»  
فيه ، جمع حروف. والحرف مشترك لفظي بين معان كثيرة . والمشارك اللفظي لا يدرى  
أى معانيه هو المقصود ؟ .

ويدفع هذا الرأي بأننا لا نسلم ما قاله على إطلاقه من أن المشترك اللفظي لا يدرى  
أى معانيه هو المقصود ؟ بل المشترك اللفظي يدل على معناه المقصود متى قامت قرينة  
تعين ذلك المعنى ، تقول : نظرت بالعين المجردة ، وشربت من عين زبيدة ، ومعناها  
واضح غير مشكل ، مع أن لفظ العين فيهما مشترك لفظي ، ولكن مدلوله يتعين  
في المثال الأول أن يكون جارحة الإنسان الباصرة ، ومدلوله في المثال الثاني يتعين  
أن يكون نابعة الماء الجارية وذلك بقرينة لفظ نظرت في المعنى الأول ، ولفظ شربت  
في الثاني .

وعلى هذا الباب جاء لفظ «أحرف» في الحديث الشريف ، فإن سياق الروايات  
السابقة ، يدل على أن المراد بالحرف معنى من معانيه السابقة على التعيين وهو الوجه ،  
وأن الأحرف هي الأوجه التي يرجع إليها الاختلاف في قراءة ألفاظ القرآن لا معانيه .  
وقد قام الدليل العقلي وهو الاستقراء التام على أن هذه الوجوه سبعة كما أسلفنا فإياك أن  
تنسى ، وتذكر الشاهد الثامن إن نفعت الذكرى .

## القول الثاني

وإليه جنح القاضي عياض ومن تبعه : - أن لفظ السبعة في الحديث الشريف ليس مراداً به حقيقة العدد المعروف ، إنما هي كناية عن الكثرة في الآحاد ، كما أن السبعين تستعمل كناية عن الكثرة في العشرات ، وكما أن السبعائة تستعمل كناية عن الكثرة في المئات .  
ويدفع هذا بما قدّمناه في الشاهد الثاني . فارجع إليه ، واحرص عليه .

## القول الثالث والرابع

أن المراد بالأحرف السبعة سبع قراءات . ويدفع بأنه إذا كان المراد بهذا أن كل كلمة من كلمات القرآن تقرأ سبع قراءات ، فذلك ممنوع ، لأنه لا يوجد في القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه إلا القليل . وإذا كان المراد أن غاية ما ينتهي إليه عدد القراءات في الكلمة الواحدة سبعة أحرف فهذا يصح أن يكون ( قولاً رابعاً ) كما قال السبكي ، ثم هو غير مسلم أيضاً ، لأن في كلمات القرآن ما يقرأ بطرق أكثر ، كما ورد أن كلمة « عَبْدَ الطَّاعُونَ » تقرأ باثنين وعشرين وجهاً . وأن كلمة « أَفٍ » فيها سبع وثلاثون لغة . وإذا كان المراد أن الاختلاف في القراءات لا يخرج عن سبعة أوجه فعلى صاحب هذا القول البيان ، فإذا بينها بالوجه التي ذكرناها كان هذا القول متداخلاً معها ، فلا يستقيم اعتباره قولاً مستقلاً برأسه . وبعض أكابر العلماء حاول أن يجعله متحدداً مع القول الذي اخترناه وما أشبهه ، ولكنك قد علمت ما فيه .

## القول الخامس والسادس والسابع

ما نقلناه آنفاً عن ابن قتيبة ، وعن ابن الجزري ، وعن ابن الطيب . وقد بان لك

هناك أن في ثلاثتها قصوراً عن أن تشمل جميع القراءات المتواترة ، وإن كانت قريبة من القول المختار . ثم بينها تداخلٌ يتعذر أو يتعسر معه اعتبارها أقوالاً مستقلةً .

### القول الثامن

أن المراد بالأحرف السبعة وجوهٌ ترجع إلى كَيْفِيَّةِ النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار ، وتفخيم وترقيق ، وإمالة وإشباع ، ومد وقصر ، وتشديد وتخفيف وتلين .  
وهو مدفوعٌ بأنه قد زاد فيها عدده على سبعة . وإذا أجاب بأن السبعة غيرُ مبررٍ بها حقيقتها وأنها مثل في الكثرة فقد علمتَ ما فيه . ثم إن الأوجه التي ذكرها واحداً واحداً ترجع كلها إلى نوع واحد هو اختلاف اللهجات وكيفيات النطق وحدها ، فلا تشمل القراءات التي ترجع إلى اختلاف نفس الألفاظ بالإبدال أو التقديم والتأخير ، أو النقص والزيادة ، ونحو ذلك . وفي هذا القصور ما فيه ، على أكثر مما أسلفنا في ردِّ تلك الآراء القاصرة .

### القول التاسع

وهو أن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختلفة في كلمة واحدة ومعنى واحد ، وإن شئت فقل : سبع لغاتٍ من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة ومعنى واحد ، نحو هلم ، وأقبل ، وعمال ، ومجمل ، وأسرع ، وقصدى ، ونحوى .  
فهذه ألفاظ سبعة معناها واحد هو طلب الإقبال ؛ وهذا القول منسوبٌ لجمهور أهل الفقه والحديث منهم سفيان ، وابن وهب ، وابن جرير الطبري ، والطحاوي . وحجتهم ما جاء في حديث أبي بكر من قوله عليه السلام « كلها شافٍ كافٍ ما لم تختم آية عذابٍ برحمةٍ ولا آية رحمةٍ بمذابٍ » ، نحو قولك : « عمال وأقبل وهلم ، واذهب ، وأسرع . ومجمل » . وما جاء في حديث أبي بن كعب أنه كان يقرأ « كَلِّمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ،

مَرُّوا فِيهِ ، سَعَوْا فِيهِ » وما جاء عن ابن مسعود أنه كان يقرأ « لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظُرُونَا ،  
أَمْهَلُونَا ، أَخْرُونَا » .

ويدفع هذا القول بوجوه : ( أحدها ) أن ما ذكر في هذه الأحاديث ليس من  
قبيل حصر الأحرف السبعة فيها وفي نوعها وحده حتى يصح الاستدلال بها على  
ما ذهبوا إليه ، بل هو - كما قال ابن عبد البر - من قبيل ضرب المثل للحروف التي نزل  
القرآن عليها ، وأنها معانٍ متفقٌ مفهومها ، مختلفٌ مسموعها ، لا يكون في شيء منها  
معنى وضده .

وكيف يكون المراد حصر الأحرف السبعة ، فيما ذكره ؟ على حين أنه يرجع إلى  
بعض نوع واحد من أنواع الاختلاف ، وهو إبدال كلمة بأخرى أعم من أن يكون  
مرادفٍ أو غير مرادف . والاريب أن مذهبهم المذكور يتلخص في أنه إبدال كلمة  
بأخرى على شروط الترادف . وهذا بعض ذلك . فأين يذهبون بتلك الوجوه الأخرى  
وهي باقية إلى اليوم في القراءات المتواترة المكتوبة بين دفتي المصحف على ما بيناه  
في المذهب المختار . فقصر الحروف السبعة على بعض ذلك النوع وحده ، فيه ما فيه  
من القصور الذي أوردنا عليه ما أوردنا في الأقوال السابقة القاصرة ، بل القصور  
هنا أشدٌ وأخس ، لأنه يرجع إلى بعض نوعٍ واحدٍ لا إلى نوعٍ كامل ، بله أنواعٍ  
متعددة .

( ثانيها ) أن أصحاب هذا المذهب - على جلاله قدرهم ، ونباهة شأنهم - قد وضعوا  
أنفسهم في مأزقٍ ضيقٍ ، لأن ترويحهم لمذهبهم ، اضطرهم إلى أن يتورطوا في أمورٍ خطرهما  
عظيم ، إذ قالوا إن الباقي الآن حرفٌ واحدٌ من السبعة التي نزل عليها القرآن . أما الستة  
الأخرى فقد ذهت ولم يعد لها وجود البتة . ونسوا أو تناسوا تلك الوجوه المتنوعة القائمة  
في القرآن على جهة الدهر إلى اليوم . ثم حاولوا أن يؤيدوا ذلك فلم يستطيعوا

أن يشتموا للأحرف الستة التي يقولون بضياعها نسخاً ولا رفعاً ، وأسلمهم هذا العجز إلى  
وَرطَظَةٍ أُخْرَى ، هي دَعْوَى إجماع الأمة على أن تَنْدُبَتْ على حرف واحد ، وأن تَرَفُضَ  
القراءة بجميع ما عداها من الأحرف الستة . وأنى يكون لهم هذا الإجماع ولا دليل عليه ؟  
هنالك احتالوا على إنباتهِ بورطَظَةٍ ثالثة ، وهي القول بأن استنساخ المصاحف في زمن عثمان  
رضي الله عنه كان إجماعاً من الأمة على ترك الحروف الستة والاقصرار على حرف واحد هو  
الذي نَسَخَ عُثْمَانُ لِلْمَصَاحِفِ عَلَيْهِ ، مع أننا أثبتنا لك فيما مرَّ بقاء الأحرف السبعة في المصاحف  
العثمانية حرفاً حرفاً ، ومثّلنا لذلك . وقصّاري ما استطاعوا أن يسوّغوا به مذهبهم  
وتورطاتهم هذه ، أن الأمة على عهد عثمان رضي الله عنه قد اختلفت في قراءات القرآن  
إلى حدِّ جعلهم يتنازعون ويتراوون بتكفير بعضهم بعضاً ، حتى خيفت الفتنة ، فرأى  
الصحابة بقيادة خليفة م الحكيم عثمان رضي الله عنه أن يعالجوا المشكلة ، ويُطْفَنُوا  
الفتنة ، بهذه الطريقة ، من جمع الناس على حرف واحد ، ونسخ المصاحف على حرف  
واحد ، وإهمال كل ما عداها من الحروف والمصاحف المنسوخة عليها .

وهذا - لعمر كـ - استنادٌ ماثل ، واحتجاجٌ باطل . فقد تنازع الناس على عهد الرسول  
ﷺ أيضاً في قراءات القرآن على حروف مختلفة ، كما رأيت في الروايات السابقة ، ومع  
ذلك أقرهم الرسول على هذه الحروف المختلفة ، وقرّرها فيهم ، وحلمهم على التسليم بها  
في أساليب متنوّعة . وجعل ذلك هو الحلّ الوحيد لمشكلتهم ، والملاجج الناجع لنزاعهم .  
وأفهمهم أن تعدد وجوه القراءة إنما هو رحمة من الله بهم ، بل بالأمة كلها . وقرّري  
صراحة وهو يسأل مولاه الزبير من عدد الحروف أن الأمة لا تطبق حصرها في مضيّق  
حرف واحد ، وقال : « وإن أمتي لا تطبق ذلك » إلى آخر ما عرفت . وأنت خير بأن  
أمة محمد ﷺ باقية إلى يوم القيامة . وهي لا تطبق ذلك كما قرّرت رسواها المعصوم الرحيم  
صلوات الله وسلامه عليه . كما نشاهد نحن الآن من أن بعض الألسنة في بعض الشعوب  
الإسلامية ، لا يتيسر لها أن تحسن النطق ببعض الحروف ولا ببعض اللهجات دون بعض



فكيف يسوغ للصحابة وهم خير القرون ، أن يُنلقوا باب الرحمة والتخفيف الذي فتحه الله لأمة الإسلام ، مخالفين في ذلك هدى الرسول عليه الصلاة والسلام في عمله للتخفيف بطلب تعدد الحروف ، وعلاجه للنزاع بين المختلفين بتقرير هذا التعدد للحروف ؟

ألا إن هذه نُقْرَةٌ لا يمكن سدُّها ، وتُلْمَةٌ يصعب جبرها ، وإلا فكيف يوافق أصحاب رسول الله ﷺ على ضياع ستة حروف نزل عليها القرآن ، دون أن يُبَيَّنوا عليها مع أنها لم تنسخ ولم ترفع ؟ وعلى حين أن الرسول ﷺ قرَّر بقوله وفعله ، أنه لا يجوز لأحد أيًّا كان ، أن يمنع أحداً أيًّا كان ، من القراءة بحرف من السبعة أيًّا كان . فقد صَوَّب قراءة كلِّ من المختلفين ، وقال لسكرانٍ « هَكَذَا أَنْزَلَتْ » وضرب في صدر أبي بن كعب حين استصعب عليه التسليم بهذا الاختلاف في القراءة . إلى آخر ما شرحنا في الشاهدين الثالث والخامس من الشواهد الماضية .

وُقْصَارَى القول ، أننا نَرَبِّباً بأصحاب رسول ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكَّروا ، فضلاً عن أن يتأمروا على ضياع أحرف القرآن الستة دون نسخ لها . وحاشا عثمان رضى الله عنه أن يكون قد أقدم على ذلك وترعَّمه !

وكيف ينسب إليه هذا ؟ والمعروف أنه نسخ المصاحف من الصحف التي جمعت على عهد أبي بكر رضى الله عنه قبل أن يدبَّ النزاع في أقطار الإسلام بسبب اختلاف حروف القراءة في القرآن . فكانت تلك الصحف محتملةً للأحرف السبعة جميعاً ، وموافقةً لها جميعاً ، ضرورةً أنه لم يحدث وقتئذٍ من النزاع والشقاق ما يدعو إلى الاختصار على حرف واحد في رأيهم . ولم يثبت أن الصحابة تركوا من الصحف المجموعة على عهد أبي بكر حرفاً واحداً فضلاً عن ستة حروف ولو كان ذلك لنقلَ إلينا متواتراً ؛ لأنه مما تتوافر الدواعى على نقله تواتراً .

ثم كيف يفعل عثمان رضى الله عنه ذلك وهو الذى عرف أن علاج الرسول لمثل هذا

النوع الذي دب في زمانه، كان يجمع الناس وتقديرهم على الحروف السبعة، لا بمنعم عنها كلاً ولا بعضاً.

ثم كيف يفعل عثمان ذلك، وتوافقه الأمة، ويتم الإجماع؟ ثم يكون خلاف في معنى الأحرف السبعة مع قيام هذا الإجماع؟ أي كيف تُجمع الأمة على ترك ستة أحرف وإبقاء حرف واحد ثم يختلف العلماء في معنى الأحرف السبعة على أربعين قولاً، ويكادون يتفقون - رغم خلافهم هذا - على أن الأحرف السبعة باقية، مع أن الإجماع حجة عند المسلمين، وبه ينجلي ظلامُ الشك عن وجه اليقين !!

ولنفرض جدلاً أن نزاع المسلمين في أقطار الأرض أيام خلافة عثمان رضى الله عنه، قضى عليه أن يجمع المسلمين على حرف واحد في القراءة، فلماذا لم تسمح نفسه الكريمة بإبقاء الستة الأحرف الباقية للتاريخ لا للقراءة، مع أن الضرورة تُقدَّر بقدرها، وهذه الستة الأحرف لم تنسخ لا تلاوةً ولا حكماً حتى تذهب بجرّة قلم كذلك، ثم يبخل عليها بالبقاء للتاريخ وحده في أعظم مرجع، وأقدس كتاب، وهو القرآن الكريم. على حين أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، حفظوا للتاريخ آيات نسخت تلاوتها ونسخت أحكامها جميعاً. وعلى حين أنهم حفظوا اقراءات شاذة في القرآن، ثم نقلت إلينا، وكتب لها الخلود إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم. بل نقلوا إلينا أحاديث منسوخة، وتناقل العلماء أحاديث موضوعة، ونصّوا على حكم كل منها وعلى إهمال العمل بها.

ثم إن من عرف تحمس الصحابة لدينهم واستبسالهم في الدفاع عن حى القرآن يستبعد كل البعد، بل يُحيل كل الإحالة أن يكونوا قد فعلوا ذلك، أو أقل من ذلك، عاود ما قرره في الشاهد السادس من شواهدنا الماضية، وانظر إلى موقف عمر من هشام وموقف هشام من عمر، وموقف أبي وابني مسعود وصاحبينهما وتأمل كيف أن كلاً من هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أن يتنازل عن قراءة سمعها عن رسول الله ﷺ وعلمها

إياه رسول الله ﷺ ثم أقرهم رسول الله ﷺ على استمساكهم هذا، وحل مشكلتهم بأن أعلمهم أن كلامهم مصيب ومحسن، وأن قراءة كل منهم هكذا أنزلت، وأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وأن من كهر بحرف منها فقد كفر بها كلها، وألا يختلفوا في ذلك؛ فقد أهلك الاختلاف من كانوا قبلهم. وبهذا « قَطَعَتْ جَهِيْزَةُ قَوْلَ كُلِّ خَطِيْبٍ ». (أمر ثالث) هو أن هؤلاء الذين شايعوا ذلك المذهب، يلتزمون أن يقولوا: إن اختلاف القراءات الحاصل اليوم، يرجع كله إلى حرف واحد، وهكذا شاء لهم رأيهم أن يعملوا تلك السكثرة الغامرة القائمة الآن حرفاً واحداً، على ما بينهما من اختلاف في الوجوه والأنواع وعلى رغم أن من القراءات الحاضرة ما يكون وجه الاختلاف فيه ناشئاً عن وجود ألفاظ مترادفة في كلمة واحدة ومعنى واحد، ومنها ما هو من لغات قبائل مختلفة؛ كما نص على ذلك السيوطي في النوع السابع والثلاثين. ونقلنا منه شيئاً من موضع آخر من هذا البحث.

ولدينا دلائل مادي أيضاً على بقاء الأحرف السبعة جميعاً، هو بقاء التيسير والتخفيف وتسهيل الأداء على الأمة الإسلامية الذي هو الحكمة في الأحرف السبعة. فها نحن أولاء لانزال نشاهد عن طريق القراءات المختلفة القائمة الآن سبيلاً سهلاً قد وسع كافة الشعوب المسلمة، سواء منها الأمم العربية وغير العربية، والحمد لله على دوام فضله ورحمته، وبقاء تخفيفه وتيسيره. وغفر الله لأولئك الأعلام الذين أخطأوا إصابة الرمي، فقد اجتهدوا والمجتهد أجر وإن أخطأ، ونسأل الله التوفيق والسداد، آمين.

## القول العاشر

أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب ، بمعنى أن القرآن لا يخرج عن سبع لغات من لغات العرب ، وهي لغة قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن ، وهي أفصح لغات العرب . قال بعضهم : هذا أصح الأقوال وأولها بالصواب ، وهو الذي عليه أكثر العلماء ، وصححه البيهقي ، واختاره الأبهري ، واقتصر عليه صاحب القاموس .

وقال أبو عبيد : « ليس المراد أن كل كلمة تُقرأ على سبع لغات ، بل اللغات السبع مفرقة فيه ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن وغيرهم . قال : وبعض اللغات أُسمد به من بعض وأكثر نضيباً » وقيل في عد القبائل السبع آراءً أخرى .

ويدفع هذا القول على جميع آرائه بأمريّن : (أحدهما) أن في القرآن الكريم ألفاظاً كثيرة من لغات قبائل أخرى غير السبعة التي عدّها .

مثل كلمة « سَامِدُونَ » في قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ » فإنها بالجزيرية . ومثل كلمة « خَمْرًا » في قوله : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » فإنها بلغة أهل عُمان لأنهم يسمون العنب خمرًا (أي حقيقة لا مجازاً) . ومثل كلمة « بَعْلًا » في قوله تعالى : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » أي رَبًّا بلغة أزدِ شَنْوَةَ . ومثل كلمة « لَا يَلْتَكُمُ » أي لا يتقصم في قوله تعالى : « لَا يَلْتَكُمُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا » فإنها بلغة بني عَبَس . ومثل كلمة « فَبَاءُوا » بمعنى استوجبوا في قوله تعالى : « فَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » فإنها بلغة جُرْهُم . ومثل كلمة « زَفَتْ » بمعنى جماع في قوله تعالى : « فَلَا رَفَثَ » فإنها بلغة مَذْحِج . ومثل كلمة « تُسَيِّمُونَ » بمعنى ترعون في قوله تعالى : « فِيهِ تُسَيِّمُونَ » فإنها بلغة خَضَعَم ، إلى

غير ذلك . وارجع إلى النوع السابع والثلاثين من إتقان السيوطي إن أردت المزيد .

وحسبك في هذا المقام ما نقله الواسطي في كتابه الذي وضعه في القراءات المشهر إذ يقول : « إن في القرآن من أربعين لغة عربية وهي : قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وخنتم ، والخزرج ، وأشعر ، ونمير ، وقيس عيلان ، وجُرهم ، واليمن ، وأزد شنوءة ، وكندة ، وتميم ، وحمير ، ومدائن ، وأخم ، وسعد العشيرة ، وحضر موت ، وسدوس ، والمهالقة ، وأنمار ، وغسان ، ومدحجج ، وخزاعة ، وغطفان ، وسبأ ، وعمان ، وبنو حنيفة ، وعلب ، وطى ، وعامر بن صعصعة ، وأوس ، ومزينة ، وثقيف ، وجدام ، وبلج ، وعذرة ، وهوازن ، والنمير ، واليمامة » اهـ .

ولا ينبغي عن بالك أن هذه اللغات كلها تمثلت في لغة قريش باعتبار أن لغة قريش كانت المترجمة لها ، والمهيمنة عليها ، والآخذة منها ما شاء مما يحملوها ويرق في ذوقها ، ثم يأخذ الجميع عنها ، حتى صح أن يُعتبر لسان قريش هو اللسان العربي العام ، وبه نزل القرآن ، على ما سبق بيانه ، فلا تغفل . والله يتولى هدايتنا أجمعين .

( ثانيهما ) أن توجيه هذا المذهب بما قاله أبو عبيد ، يقتضى أن يكون القرآن أبعاضاً ، منه ما هو بلغة قريش ، ومنه ما هو بلغة هذيل ، وهكذا . ولا شك أن ذلك غير محقق لحكمة التيسير الملحوظة للشارع الحكيم في نزول القرآن على سبعة أحرف ، فإن هذا المذهب يستلزم أن كل شخص لا يمكنه أن يقرأ إلا البعض الذي نزل بلغته ، دون البعض الذي نزل بلغة غيره . وهذا باطل من ناحية ، ومخالف للاختلاف الذي صورته لنا الروايات السابقة بين الصحابة في القراءة من ناحية أخرى فإن المقرء فيها كان واحداً لا محالة ، كسورة الفرقان بين عمر وهشام . وسورة من آل حم بين ابن مسعود وصاحبه ، وقد صوّب الرسول ﷺ قراءة كل من المختلفين ، وكلاهما قرشي .

### القول الحادى عشر

أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل مضر خاصة ، وأنها متفرقة في القرآن . وأن تلك القبائل السبع هي : قريش ، وكنانة ، وأسد ، وهذيل ، وتميم ، وضبة ، وقيس .

ونردُّ هذا بما رددناه سابقه ، بل هذا أدنى إلى البطلان ، لأنه أخصُّ مما قبله الذى دحضناه من جهة خصوصه ، فكيف هذا ؟ تلك ناحية . وثمة ناحية أخرى : وهى أن فى قبائل مضر شواذ ينزه عنها القرآن الكريم مثل كَشَشَكَشَةِ قَيْسٍ ، وهى جعل كاف المؤنث شيناً ، فيقولون فى قوله تعالى : « قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » قد جعلَ رَبُّشِ تَحْتَشِ سَرِيًّا . ومثل نَمَمَةٍ تَمِيمِ الذين يعملون السين تاءً فيقولون فى الناس « النات » مع أن هذه لغات لم يُحفظ منها شيء فى القرآن الكريم .

### القول الثانى عشر إلى الأربعين

أن المراد بالأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن ، سبعة أصناف فى القرآن ، وأصحاب هذه الأقوال يختلفون فى تعيين هذه الأصناف . وفى أسلوب التعبير عنها إلى آراء تكمل بها العدة أربعين قولاً .

فمنهم من يقول : إنها أمر ، ونهى ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال .

ومنهم من يقول : إنها وعد ، ووعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج .

ومنهم من يقول : إنها محكم ومتشابه ، وناسخ ، ومنسوخ ، وخصوص وعموم ، وقصص .

ومنهم من يقول : إنها لفظ عام أريد به العام ، ولفظ خاص أريد به الخاص ، ولفظ عام أريد به الخاص ، ولفظ خاص أريد به العام ، ولفظ يستغنى بتزيله عن تأويله ، ولفظ لا يعلم فقهه إلا العلماء ، ولفظ لا يعلم معناه إلا الراسخون في العلم .

ومنهم من يقول : إنها إظهار الروبوية ، وإثبات الوجدانية ، وتمظيم الألوهية ، والتعبد لله ، ومجانبة الإشراف ، والترغيب في الثواب ، والترهيب من العقاب .

ومنهم من يقول : إنها المطلق ، والمقيد ، والعام ، والخاص ، والنص ، والمؤول والناسخ ، والمسوخ ، والاستثناء ، وأقسامه .

ومنهم من يقول : إنها الحذف ، والصلة ، والتقديم ، والتأخير ، والاستعارة ، والتكرار ، والسكناية ، والحقيقة ، والمجاز ، والمجمل ، والمفسر ، والظاهر ، والغريب .

ومنهم من يقول سوى ذلك كله ، غير أنها من هذا الطراز أو من طراز ماسبق في الأقوال الأخرى ، حتى أكمل بها بعضهم عدة الأقوال أربعمائة قولاً .

### ١٠ — ردود إجمالية لهذه الأقوال الأخيرة

والكل مردود ردًّا إجماليًّا بما يأتي :

(أولاً) أن سياق الأحاديث السابقة ، لا ينطبق على هذه الأقوال بحال ، فإن هذه الأصناف التي عيَّنوها ، لا يتأتى الاختلاف فيها بسبب القراءة . والاختلاف الذي نقلته الروايات السابقة تدلُّ تلك الروايات نفسها على أنه ما كان إلا بسبب القراءة ، فتعين أن يكون مرجعه التلفُّظ وكيفية النطق ، لا تلك الأصناف والأنواع التي سردوها في معرض الآراء . أنظر الشاهد الثامن من شواهدنا للماضية إن شئت .

(ثانياً) أنه لا يوجد لهم سندٌ صحيحٌ يدلُّ على حصر الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن فيما بينوه . وما يكون لنا أن نقبل رأياً غير مدلَّل ولا مؤيدٌ بحجة .

(ثالثاً) أن التوسعة الملحوظة للشارع الرحيم في نزول القرآن على الأحرف السبعة، لا تتحقق فيما ذكره من تلك الأصناف والأنواع.

(رابعاً) أن بعض تلك الآراء نلاحظ عليها أنها زادت على السبعة فيما ذكرته من الأصناف والأنواع. فإما أن تكون أخطاءً في العد من أول الأمر، وإما أن تكون متأثرةً بفكرة أن لفظ السبعة كنايةٌ للاحقيقة، وقد علمت فيما سبق ما فيه من خطأ أيضاً راجع الشاهد الثاني من شواهدنا الآتية إن أردت.

(خامساً) أن أكثر ما ذكره في تلك الآراء والأصناف، يتداخل بعضه في بعض، - وبشبه بعضه بعضاً، فمن التعسر اعتبارها أقوالاً مستقلةً.

نقل السيوطي عن الشرف المرسي أنه قال: «هذه الوجوه أكثرها متداخلة ولا أدري مستندها، ولا عمن نقلت؟ ولا أدري لم خص كل واحد منهم هذه الأحرف السبعة بما ذكر؟ مع أنها كلها موجودة في القرآن، فلا أدري معنى التخصيص. ومنها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة. وأكثرها معارض لحديث عمر وهشام بن حكيم الذي في الصحيح فإنهما لم يختلفا في تفسيره ولا أحكامه، وإنما اختلفا في قراءة حر وفه. وقد ظن كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع، وهو جهل قبيح» اهـ.

## ١١ - علاج الشبهات الواردة

### على أصل الموضوع

أعداء الإسلام في كثرةٍ ونشاطٍ وبقظة، وبين المسلمين جهلةٌ يؤذون الإسلام والأمة بأشد ما يؤذيه أعداؤه، على حد قول القائل:

« لا يبلغُ الأعداء من جاهل ما يبلغُ الجاهل من نفسه »



وقد نرى ونسمع اتهامات وشبهات ، مرةً من هنا ، ومرةً من هناك ، فمن واجب الأمانة في أعناقنا ، أن نبذد ظلمات هذه الشبهات والنهم ، بما بين أيدينا من أنوار العلم وأسلحة الحجج . « وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » .

( الشبهة الأولى ) يقولون : إن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف في القرآن ، مع أن القرآن نفسه يرفع الاختلاف عن نفسه ، إذ يقول : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » وذلك تناقض ، ولا ندرى أيهما يكون الصادق .

والجواب : أن الاختلاف الذي تثبته تلك الأحاديث ، غير الاختلاف الذي ينفيه القرآن . وهذا كافٍ في دفع التناقض ، فكلاهما صادق . وبيان ذلك أن الأحاديث الشريفة تثبت الاختلاف بمعنى التنوع في طرق أداء القرآن والنطق بالفاظه في دائرة محدودة لا تعدو سبعة أحرف ، وبشرط التلقي فيها كلها عن النبي ﷺ .

أما القرآن فينبغي الاختلاف بمعنى التناقض والتدافع بين معاني القرآن وتعاليمه ، مع ثبوت التنوع في وجوه التلظ والأداء السابق .

ومعنى ذلك أن نزول القرآن على سبعة أحرف ، لا يلزم منه تناقض ولا تحاذل ولا تضاد ولا تدافع بين مدلولات القرآن ومعانيه ، وتعاليمه ومراميه ، بعضها مع بعض . بل القرآن كله سلسلة واحدة ، متصلة الحلقات ، محكمة السور والآيات ، متآخذة المبادئ والغايات ، مهما تعددت طرق قراءته ، ومهما تنوعت فنون أدائه .

وللمحقق ابن الجزري كلام نفيس يتصل بهذا الموضوع فنقل إليك شيئاً منه بتلخيص من التصرف ، إذ يقول : « قد تدبرنا اختلاف القراءات ، فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال : أحدها اختلاف اللفظ لا المعنى . الثاني اختلافهما جميعاً مع جواز اجتماعهما في شيء واحد . الثالث اختلافهما جميعاً مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد ، لكن يتفقان من وجه آخر لا يقتضى التضاد .

فأما الأول فكالاختلاف في ألفاظ « الصراط » ، وعليهم ، وَيَوُودُهُ ، والقدس  
ويحسب » ، ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات فقط . وأما الثاني فنحو لفظ « مالك  
وملك » في الفاتحة ، لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى ، لأنه مالك يوم الدين  
وملكه . . وكذا ننشرها بالزاي ونشرها بالراء ، لأن المراد بهما هو العظام . وذلك  
أن الله تعالى أنشرها أي أحييها ، وأنشرها أي رفع بعضها إلى بعض ، حتى التأمت ،  
فضمَّن الله المعنيين في القراءتين . وأما الثالث فنحو قوله تعالى : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا »  
قرئ بالتشديد والتخفيف في لفظ « كذبوا » المبني للمجهول . فأما وجه التشديد ، فالعنى :  
وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوا بهم . وأما وجه التخفيف ، فالعنى : وتوهم المرسل إليهم  
أن الرسل قد كذبوا بهم ( أي كذبوا عليهم ) فيما أخبروهم به . فالظنُّ في الأولى يقين ،  
والضمائر الثلاثة للرسل . والظنُّ في القراءة الثانية شكٌّ والضمائر الثلاثة للمرسل إليهم .  
ومن هذا القبيل قوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ أَنْ يَنْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بفتح  
اللام الأولى ورفع الأخرى في كلمة « لنزول » ، وبكسر الأولى وفتح الثانية فيها أيضاً .  
فأما وجه فتح الأولى ورفع الثانية من « لنزول » فهو أن تكون كلمة « إن » مخففة من  
التقيلة ، أي وإن مكروهم كامل الشدة تقطع بسببه الجبال الراسيات من مواضعها . وفي  
القراءة الثانية « إن » نافية أي ما كان مكروهم وإن تعاضد وتفاقم ليزول منه أمر محمد  
ﷺ ودين الإسلام . ففي الأولى تكون الجبال حقيقة ، وفي الثانية تكون مجازاً .  
ثم قال أيضاً : « فليس في شيء من القرآن تنافٍ ولا تضادٌ ولا تناقضٌ . وكل ما صحَّ  
عن النبي ﷺ من ذلك ، فقد وجب قبوله ، ولم يسع أحداً من الأمة رده ، ولزم الإيمان  
به وأنه كله منزل من عند الله ، إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية ،  
يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته علماً وعملاً ، ولا يجوز ترك موجب إحداها  
لأجل الأخرى ظناً أن هذا تعارض » ١٥١ .

إلى ذلك أشار عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بقوله : « لا تختلفوا في القرآن ،

ولاننازعوها فيه ، فإنه لا يختلف ولا ينساقط : ألا ترون أن شريعة الإسلام واحدة حدودها وقراءتها ، وأمر الله فيها واحد . لو كان من الحرفين حرفٌ بأمر بشيء وينهى عنه الآخر ، كان ذلك الاختلاف . ولكنه جامع ذلك كله . ومن قرأ قراءة فلا يدبها رغبة عنها ، فإنه من كفر بحرف منه كفر به كله « ٥١ » .

( الشبهة الثانية ) :

يقولون : إن هذا الاختلاف في القراءات ، يوقع في شك وريب من القرآن . خصوصاً إذا لاحظنا في بعض الروايات معنى تحيير الشخص أن يأتي من عنده باللفظ وما يرادفه ؛ أو باللفظ وما لا يصاده في المعنى ، كحديث أبي بكر ، وفيه « كلها شاف كاف ، ما لم تخم آية عذاب برحمة ، أو آية رحمة بعذاب ، نحو قولك : تعال ، وأقبل ، وهم » ، واذهب ، وأسرع ، وعجل » . جاء بهذا اللفظ من رواية أحمد بإسناد جيد ، ومثله حديث أبي بن كعب . وأكثر من ذلك ما جاء في فضائل أبي عبيد أن عبد الله بن مسعود قرأ رجلاً : « إن شجرة الزقوم طعام الأليم » فقال الرجل : « طعام اليتيم » فردّها عليه ، فلم يستقم به لسانه . فقال : أنستطيع أن تقول : طعام الفاجر قال : نعم . قال : فافعل « ٥١ » .

والجواب : إن اختلاف القراءات لا يوقع في شك ولا ريب ما دام السكل نازلاً من عند الله . وأما هذه الروايات التي اعتمدت عليها الشبهة ؛ فلا نسلم أنه يفهم منها معنى تحيير الشخص أن يأتي من تلقاء نفسه باللفظ وما يرادفه ، أو باللفظ وما لا يصاده في المعنى ، حتى يوقع ذلك في ريب من هذا التنزيل . بل قصارى ما تدلُّ عليه هذه الروايات أن الله تعالى وسع على عباده ، خصوصاً في مبدأ عهدهم بالوحى ، أن يقرءوا القرآن بما تليق به ألسنتهم . وكان من جملة هذه التوسعة القراءات بترادفاتٍ من اللفظ الواحد للمعنى الواحد ، مع ملاحظة أن الجميع نازلٌ من عند الله ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد ﷺ ،

وقراه الرسول على الناس على مكث ، وسمعه منه ، ثم نسخ الله ما شاء أن ينسخ بعد ذلك ، وأبقى ما أبقى ، لحكمة سامية تستقبلك في مبحث النسخ .

يدل على أن الجميع نازل من عند الله تعالى قوله ﷺ لكل من المتنازعين المختلفين في القراءة من أصحابه : « هَكَذَا أَنْزَلْتَهُ » ، وقول كل من المختلفين لصاحبه : « أقرأنيها رسول الله ﷺ » ؛ وقول الله تعالى لرسوله جواباً لمن سأله بتديل القرآن : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْمَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أُنْبِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » . وليس بعد كلام الله ورسوله كلام . كذلك أجمعت الأمة على أنه لا مدخل لبشر في نظم هذا القرآن لا من ناحية أسلوبه ، ولا من ناحية ألفاظه ، بل ولا من ناحية قانون أدائه ، فمن يخرج على هذا الإجماع ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، يولّه الله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيراً .

وها نحن أولاء قد رأينا القرآن في تلك الآية يمنع الرسول من محاولة ذلك منعاً باتاً مشفوعاً بالوعيد الشديد ، ومصحوباً بالعقاب الأليم . فما يكون لابن مسعود ، ولا لأكثر من ابن مسعود . بعد هذا - أن يبدل لفظاً من ألفاظ القرآن بلفظ من تلقاء نفسه . أنظر ما قررناه في الشاهدين : الرابع والسابع من هذا المبحث .

أما هذه الرواية المنسوبة إلى ابن مسعود من أنه أقرأ الرجل بكلمة « الفاجر » بدلا من كلمة « الأنيم » في قول الله تعالى « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقْوِمِ طَعَامٌ الْأَنْيَمِ » فتدل على أن ابن مسعود سمع الروایتين عن رسول الله ﷺ . ولما رأى الرجل قد تعمس عليه البطق بالأولى ، أشار عليه أن يقرأ بالثانية ، وكلاهما منزل من عند الله .

وكذلك حديث أبي بكر السابقي ، لا يدل على جواز تبديل الشخص ما شاء من القرآن بما لا يضاؤه ، كازعم الواهم ، إنما ذلك الحديث وأشباهه ، من باب الأمثال التي يضر بها الرسول ﷺ للحروف التي نزل عليها القرآن ؛ ليفيد أن تلك الحروف

على اختلافها ، ما هي إلا ألفاظ متوافقة مفاهيمها ، متساندة معانيها لا تخاذل بينها ولا تهافت ، ولا تضاد ولا تناقض ، ليس فيها معنى يخالف معنى آخر على وجه ينفيه ويناقضه ، كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضدّها . وتلك الأحاديث بهذا الوجه ، تقرير لأن جميع الحروف نازلة من عند الله « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

وهاك برهاناً آخر ذكره صاحب التبيان في مثل هذا المقام إذ يقول : « إن النبي ﷺ علم البراء بن عازب دعاء فيه هذه الكلمة « وَنَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلَتْ » فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله ﷺ قال : « وَرَسُولِكَ الَّذِي أُرْسِلَتْ » فلم يوافق النبي ﷺ على ذلك ، بل قال له : « لا . وَنَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلَتْ » . وهكذا نهاه عليه الصلاة والسلام أن يضع لفظه رسول ، موضع لفظه نبي ، مع أن كليهما حق لا يحيل معنى ، إذ هو ﷺ رسول ونبي معاً . ثم قال : فكيف يسوغ للجهال الغفابين أن يقولوا : إنه عليه الصلاة والسلام كان يحيز أن يوضع في القرآن الكريم مكان عزيز حكيم ، غفور رحيم ، أو سميع عليم . وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآناً ، والله يقول محبراً عن نبيه ﷺ « مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي » ولا تبدل أكثر من وضع كلمة مكان أخرى « اه بتصرف قليل .

( الشبهة الثالثة ) :

يقولون : إن نزول القرآن على سبعة أحرف ، ينافي ما هو مقرر من أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها ، ثم إنه يؤدي إلى ضياع الوحدة التي يجب أن تسود الأمة الواحدة بسبب اجتماعها على لسان واحد .

والجواب : أنه لا منافاة ، ولا ضياع للوحدة ، فإن الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن الكريم واقعة كلها في لغة قريش . ذلك أن قريشا كانوا قبل مهبط الوحي والتنزيل ،

قد داوروا بينهم لغات العرب جميعاً وتداولوها ، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء ، في الأسواق العربية ومواضعها ووقائعها ، وحجها وعمرتها ثم استعمالوه وأذاعوه ، بعد أن هدبوه وصقلوه . وبهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة منتقاة من بين لغات القبائل كافة . وكان هذا سبباً من أسباب انتهاء الزعامة إليهم ، واجتماع أوزاع العرب عليهم .

ومن هنا شاءت حكمة الحكيم العليم أن يطلع عليهم القرآن من هذا الأبق ، وأن يطلع عليهم من هذه السماء سماء قريش ولغتها التي أعطوها مقادتهم ، وولوا شطرها وجوههم ، فخطبهم بهذا اللسان العام لهم ، ليضمّ نشرهم ، ولينظم نثرهم . وقد تمّ له ما أراد بهذه السياسة الرشيدة التي جاءتهم بالإعجاز البياني عن طريق اللغة التي انتهت إليها أفصح اللغات ، وباللسان الذي خضعت له وتمثلت فيه كافة الألسنة العربية .

ولو نزل القرآن بغير لغة قريش هذه لكان مثار مشاحنات وعصبيات ، ولذهب أهل كل قبيلة بلغتهم ولعلاً بعضهم على بعض ، ولما اجتمع عليه العرب أبداً . بل لو نزل القرآن بغير لغة قريش لراجت شبهتهم وافتراؤهم عليه أنه سحر وكهانة وما إليها ، نظراً إلى أنه قد دخل عليهم من غير بابهم فلا يستطيعون القضاء فيه ، ولا إدراك الفوارق البعيدة بينه وبين الحديث النبوي ، مما يجعلهم يذوقون الإعجاز ويلبسونه ، كما تذوقوه بوضوح حين نزل بلسانهم . « إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » .

( الشبهة الرابعة ) :

يقولون : إنه لا معنى للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن إلا تلك القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء .

والجواب : أن هذه شبهة تعرض كثيراً للعامة ومن في حكمهم عن لم يأخذوا من علوم

القرآن والحديث بمحظٍ ولا نصيب .. فإن ذلك المعنى الذي زعموه غير صحيح من وجهين :

(أحدهما) أن الأحرف التي نزل بها القرآن ، أعمُّ من تلك القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة القراء عموماً مطلقاً ، وأن هذه القراءات أخصُّ من تلك الأحرف السبعة النازلة خصوصاً مطلقاً . ذلك لأن الوجوه التي أنزل الله عليها كتابه ، تنتظم كل وجوه قرأ به النبي ﷺ ، وأقرأه أصحابه ، وذلك ينتظم القراءات السبع المنسوبة إلى هؤلاء الأئمة السبعة القراء ، كما ينتظم ما فوقها إلى العشرة ، وما بعد العشرة ، وما كان قرآناً تم نسخ ولم يصل إلى هؤلاء القراء جميعاً ، ولهذا نصوا في المنهَب المختار على أنه يشمل كل وجوه القراءات صحيحها وشاذها ومنكرها كما سبق .

(ثانيهما) : أن السبعة لم يكونوا قد خلقوا ولا وجدوا حين نطق الرسول ﷺ بهذا الحديث الشريف . ومحال أن يفرض الرسول على نفسه وعلى أصحابه ألا يقرءوا بهذه الأحرف السبعة النازلة إلا إذا علموا أن هؤلاء القراء السبعة قد اختاروا القراءة بها ، على حين أن بين المهديين بضعة قرون ! وعلى حين أن هؤلاء القراء وسواهم إنما أخذوا عن النبي ﷺ من طريق أصحابه ومن أخذ عنهم إلى أن وصلوا إليهم . فهذه الشبهة تستلزم الدور الباطل فهي باطلة .

وتستلزم أيضاً أن يبقى قول الرسول ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » عارياً عن الفائدة ، غير نافذ الأثر ، حتى يولد القراء السبعة المعروفون وتؤخذ القراءة عنهم . وذلك باطل أيضاً يكذبه الواقع من قراءة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وقراءة أصحابه وتابعيه بالأحرف السبعة من قبل أن يولد القراء السبعة المعروفون .

قال المحقق ابن الجزرى : « فلو كان الحديث منصرفاً إلى قراءات السبعة المشهورين أو سبعة غيرهم من القراء الذين وُلدوا بعد التابعين ، لَأَدَّى ذلك إلى أن يكون الخبر عارياً عن الفائدة إلى أن يُولد هؤلاء السبعة ، فتؤخذ عنهم القراءة ، وأدَّى أيضاً إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا وُلدوا وتعلموا اختاروا القراءة به . وهذا باطل ؟ إذ طريق أخذ القراءة أن تؤخذ عن إمام ثقة ، لفظاً عن لفظ ، إماماً عن إمام . إلى أن يتصل بالنبي ﷺ » اهـ .

## المبحث السابع

### في المكى والمدنى من القرآن الكريم

ليس من غرضنا في هذا المبحث أن نستقصي بالتفصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسوره . وأن نحقق ما كان منها مكياً وما كان مدنياً ، فتلك محاولة كبيرة جديدة أن تُفرد بالتأليف ، وقد أفردنا فملاً بالتأليف جماعة ، منهم مكى والعزيز الدرينى .

ولكن حسبناهنا أن نتكلم على الاصطلاحات في معنى المكى والمدنى ، وعلى فائدة العلم بالمكى والمدنى ، وعلى الطريق الموصلة إليه ، وعلى الضوابط التي يُعرف بها ، وعلى السور المكية والمدنية والمختلف فيها ، وعلى أنواع السور المكية والمدنية ، وعلى أوجه تتعلق بالمكى والمدنى ، وعلى فروق أخرى بين المكى والمدنى صيغت من بعضها مطاعن في القرآن ، وعلى دفع تلك المطاعن ونقضها .



## ١ - الاصطلاحات في معنى المكي والمدني

للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات :

(الأول) أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة. ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزّل على النبي ﷺ بمِنَى وَعَرَافَاتِ وَالْحَدَيْبِيَةِ . ويدخل في المدينة ضواحيها أيضاً كالمنزّل عليه في بدرٍ وَأُحُدٍ . وهذا التقسيم أُوْحِظَ فيه مكان النزول كما ترى . لكن يرد عليه أنه غير ضابط ولا حاصر ، لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما كقوله سبحانه في سورة التوبة : « لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ » الخ فإنها نزلت بِتَبُوكَ ، وقوله سبحانه في سورة الزخرف « وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا » الخ فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء . ولا ريب أن عدم الضبط في التقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما يُذَكَّرُ من الأقسام ، وذلك عَيْبٌ يَحْتَلُّ بالمقصود الأول من التقسيم ، وهو الضبط والحصر .

(الاصطلاح الثاني) أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة . وعليه يُحْمَلُ قول من قال : إن ما صدر في القرآن بلفظ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » فهو مكي ؛ وما صدر فيه بلفظ « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فهو مدني ؛ لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة فنخوطبوا بآيائها الناس ، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم . ولأن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة ، فنخوطبوا بآيائها الذين آمنوا ، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم أيضاً . وألحق بعضهم صيغة يا بني آدم بصيغة آيائها الناس . أخرج أبو عبيد في فضائل القرآن عن ميمون ابن مهران قال : « ما كان في القرآن آيائها الناس ، أو يا بني آدم ، فإنه مكي ، وما كان بآيائها الذين آمنوا ، فإنه مدني » .

وهذا التقسيم لوحظ فيه المخاطبون كما ترى، لكن يرد عليه أمران: أحدهما ماورد على سابقه من أنه غير ضابطٍ ولا حاصر، فإن في القرآن ما نزل غير مصدرٍ بأحدهما نحو قوله سبحانه في فاتحة سورة الأحزاب: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ» الخ، ونحو قوله سبحانه في فاتحة سورة المنافقين: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ» الخ.

(ثانيهما أن هذا التقسيم غير مطرد في جميع موارد الصيغتين المذكورتين، بل إن هناك آياتٍ مدنيةً صُدِّرت بصيغة «يا أيها الناس»، وهناك آيات مكية صُدِّرت بصيغة «يا أيها الذين آمنوا». مثال الأولى سورة النساء، فإنها مدنية وأولها «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ»، وكذلك سورة البقرة مدنية وفيها «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ» ومثال الثانية سورة الحج فإنها مكية مع أن في أواخرها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آذِنُوا كَعُوا وَاسْجُدُوا» الخ.

قال بعضهم: «هذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإن سورة البقرة مدنية وفيها «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ» إلى آخر ما ذكرناه أمامك. غير أنه قال أخيراً ما نصّه: «فإن أريد أن الغالب كذلك فصحيح».

أقول: ولكن صحّة الكلام في ذاته لا تسوّغ صحّة التقسيم، فإن من شأن التقسيم السليم أن يكون ضابطاً حاصراً، وأن يكون مطرداً. وقيد الغالبية المراد، لا يحقّق الضبط والحصر وإن حقّق الاطراد، فيبقى التقسيم معيّباً. على أنهم قالوا: المراد لا يدفع الإيراد. (الاصطلاح الثالث) وهو المشهور: أن المكي ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله بمكة.

وهذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول، وهو تقسيم صحيح سليم، لأنه ضابطٌ حاصر ومطردٌ لا يختلف، بخلاف سابقه، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم. وعليه آية: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

الْإِسْلَامَ دِينًا» مدنية ، مع أنها نزلت يوم الجمعة بمعرفة في حجة الوداع . وكذلك آية « إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تُوَدُّوا وَالْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » فإنها مدنية مع أنها نزلت بكفة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم . وقل مثل ذلك فيما نزل بأسفاره عليه الصلاة والسلام كفاتحة سورة الأنفال وقد نزلت ببدر ، فإنها مدنية لا مكية على هذا الاصطلاح المشهور .

## ٢ — فائدة العلم بالمكي والمدني

من فوائد العلم بالمكي والمدني تمييزُ الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيات أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد ، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم في غيرها ، ثم عُرف أن بعضها مكي وبعضها مدني ، فإننا محكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي .

ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع وتدرُّجه الحكيم بوجه عام ، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد . وسيدتقبلك في هذا للبحث فروق بين المكي والمدني تلاحظ فيها جلال هذه الحكمة .

ومن فوائده أيضاً الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف . ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى ليعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها ، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر ؛ وما نزل بالنهار وما نزل بالليل ، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف ، وما نزل بالأرض وما نزل بالسما ، إلى غير ذلك . فلا يقل بعد هذا أن يسكتوا ويتركوا أحداً يمسه ويَعْبَثُ به ، وهم المتحمسون لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتصل به أو يَحْتَفُّ بنزوله إلى هذا الحد !

### ٣ - الطريق الموصلة إلى معرفة المكي والمدني

لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك ؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ بيان للمكي والمدني . وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان ، كيف وهم يشاهدون الوحي والتنزيل ، ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عياناً . « وليس بعد العيان بيان » .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « والله الذي لا إله غيره ، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولأنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبته إليه » . وقال أيوب : سألت رجلاً عكرمة عن آية من القرآن فقال : « نزلت في سفح ذلك الجبل » وأشار إلى سلع ١ هـ .

ولعل هذا التوجيه الذي ذكرته أولى مما ذكره القاضي أبو بكر في الانتصار ، إذ يقول ما نصه : « ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول ، لأنه لم يأمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النسخ والنسوخ ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول » ١ هـ .

### ٤ - الضوابط التي يعرف بها

#### المكي والمدني

قد عرفنا فيما مضى أن مراد العلم بالمكي والمدني هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين ، بيد أن هناك علامات وضوابط يعرف بها المكي والمدني . وهالك ضوابط المكي :

١ - كل سورة فيها لفظ « كلاً » فهي مكية . وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً

وثلاثين مرة ، في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن . قال الدريبي رحمه الله :

« وَمَا نَزَلَتْ كَلًّا بِيَثْرَبَ فَأَعْلَمَنْ      وَلَمْ تَأْتِ فِي الْقُرْآنِ فِي نِصْفِهِ الْأَعْلَى »  
قال العاني : « وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة ، وأكثرها جابرة ، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول . وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذاتهم وضعفهم » هـ .

- ٢ - كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية . سورة الحجر هي مدنية
- ٣ - كل سورة في أولها حروف التهجّي فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع . وفي الرعد خلاف .
- ٤ - كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة .
- ٥ - كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة أيضاً .
- ٦ - كل سورة فيها بأيها الناس وليس فيها بأيها الذين آمنوا فهي مكية ، ولكنه ورد على هذا ما تقدّم بين يديك من سورة الحج .
- ٧ - كل سورة من المفصل فهي مكية . أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : « نزل المفصل بمكة ، فكثرتنا حججاً نقرؤه ولا ينزل غيره » لكن يرد على هذا أن بعض سور المفصل مدني نزل بعد الهجرة اتفاقاً كسورة النصر ، فإنها كانت من أواخر ما نزل بعد الهجرة ، بل قيل إنها آخر ما نزل ، كما سبق في مبحث أول ما نزل وآخر ما نزل . فالأولى أن يُحمل كلام ابن مسعود هذا على الأكثرية الغالبة من سور المفصل ، لا على جميع سور المفصل . والمفصل على وزان مُعْظَم : هو السورة الأخيرة من القرآن الكريم مبتدأة من

سورة الحجرات على الأصح. وسميت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السور بعضها وبعض من أجل قصرها. وقيل: سميت بذلك لقلّة المنسوخ فيها، فقولها قولٌ فصلٌ: لانسخ فيه ولا نقض.

أما ضوابط المدني: فكما يأتي:

- ١ - كل سورة فيها الحدرد والفرائض فهي مدنية.
- ٢ - كل سورة فيها إذنٌ بالجهاد وبيانٌ لأحكام الجهاد فهي مدنية.
- ٣ - كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت. والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها، فإنها مدنية. وهي التي ذكر فيها المنافقون.

#### ٥ - السور المكية والمدنية والمختلف فيها

نقل السيوطي في الإتقان أقوالاً كثيرة في تعيين السور المكية والمدنية، من أوقفها ما ذكره أبو الحسن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ إذ يقول:

« للمدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكي باتفاق » ثم نظم في ذلك أبياتاً رقيقة جامعة، وهو يريد بالسور العشرين المدنية بالاتفاق: سورة البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والجمعة، والمنافقين، والطلاق، والتحریم، والنصر.

ويريد بالسور الاثنتي عشرة المختلف فيها: سورة الفاتحة، والرعد، والرحمن، والصف، والتغابن، والتطويق، والقدر، ولم يكن، وإذازلزلت، والإخلاص، والمعوذتين.

ويريد بالسور المكية باتفاق ما عدا ذلك وهي اثنتان وثمانون سورة . وإلى هذا القسم المكي يشير في منظومته بقوله :

« وما سوى ذلك مكي تنزله فلا تكن من خلاف الناس في حصره  
فليس كل خلاف جاء معتبراً إلا خلاف له حظ من النظر »  
وقد جرى هذا البيت مجرى الأمثال عند أهل العلم .

### ٦ - أنواع السور المكية والمدنية

قد تكون السورة كلها مكية ، وقد تكون كلها مدنية ، وقد تكون السورة  
مكية ما عدا آيات منها ، وقد تكون مدنية ما عدا آيات منها ، فتلک أربعة أنواع :  
مثال النوع الأول سورة المدثر فإنها كلها مكية . ومثال الثاني سورة آل عمران  
فإنها كلها مدنية ، ومثال الثالث سورة الأعراف فإنها مكية . ما عدا آية « وَاسْأَلْهُمْ  
عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ » قاله قتادة . واستثنى غيره هذه الآية  
المذكورة وما بعدها من الآيات إلى قوله سبحانه : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ »  
وقال : إن تلك الآيات مدنية . ومثال النوع الرابع سورة الحج فإنها مدنية ما عدا  
أربع آيات منها ، بتبدىء بقوله سبحانه « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ  
إِلَّا إِذَا تَمَعْنَى » إلى قوله « عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ » .

واعلم أن وصف السورة بأنها مكية أو مدنية ، يكون تبعاً لما يغلب فيها ، أو تبعاً  
لما فتحها ، فقد ورد أنه إذا نزلت فاتحة سورة بمكة مثلاً كتبت مكية ، ثم يزيد الله فيها  
ما يشاء . ولعل الأنسب بالاصطلاح المشهور في معنى المكي والمدني أن يقال : إذا  
نزلت فاتحة سورة قبل الهجرة كتبت مكية ، وإذا نزلت فاتحة سورة بعد الهجرة  
كتبت مدنية ثم يذكر المستثنى من تلك السور إن كان هناك استثناء فيقال : سورة  
كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، أو سورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية  
أو نحو ذلك ، كما تراه في كثير من المصاحف عنواناً للسورة .

وقد بذل العلماء همةً جبارةً في استقصاء حال ما نزل من السور والآيات حتى لقد قال أبو القاسم النيسابوري في كتاب التنبية على فضل علوم القرآن مانصه : « من أشرف علوم القرآن ، علم نزوله ، وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي ، وما نزل بمكة في أهل اللدينة ، وما نزل بالمدينة في أهل مكة ، وما يشبه نزول المكّي في اللدني ، وما يشبه نزول اللدني في المكّي ، وما نزل بالبحفة ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف وما نزل بالحدّية ، وما نزل ليلا ، وما نزل نهاراً ، وما نزل مشيماً ، وما نزل مفرداً ، والآيات اللدنيات في السور المكّية ، والآيات المكّيات في السور اللدنية ، وما حل من مكة إلى المدينة ، وما حل من المدينة إلى مكة ، وما حل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مجّلاً ، وما نزل مفسّراً ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : مكّي وبعضهم مدني ، فهذه خمسة وعشرون وجهاً ، من لم يعرفها ويميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلم في كتاب الله تعالى » ١ هـ .

قال السيوطي بعد أن أورد هذا : وقد أشبعت الكلام على هذه الأوجه ، فمنها ما أفردته بنوع ، ومنها ما تكلمت عليه في ضمن بعض الأنواع . ١ هـ وجزام الله أحسن الجزاء .

### وَجُوهٌ تَتَلَقَّى بِالْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ

نبه السيوطي عند كلامه في هذا البحث إلى أن هناك وجهاً في المكّي واللدني - منها ما تستطيع أن تفهمه مما قصصناه عليك آنفاً . ومنها ما يشبه تنزيل اللدني في السور المكّية ، في قوله تعالى في سورة النجم : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعَمَ » قال السيوطي في توجيهه ما نصه : « فإن الفواحش كل ذنب فيه حدٌّ ، والكبائر كل ذنب عاقبته النار ، واللّم ما بين الحدّين من الذنوب ، ولم يكن بمكة حدٌّ ولا نحوه » ١ هـ . لكن فيه نظر من وجهين : ( أحدهما ) أن تفسير الفواحش بما ذكر غير متفق عليه ،



بل فسرها غيره بأنها الكبائر مطلقاً . وفسرها آخر بما يكبر عقابه دون تخصيص بمحد .  
وفسرها السيوطي نفسه في سورة الأنعام بأنها الكبائر . ( والثاني ) أن بعضهم يستثنى  
هذه الآية من سورة النجم المكية ، وينص على أنها مدنية .

ومنها : ما يشبه تنزيل المسكى في السور المدنية ، نحو سورة « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » ،  
وكتوله سبحانه في سورة الأنفال المدنية : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ  
مِنْ عِنْدِكَ » الخ . وفي هذا نظر أيضاً ؛ فإن المعروف أن سورة « والعاديات » من  
السور المكية كما سبق ، وأن آية « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ » الخ منصوص على أنها نزلت  
بمكة ، كما نقل السيوطي نفسه عن مقاتل ، وقال : إنها مُسْتَثْنَاةٌ من سورة الأنفال المدنية .  
بل نص بعضهم على أن هذه الآية مع آيتين قبلها وأربع بعدها كلها مكيات مستثنيات  
من سورة الأنفال المدنية .

ومنها : ما حُجِلَ من مكة إلى المدينة ، نحو سورة يوسف وسورة الإخلاص وسورة سبح .

ومنها : ما حُجِلَ من المدينة إلى مكة ، نحو آية الربا في سورة البقرة المدنية ، وصدر

سورة التوبة المدنية .

ومنها : ما حُجِلَ إلى الحبشة نحو سورة مريم ، فقد صحَّ أن جعفر بن أبي طالب

قرأها على النجاشي .

ومنها : ما حُجِلَ إلى الروم كتوله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران : « قُلْ

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الآية .

وأنت خبير بأن الاصطلاح المشهور في المسكى والمدني ينظم كل ما نزل سواء أكان

بمكة والمدينة ، أم بغيرها كالحجفة ، والطائف ، وبيت المقدس ، والحديبية ، ومِنَى ،

وعرفات ، وعُسفان ، وتَبُوك ، وبدر ، وأحد ، وحراء ، وحراء الأسد . وتفصيل ذلك

يخرج بنا إلى حدِّ الإطالة ، فناهيك ما ذكرنا . « واللييب تكفيه الإشارة » .

## فروق أخرى بين المكي والمدني

توجد فروق أخرى بين المكي والمدني، غير ما قد مناه في ضوابطهما وهذه الفروق فيها دقة عن تلك، لتعلقها في مجموعها بأمر معنوية وبلاغية. ثم إن أعداء الإسلام قد صاغوا عن طريق بعضها شبهات سددوا سهامها إلى القرآن الكريم لذلك أفردناها بعنوان، توطئة لنقض تلك الشبهات « وَقَبْلَ الرَّمِيِّ بُرَاشُ السَّهْمِ ».

ونذكر من خواص القسم المكي أنه قد كثر فيه ما يأتي :

(أولاً) أنه حمل حلة شعواء على الشرك والوثنية، وعلى الشبهات التي تدرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب، وأتام بكل دليل، وحاكهم إلى الحس، وضرب لهم أبلغ الأمثال، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة الزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب، وقال: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »

ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آباؤهم، نعى عليهم أن يمتحنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الذلة للأحجار والأصنام، وسفه أحلامهم وأحلام آباؤهم الذين أهلوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله في الآفاق، وقبح إليهم الجود على هذا التقليد الأعمى للأباء والأجداد « أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ». وناقشهم كذلك في عقائدهم الضالة التي نجمت عن تلك الوثنية من جُحود الإلهيات والنبوءات، وإنكار البعث والمسئولية والجزاء.

(ثانياً) أنه فتح عيونهم على مافي أنفسهم من شواهد الحق، وعلى مافي الكون من أعلام الرشد، وأنوع لهم في الأدلة وتفنن في الأساليب، وقاضاهم إلى الأوليات

والمشاهدات ، ثم قادم من وراء ذلك قيادةً راشدةً حكيمةً ، إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته ، والإيمان بالبعث ومسئوليته ، والجزاء العادل ودقيقته ، ثم التسليم بالوحي وبكل ما جاء به الوحي من هدى الله في الإلهيات والنبوءات والسمعيات في العقائد على سواء .

(ثالثاً) أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة ، كالقتل ، وسفك الدماء ، ووأد البنات ، واستباحة الأعراض ، وأكل مال الأيتام . فلقت أنظارهم إلى مافى ذلك من أخطار ، وما زال بهم حتى طهرهم منها ، ونجح في إبعادهم عنها .

(رابعاً) أنه شرح لهم أصول الأخلاق ، وحقوق الاجتماع ، شرحاً مجيباً كرهه إليهم الكفر والفسوق والمصيان ، وفوضى الجهل ، وجفاء الطبع ، وقذارة القلب ، وخشونة اللفظ ، وحبب إليهم الإيمان والطاعة ، والنظام ، والعلم ، والحجة ، والرحمة ، والإخلاص ، واحترام الغير ، وبر الوالدين ، وإكرام الجار ، وطهارة القلوب ، ونظافة الألسنة ، إلى غير ذلك .

(خامساً) أنه قص عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة ، مافيه أبلغ الموعظ وأنفع العبر ، من تقرير سُنَّته تعالى الكونية في إهلاك أهل الكفر والظلم ، وانتصار أهل الإيمان والإحسان ، مهما طالت الأيام وامتدَّ الزمان ، ماداموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان .

(سادساً) أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه ، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات ، صغيرة السور . لأنهم كانوا أهل فصاحةٍ ولسن ، صناعتهم الكلام ، وهمتهم البيان ؛ فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب .

كما أن قانون الحكمة العالية ، قضى بأن يسلك سبيل التدرُّج والارتقاء في تربية الأفراد ، وأن يقدم الأهم على المهم . ولا ريب أن العقائد والأخلاق والعادات ،

أهم من ضروب العبادات ودقائق المعاملات ، لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية ؛ لذلك  
كثُر في القسم المسمى التحدث عنها والعناية بها كما علمت في الخواص الماضية جريباً على  
سنة التدرج من ناحية ، وتقديماً للأهم على المهم من ناحية أخرى .  
أما خواص القسم المدني ، فنذكر منها أنه قد كثُر فيه ما يأتي :

( أولاً ) التحدث عن دقائق التشريع ، وتفاصيل الأحكام ، وأنواع القوانين المدنية  
والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية ، والحقوق الشخصية ، وسائر ضروب العبادات  
والمعاملات . انظر - إن شئت - في سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال والقتال والفتح  
والحجرات ونحوها .

( ثانياً ) دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام ، ومناقشتهم  
في عقائدهم الباطلة ، وبيان جناياتهم على الحق ، وتحريفهم لكتب الله ، ومحاكمتهم  
إلى العقل والتاريخ . اقرأ - إن شئت - سورة البقرة وآل عمران والمائدة والفتح  
ونحوها .

( ثالثاً ) سلوك الإطناب والتطويل في آياته وسوره . وذلك لأن أهل المدينة  
لم يكونوا يضايقون أهل مكة في الذكاء والألمية وطول الباع في باحات الفصاحة والبيان ؛  
فيناسبهم الشرح والإيضاح ، وذلك يستمتع كثيراً من البسط والإسهاب ؛ لأن دستور  
البلاغة لا يقوم إلا على رعاية مقتضيات الأحوال ، وخطاب الأغبياء بغير ما يُخاطب به  
الأذكياء . « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

## نقض الشبهات التي أُثيرت

حول هذا الموضوع

قلنا ونقول : إن أعداء الإسلام كثيرون ، وإنهم يتربصون به الدوائر ، وينتهزون كل فرصة ليسدّوا إليه سهام المطاعن . وإن من واجبنا أن نحْمِي العَرَبِينَ ونقوم بواجب الدفاع في هذا المعمان ، ولن يتسنى ذلك إلا إذا تسلّحنا بجميع الأسلحة ، وفي مقدمتها دراسة تلك الشبهات التي يحرقون بخورها في مصر وغير مصر حتى لشبابنا المتعلم ، في بعض الدروس والكتب التي يزعمون أنها أدبية . وقد شهدت مصر وقتاً ما معركةً حامية الوطيس دارت رحاها حول أمثال هذه الشبهات التي نسوقها إليك ، فافتحْهَا عَنَوَةً ، وخذْهَا بِقُوَّة .

ولا حول ولا قوة إلا بالله . وما أجل أن نردّد قول الشاعر :

« أَنَا لَا أَلُومُ الْمُسْتَعِيدَ      دَ إِذَا نَعَمْتَ أَوْ تَعَدَّى  
فَسَبِيلُهُ أَنْ يَسْتَعِيدَ      دَ وَشَأْنُنَا أَنْ نَسْتَعِيدَا »

## الشبهة الأولى وفي طيها شبهات

يقولون : إن الباحث الناقد ، يلاحظ أن في القرآن أسلوبيين متعارضين ، لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة ، وتأثر ببيئات متباينة ؛ فنرى أن القسم المكي منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، كما نشاهد القسم المدني منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة . فالقسم المكي يتفردُ بالعنف والشدة ، والقسوة والحدة ، والغضب ، والسياب ، والوعيد والتهديد مثل سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » وسورة « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » وسورة « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ » ومثل « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ \* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » .

والجواب : أن هذه الشبهة تتألف من شبهات أربع ، وإن شئت فقل : تتألف من مقدمات ثلاثٍ كواذب ، تتأذى ، أو يريد صاحبها أن يتأذى بها إلى نتيجة هي الأخرى كاذبة .

فأما المقدمات الثلاث الكواذب فهي أن القسم المكي تفردُ بالعنف والشدة ، وأن فيه سباباً وإقذاعاً ، وأنه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة . وأما النتيجة أو الهدف الذي يرمى إليه فهو أن القرآن مفككُ الأجزاء ، غيرُ متصل الحلقات ، وأنه خاضعٌ للظروف ، متأثرٌ بالبيئة .

وغيرهم من هذا معروفٌ طبعاً ، وهو أن القرآن ليس كلام الله وليس معجزاً إنما هو كلام محمد الذي تأثر أولاً بأهل مكة فكان كلامه خشناً بعيداً عن المعارف العالية التي اكتسبها من أهل الكتاب في المدينة .

ذلك كله ما يجب أن نحمل عليه انتقاد أولئك المضللين ، فإن قرينة عداوتهم لاحق

وخصوصتهم للإسلام ، ونقدمهم للقرآن ، تبعاً لكلامهم عن كل تأويل حسن ، وتحمله على أسوأ فروضه .

ولذات لك على بيان هذه الشبهة من القواعد ، لتعلم إغراقها في البطلان وإغراق ذويها في الكذب والإسفاف .

(١) - فأما قولهم : إن القسم المكي قد تفرّد بالعرف والشدة فينقضه أن في القسم المدني شدةً وعنفاً ، فدعوى تفرّد القسم المكي بذلك باطلة ، قال تعالى في سورة البقرة وهي مدنية : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » وقال فيها أيضاً « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ آرْبَابًا لِأَيُّقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » وقال فيها أيضاً : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ آرْبَابِ الْإِنْسَانِ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وقال سبحانه في سورة آل عمران - وهي مدنية كذلك - « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ . كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَابُونَ وَمُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » .

وإنما اشتمل القرآن الكريم بقسميه المكي والمدني على الشدة والعنف ، لأن ضرورة التربية الرشيدة ، في إصلاح الأفراد والشعوب ، وسياسة الأمم والدول ، تقضي أن يمزج المصلح في قانون هدايته ، بين الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد والشدة واللين .

ثم إن دعواهم انفراد المكي بالعنف والشدة ، يفهم منه دعوى انفراد المدني

باللين والصفح ، ودعوى خلواً للمكى من ذلك اللين والصفح. وهذا المفهوم باطل كمنطوقه  
أيضاً. ودليل ذلك أن بين السور المكية آيات كريمة تفيض لينا وصفحاً، وتقطر سماحةً  
وعفواً ، بل تنادى أن تقابل السيئة بالحسنة ، كما في قوله سبحانه في سورة فصلت المكية:  
« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .  
وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ  
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا  
ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . »

وكما في قوله سبحانه من سورة الشورى المكية : « فَمَا أُوَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .  
وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِنَّمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ  
اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .  
وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا  
وَأَصْلَحَ فَاجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ  
مَّا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ  
بِعَدْوٍ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ  
الْأُمُورِ . »

وكذلك قوله سبحانه في سورة الحجر المكية : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ  
وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ  
وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » : إلى آخر السورة . ومثله قول الله جلَّت قدرته في سورة  
الزمر المكية : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ،  
إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . »



(٢) وأما زعمهم أن في القسم المسكى سبباً، ويريدون من السبب معناه المعروف عندهم من القحّة والبذاءة، والخروج عن حدود الأدب واللياقة، فقد «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً». ونحن نتحدّاهم أن يأتوا بمثال واحد في القرآن كله، مكّية ومدنيّة، يكون من هذا اللون القذر الرخيص. وهل يعقل أن القرآن الذي جاء يعلم الناس أصول الآداب، يخرج هو عن أصول الآداب إلى السبب؟ كيف وقد حرم على أتباعه المسلمين أن يسبوا أعداءه المشركين؟ فقال في سورة الأنعام: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ».

نعم إن في القرآن كله لا في القسم المسكى وحده تسفيهاً لأحلام المتنظمين، الذين يَصِمُّون آذانهم، ويفمضون أعينهم عن الحق، ويهملون الحجج والبراهين، وهو في ذلك شديد عنيف، بيد أنه في شدّته وعنفه، لم يخرج عن جادة الأدب، ولم يعقل عن سنن الحق، ولم يصدف عن سبيل الحكمة. بل الحكمة تتقاضاه أن يشتدّ مع هؤلاء، لأنهم يستحقّون الشدّة، ومن مصلحتهم، هم، ومن الرحمة بهم، والخير لهم، أن يشتدّ عليهم ليرعوا عن باطلهم، ويصيخوا إلى صوت الحق والرشد، ويسيروا على هدى الدليل والحجة، على حد قول القائل:

«فقساً ليزدجروا. ومن بك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم»  
أضف إلى ذلك أن هذا التفريع الحكيم تجده في السور المدنيّة، كما تجده في السور المكيّة. وإن كان في المسكى أكثر من المدني، لأن أهل مكة كانوا أشدّاء العارضة، صعاب المرائي، مسرفين في العناد والإباء، لم يتركوا باباً من الشر إلا دخلوه على الرسول وأصحابه، ولم يكفهم أن يخرج من بلده وأهله لبليل، بل وجهوا إليه الأذى في مهاجره.

والشاهد على أن في السور المدنية تنويماً عنيماً أيضاً عند للناسبات قوله سبحانه  
من سورة البقرة للمدنية في شأن المشركين: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ  
أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ  
غِشَاوَةٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» وقوله من سورة البقرة أيضاً في شأن المنافقين «وَمِنَ النَّاسِ  
مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» إلى تمام ثلاث عشرة آية مليئة  
بالتوبيخ والتعنيف لتلك الحشرات الآدمية ، الذين ينفثون سموهم ، ويفسدون  
المجتمع بسلاحٍ خطير ذي جذبين هو سلاح النفاق والذبذبة . وكذلك تقرأ في هذه  
السورة المدنية نفسها في شأن اليهود آيات كثيرة من هذا الطراز، تنقدهم وتنعى جرائمهم،  
وتحمل عليهم حلة شعواء ، تبيحاً لجناياتهم وجنابات آباؤهم من قبلهم . مثل قوله  
سبحانه: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلِ مِنَ النَّاسِ  
وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ  
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ» ومثل  
قوله «بِسْمِ اللَّهِ اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ  
عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ» .  
ومثل قوله تعالى في شأن النصارى من سورة آل عمران: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى  
إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ  
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَدُّهُمْ غَداً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ  
مِنْ نَاصِرِينَ» الخ . وقوله فيهم أيضاً من هذه السورة: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ  
إِيمَانِهِمْ ثُمَّ زَادُوا كُفْرًا أَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ» الخ .

أما السور والآيات التي اعتمدت عليها الشبهة ، فلا تدلُّ على ذلك السبب الذي زعموه ووصموا به القرآن الكريم ، لأن سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » غاية ما اشتملت عليه أنها إنذارٌ ووعيدٌ لأبي لهب وامرأته ، جزاء ما أساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه ، كما يدلُّ على ذلك سبب نزولها: أخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس قال : لما نزلت « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى : يا بني فهرٍ يا بني عدوي ، لبطون قريش حتى اجتمعوا . فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقني؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ . فقال أبو لهب : تباً لك ، أهدأ جمعنا؟ فنزلت .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن زيد أن امرأة أبي لهب كانت تأتي بأغصان الشوك تطرحها بالليل في طريق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وروى عن مجاهد أنها كانت تمشي بالنخيلة .

فهذه الأسباب مجتمعة تفيد أن السورة نزلت لمقابلة أبي لهب بما يستحق من إنذاره بالهلاك والقطيعة ، وأن ماله لا ينفعه ولا كسبه ، وأنه خاسر هو وامرأته ، وأن مصيرهما إلى النار وبئس القرار .

ولا ريب أن في هذا الوعيد العنيف ردعاً له ولأمثاله ، وتسلياً لمن أصيب بأذى من الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وذلك هو اللائق بالعدالة الإلهية ، والتربية الحكيمة الربانية .

« ووضعُ الندى في موضعِ السيفِ بالعلأ

مضراً كوضعِ السيفِ في موضعِ الندى »

وأما سورة « والعصر » فليس فيها سبب ولا ما يشبه السبب . وكل ما عرضت له

أنها جعلت الناس قسمين : قسماً غريقاً في الخسران ، وقسماً فاز ونجا من هذا الخسران ، وهم الذين جمعوا عناصر السعادة الأربعة . اقرأ قوله سبحانه : « وَالْمَصْرِيحُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ » فهل ترى فيها ظلاً للسباب والإقذاع ؟ ولكن القوم لا يستمعون ! .

وأما سورة « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ » : فبلغ ما تشير إليه ، أن المخاطبين شغلهم الدنيا عن الدين ، وأنهم الأموال عن رب الأموال ، حتى انتهت أعمارهم وهم على هذه الحال . وَغَدَّأ يُسْأَلُونَ عَنِ النِّعَمِ ، وَيُعَاقَبُونَ عَلَى إِهْمَالِ شُكْرِهِ بِعَذَابِ الجَحِيمِ .

وأما قوله سبحانه : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » ، فهو حكاية لما حلَّ بالأمم السابقة كشمود وعادي ، حين طغوا في البلاد ، فأكثر وافيهما الفساد ، ليكون من هذا القمص والخبر ، عبرةً لأولئك الكفار ومُزْدَجَرٍ ، فلا يقنوا فيما وقع فيه أسلافهم ، لأنَّ سُنَّةَ الله واحدةٌ في الأمم ، وميزان عدالته قائم في كل جيل وقبيل . « أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ ، أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ »

### الخلاصة

والخلاصة أن القرآن كله قام على رعاية حال المخاطبين ، فتارةً يشتدُّ وتارةً يلين ، تبعاً لما يقتضيه حالهم ، سواء منهم مكثيهم ومدنيهم ، بدليل أنك تجد بين ثنايا السور المسكية والمدنية ، ما هو وعد ووعيد وتسامح وتشديد ، وأخذ ورد ، وجذب وشد ، كما سبق لك في الأمثلة والشواهد الكثيرة . وإذا لوحظ أن أهل مكة كثر خطابهم بالشدَّة والعنف ، فذلك لما مرَدوا عليه من أذى الرسول وأصحابه والكيدهم حتى أخرجوهم من أوطانهم . ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا إليهم الأذى في مهاجرهم .

وكان القرآن في حملته عليهم وعلى أمثالهم بالقول ، بعيداً عن كل معاني السباب والإقذاع، مقدرعاً بالحكمة والأدب الكامل في الإرشاد والاقناع، حائثاً على الصبر والعفو والإحسان ، حتى ليخاطب الله رسوله في سورة الأنعام المكيّة بقوله : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا وَحَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ . وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » .

### إظاهرة مسكته

على أننا نلاحظ في آفاق الآيات والسور المكيّة، ظاهرة باهرة، تسكت كل معانيد ، وتفصح كل مكابر في هذا الموضوع . وهي أن القسم المكي خلا خلوّاً تاماً من تشريع القتال والجهاد والمحاشنة، كما حلت أيامه في مكة على طولها من مقاتلة القوم بمثل ما يأتون من التنكيل والمصاولة ؛ فلم يُسمع للمسلمين فيها صلصلةً لسيف ، ولا قعقةً لسلاح ، ولا زخف على عدو . إنما هو الصبر والعفو والحجامة والمحاشنة، بالرغم من إيغال الأعداء في أذاهم ، ولجاجهم في عُتُوهم وأسأهم، سباً وطمناً، وقتلاً ونهباً، ومقاطعةً ومهاجرةً، ومصاولةً ومكابرةً .

(٣) - وأما زعمهم أن القسم المكي يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة فهو

مردودٌ عليهم ، باطلٌ من كل باب دخوله ، وعلى أي وجه أرادوه ؛ لأنهم إن أرادوا بذلك ماتوهوه من انفرادة بالشدة والعنف ، أو السباب والإقذاع ، فقد علمت مبلغ

ما فيه من كذب وافتراء وجهالة بما جاء في القرآن من ترغيب وترهيب ، في شطريه المسكى والمدنى على السواء .

وإن أرادوا بالمحطاطه الإشارة إلى قصر آياته ، أو إلى خلوه من التشريعات التفصيلية العملية فهذا لا يدلُّ على الانحطاط ، بل قصر الآيات والخلو من تفاصيل التشريع لها وجه آخر يظهر عند الكلام عليهما في الشبهات الآتية :

وإن أرادوا بما ذكروا أن أهل مكة كانوا منحطين في الفصاحة والبيان والذكاء والألمعية ، فتلك ثلاثة الأتافي ، لأن التاريخ شاهد عدل بأن قريشا كانت في مركز الزعامة من جميع قبائل العرب ، يصدرون عن رأيها ، ويرجعون إلى حكمها ، وبأخذون عنها ، ويركبون ظهور الإبل إليها ، وينزلون على قولها فيما يملو وينزل من منظوم ومنثور ، ويدعون لها بالسبق في مضمار الفصاحة والبلاغة ، والذكاء والألمعية ، والشرف والنبيل . وكان لها هذا الامتياز من قبل الإسلام . ثم دام لها وزاد عليها في الإسلام . واعترف لها به أهل المدينة وغيرهم من عرب وأعجم .

ثم إن وصف القسم المسكى بميزات الأوساط المنحطة ، تهمة جريئة وطعنة طائشة ، وأكذوبة مكشوفة ، ما رضيتها لأنفسهم أعداء الإسلام في فجر دعوته من مشركين وأهل كتاب ، وعرب وعجم ، وأميين ومثقفين ، على حين أن أولئك العرب كانوا على أميَّتهم أعرف الناس بالخطاط الكلام ورُقَّيه ، وعلوّه ونزوله . كما كانوا أحرص الناس على إخراج محمد ، ودحض حجته ، ونقض دينه ، والقضاء على الإسلام في مهده . ولكن سجيَّتهم لم تسمح بهذا الهراء الذي يهزِّف به الملاحدة في القسم المسكى من القرآن . بل نعلم بجانب هذا أن القرآن كان له سلطان على نفوسهم إلى حدِّ خارقٍ مدهش ، يقودهم بقوة إلى الإسلام ، ويدفع المعاند منهم إذا استمع إليه أن يسجد لبلاغته ، ويهتزُّ لفصاحته ، وأن يأخذ نفسه بالتشاغل عنه مخافة أن يؤمن عن طريق تأثره بسماعه !

وأما زعمهم انقطاع الصلة بين القسم المكي والمدني والتعارض بين أسلوبيهما ، فهو زعمٌ ساقطٌ مبنيٌّ على الاعتبارات الخاطئة الماضية التي أثبتنا بطلانها . ثم هو دعوى حاجنة ، يكذبها الواقع ، ويُفندُّها الذوق البلاغيُّ المنصف . وأدلُّ دليلٌ على ذلك ، أن أساطين البلاغة من أعداء الإسلام في مكة نفسها أيام نزول القرآن لم يستطيعوا أن يتهموا أساليب التنزيل بمثل هذا الاتهام ولا كذباً ، لأنهم كانوا أعقل من ملاحدة اليوم ، يرون أن هذا الاتهام يكون كذباً مكشوفاً وافتراءً مفضوحاً . بل هذا وحيدهم الوليد بن المغيرة يقول للملأ من قريش : « والله لقد سمعتُ من محمدٍ أنفكاً كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنِّ ، إن له الحلاوة ، وإن عليه لطلاوةً ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى » .

ولما قالت قريش عندئذ : صَبأً والله الوليد ، واحتملوا عليه أن يطعن في القرآن ، لم يجد حيلة إلا أن يقول : « إن هذا إلا سِحْرٌ يؤثر » . ولم يستطع أن يرمى القرآن بالتهافت والتخاذل ، وانقطاع الصلة بين أجزائه وانحطاط شيء من أساليبه ، على نحو ما يُرجف أولئك الخرافصون . « وَاللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا يُبَيِّنُونَ » .

٤ - وإذا بطل هذا وماسيةه ، بطل ما زعموه من تأثير القرآن بالوسط والبيئة ، ومارتبوه عليه من أنه كلام محمد لا كلام رب العزة . ثم لإنها اتهامات سخيفة لا تستحق الرد ، مادام إيجاز القرآن قائماً ، يتحدَّى كل جيل وقبيل ، ويُفحم كل معارض ومكابر . وليبحث إيجاز القرآن مجال آخر عسى أن يكون قريباً .

ولولا أن الشبيبة الحاضرة من أنصاف المتعلمين وأشباههم ، ينخدعون بمثل هذه الترهات ، ما أتعبنا أنفسنا في علاجها ولا أتعبتك ، فاصبر معنا على دفع هذا المصاب ، والله يتولى هدايتنا وهداك .

## الشبهة الثانية

يقولون : إن قصر السور والآيات المكية مع طول السور والآيات المدنية ، يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكي والقسم المدني ، ويدل على أن القسم المكي يمتاز بمميزات الأوساط المنحطة ، ويدل على أن القرآن في نمطه هذا نتيجة لتأثر محمد بالوسط والبيئة ، فلما كان في مكة أمياً بين الأمين جاءت سور المكي وآياته قصيرة ، ولما وجد في المدينة بين مثقفين مستنيرين ، جاءت سور المدني وآياته طويلة ، وغرضهم من إلقاء هذه الشبهة التشكيك في أن القرآن من عند الله « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيمَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »

ونقض شبهتهم هذه بما يأتي :

أولاً - أن في القسم المكي سوراً طويلةً مثل سورة الأنعام ، وفي القسم المدني سوراً قصيرةً مثل سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » فكلامهم لا يسلم على عمومهم .

ثانياً - إذا أرادوا الكثرة الغالبة لا الكلية الشاملة فهذا نسله لهم ، بيد أنه لا يدل على ما افتروه ورتبوه عليه ، لأن قصر معظم السور المكية وآياتها ، وطول معظم السور المدنية وآياتها ، لا يقطع الصلة بين قسمي القرآن : مكيه ومدنيه ، ولا بين سور القرآن وآياته جميعاً . بل الصلة كما يحسنها كل صاحب ذوقٍ في البلاغة ، محكمةٌ وشائعةٌ بين كافة أجزاء التنزيل . وقد تفنن العلماء وأشبعوا الحديث عن هذه المناسبات في غضون تفسيرهم لكتاب الله . وتقدم تقرير هذا التماسب البارع في صفحة ٨١

على أنك تلاحظ آيات مكية منبثةً بين آيات سور مدنية ، وتلاحظ آيات مدنية منبثةً بين آيات سور مكية . وبرغم ذلك لا يكاد أحد يحس التفاوت أو التفكك



والانقطاع ، بل يروعك ما بين الجميع من جلال الوحدة ، وكال الاتصال وجمال التناسق والانسجام ، مما يجعل القرآن كله على طوله ، سلسلة واحدة محكمة متصلة الحلقات ، أو عقداً رائعاً أخذاً منتظماً الحبات ، أو قانوناً رصيناً مترابط المبادئ والغايات .

ثالثاً - أن قصر السور والآيات المسكية ، لا يدل على مازعموه من امتياز القسم المسكى بمميزات الأوساط المنحطة ، بل القصر مظهر الإيجاز ، والإيجاز مظهر رُقِّ الخطاب ، وآية فهمه وذكائه ، بحيث يكفيه من الكلام موجزه ، ومن الخطاب أقصره . أما من كان دونه ذكاء وفهماً ، فلا سبيل إلى إفادته إلا بالإسهاب والبسط ، إن لم يكن بالمساواة والتوسط .

ولهذا المعنى جاء قسم القرآن المسكى قصيراً موجزاً في معظمه ، وجاء قسم المدنى طويلاً مسهباً في أكثره . ويرجع ذلك إلى ما أشرنا إليه قبلاً من أن القرشيين في مكة كانوا في الذؤابة من قبائل العرب ، ذكاء وألمعية وفصاحة وبلاغة ، وشرقاً وشجاعة فلا بدع أن يخاطبهم القرآن بالقصير من سوره وآياته ، رعايةً لحق قانون البلاغة والبيان ، في خطاب الذكى النابه ، بغير ما يخاطب به من كان دونه . ولا يقدح في مزايا المسكين هذه أنهم كانوا أميين لم يستنبروا بثقافة المدنيين ، فلثقافة والاستنارة ميدان ، ولذكاء والنمهر في البيان ميدان ، وأهل المدينة لم يكونوا على استنارتهم ليلغوا شأن قريش في تلك الخصائص والمزايا ، وكان منهم أهل كتاب درجوا على ألا يستفيدوا إلا بالتطويل ، ولا يقنعوا إلا ببسط الكلام .

ومن هنا تعرف مبلغ ما في هذه الشبهة من زيف وكذب فيما رتبوه على هذا من أن القرآن كان نتيجة لتأثر محمد بنحطاط أهل مكة في القسم المسكى ، وباستنارة أهل المدينة في القسم المدنى ، حتى جاء قرآنه قصيراً في الأول ، وطويلاً في الثاني .

رابعا - أن القرآن قد تحدّى الناس جميعا مكيبهم ومدنيهم وعريبيهم وعجميهم ، أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة من تلك السور القصيرة ، فمجزوا أجمعين ، وأسلم المنصفون منهم لله رب العالمين . فلو كان القصر أثرأ للانحطاط كما يقول أولئك المرجفون ، لكان في مقدور المتأز غير المنحط أن يأتي بمثل ذلك المنحط ، بل بأرقى منه « سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

وإذا أراد أولئك المتقولون ، أن يملوا القصر والطول بأن المسكى لم يتعرض لتفاصيل التشريع بخلاف المدني ، فإليك هذه الشبهة وتمحيصها فيما يليك .

### الشبهة الثالثة

يقولون : إن القسم المسكى خلا من التشريع والأحكام ، بينما القسم المدني مشعور بتفاصيل التشريع والأحكام . وذلك يدل على أن القرآن من وضع محمد وتأليفه تبعا لتأثره بالوسط الذى يعيش فيه ، فهو حين كان بمكة بين الأميمين جاء قرآنه المسكى إخاليا من العلوم والمعارف العالية ، ولما حل بالمدينة بين أهل الكتاب المثقفين جاء قرآنه المدني مليئا بتلك العلوم والمعارف العالية .

وننقض هذه الشبهة : ( أولا ) - بأن القسم المسكى لم يخلُ جملة من التشريع والأحكام ، بل عرض لها وجاء عليها ، ولكن بطريقة إجمالية ، فإن مقاصد الدين خمسة : (١) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره (٢) وحفظ النفس (٣) وحفظ العقل (٤) وحفظ النسل (٥) وحفظ المال . وقد تحدّث القسم المسكى عنها إجمالا . اقرأ إن شئت قوله تعالى من سورة الأنعام المكية « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » إلى تمام ثلاث آيات بعدها ، جمعت الوصايا العشر لهذه المقاصد الخمسة . ولا يخفى عليك أن آيات المقائد فى القسم المسكى ظاهرة واضحة ، وكثيرة شائعة ،

ليست من موضوع الاشتباه ، ولا يختلف اثنان في أنها أكثر من مثيلاتها في السور  
المدينة بأضعاف الأضعاف .

(ثانياً) - أن كثرة التفاصيل في تشريع الأحكام بالمدينة ، ليس نتيجة لما زعموه .  
إنما هو أمر لابد منه في سياسة الأمم ، وتربية الشعوب ، وهداية الخلق . ذلك أن الطفرة  
حليفة الخلية والفشل ، والتدرج حليف التوفيق والنجاح ، وتقديم الأهم على المهم واجب  
في نظر الحكمة . لهذا بدأ الله عباده في مكة بما هو أهم : بداهم بإصلاح القلوب  
وتطهيرها من الشرك والوثنية وتقويمها بمقائد الإيمان الصحيح والتوحيد الواضح ،  
حتى إذا استقاموا على هذا المبدأ التويم ، وشعروا بمسئولية البعث والجزاء ، وتقررت  
فيهم هذه العقائد الراشدة ، فطمهم عن أقبح العادات وأرذل الأخلاق ، وقادهم إلى أصول  
الآداب وفضائل العادات ، ثم كلفهم ما لا بد منه من أمهات العبادات . وهذا ما كان  
في مكة . ولما مروا على ذلك ، وتهيات نفوسهم للترقى والسكال ، بتطاول الأيام والسنين ،  
وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة ، جاءهم بتفاصيل التشريع والأحكام ، وأتم عليهم  
نعمته ببيان دقائق الدين وقوانين الإسلام .

ونظير ذلك ما تواضع عليه الناس قديماً وحديثاً في سياسة التعليم ، من أنهم يلقنون  
البادئين في مراحل التعليم الأولى أخف المسائل وأجزءها ؛ فيما يشبه قصار السور ، ويختصر  
القصص ، حتى إذا تقدمت بهم السن وعظم الاستعداد ، تلاطم بحر التعليم وزاد ، على  
حد قولهم : « الإمداد على قدر الاستعداد » .

أما ما زعموه من أن ذلك كان نتيجة لاختلاط محمد بأهل المدينة المسننين ؛  
فيمتضه أن القرآن جاء يصلح عقائد أهل الكتاب وأخطاهم في التشريع وفي التحليل  
والتحريم ، وفي الأخبار والتواريخ ، فكيف يأخذ المصيب من المخطيء ؟ وهل

يستمدُّ الحى حَيَاتِهِ مِنْ مَيِّتٍ مُطْفِرٍ إِنْ شِئْتَ قَوْلُهُ تَعَالَى: « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الخ . وقوله جل ذِكْرُهُ: « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ؟ » الخ وقوله عز اسمه: « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ » الخ وهذه الآيات من سورة آل عمران . وقوله تعالَتْ قدرته من سورة المائدة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ » الخ .

( ثالثاً ) أن مازعموه لو كان صحيحاً ، لظهر أثرُ أهل الكتاب المدنيين فيمن معهم من عرب أهل المدينة ، وفيمن حولهم من أهل مكة وآفاق الجزيرة ، ولكانوا هم الأخرى بآء بهذه النبوة والرسالة ، ولسبق محمداً إليها كثيرٌ غيره من فصحاء العرب وتجّار قريش الذين كانوا يختلطون بأهل الكتاب في المدينة والشام أحياناً اختلاطاً .

( رابعاً ) أن القرآن تحدّى الكافة من مكيين ومدنيين ، بل من جن وإنس ، فهلاً كان أساتذته أولئك يستطيعون أن يُجاروه ولو في مقدار سورة قصيرة واحدة إياها فرية ! ثم يالها صفاقة !

« هَذَا كَلَامٌ لَهُ خَبِيءٌ مَعْنَاهُ : لَيْسَتْ لَنَا عُقُولٌ »

### الشبهة الرابعة

يقولون : إن القرآن أقسم كثيراً بالضحى والليل ، والتين والزيتون وطور سينين ، وكثير من الخلوقات . ولاريب أن القسم بالأشياء الحسية ، يدلُّ على تأثر القرآن بالبيئة في مكة ، لأن القوم فيها كانوا أميين ، لانعدو مداركهم حدود الحسيات . أما بعد الهجرة وانصال محمد بأهل المدينة ، وهم قوم مثقفون مستنيرون ،

فقد تأثر القرآن بهذا الوسط الراقى الجديد ، وخلا من تلك الأيمان الحسية الدالة على البساطة والسذاجة .

وهذه الشبهة مدفوعة « أولاً » : بما قدمنا من أن أهل مكة كانوا أرقى ذوقاً ، وأعلى كعباً ، وأعظم ذكاءً ، من أهل المدينة ، وأن الخطاب معهم كان ملحوظاً فيه اشتماله على أسرار وخصائص لا يدركها إلا المتفوقون والمتمهرون في صناعة البيان . فلا يستقيم إذن ما زعموه من أن مدارك أهل مكة كانت لا تعدو حدود الحسيات . والتاريخ خير شاهد ، وأعدل حاكم بامتياز العرب في مكة عن سائر القبائل على عهد نزول القرآن .

( ثانياً أن القسم بالأمور الحسية في القرآن كالضحى والليل ، ليس منشؤه انحطاط القوم كما يزعمون ، إنما منشؤه رعاية مقتضى الحل فيما سبق القسم لأجله ، وذلك أن القرآن كان بصدد علاج أخش العقائد فيهم ، وهي عقيدة الشرك . ولا سبيل إلى استئصال هذه العقيدة ، وإقامة صرح التوحيد على أنقاضها ، إلا بلفت عقولهم إلى مافى الكون من شئون الله وخلق الله ، وإلا بفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الخلق المحيطة بهم ، ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يؤمنوا بالله وحده ، مادام هو الخالق وحده ، لأنه لا يستحق العبادة عقلاً ، إلا من كان له أثر الخلق في العالم فعلاً . « أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » ؟ .

فترض بعض المخلوقات على أنظار الجاحدين بالتوحيد ، بعد إقرارهم أن ليس لها خالق إلا الله ، إلزام لهم بطرح الشرك ، وتوحيد الخالق . وهذا مطمح نبيل ، أجاد القرآن في أساليب عرض نعم الله عليهم من أجله ، وكان في إجادته هذه موفقاً على الغاية ، واصللاً إلى قمة الإعجاب كعادته ، متفنناً في ذكر النعم ، منوعاً في سردتها وبيانها . فمرة يتحدث عن خلق السماء ، ومرة عن خلق الأرض ، وثالثة عن أنفسهم ، ورابعة عن أنواع الحيوان والنبات والجماد وهم جزءاً . وتارة يختار القرآن في عرضه طريقة السرد والشرح ،

وتارةً يختار طريقة الحلف والقسم ، لأن في الحلف والقسم معنى العظمة التي أودعها الله في هذه النعم دالةً على توحيدِهِ وعظمتِهِ ، حتى صحَّ أن يدور القسم عليها ، وأن يجيء الحلف بها .

ومن هنا أقسم الله بما أقسم من الأمور الحسية والمعنوية ، فالأمور الحسية كما ذكرنا ، والمعنوية مثل القرآن الكريم في قوله سبحانه : « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ليذنبهم إلى مدى إنعامه عليهم بتلك الأقسام كلها ، حسيها ومعنويها ، فيرعوا عن شركهم بتلك الآلهة المزيفة التي لا تملك ضراً ولا نفعاً ، وليس لها أيُّ شأن في هذا الخلق . على حدِّ قوله سبحانه في سورة الأحقاف :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اتَّقُوا نِي . بِيَكْتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أُنَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ، وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .

وأنت خيرٌ بأن المصاب بداء الشرك لا سبيل إلى إنقاذه منه إلا بمثل هذه الطريقة المثلى ، التي سلكها القرآن بعرض دلائل التوحيد من آيات الله في الآفاق على أنظار المشركين ، وهذا سبيل متعين في خطاب كل مشرك ولو كان واحد الفلاسفة ، ووحيد العباقرة ، وأستاذ المثقفين والمستنيرين . فحلف القرآن بأمثال هاتيك المخلوقات والحسيات ، ليس دالاً على سذاجة المخاطبين واطحاطهم ، وليس بالتألي سبيلاً إلى الطعن في القرآن بأنه كلام محمد المتأثر بانحطاط البيئة المكية كما يرجفون : « إِنْ هَذَا إِلَّا آخْتِلَاقٌ » .

(ثالثاً) أن في مضامين تلك الأقسام بالحسيات أسراراً تنأى بها عن السذاجة والبساطة وتشهد ببراعة المخاطبين بها وتفوقهم في الفهم والذكاء والفصاحة والبيان .

ذلك أن القسم بها كما قلنا ، إشارة إلى الأسرار العظيمة التي وضعها الله في تلك الأمور التي أقسم بها . حتى صحَّ أن يكون مقسماً بها . وتلك الأسرار لا يدركها إلا اللبيب ، لأنها غير مشروحة ولا مفسرة في القرآن الكريم ، فلا يفهمها إلا من كمل عقله ، وسلم ذوقه . ولنشرح لك بعض الأسرار ، ليتبين الحال ، ولا يبق للشبهة مجال .

(المثال الأول) أقسم الله سبحانه بالضحى والليل في قوله : « وَالضُّحَىٰ \* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ \* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ \* وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ \* وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » وسبب نزول هذه الآيات : أن النبي ﷺ فتر عنه الوحي مرة لا ينزل بقرآن ، فرماه أعداؤه بأن ربه ودعه وقلاه ، أى تركه وأبغضه ، فنزلت هذه الآيات مصدرة بهذا القسم ، مشيرة إلى أن ما كان من سطوع الوحي على قلبه ﷺ بمنزلة الضحى ، تقوى به الحياة ، وتنمى به الناميات ، وما عرض بعد ذلك من فترة الوحي فهو بمنزلة الليل إذا سجد ، لتسترخ فيه القوى وتستعد في النفوس لما يستقبلها من العمل . ومن المعلوم أن النبي ﷺ لاقى من الوحي شدة أول أمره حتى جاء إلى خديجة رضى الله عنها ترجف بوادره ، كما هو معروف في حديث الصحيحين . فكانت فترة الوحي لتثبيته عليه الصلاة والسلام ، وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى عليه منه حتى تتم به حكمة الله في إرساله إلى الخلق . ولهذا قال له : « وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ » أى إن كررة الوحي ثانياً سيكمل بها الدين ، وتتم بها نعمة الله على أهله ، وأين بداية الوحي من نهايته ؟ وأين إجمال الدين الذي جاء في قوله « أقرأ باسم ربك الذي خلق » الخ من تفصيل العقائد والأحكام الذي جاء في مثالي القرآن ؟ ثم زاد الأمر تأكيداً بقوله « وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » .

فمن هذا نعم أن الحلف بالضحى والليل في هذا المقام ، ليس مجرد تذكير

بآياته ونعمه فحسب . بل هو أيضاً إقامة دليل على أن تنزُّل الوحي أشبه بضخوة النهار ، وأن فترة الوحي أشبه بهدأة الليل ، فإذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالرضا والتسليم ، لما فيهما من نفع الإنسان بالسعى والحركة والحياة بالنهار والنوم والاستحمام بالليل ، يجب أن يتقبلوا أيضاً ما يجري على محمد ﷺ من نزول الوحي وفترته للمعنى الذى سلف .

(المثال الثانى) أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون في قوله جل ذكره: «وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ وَطُورِ سَيْنِينَ \* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ \* لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» قال العلامة المرجوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره لهذه السورة مانصه :

وقد يرجح أنهما (أى التين والزيتون) النوعان من الشجر ، ولكن لا لفوائدهما كما ذكرنا ، بل لما يذكّران به من الحوادث العظيمة التى لها الآثار الباقية فى أحوال البشر . قال صاحب هذا القول : إن الله تعالى أراد أن يذكّرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل ، فإنه كان يستظلُّ فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين ، وعندما بدت له ولزوجته سوا آيهما طافعا يخصفان عليهما من ورق التين . (والزيتون) إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك أنه بعد أن فسد البشر وأهلك من أهلك منه بالطوفان ، ونجى نوح فى سفينته ، واستقرت السفينة ، نظر نوح إلى ما حوله ، فرأى المياه لا تزال تغطى وجه الأرض فأرسل بعض الطيور لعله يأتى إليه بنجر انكشاف الماء عن بعض الأرض فخاب ولم يأت بنجر ، فأرسل طيراً آخر فرجع إليه يحمل ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وسرّ ، وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد أذن للأرض أن تعمر ، ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة فى الأرض التى أمحى عمرانها ، فعبر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون . والإقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة وهى من أكبر ما يذكّر من الحوادث .

(وطور سينين) إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية ، وظهور نور التوحيد فى العالم ،



بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية، وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم إلى التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم عيسى عليه السلام جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع . ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما أصاب مَنْ قبلهم من الاختلاف في الدين ، وحجّب نوره بالبدع ، وإخطاء معناه بالتأويل ، وإحداث ما ليس منه بسبيل ، فمن الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ، ويفصل بين ما سبق من أطوار الإنسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة . وإليه أشار بذكر البلد الأمين . وعلى هذا القول الذي فصلنا بيانه ، يقناسب القسم والمقسم عليه . اهـ ما أردنا نقله .

### الشبهة الخامسة

يقولون : إن القسم المكفي من القرآن قد اشتمل على لغو من الكلام في كثير من فواتح السور مثل « ألم وكهيعص » . وذلك يبطل دعوى للسليمن أن القرآن بيان للناس وهدى ، وأنه كلام الله . وأى بيان وأى هدى في قوله ( ألم ) وقوله ( كهيعص ) ؟ بل هذه الأحرف وأمثالها في غاية البعد عن الهدى ، بدليل أنه لم يهتد أحدٌ منهم ولا الراسخون في العلم لإدراك معناها ؛ فالخطاب بها كالخطاب بالمهمل ، وإنما هذه الألفاظ من وضع كتّبة محمد من اليهود تنبيهاً على انقطاع كلام واستئناف آخر ، وممناها ( أو عزّ إلى محمد ) أو ( أمرني محمد ) يشيرون بذلك إلى براءتهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابتها . وقريب من هذا قول بعضهم : إن الحروف العربية غير المفهومة المفتحة بها أوائل بعض السور ، إما أن يكون قصد منها التعمية أو التحويل أو إظهار القرآن في حظه عميق تخيف ، أو هي رمزٌ للتمييز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً .

ونفقض هذه الشبهة بأمور : ( أولها ) أنه لم يكن للرسول ﷺ كُتَّبة من اليهود أبداً . وها هو التاريخ حاكم عدل لا يرحم ولا يحابي ، فليسألوه إن كانوا صادقين . ( ثانياً ) أنه لا دليل لهم أيضاً على أن فواتح هذه السور تستعمل في تلك المعاني التي زعموها وهي ( أَوْعَزَ إِلَى مُحَمَّد ) أو ( أمرني محمد ) ، لا عند اليهود ولا عند غيرهم في أية لغة من لغات البشر . ( ثالثاً ) أن اليهود لم يعرف عنهم الطعن في القرآن بمثل هذا . ولو كان هذا مطعناً عندهم لكانوا أول الناس جهراً به ، وتوجيهها له ، لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، يتمنون أن يجدوا في القرآن مفعزاً من أي نوع يكون ، ليهدموا به دعوة الإسلام . كيف وهم يكفرون به حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ؟ ( رابعاً ) أن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا ينافي وصف القرآن بأنه بيان للناس وهدى ورحمة ، فإن هذه الأوصاف يكفي في تحققها ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه لا باعتبار تفصيله وعمومه الشامل لكل لفظ فيه . ولا ريب أن السكثرة الغامرة في القرآن كلها بيان للتعليم الإلهية وهداية للتخلق إلى الحق ، ورحمة للعالم من وراء تقرير أصول السعادة في الدنيا والآخرة .

وهذا الجواب مبنى على أحد رأيين للعلماء في فواتح تلك السور ، وهو أن المعنى المقصود غير معلوم لنا ، بل هو من الأسرار التي استأثر الله بعلمها ، ولم يطلع عليها أحد من خلقه . وذلك لحكمة من حكمه تعالى السامية وهي ابتلاؤه سبحانه ، وتمحيصه لعباده ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، وصادق الإيمان من المنافق ، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه ، ودلائل هدايته ، وشواهد رحمته ، في غير تلك الفواتح من كتابه ، بين آيات وسور كثيرة ، لا تشتت تلك الفواتح في جانبها إلا قطرة من بحر ، أو غيضاً من فيض .

فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم ، ولو لم يفهموا معناها ، ولم يدركوا مغزاها ، ثقةً منهم بأنها صادرةٌ من لدن حكيمٍ عليم ، عمّت حكيمته ما خفي وما ظهر من معاني كتابه ، ووسع علمه كل شيء عرفه الخلق أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله . « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » .  
 « وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زِينَةٌ فَيَسْتَبِمُونَ مَا نَشَابَهُ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » .

ونظير ذلك أن يكون لك أصدقاء تريد أن تعرفهم أو تعرف منهم مدى صداقتهم لك ، فتبتليهم بأموار يزلُّ عندها الزيفون ، ويظهر الصادقون .

على حد قول القائل :-

وعلى حدّ المثل القائل : « إِنْ أَخَاكَ مِنْ وَاسَاكَ » .

أَبْلُ الرَّجَالِ إِذَا أَرَدَتْ إِخَاءَهُمْ  
 فَإِذَا ظَهَرَتْ بِيَدِي اللَّيْبَانَةُ وَالْتَقَى  
 فِيهِ الْيَدَيْنِ قَرِيرٍ عَيْنٍ فَاشَدُّدِ  
 وَتَوَسَّمَنَّ فِعَالَهُمْ وَتَفَقَّدِ

ونظير ذلك أيضاً أن تكون أستاذاً معلماً ، وتريد أن تقف على مدى انتباه تلاميذك ، ومبلغ تفهم فيك وفي علمك ، بعد أن زودتهم منك بدراسات واسعة وتعاليم واضحة فإنك تختبرهم في بعض الأوقات بكلمات فيها شيء من الإلغاز والخفاء ، ليظهر الذكي من الغبي ، والواثق بك الوامق لك ، من المتشكك فيك المتردد في علمك وفضلك . فأما الواثق فيك فيعرف أن تلك الألغاز والمعميات ، صدرت عن علم منك بها وإن لم يعلم هو تفسيرها ، ويعرف أن لك حكمة في إيرادها على هذه الصورة من الخلقاء ، وهي الاختبار والابتلاء . وأما المتشكك فيك فيقول : ماذا أراد بهذا ؟ وكيف ساغ له أن يورده ؟ وما مبلغ العلم الذي فيه ؟ ثم ينسى تلك المعارف الواسعة الواضحة التي زودته بها من قبل ذلك ، وكلها من أعلام العلم وآيات الفضل .

ولا يفوتك في هذا المقام أن تعرف أن ابتلاء الله لعباده ليس المراد منه أن يعلم سبحانه ما كان جاهلاً منهم « حاشاه حاشاه » فقد وسع كل شيء علماً . إنما المقصود منه إظهار مكنونات الخلق ، وإقامة الحجج عليهم من أنفسهم ، فلا يتهمون الله في عدله وجزائه ، إذا جعل من الناس أهلاً لثوابه وآخرين لعقابه . « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(الرأى الثانى فى فواتح السور) أن لها معنى مقصوداً معلوماً . قالوا : لأن للقرآن كتاب هداية ، والهداية لا تتحقق إلا بفهم المعنى ، خصوصاً أننا أمرنا بتدبر القرآن والاستنباط منه ، وهذا لا يكون إلا إذا فهم المعنى أيضاً .

غير أن أصحاب هذا الرأى تشعبت أقوالهم فى بيان هذا المعنى المقصود بفواتح تلك السور ، فذهب بعضهم إلى أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التى افتتحت بها ، واستدلوا بآثار تفيد ذلك ، منها ما روى عن النبى ﷺ أنه قال « يَسَ قَلْبُ الْقُرْآنِ » وقوله « مَنْ قَرَأَ السُّجْدَةَ حَفِظَ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ » . ومنها اشتهاى بعض السور بالتسمية بها . ثم إن ورودها فى فواتح سور مختلفة بلفظ واحد ، ينافى كونها أسماء للسور . بل شأنها فى ذلك شأن الأعلام المشتركة اشتراكاً لفظياً كلفظ محمد المسمى به أشخاص كثيرون . فيضم إلى اسم كل منهم ما يميز مسماه عن غيره فيقال : محمد المصرى ومحمد الشامى مثلاً . وكذلك فواتح السور يقال فيها : « أَلَمْ الْبَقْرَةَ وَالْمَ آلَ عِمْرَانَ وَحَمَّ السَّجْدَةَ » وهلم جرا .

وبعضهم ذهب إلى أنها أسماء للحروف الهجائية التى وضعت بإزائها . وهؤلاء منهم من قال : إن المقصود من ذلك هو إفهام المخاطبين أن الذى سيتلى عليهم من الكلام الذى عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله ، إنما تركب من مثل هذه الحروف التى فى الفواتح ، وهى معروفة لهم ، يتخاطبون بما يدور عليها ولا يخرج عنها .

ومنهم من قال : إن المقصود منها هو الدلالة على انتهاء سورة والشروع في أخرى .  
ومنهم من قال : إن المقصود منها القسم بها لإظهار شرفها وفضلها ؛ إذ هي مبنى كتبه  
المنزلة . ومنهم من قال : إن المقصود منها بيان نبوة محمد ﷺ من ناحية أنه ينطق  
بأسماء الحروف مع أنه أمي لم يقرأ ولم يكتب ، والمعروف أن النطق بأسماء الحروف من  
شأن القارئ وحده ، لا سبيل للأمي إلى معرفتها ولا النطق بها ، فإتيانه بها وترديده  
لها ، دليل مادي أمامهم على أنه لا يأتي بهذا القرآن من تلقاء نفسه ، إنما يتلقاه من لدن  
حكيم عليم .

ومنهم من قال : إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم . وذلك أن قرع السمع  
في أول الكلام بما يعي النفوس فهمه أو بالأمر الغريب ، دافع لها أن تصفى وتنتهظ وتتأمل  
وتزداد إقبالا : فهي كوسائل التشويق التي تُعرض في مقدمة الدرس على منهج التربية  
الحديثة في التعليم .

ومنهم من قال : إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها  
إلى الاستماع إليه . والمعروف أن أعداء الإسلام في صدر الدعوة كان يقول بعضهم لبعض :  
« لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ » . فلما أنزلت السور المبدوءة  
بحروف الهجاء ، وقرع أسماعهم ما لم يألفوا ، التفقوا ، وإذا هم أمام آيات بينات استهوت  
قلوبهم ، واستمالت عقولهم ، فأمن من أراد الله هدايته ، وشارف الإيمان من شاء الله  
تأخيره ، وقامت الحجة في وجه الطغاة المكابرين ، وأخذت عليهم الطرق فلا عذر لهم  
في الدنيا ولا يوم الدين .

وقال العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى في تفسيره لسورة آل عمران

« إعلم أن القرآن كتابٌ سماوىٌ . والكتب السماوية تُصرح تارةً وترمزُ أخرى .  
والرمز والإشارة من المقاصد السامية والمعاني والمغازى الشريفة . وقديماً كان ذلك في  
أهل الديانات ؛ ألم تر إلى اليهود الذين كانوا منتشرين في المدينة وفي بلاد الشرق أيام  
النبوة كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف  
العربية ؟ فيجعلون الألف بواحد ، والباء باثنين ، والجيم بثلاثة ، والدال بأربعة ، وهكذا  
مارين على الحروف الأبجدية ، إلى الياء بعشرة والكاف بعشرين ، وهكذا إلى القاف  
بمائة والراء بمائتين ، وهكذا إلى الغين بألف ، كما سترام في هذا المقام .

كذلك ترى أن النصارى في إسكندرية ومصر وبلاد الروم وفي سوريا ، قد  
اتخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن . وكانت اللغة  
اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر . وكانوا يرمزون بلفظ « إكسيس » لهذه الجملة :  
« يسوع المسيح بن الله المخلص » فالألف من إكسيس هي الحرف الأول من لفظ  
« إيسوس » يسوع . والكاف منها هي الحرف الأول من « كرسطوس » المسيح .  
والسين منها هي حرف الشاء التي تبدل منها في النطق في لفظ « ثيو » الله . والياء منها  
تدل على « ايوث » ابن . والسين الثانية منها تشير إلى « ثوتير » المخلص . ومجموع  
هذه الكلمات : يسوع المسيح بن الله المخلص . ولفظ « إكسيس » انفق أنه يدل على  
معنى سمكة ، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزاً لإلههم .

فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحرف ، ومن الرمز بالحرف إلى الرمز  
بحيوان دلّت عليه الحروف . قال الخبر الإنجليزى صموئيل مونتج : إنه كان يوجد  
كثيراً في قبور رومة صور أسماك صغيرة مصنوعة من الخشب والمغرم . وكان كل  
مسيحى يحمل سمكة إشارة للتعارف فيما بينهم . هـ .

فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التي أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها ونزل

القرآن لجميع الناس من عرب وعجم، كان لا بد أن يكون على منهج يلدّه الأمم ويكون فيه ما بالفون . وستجد أنه لا نسبة بين الرموز التي في أوائل السور ، وبين الجمل عند اليهود ورموز النصرى ، إلا كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبي ، أو بين علم العلماء وعلم العامة . وبهذا تبين لك أن اليهود والنصرى كان لهم رموز ، وكانت رموز اليهود هي حروف الجمل .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله ﷺ وهو يتلو سورة البقرة : « أَلَمْ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَبَّ فِيهِ » ثم أتى أخوه حى بن أخطب وكعب بن الأشرف ، فسألوه عن « أَلَمْ » وقالوا : نشدك الله الذى لا إله إلا هو أحق أنها أتتك من السماء ؟ فقال النبي ﷺ : نعم . كَذَلِكَ نَزَلَتْ . فقال حى : إن كنت صادقاً إني لأعلم أجل هذه الأمة من السنين . ثم قالوا : كيف ندخل في دين رجل دلّت هذه الحروف بحساب الجمل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة ، فضحك النبي ﷺ . فقال حى : فهل غير هذا ؟ فقال : نعم « أَلَمْص » . فقال حى : هذا أكثر من الأول ، هذا مائة وإحدى وستون سنة فهل غير هذا ؟ قال : نعم « أَلْر » فقال حى : هذا أكثر من الأولى والثانية ، فنحن نشهد إن كنت صادقاً ما ملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة . فهل غير هذا ؟ فقال : نعم « أَلْمَر » . قال حى : فنحن نشهد أنا من الذين لا يؤمنون ، ولا ندرى بأى أقوالك نأخذ . فقال أبو ياسر : أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يبينوا أنها كم تكون ؟ فإن كان محمد صادقاً فيما يقول إني لأراه سيجتمع له هذا كله . فقام اليهود وقالوا اشتبه علينا أمرك كله فلا ندرى بأبالتلليل نأخذ أم بالكثير ؟

فبهذا تعرف أيها الذكى أن الجمل كانت للتعارف عند اليهود ، وهو نوع من

الرموز الحرفية ، فكانت هذه الحروف لابتداء من نزولها في القرآن ليأخذ الناس في فهمها كل عذوب ويتصرف الفكر فيها .

ولاقتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق فيما ترمز إليه هذه الحروف :

( الطريقة الأولى ) أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله ، كما روى

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الألف آلاء الله ، واللام لطفه ، والميم ملكه .  
وعنه أن « آر ، وحَم ، ون » مجموعها الرحمن . وعنه أن « ألم » معناه أنا الله أعلم ، ونحو ذلك في سائر الفوائج . وعنه أن الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد أي القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام . أقول : إنما أراد ابن عباس بذلك أن تكون الحروف مذكرة بالله عز وجل في أكثر الأحوال ، وذكر الله أجل شيء . ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدم عن الأمم السالفة من النصارى في إسكندرية ورومة . ولكن لابتداء أن يكون هناك ماهو أعلى وأجل .

( الطريقة الثانية ) أن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق

النبي ﷺ . وهذا مما ترضاه النفوس . ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة . وهذا النبي الأمي ﷺ قد نطق بها . والذي في أول السور أربعة عشر حرفاً منها ، وهي كلها ثمانية وعشرون حرفاً إن لم تعد الألف حرفاً برأسه ، فالأربعة عشر نصفها . وقد جاءت في تسع وعشرين سورة وهي عدد الحروف الهجائية إذا عدت فيها الألف . وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة وهي : « فخته شخص سكت » بنصفها ، وهي الحاء والهاء والصاد والسين والكاف .

ومعلوم أن الحروف إما مهموسة - أي يضعف الاعتماد عليها - وهي ما تقدم ، وإما مجهورة

وهي ثمانية عشر ، نصفها - وهو تسعة - ذكرت في فوائج السور ، ويجمعها « لن يقطع أمر » -



والحروف الشديدة ثمانية وهي « أجِدت طبقك » أربعة منها في الفواتح وهي « أقطك » .

والحروف الرخوة عشرون وهي الباقية ، نصفها عشرة وهي في هذه الفواتح . يجمعها « حس على نصره » .

والحروف المطبقة أربعة : الصاد والضاد والطاء والظاء . وفي الفواتح نصفها : الصاد والطاء .

وبقية الحروف - وهي أربعة وعشرون حرفاً - تسمى منفتحة ، نصفها وهو اثنا عشر في الفواتح المذكورة .

فانظر كيف أتى في هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية ، إن لم تعدّ الألف ، وجعلها في تسع وعشرين سورة عدد الحروف وفيها الألف ؟ وكيف أتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة ؟ . . .

ولقد ذكرت لك قَلاً من كُثْر مما ذكره العلماء في هذا المقام ، ولا أطيل عليك خيفة السامة والملل ، وكفاك ما أمليته عليك في هذه الطريقة الثانية لتعرف كيف أتى بهذه الأوصاف ؟ وكيف وضعت الحروف على هذا النظام ؟ .

وإني موقن أن المتعلم لو طلب منه أن يأتي بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة فكيف يراعى الحروف الشديدة ؟ وكيف يراعى نصف المجهورة في نفس العدد ؟ .

إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة ﷺ . ففائدة هذا الوجه أهم من الوجه الأول ؛ فالأول فائدته تذكير الإنسان بأسماء الله تعالى . وأما الوجه الثاني ففيه إيجاز للعقول وحيرة . فيقال : كيف تنصّف الحروف الهجائية وتنصّف أنواعها من مهموسة

وشديدة النخ . وهذه الأنواع لم يدرسها أحد في العالم أيام النبوة . ثم لما ظهرت تلك الدراسات وافقت تلك الحروف بأنصافها !

لأن ذلك ليعطى العقول مثلاً من الغرابة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعلمون فإذاً هو من الوحي . وهذا الوجه على قوّته يفضل ما بعده .

( الطريقة الثالثة ) أن الله تعالى خلق العالم منظماً محكماً ، متناسقاً متناسباً . والكتاب السماوى إذا جاء مطابقاً لنظامه ، موافقاً لإبداعه ، سائراً على منهاجه ، دلّ ذلك على أنه من عنده . وإذا جاء الكتاب السماوى مخالفاً لنهجه ، منافراً لفعله ، منحرفاً عن سننه كان ذلك الكتاب مصطنعاً مفتعلاً منقولاً مكذوباً ؛ « وَ لَوْ كَان مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً » .

والعالم المشاهد ، فيه عدد الثمانية والعشرين . وذلك فيما يأتى :

- (١) مفاصل اليدين فى كل يد أربعة عشر .
- (٢) خرزات عمود ظهر الإنسان منها أربع عشرة فى أسفل الصلب ، وأربع عشرة فى أعلاه .
- (٣) خرزات العمود التى فى أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقرة والجمال والحمار والسباع وسائر الحيوانات التى تلد أولادها ، منها أربع عشرة فى مؤخر الصلب وأربع عشرة فى مؤخر البدن .
- (٤) عدد الريشات التى فى أجنحة الطير المعتمدة عليها فى الطيران أربع عشرة ريشة ظاهرة فى كل جناح .
- (٥) عدد الخرزات التى فى أذنان الحيوانات الطويلة الأذنان كالبقرة والسباع .
- (٦) عمود صلب الحيوانات الطويلة الخلقة ، كالسمك والحيتان وبعض الحشرات .
- (٧) عدد الحروف التى فى لغة العرب التى هى أتم اللغات ، ثمان وعشرون حرفاً .

منها أربعة عشر يدغم فيها لام التعريف ، وهي : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض  
ظ ظ ل ن . وأربعة عشر لا تدغم اللام فيها ، وهي . أ ب ج ح خ ع غ ف ق ك م  
ه و ي .

(٨) والحروف التي تخط بالتلم قسمان . منها أربعة عشر معلمة بالنقط وهي : ب ت  
ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن ، وأربعة عشر غير معلمة وهي : ا ح درس ص ط  
ع ك و ه ل م لا . وهذا الحرف هو الألف التي هي من حروف العلة . أما الأولى  
فهي الممزة . فهذه أربعة عشر حرفاً . وبقيت الياء ، وهي تنقط في وسط الكلمة  
ولا تنقط في آخرها . فأصبحت الحروف المعلمة أربعة عشر ، وغير المعلمة أربع عشر ،  
والحرف التاسع والعشرون معلم وغير معلم ، لتكون القسمة عادلة . والفضل في هذا  
العدل للحكيم الذي وضع حروف الهجاء العربية ، فإنه كان حكماً ، والحكيم هو الذي  
يقسبه بالله بقدر الطاقة البشرية . وهذا جعل ثمانية وعشرين حرفاً مقسمة قسمين ، كل  
منها أربعة عشر كما في مفاصل اليدين وفقرات بعض الحيوانات .

(٩) منازل القمر ثمان وعشرون منزلة في البروج الشمالية أربع عشرة وفي الجنوبية  
أربع عشرة . فهذا يفيد أن الموجودات التي عددها ثمانية وعشرون تكون قسمين كل  
منهما أربعة عشر . فهكذا هنا في القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين ، قسم  
منهما أربعة عشر منطوق به في أوائل السور ، وقسم منهما أربعة عشر غير منطوق به في  
في أوائلها . وكأنه تعالى يقول : «أى عبادى إن منازل القمر ثمان وعشرون وهي قسمان ،  
ومفاصل الكف ثمانية وعشرون وهي قسمان ، وهكذا . والحروف التي تدغم في حرف  
التعريف ، والتي هي معلمة كلٌّ منها أربعة عشر . وضدها أربعة عشر فلتعلموا أن هذا  
القرآن هو تنزيل منى ، لأنى نظمت حروفه على هذا النمط الذي اخترته في صنع المنازل  
والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية ونظام الحروف الهجائية ، فمن أين لبشر كحمد أو غيره

أن ينظم هذا النظام ، ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذي وضعته ، والسنن الذي رسمته ، والنهج الذي سلكته ؟ إن القرآن تنزيلٌ منى وقد وضعت هذه الحروف في أوائل السور لتستخرجوا منها ذلك ، فتملموا أنى ما خلقت السموات والأرض وما بينهما باطلا ، بل جملت النظام في العالم وفي الوحي متناسبا . وهذا الكتاب سيبقى إلى آخر الزمان ، ولغته ستبقى معه إلى آخر الأجيال . إن اللغات متغيرة ، وليس في العالم لغة تبقى غير متغيرة إلا التي حافظ عليها دينٌ . وهل غير الأمة العربية حافظ عليها دين ؟ ! » .

هذا - ولا يخفى عليك أن ذاك الرأي الثانى فى فواتح السور أبغ فى نقض الشبهة من الرأى الأول ؛ لأنه يبنى ما زعموه من أساس الاتهام ، وهو أنه ليس لهذه الفواتح معنى مفهوم ، ويقرر أن معانيها مفهومة على ما تبين فى تلك الوجوه السابقة . وإذا كان بعض الناس لا يفهم تلك المعانى ، فليس ذلك عيباً فى القرآن إنما هو عيب فى استعداد بعض أفراد الإنسان . وكتاب الله خوطب به الخواص كما خوطب به العوام ، فلا بدع أن يكون فيه ألفاظ لا يفهمها إلا الخاصة دون العامة .

وعلى كلا هذين الرأيين يتضح لك أن اشتمال القرآن على هذه الألفاظ ، ليس من قبيل اشتمائه على لغو الكلام ، أو إظهار القرآن بمظهر عميق مخيف ، ولا يفهم منه أنها رموز للمصاحف ألحقها مرور الزمن بالقرآن ، إلى غير ذلك من الهديان . بل ثبوت هذه الفواتح لا يقدح فى كون القرآن من عند الله ، سواء أطلدت معنى ظاهراً أم لم تفد على ما بيناه من حكمة الله البالغة فى إيرادها . والله هو الحكيم العليم .

## الشبهة السادسة

يقولون : إن القرآن في قسمه المكي قد خلا من الأدلة والبراهين ، بخلاف قسمه المدني فإنه مليء بالأدلة ، مدعم بالحجة ، وهذا برهان جديد على تأثر القرآن بالوسط الذي كان فيه محمد !

ونقض شبهتهم ( أولاً ) بما أسلفنا من أن القرآن لو كان نتيجة تأثر محمد بالوسط الذي يعيش فيه ، لكان الوسط أولى بتوجيه هذا المظن عليه ، ولـكان أعرف بهذا النقض فيه ، فيظفر عليه ويدخل إلى إبطال دعوته من هذا الباب الواسع ، لا سيما أن الرسول في مكة والمدينة كان له أعداء ألداء ، ليس لعداوتهم دواء .

(ثانياً) أنه لو صحَّ هذا لبطلت نبوته ، ولصح أن تكون النبوة لهم باعتبار أنهم مصدرها ، وأنهم أسانذته فيها . وهذا النقض يقال في ردِّ شبهاتهم الماضية الساقطة ، التي تدل على فساد فطرتهم ، وعلى مقدار تبجُّحهم وتجدُّبهم على الحقيقة والتاريخ والاستخفاف بمقول الناس .

(ثالثاً) أن كذبهم في هذه الشبهة صريحٌ مكشوف ، لأن القسم المكي حافل بأقوى الأدلة ، وأعظم الحجج ، على عقيدة الإسلام في الإلهيات ، والنبوات ، والسمعيات . استمع إليه في سورة « المؤمنون » المكية وهو يرفع قواعد التوحيد ، ويززل بنيان الشرك إذ يقول : « مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَمَّا بَمَضُومَاتٍ عَلَى بَمَضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » وإذا يقول في سورة الأنبياء المكية : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

آلِهَةٍ. قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ. هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ .

وأصت إليه في سورة العنكبوت للكية وهو يدل على نبوة محمد ﷺ إذ يقول : « وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُّهُ بِبَيِّنَاتِكُمْ ، إِذَنْ لَا تَنَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ . إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » . وتدبر حجته التي أقامها لتقرير اقتداره على البعث بعد الموت في قوله سبحانه من سورة ق المكية : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَانْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا . كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » وقوله فيها أيضا : « أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » .

وانظر إليه يقيم الدليل العقلي على البعث والجزاء في سورة المؤمنون المكية إذ يقول : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجَعُونَ » وفي سورة السجدة إذ يقول : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ . أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا » الخ . وفي سورة الجاثية المكية إذ يقول : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

وتأمل مناقشته ونقضه بالحجة أوهام المشركين في احتجاجهم لأباطيلهم بالمشيئة الإلهية إذ يقول في سورة الأنعام المكية : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ

مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ . كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا . قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ  
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ  
أَجْمَعِينَ » . إلى غير ذلك من أدلة ساطعة ، وبراهين بارعة ، لا تكاد تخلو منها سورة  
من السور المكية . ولكن القوم استحبوا العمى على الهدى ، فاستمروا بهذا الكذب  
والافتراء . نسأل الله أن يكفيننا شرَّ الفتنة ، وأن يشدبنا على الحق ، فإن قلوب الخلق  
بيديه ، والأمـر كله منه وإليه . « مَنْ يَشَأِ اللَّهُ بُضِلِلْهُ . وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

## المبحث الثامن مطلوب

(في جمع القرآن وتاريخه ، والرد على ما يثار حوله  
من شبهة ونماذج من الروايات الواردة في ذلك)

كلمة جمع القرآن تطلق تارة ويراد منها حفظه واستظهاره في الصدور . وتطلق تارة  
أخرى ويراد منها كتابته كله حروفاً وكلماتٍ وآياتٍ وسوراً . وهذا جمع في الصحائف  
والسطور ، وذلك جمع في القلوب والصدور . ثم إن جمعه بمعنى كتابته حدث في الصدر  
الأول ثلاث مرات : الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، والثانية في خلافة  
أبي بكر ، والثالثة على عهد عثمان ، وفي هذه المرة الأخيرة وحدها نسخت المصاحف  
وأرسلت إلى الآفاق . وقد أثيرت في هذا الموضوع شبهة باردة لا مناص لنا من أن  
نكشف عنها اللثام ، ثم نعرضها لحرارة الحقائق العلمية الصحيحة ، حتى تذوب وتنباع ،

أو تذهب وتبخر « فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ . كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ . »

### جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور

نزل القرآن على النبي ﷺ ، فكانت همته بادي ذي بدء منصرفة إلى أن يحفظه ويستظهره ، ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ، ضرورة أنه نبي أميُّ بعثه الله في الأميين . « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَقُولُوا عَلَيْنِهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَالِّينَ مُبِينِينَ » اهـ من سورة الجمعة . ومن شأن الأمي أن يعوّل على حافظته فيما يهيمه أمره ، ويعنيه استحضاره وجمعه . خصوصاً إذا أوتي من قوة الحفظ والاستظهار ، ما يسر له هذا الجمع والاستحضار . وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن وهي متمتعة بخصائص العروبة الكاملة ، التي منها سرعة الحفظ ، وسيلان الأذهان ، حتى كانت قلوبهم أناجيلهم ، وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم ، وحوافظهم دواوين أشعارهم ومفاخرهم . ثم جاء القرآن فبهزم بقوة بيانه ، وأخذ عليهم مشاعرهم بسطوة سلطانه ، واستأثر بكريم مواهبهم في لفظه ومعناه ، فخلعوا عليه حياتهم حين علموا أنه روح الحياة ! .

أما النبي ﷺ فبلغ من حرصه على استظهار القرآن وحفظه ؛ أنه كان يحرك لسانه به في أشد حالات حرجه وشدته ، وهو يمانى ما يمانيه من الوحى وسطوته ، وجبريل في هبوطه عليه بقوته . يفعل الرسول كل ذلك استعجالاً لحفظه وجمعه في قلبه ، مخافة أن تفوته كلمة ، أو يفلت منه حرف . وما زال ﷺ كذلك حتى طمأنه ربه بأن وعده أن يجمعه له في صدره ، وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه ، فقال له في سورة القيامة « لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمْجَلَ بِهِ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » وقال له في سورة طه « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى



إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ». ومن هنا كان ﷺ جامع القرآن في قلبه الشريف، وسيد الحفاظ في عصره المنيف. ومرجع المسلمين في كل ما يعنيه من أمر القرآن وعلوم القرآن. وكان ﷺ يترؤفه على الناس على مكث كما أمره مولاة، وكان يحبي به الليل ويزين الصلاة. وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، وعارضه إياه في العام الأخير مرتين. قالت عائشة وفاطمة رضی الله عنهما: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: « إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضراً أجلي ».

وأما الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كان كتاب الله في الحلق الأول من عنايتهم. يتنافسون في استظهاره وحفظه. ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه. ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه. وربما كانت قرة عين السيدة منهم أن يكون مهرها في زواجها سورة من القرآن يعلمها إياها زوجها. وكانوا يهجرون لذة النوم وراحة المجهود، إيثاراً للذة القيام به في الليل، والتلاوة له في الأسفار، والصلاة به والناس نيام، حتى لقد كان الذي يمرُّ ببيوت الصحابة في غسق الدجى، يسمع فيها دويًّا كدوي النحل بالقرآن وكان الرسول ﷺ يذكر فيهم روح هذه العناية بالتنزيل، يبلاغهم ما أنزل إليه من ربه. ويمعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم، كما بعث مصعب ابن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته، يعلمانهم الإسلام، ويقرئانهم القرآن، وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للحفاظ والإقراء.

قال عبادة بن الصامت رضی الله عنه: « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجةً بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفصوا أصواتهم لئلا يتغالطوا ».

ومن هنا كان حفظ القرآن في حياة الرسول ﷺ جماعياً غفيراً ، منهم الأربعة  
الخطفاء ، وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبو هريرة ،  
وابن عمر ، وابن عباس ، وعمر بن العاص ، وابنه عبد الله ، ومعاوية ، وابن الزبير ،  
وعبد الله بن السائب ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وهؤلاء كلهم من المهاجرين ،  
رضوان الله عليهم أجمعين . وحفظ القرآن من الأنصار في حياته صلى الله عليه وسلم أبي  
ابن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، ومجمع بن حارثة ، وأنس  
ابن مالك ، وأبو زيد الذي سئل عنه أنس فقال إنه أحد عمومي (رضي الله عنهم أجمعين) .  
وقيل إن بعض هؤلاء إنما أكمل حفظه للقرآن بعد وفاة النبي ﷺ . وأيا ما تكن الحال ،  
فإن الذين حفظوا القرآن من الصحابة كانوا كثيرين ، حتى كان عدد القتل منهم بيئر  
معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة . قال القرطبي « قد قتل يوم اليمامة سبعون من  
القرءاء . وقتل في عهد رسول الله ﷺ بيئر معونة مثل هذا العدد » .

قال المحقق ابن الجزرى : « ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور  
لا على خط المصاحف والكتب . وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة ، ففي  
الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال : « إِنْ رَبِّي قَالَ لِي قُمْ فِي  
قَرَيْشٍ فَأَنْذِرْهُمْ ، فَتَلَّ لَهْ : أَي رَبِّ إِذْنٍ يَثْلُغُوا رَأْسِي حَتَّى يَدْعُوهُ خَبَزَةٌ . فقَالَ :  
إِنِّي مَبْتَلِيكَ وَمَبْتَلِي بَكَ ، وَمَنْزِلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَفْسَلُهُ الْمَاءُ ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ ،  
فَابْعَثْ جُنْدًا أَبْعَثْ مِثْلَهُمْ ، وَقَاتِلْ بَيْنَ أَطَاعِكَ مِنْ عَصَاكَ . وَأَنْفَقْ يَنْفَقْ عَلَيْكَ »  
فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء ، بل يقرأ في كل  
حال كما جاء في صفة أمته « أناجيلهم صدورهم » وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين  
لا يحفظونه إلا في الكتب ، ولا يقرءونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب » . ١٠٥  
ما أردنا نقله .

ولا يشكرك عليك في هذا المقام ما جاء في صحيح البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : « مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة ، أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد . قال : « ونحن ورثناه » وأبو زيد هذا اسمه قيس بن السكن كما رواه أبو داود بإسناد على شرط الشيخين . وإنما قلنا لا يشكرك عليك هذا الحديث ، لأن الحصر الذى تلحقه فيه حصر نسبي ، وليس حصرأ حقيقياً حتى ينفي أن يكون غير هؤلاء الأربعة قد جمعه على عهد رسول الله ﷺ .

والدليل على أن هذا الحصر إضافي لا حقيقي هو ما رواه البخارى عن أنس نفسه أيضاً وقد سأله قتادة عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » . فأنت ترى أن أنساً في هذه الرواية ذكر من الأربعة أبي بن كعب بدلاً من أبي الدرداء في الرواية السابقة . وهو صادق في كلتا الروايتين لأنه ليس بمعقول أن يكذب نفسه ، فتعين أنه يريد من الحصر الذى أورده الحصر الإضافي ، بأن يقال إن أنساً رضى الله عنه تعلق غرضه في وقت ما بأن يذكر الثلاثة ، ويذكر معهم أبي بن كعب دون أبي الدرداء ، حاصراً للجمع فيهم ، ثم علق غرضه في وقت آخر بأن يذكر الثلاثة ويذكر معهم أبا الدرداء دون أبي بن كعب .

وهذا التوجيه وإن كان بعيداً ، إلا أنه يتمين المصير إليه جمعاً بين هاتين الروايتين ، وبينهما وبين روايات أخرى ذكرت غير هؤلاء . ومن هنا قال المناوردي : لا يلزم من قول أنس رضى الله عنه « لم يجمعه غيرهم » أن يكون الواقع كذلك في نفس الأمر ، لأنه لا يمكن الإحاطة بذلك ، مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد ، ولا يتم له ذلك إلا إذ كان قد لقي كل واحد منهم ، وأخبر عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ . وهذا في غاية البعد في العادة . وكيف يكون الواقع ما ذكر ، وقد جاء في صحيح البخارى أيضاً من طريق حفص بن عمر أن النبي ﷺ يقول : « خذوا

القرآن عن أربعة : عن عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب « والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين وهما الأَوْلان ، واثنان من الأنصار وهما الأخيران . اهـ . ولعل مراد الماوردي بهذا نفي الحصر الحقيقي وتوجيه الحصر الإضافي ، على نحو ما بيننا مستدلين بحديث أنس نفسه كما رأيت ، وبالروايات الأخرى التي حكى بعضهم فيها التواتر ، وهي تصرح بأسماء أخرى غير أسماء هؤلاء الأربعة المذكورين في رواية أنس هذه . من تلك الروايات ما أخرجه النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر أنه قال : « جَمَعْتُ الْقُرْآنَ فَقَرَأْتُ بِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لَهُ : اقْرَأْهُ فِي شَهْرٍ . . . » إلى آخر الحديث . ومنها ما أخرجه ابن أبي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي قال : « جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمْسَةً مِنَ الْأَنْصَارِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَأَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ ، وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ » .

وذهب بعضهم إلى أن الجمع في حديث أنس المذكور مراد به الكتابة لا الحفظ . وبعضهم ذهب إلى أن المراد به الجمع بوجوه القراءات كلها ، أو تلقياً ومشافهةً عن الرسول ﷺ ، أو الجمع شيئاً فشيئاً حتى تكامل نزوله .

وللإمام أبي بكر الباقلاني أجوبة ثمانية يحاول بها دفع إشكال هذا الحديث . لكن ابن حجر ضعفها ، وغيره فنّدها . والخطب سهل على كل حال ، وفيما ذكرناه كفاية للخروج من هذا الإشكال .

غير أنه لا يفوتني أن أقضى لك على هذا الإشكال بكلمة أمجنتني عن المازري إذ يقول ما نصّه : « وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ، ولا متمسك لهم فيه فإننا لا نسلم حمله على ظاهره : سلمناه . ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك ؟ سلمناه لكن لا يلزم من كون كل من الجيم الغفير لم يحفظه كله ألا يكون حفظ مجموعهم

الجم الغفير . وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكل الكُلّ ولو على التوزيع كفى ، وقال القرطبي : « قد قتل يوم اليمامة سبعون ، وقتل في عهد النبي ﷺ بئثر معونة مثل هذا العدد . قال : وإنما خصّ أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم دون غيرهم ، أو لتكونهم كانوا في ذهنه دون غيرهم » اهـ .

ثم إن ما ذكرناه في هذا المقام لا يتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت صدورهم كتاب الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فقد أتم حفظ القرآن آلاف مؤلفة من الصحابة ، واشتهر بإقراء القرآن من بينهم سبعة : عثمان ، وعلى ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري . كلهم جمعوا التنزيل بين حنايا صدورهم ، وأقرءوه لكثير غيرهم . جازاهم الله أحسن الجزاء . آمين .

ولعلك أيها القارئ الكريم لا تستكثر منا هذا المجهود الطويل في حديث أنس السابق ، فإن بعض الملاحدة قد اتخذ منه مثاراً للطعن في تواتر القرآن . ومن وظيفتنا أن نردّ المطاعن ونفهم الطاعن . فأردنا أن نشبع الكلام في هذا الموضوع عند هذه المناسبة أداءً للواجب من ناحية ، ولستغنى عن إيراده في الشبهات الآتية من ناحية أخرى . « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ . إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

## جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم

قلنا : إن همة الرسول وأصحابه كانت منصرفةً أول الأمر ، إلى جمع القرآن في القلوب بحفظه واستظهاره ضرورة أنه نبي أمي<sup>١</sup> بعثه الله في الأميين . أضف إلى ذلك أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم في ذلك العهد . ومن هنا كان التعويل على الحفظ في الصدور ، يفوق التعويل على الحفظ بين السطور . على عادة العرب أيامئذ من جعل صفحات صدورهم وقلوبهم ، دواوين لأشعارهم وأنسابهم ومفاخرهم وأيامهم .

ولكن القرآن حظي بأوفى نصيب من عناية النبي ﷺ وأصحابه ، فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره ، عن عنايتهم بكتابته ونقشه ؛ ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم .

فها هو ذا رسول الله ﷺ ، قد اتخذ كتاباً للوحي ، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته ، مبالغةً في تسجيله وتقييده . وزيادةً في التوثق والضبط والاحتياط في كتاب الله تعالى ، حتى تظاهر الكتابة الحفظ ويُعاضد النقش اللفظ .

وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاوية ، وأبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت بن قيس ، وغيرهم . وكان صلى الله عليه وسلم يدلهم على موضع المكتوب من سوزته . ويكتبونه فيما يسهل عليهم من العُسب<sup>(١)</sup> واللائخاف<sup>(٢)</sup> ،

(١) العسب بضم العين والسين - جمع عسب - وهو جريد النخل ، كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف المريض .

(٢) اللخاف - بكسر اللام - جمع خلفه يفتح اللام وسكون الخاء وهي الحجارة الرقيقة . وقال الخطابي : صفائح الحجارة .

والرقاع<sup>(١)</sup>، وقطع الأديم<sup>(٢)</sup> وعظام الأكتاف والأضلاع. ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله ﷺ. وهكذا انقضى العهد النبوي السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط، بعيداً أنه لم يكتب في صحف ولا في مصاحف. بل كتب منشوراً كما سمعت بين الرقاع والعظام ونحوها مما ذكرنا.

روى عن ابن عباس أنه قال: « كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض مَنْ يكتب، فقال: « ضَمُّوا هَذِهِ السُّورَةَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُذَكَّرُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا ». وعن زيد بن ثابت قال: « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نُوَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرَّقَاعِ ».

وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول: « ضَمُّوا كَذَا فِي مَوْضِعٍ كَذَا ». ولا ريب أن جبريل كان لا يبصر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل.

أما الصحابة - رضوان الله عليهم - فقد كان منهم من يكتبون القرآن، ولكن فيما تيسر لهم من قرطاس أو كتف أو عظم أو نحو ذلك، بالتقدير الذي يبلغ الواحد عن رسول الله ﷺ. ولم يلتزموا توالي السور وترتيبها، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها، ثم خرج في سرية مثلاً فنزلت في وقت غيابه سورة، فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته، ثم يستدرك ما كان قد فاتته في غيابه، فيجمعه ويتتبعه على حسب ما يسهل له، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك. وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب

(١) الرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد.

(٢) الأديم: الجلد.

جزياً على عادة العرب في حفظ أسانها ، واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة .

### صفوة المقال :

وصفوة المقال أن القرآن كان مكتوباً كله على عهد الرسول ﷺ ، وكانت كتابته ملحوظاً فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها ، غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة ، وبعض ما هو ثابت بنجر الواحد ، وربما كتبه غير مرتب ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعاً في صحف ولا مصاحف عامة .

لماذا لم يجمع القرآن أيامئذ في صحف ولا مصاحف ؟

وإنما لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة :

أولها أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف . ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخته في مصاحف . فالمسلمون وقتئذ بنجر ، والقراء كثيرون ، والإسلام لم يسبحر عمرانه بعد ، والفتنة مأمونة ، والتمويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة ، وأدوات الكتابة غير ميسورة ، وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف وتوفى على الغاية ، حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها .

وثانيها : أن النبي ﷺ كان بضد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية

أو آيات .

ثالثها : أن القرآن لم ينزل مرة واحدة ، بل نزل منجماً في مدى عشرين سنة أو أكثر .

رابعها : أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله ، فقد علمت أن نزوله ، كان

على حسب الأسباب ، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات .

وأنت خبير بأن القرآن لو جمع في صحف أو مصاحف والحال على ما شرحنا



لكان عزيمة لتغيير الضحف أو المصاحف كما وقع نسخ، أو حدث سبب . مع أن الظروف لا تساعد، وأدوات الكتابة ليست ميسورة، والتمويل كان على الحفظ قبل كل شيء . . ولكن لما استقر الأمر بختام التنزيل ووفاء الرسول ﷺ ، وأمن النسخ، وتقرر الترتيب ، ووجدت من الدواعي ما يقتضي نسخه في صحف أو مصاحف ، وفق الله الخلفاء الراشدين فقاموا بهذا الواجب حفظاً للقرآن ، وحيطة لأصل التشريع الأول ، مصداقاً لقوله سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه

أدت الخلافة قيادها إلى أبي بكر رضي الله عنه بعد غروب شمس النبوة ، وواجهت أبا بكر في خلافته هذه أحداثاً شداداً ومشاكل صعب . منها موقعة اليمامة سنة ١٢ انتهى عشرة للهجرة . وفيها دارت رحى الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مُسَيِّئَةِ السُّكْرَابِ وكانت معركة حامية الوطيس ، استشهد فيها كثيراً من قراء الصحابة وحافظتهم للقرآن ، انتهى عددهم إلى السبعين ، وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة ، من أجلهم سالم مولى أبي حذيفة . ولقد هال ذلك المسلمين ، وعز الأمر على عمر ، فدخل على أبي بكر وأخبره الخبر واقترح عليه أن يجمع القرآن ، خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء . فتردد أبو بكر أول الأمر لأنه كان وقتاً عند حدود ما كان عليه الرسول ﷺ يخاف أن يجرّم التعبد إلى التبديل ، أو يسوقه الإنشاء والاختراع ، إلى الوقوع في مهاوى الخروخ والابتداع .

ولكنه بعد مداوغة بينه وبين عمر تجلّى له وجه المصلحة ، فاتفق بضوابط التكررة وشرح الله لها صدره وعلم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف ، والحفاظة عليه من الضياع والتعريف ، وأنه ليس من محذورات الأمور الخارجة ، ولا من البدع

والإضافات الفاسقة . بل هو مُسْتَمَدٌّ من التواعد التي وضعها الرسول بقشريع كتابة القرآن ، واتخاذ كُتَّابٍ للوحي ، وجمع ما كتبوه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه . قال الإمام أبو عبد الله المحاسبي في كتاب فهم السنن ما نصّه : « كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابتها ، ولكنه كان مُفَرِّقًا في الرقاع ، والأكتاف ، والعُصَب ، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكانٍ إلى مكانٍ مجتمعًا ، وكان ذلك بمنزلة أوراقٍ وُجِدَتْ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن منتشرًا ، فجمعها جامع وربطها بخيط ، حتى لا يضيع منها شيء » . هـ .

### تنفيذ أبي بكر للفكرة :

اهتمَّ أبو بكر بتحقيق هذه الرغبة ، ورأى بنور الله أن يندب لتحقيقها رجالاً من خيرة رجالات الصحابة هو زيد بن ثابت رضي الله عنه ، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ، ما لم يجتمع في غيره من الرجال ، إذ كان من حُفَّاظِ القرآن ، ومن كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد العرْضَةَ الأخيرة للقرآن في ختام حياته صلى الله عليه وسلم . وكان فوق ذلك معروفًا بخصوبة عقله ، وشدة ورعه ، وعظم أمانته ، وكمال خلقه ، واستقامة دينه . فاستشار أبو بكر عمر في هذا فوافقه . وجاء زيد فمرض أبو بكر عليه الفكرة ورغب إليه أن يقوم بتنفيذها ، فتردَّد زيدٌ أول الأمر ، ولكن أبا بكر ما زال به يعالج شكوكه ، ويبين له وجه المصلحة ، حتى اطمأنَّ واقتنع بصواب ما ندب إليه ، وشرع يجمع ، وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ، ويعاونونه في هذا المشروع الجليل ، حتى تمَّ لهم ما أرادوا « وَيَأْتِي اللهُ إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

وفي ذلك يروى البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

« أُرْسِلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ ( أي عقب استمهاد القراء السبعين

في واقعة اليمامة) فإذا عمرُ بنُ الخطابِ عنده . قال أبو بكرٍ رضِيَ اللهُ عنه: «إن عمر أتاني فقال: إنَّ القتلَ قد استَحَرَّ (أى اشتدَّ) يومَ اليمامةِ بقراءةِ القرآنِ ، وإني أخشى أن يستَحَرَّ القتلُ بالقراءةِ بالمواطنِ فيذهبَ كثيرٌ من القرآنِ وإني أرى أن تأمرَ بجمعِ القرآنِ . قلتَ لعمر: كيف نفعُ ما لم يفعله رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم؟ قال عمر: هذا واللهِ خيرٌ ، فلم يزل عمرُ يراجعني حتى شرحَ اللهُ صَدْرِي لذلك ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمرُ . قال زيد: قال أبو بكرٍ: إنَّكَ رجلٌ شابُّ عاقلٌ لا تهملك ، وقد كنتَ تكتبُ الوَحْيَ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَتَتَّبِعُ القرآنَ فأجمعه . فوالله لو كلفوني نقلَ جبلٍ من الجبالِ ، ما كانَ أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمعِ القرآنِ ! قلتَ: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم؟ قال: هو واللهِ خيرٌ فلم يزل أبو بكرٍ يراجعني ، حتى شرحَ اللهُ صَدْرِي لِذِي لِذِي شرحَ له صدرَ أبي بكرٍ وعمر . فتنبعتُ القرآنَ أجمعه من العُسْبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرَّجَالِ ، حتى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ معَ أَبِي خَزِيمَةَ الْأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهَا معَ أَحَدٍ غَيْرِهِ « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » حتى خاتمةِ براءة . فكانتِ الصحفُ عندَ أبي بكرٍ حتى تَوَفَّاهُ اللهُ ، ثم عندَ عمرَ حَيَاتَهُ ، ثم عندَ حَفْصَةَ بنتِ عمرَ « اه .

فهذا الحديث - كما ترى - يدلُّ على مبلغِ اهتمامِ كبارِ الصحابةِ بالمحافظةِ على القرآنِ وعلى مبلغِ ثقةِ أبي بكرٍ وعمرَ بزید بنِ ثابت ، وعلى جِدَارَةِ زیدِ بهذهِ الثقةِ لتوافرِ تلكِ المناقبِ التي ذكرها فيه أبو بكرٍ . ويؤيدُ ورعَهُ ودينَهُ وأمانتَهُ قوله: « فوالله لو كلفوني نقلَ جبلٍ من الجبالِ ، ما كانَ أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمعِ القرآنِ » ويشهدُ بوفورِ عقلِهِ تَرُدُّهُ وتوقفهُ أولُ الأمرِ ومناقشتُهُ لِأبي بكرٍ حتى راجعه أبو بكرٍ وأقنعه بوجهِ الصوابِ . وينطقُ بدقَّةِ تحريره قوله: « فَتَتَّبِعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسْبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرَّجَالِ » اه . رضِيَ اللهُ عنه وأرضاه ، ورضى عنهم وعنا أجمعين .

دُستور أبي بكر في كتابة الصحف :

وانتهج زيد في القرآن طريقة دقيقة مُحكمة وضمها له أبو بكر وعمر ، فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ وحذر دقيق ، وتحريات شاملة ، فلم يكتب بما حفظ في قلبه ، ولا بما كتب بيده ، ولا بما سمع بأذنه . بل جعل يقتبِع ويستقصي آخذاً على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين : أحدهما ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثاني : ما كان محفوظاً في صدور الرجال . وبلغ من مبالغته في الحيلة والحذر أنه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله ﷺ .

يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : « قديم عمر ، فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والمنسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان . »

ويدل عليه ما أخرجه أبو داود أيضا ، ولكن من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ، ولزيد : « اقمدا على باب المسجد ، فمن جاءك بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه » اه وهو حديث رجاله ثقات وإن كان منقطعا . قال ابن حجر : « المراد بالشاهدين : الحفظ والكتابة » .

وقال السنخاوى في جمال القراء ما يفيد أن المراد بهما رجلان عدلان إذ يقول ما نصه : « المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ » . ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده ، ولذلك قال في الحديث الذي رواه البخارى سابقاً ، لأنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبي خزيمة . أى لم يجدها مكتوبة إلا مع أبي خزيمة الأنصارى ، مع أن زيدا كان يحفظها ، وكان كثير من الصعابة يحفظونها . ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة ، زيادة في التوثق ، ومبالغة في الاحتياط . وعلى هذا

الدستور الرشيد ثم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير . وكان ذلك متقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ، ولعمر في الاقتراح ، ولزيد في التنفيذ ، وللصحابة في المعاونة والإقرار .

قال عليٌّ كرم الله وجهه : « أعظمُ الناسِ في المصاحفِ أجراً أبو بكر ، رحمةُ الله على أبي بكر ، هو أولُ من جمع كتابَ الله » أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن .

وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيدٌ بما تستحقُّ من عناية فائقة ، فحفظها أبو بكر عنده . ثم حفظها عمر بعده . ثم حفظها أمُّ المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر . حتى طلبها منها خليفة المسلمين عثمان رضى الله عنه ، حيث اعتمد عليها في استنساخ مصاحف القرآن . ثم ردّها إليها كما باتيك بيانه إن شاء الله .

مزايا هذه الصُّحف :

وامتازت هذه الصحف أولاً بأنها جمعت القرآن على أدقِّ وجوه البحث والتحرُّى ، وأسلم أصول التثبُّت العلمى ، كما سبق شرحه لك في الدستور السابق .  
ثانياً : أنه اقتصرَ فيها على ما لم تُنسخ تلاوته .

ثالثاً : أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها ، وتواتر ما فيها . ولا يطعن في ذلك التواتر مأمراً عليك من أن آخر سورة براءة لم يوجد إلا عند أبي خزيمة ، فإن المراد أنه لم يوجد مكتوباً إلا عنده ، وذلك لا ينافى أنه وُجد محفوظاً عند كثرة غامرة من الصحابة بلغت حدَّ التواتر ، وقد قلنا غير مرة : إن المعوَّل عليه وقتئذ كان هو الحفظ والاستظهار . وإنما اعتمد على الكتابة كمصدر من المصادر ، زيادة في الاحتياط ؛ ومباغنة في الدقة والحذر . ولا يعزُّبن عن بالك أن هذا الجمع كان شاملاً للأحرف

السبعة التي نزل بها القرآن تيسيراً على الأمة الإسلامية كما كانت الأحرف السبعة في الرقاع كذلك .

ملاحظة :

جمع القرآن في صحفٍ أو مصحفٍ على ذلك النمط الآنف بمزاياه السابقة التي ذكرناها بين يديك ، لم يعرف لأحدٍ قبل أبي بكر رضي الله عنه . وذلك لا ينافي أن الصحابة كانت لهم صحفٌ أو مصاحفٌ كتبوا فيها القرآن من قبل . لكنها لم تظفر بما ظفرت به الصحف المجموعة على عهد أبي بكر ، من دقة البحث والتحرّى ، ومن الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته ، ومن بلوغها حدّ التواتر ، ومن إجماع الأمة عليها ، ومن شمولها للأحرف السبعة كما تقدّم . وإذن لا يضيرنا في هذا البحث أن يقال إن علياً رضي الله عنه أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ ، ولا يعكّرُ صفوَ موضوعنا أن يستدلّوا على ذلك بما نقله السيوطي عن ابن الفرس من حديث محمد بن سيرين عن عكرمة قال : « لما كان بسده خلافة أبي بكر ، قعد علي بن أبي طالب في بيته ، فقيل لأبي بكر : قد كرهت بيعتك . فأرسل إليه ، فقال : أكرهت بيعتي ؟ فقال : رأيت كتاب الله يزادُ فيه ، فحدثتُ نفسي ألا ألبسَ ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه . قال له أبو بكر : فإنك نعمَ ما رأيت . قال محمد : فقلت لعكرمة : ألقوه كما أنزل الأول فالأول ؟ قال : لو اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يؤلقوه هذا التأليفَ ما استطاعوا . ١١٠ هـ وأخرج ابن أשתه من وجهٍ آخر عن ابن سيرين هذا الأثر ، وفيه أنه كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ ، وأن ابن سيرين قال : فطلبت ذلك الكتاب ، وكتبت فيه إلى المدينة ، فلم أقدر عليه . ١١٠ هـ .

نقول إن هذا الرواية وأشباهاها لا تضيرُ بحثنا ، ولا تعكّرُ صفوَ موضوعنا ، فقصاراها

أنها تثبت أن علياً أو بعض الصحابة كان قد كتب القرآن في مصحف . لكنها لا تغطي هذا المصحف تلك الصفة الإجماعية ، ولا تخلع عليه تلك المزايا التي للمصحف أو المصحف المجموع في عهد أبي بكر . بل هي مصاحف فردية ، ليست لها تلك الثقة ولا هذه المزايا . وإذا كانت قد سبقت في الوجود وتقدم بها الزمان فإن جمع أبي بكر هو الأول من نوعه على كل حال . وقد اعترف علي بن أبي طالب نفسه بهذه الحقيقة في الحديث الذي أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن آنفاً إذ قال : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » .  
فهذا اعتراف صريح من أبي الحسن بالأولية لجمع أبي بكر على النحو الآنف  
رضوان الله عليهم أجمعين .

### جمع القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه

انسمت الفتوحات في زمن عثمان ، واستبعر العمران ، وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار ، ونبتت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن . وطال عهد الناس بالرسول والوحي والتنزيل . وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام ، يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ، فأهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب ، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود ، وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري . فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة ، بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن ، أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف بل كان هذا الشقاق أشد ؛ لبعد عهد هؤلاء بالنبوة ، وعدم وجود الرسول بينهم ، يطمثون إلى حكمه ، ويصدرون جميعاً عن رأيه . واستفحل الداء حتى كفر بعضهم بعضاً ، وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير . ولم يفت هذا الطغيان عند حد ،

يل كاد يلفح بناره جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة ، وأصاب الصغار والكبار على سبوا .

أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة أنه قال : « لما كانت خلافة عثمان ، جعل المعلمُ يعلمُ قراءةَ الرجل ، والمعلمُ يعلمُ قراءةَ الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كفر بعضهم بعضاً ، فبلغ ذلك عثمان ، فخطب فقال : « أنتم عندي تختلفون ، فمن نأى عنى من الأمصار أشدُّ اختلافاً » .

وصدق عثمان ، فقد كانت الأمصار النائية أشدَّ اختلافاً ونزاعاً من المدينة والحجاز . وكان الذين يسمعون اختلاف القراءات من تلك الأمصار إذا جمعهم الجامع ، أو التقوا على جهاد أعدائهم ، يعجبون من ذلك . وكانوا يعنون في التعجب والإنكار ، كلما سمعوا زيادةً في اختلاف طرق أداء القرآن . وتأدى بهم التعجب إلى الشكِّ والمداجاة ، ثم إلى التائيم والملاحاة . وتيقظت الفتنة التي كادت تطيحُ فيها الرءوس ، وتسفك الدماء ، وتوقد المسلمين إلى مثل اختلاف اليهود والنصارى في كتابهم . كما قال حذيفة لعثمان في الحديث الآتي قريباً .

أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار ، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها ، حتى يتجأوا إليها فيما يختلفون . إنما كان كل صحابي في إقليم ، يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن . ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد .

لهذه الأسباب والأحداث ، رأى عثمان يناقب رأيه ، وصادق نظره ، أن يتدارك الخرف قبل أن يتسع على الرافع ، وأن يستأصل الداء ، قبل أن يعزَّ الدواء ، فجمع أعلام



الصحابة وذوى البصر منهم، وأجال الرأى بينه وبينهم فى علاج هذه الفتنة، ووضع حدًا لذلك الاختلاف، وحسم مادة هذا النزاع. فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها، وألا يعتمدوا سواها. وبذلك يرأب الصدع، ويجبر الكسر، وتعتبر تلك للمصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادى فى ظلام هذا الاختلاف، ومصباحهم السكشاف فى ليل تلك الفتنة، وحكمهم العدل فى ذلك النزاع والمراء، وشفاءهم الناجع من مصيبة ذلك الداء.

تنفيذ عثمان لقرار الجمع :

وشرع عثمان فى تنفيذ هذا القرار الحكيم، حول أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة، فعهد فى نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ، وهم زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام. وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش.

وأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر، فبعثت إليه بالمصحف التى عندها، وهى المصحف التى جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر رضى الله عنه. وأخذت لجنة الأربعة هؤلاء فى نسخها، وجاء فى بعض الروايات أن الذين ندبوا للنسخ المصاحف كانوا اثنى عشر رجلاً. وما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة، ويقرؤا أن رسول الله ﷺ قرأ على هذا النحو الذى نبجده الآن فى المصاحف.

دستور عثمان فى كتابة المصاحف :

ومما تواضع عليه هؤلاء الصحابة أنهم كانوا لا يكتبون فى هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن، وعلّموا أنه قد استقرّ فى العرصة الأخيرة، وما أيقنوا صحته عن النبى ﷺ مما لم ينسخ. وتركوا ما سوى ذلك نحو قراءة « فامضوا إلى ذكر الله » بدل كلمة « فاسموا » ونحو « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا »

بزيادة كلمة «صالحة» ، إلى غير ذلك . وإنما كتبوا مصاحف متعددة ، لأن عثمان رضى الله عنه قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين ، وهى الأخرى متعددة ، وكتبوها متفاوتةً فى إثبات وحذف وبدل وغيرها ، لأنه رضى الله عنه قصد اشتغالها على الأحرف السبعة . وجعلوها خالية من النقط والشكل ، تحقيقاً لهذا الاحتمال أيضاً . فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجرُّدها من النقط والشكل نحو «فَتَقَبَّلُونَا» من قوله تعالى «إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا» فإنها تصلح أن تقرأ «فَتَقَبَّلْتُوا» عند خلوها من النقط والشكل وهى قراءة أخرى ، وكذلك كلمة «نُنشِرُهَا» من قوله تعالى «وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا» فإن تجرُّدها من النقط والشكل كما ترى يجعلها صالحةً عندهم أن يقرءوها «نُنشِرُهَا» بالزاي ، وهى قراءة ولادة أيضاً ، وكذلك كلمة «أَفِ» التى ورد أنها تقرأ بسبعة وثلاثين وجهاً .

أما الكلمات التى لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً ، فإنهم كانوا يرسمونها فى بعض المصاحف برسم يدل على قراءة ، وفى بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية ، كقراءة «وَصَى» بالتضعيف و (أَوْصَى) بالهمز ، وهما قراءتان فى قوله سبحانه : «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ» وكذلك قراءة «تَمَحَّطَهَا الْأَنْهَارُ» وقراءة «مِنْ تَمَحَّطَهَا الْأَنْهَارُ» بزيادة لفظ «مِنْ» فى قوله تعالى فى سورة التوبة : «لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَمَحَّطَهَا الْأَنْهَارُ» وهما قراءتان أيضاً .

وصفوة القول : أن اللفظ الذى لا يختلف فيه وجوه القراءات ، كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة . أما الذى يختلف فيه وجوه القراءات ، فإن كان لا يمكن رسمه فى الخط محتملاً لتلك الوجوه كلها ، فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه فى مصحف ، ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى فى مصحف آخر . وكانوا يتعاشون أن

يكتبوه بالرسمين في مصحف واحد خشية أن يتوهم أن اللفظ نزل مكرراً بالوجهين في قراءة واحدة ، وليس كذلك . بل هما قراءتان نزل اللفظ في إحداهما بوجه واحد ، وفي الثانية بوجه آخر من غير تكرار في واحدةٍ منهما .

وكذلك كانوا يتحاشون أن يكتبوا هذا اللفظ في مصحف واحد برسمين : أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية ، لئلا يتوهم أن الثاني تصحيح للأول . أضف إلى ذلك أن كتابة أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية دون العكس تحكّم ، أو ترجيحٌ بلا مرجحٍ وذلك نحو كلمة ( وَصَى ) بالتضعيف و ( أَوْصَى ) بالهمز كما سبق .

أما اللفظ الذي تختلف فيه القراءات ، ويدلُّ عليه الرسم بصورة واحدة تحتل هذا الاختلاف ويساعدهم عليه ترك الإعجام والشكل نحو « فَتَقَبَّلْنَاهَا » « وَنُنشِرُهَا » كما سلف بيانه ، فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين ، شبيهة بدلالة المشترك اللفظي على كلا المعنيين المعقولين . والذي دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصاحف وكتابتها أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه قراءاته ، وبكافة حروفه التي نزل عليها ، فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها ، حتى لا يقال : إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته ، أو منعوا أحداً من القراءة بأي حرف شاء على حين أنها كلها منقولة نقلاً متواتراً عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورسول الله ﷺ يقول : « فَأَيُّ ذَلِكَ قَرَأْتُمْ أَصَبْتُمْ فَلَا تَمَارُوا » وكان من الدستور الذي وضعه عثمان رضي الله عنه لم في هذا الجمع أيضاً أنه قال لهؤلاء القرشيين « إِذَا اِخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدٌ ابْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَارْتَبِعُوا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ » ففعلوا حتى إذا نسخوا المصاحف في المصاحف رد عثمان المصحف إلى حفصة ؛ وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحزق .

وفي ذلك يروى البخارى في صحيحه بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه ، أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفرغ حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان للرهب القريشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ردد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا . وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق » هـ .

#### تحويل عثمان للمصاحف والصحف المخالفة :

بعد أن أتم عثمان نسخ المصاحف بالصورة السابقة ، عمل على إرسالها وإتخاذها إلى الأقطار ، وأمر أن يحرق كل ما عداها مما يخالفها ، سواء كانت صحفاً أم مصاحف . وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية ، وليحمل المسلمين على الجادة في كتاب الله من ناحية أخرى ، فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التي توافر فيها من الزايات ما لم يتوافر في غيرها .

وهذه الزايات هي :

(١) الاقتصار على ما ثبت بالتواتر ، دون ما كانت روايته آحاداً .

(٢) وإهمال ما نسخت تلاوته ولم يستقر في العرضة الأخيرة .

(٣) وترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن. بخلاف صحف أبي بكر رضى الله عنه فقد كانت مرتبة الآيات دون السور .

(٤) وكتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن ، على ما مرَّ بك من عدم إجماعها وشكلها ، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد .

(٥) وتجريدها من كل ما ليس قرآنًا كالذى كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى ، أو بياناً لناسخ ومنسوخ ، أو نحو ذلك .

وقد استجاب الصحابة لعثمان ، فحرقوا مصاحفهم ، واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية . حتى عبد الله بن مسعود الذى نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان ، وأنه أبى أن يحرق مصحفه ، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة ، حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية ، واجتماع الأمة عليها ، وتوحيد الكلمة بها .

وبعدئذٍ طهر الجوُّ الإسلامى من أوبئة الشقاق والنزاع ، وأصبح مصحف ابن مسعود ومصحف أبى بن كعب ، ومصحف عائشة ، ومصحف على ، ومصحف سالم مولى أبى حذيفة . أصبحت كلها وأمثالها فى خير كان ، مفسولة بالماء أو محروقة بالنيران . « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا »

ورضى الله عن عثمان ، فقد أَرْضَى بِذَلِكَ الْعَمَلِ الْجَلِيلِ رَبَّهُ ، وحافظ على القرآن ، وجمع كلمة الأمة ، وأغلق باب الفتنة ، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم .

ولن يقدح فى عمله هذا أنه أحرق المصاحف والمصحف المخالفة للمصاحف العثمانية ، فقد علمت وجهة نظره فى ذلك . على أنه لم يفعل ما فعل من هذا الأمر الجلل ، إلا بعد أن استشار الصحابة ، واكتسب موافقتهم ، بل وظفر بما وئنتهم وتأيدهم وشكرهم .

روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال : « سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس : اتقوا الله وإياكم والفُلُوكَ في عثمان ، وقولكم : حَرَّاقُ مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملامنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . » وعن عمر بن سعيد قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « لو كُنْتُ الوَالِيَّ وَقَتَ عثمان ، لَفَعَلْتُ في المصاحفِ مِثْلَ الَّذِي فَعَلَ عثمانُ » رضي الله عن الجميع ، وجزاهم أحسن الجزاء على هذا الصنيع .

فذلكه :

نستطيع مما سبق أن نفرق بين مرّات جمع القرآن في عهوده الثلاثة : عهد النبي ﷺ وعهد أبي بكر ، وعهد عثمان (رضي الله عنهما) فالجمع في عهد النبي ﷺ كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها في مكانها الخاص من سورها ، ولكن مع بَعَثَةِ الكتابة وتفرُّقها بين عُسْبٍ وعظام ، وحجارة ورقاع ، ونحو ذلك حسبما تيسر أدوات الكتابة ، وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثيق للقرآن ، وإن كان التعويل أيامئذ كان على الحفظ والاستظهار .

أما الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه فقد كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في صحف مرتب الآيات أيضاً ، مقتصرأ فيه على ما لم تُنسخ تلاوته مستوثقاً له بالتواتر والإجماع . وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعاً مرتباً ، خشية ذهاب شيء منه بموت حملته وحفظاً له .

وأما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه فقد كان عبارة عن نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد إمام ، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية ملاحظاً فيها تلك المزاي السالف ذكرها مع ترتيب سور وآياته جميعاً . وكان الغرض منه إطفاء الفتنة

التي اشتملت بين المسلمين حين اختلفوا في قراءة القرآن ، وجمع شملهم وتوحيد كلمتهم ،  
والمحافظة على كتاب الله من التغيير والتبديل . « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ  
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

### الردُّ على ما يثار حول جمع القرآن من شبهة

كان القرآن ولا يزال هدفاً لأعداء الإسلام ، يُسدِّدون إليه سهام المطاعن ، ويتخذون  
من علومه مشاراً للشبهات يلقنونها زوراً وكذباً ، ويروجونها ظلاماً وعدواناً . من ذلك  
ما نقضه عليك في موضوعنا هذا مشفوعاً بالتفنيد فيما يأتي :

### الشبهة الأولى وهي تعتمد على سبع شبهة

يقولون : إن في طريقة كتابة القرآن وجمعه ، دليلاً على أنه قد سقط منه شيء وأنه  
ليس اليوم بأيدينا على ما زعم محمد أنه أنزل عليه . واعتمدوا في هذه الشبهة على المزاعم  
الآتية :

(أولاً) أن محمداً قال : رحم الله فلاناً لقد أذكرني كذا وكذا آية . كنت  
أسقطهن ، ويرى أنسيهن . فهذا الحديث فيه اعتراف من النبي نفسه بأنه أسقط عمداً  
بعض آيات القرآن أو أنسيها .

(ثانياً) أن ما جاء في سورة الأعلى « سَنَقُرُّكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » يدلُّ  
بطريق الاستثناء الواقع فيه على أن محمداً قد أسقط عمداً أو أنسى آيات لم يتفق له من  
يذكره إياها :

(ثالثاً) أن الصحابة حذفوا من القرآن كل ما رأوا المصلحة في حذفه ، فمن ذلك

آية اللُّعْطَةِ أَسْقَطَهَا عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ بِنْتَةً ، وَكَانَ يَضْرِبُ مِنْ يَقْرُؤَهَا . وَهَذَا  
مِمَّا سَنَعْتُمْ عَائِشَةَ بِهِ عَلَيْهِ فَقَالَتْ : إِنَّهُ يَجْلِدُ عَلَى الْقُرْآنِ ، وَيَنْهَى عَنْهُ ، وَقَدْ بَدَّلَهُ  
وَحَرْفَهُ .

(رابعاً) أن أبي بن كعب حذف من القرآن ما كان يروي به ولا نجده اليوم في المصحف  
وهو : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَهْدِيكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ وَنُؤْمِنُ بِكَ  
وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ وَنُثْنِي عَلَيْكَ أَكْثَرَ كُلِّهِ . نَشْكُرُكَ وَلَا نَكْفُرُكَ ، وَنَحْمَلُ  
وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ . اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ .  
تَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخَافُ عَذَابَكَ ، إِنْ عَذَابَكَ الْجِدِّ بِالنَّكْفَارِ مُلْحَقٌ »

(خامساً) أن كثيراً من آياته لم يكن لها قيدٌ سوى تحفظ الصحابة ، وكان بعضهم  
قد قتلوا في معازي محمد وجرور خلفائه الأولين ، وذهب معهم ما كانوا يتخطفونه من  
قبل أن يُوعِزَ أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه ، فلذلك لم يستطع زيد أن يجمع سوى  
ما كان يتحفظه الأحياء .

(سادساً) أن ما كان مكتوباً منه على العظام وغيرها ، فإنه كان مكتوباً عليها  
بلا نظام ولا ضبط ، وقد ضاع بمضها . وهذا ما حدا العلماء إلى الزعم أن فيه آياتٍ نُسخت  
حرفاً لا حكماً . وهو من غريب اللزاعم . وحقيقة الأمر فيها أنها سقطت بِنْتَةً بضياح العظم  
الذي كانت مكتوبة عليه ، ولم يبق منها سوى المعنى محفوظاً في صدورهم .

(سابعاً) لما قام الحجاج بنصرة بنى أمية لم يبق مصحفاً إلا جمعه وأسقط منه  
أشياء كثيرة قد نزلت فيهم ، وزاد فيه أشياء ليست منه ، وكتب ستة مصاحف  
جديدة بتأليف ما أراه ووجه بها إلى مصر والشام ومكة والمدينة والبصرة والكوفة



وهي القرآن المتداول اليوم. وَعَمَدَ إِلَى المصاحف المتقدمة، فلم يبق منها نسخة إلا أغلَى لها  
الخلَّ وطرحها فيه حتى تقطعت . وإنما رام بما فعله أن يتزلف إلى بني أمية ،  
فلم يُبْقِ في القرآن ما يسوءهم .

### نقض هذه المزاعم الباطلة

ملخص هذه الشبهة أن القرآن الذي بأيدينا ناقص، سقط منه ما سقط، بدليل المزاعم  
السبعة التي سُقِنَاها أمامك . وإذن فلنمحص بين يدك هذه المزاعم ، لفأتى بنيان هذه  
الشبهة من القواعد .

(١) أما احتجاجهم الأول - وهو الحديث الذي أوردوه - فإنه لا ينهض حجة لهم  
فيما زعموا من الشك في الأصل الذي قامت عليه كتابة القرآن وجمعه . بل الأصل سليم  
قويم وهو وجود هذه الآيات مكتوبة في الوثائق التي استكتبتها الرسول ، ووجودها  
محفوظة في صدور أصحابه الذين تلقوها عنه ، والذين بلغ عددهم مبلغ التواتر ، وأجمعوا  
جميعاً على صحته . كما عُرِف ذلك في دستور جمع القرآن .

إنما قُصارى هذا الخبر أنه يدلُّ على أن قراءة ذلك الرجل ذكَّرت النبي ﷺ إياها ،  
وكان قد أنسيها أو أسقطها ( أى نسياناً ) .

وهذا النوع من النسيان لا يززع الثقة بالرسول ، ولا يشكك في دقة جمع القرآن  
ونسخته ، فإن الرسول ﷺ كان قد حفظ هذه الآيات من قبل أن يحفظها ذلك الرجل ،  
ثم استكتبها كتاب الوحي ، وبلغها الناس فحفظوها عنه ، ومنهم رجل الرواية عماد بن  
بشار رضى الله عنه على ما روى .

وليس في ذلك الخبر الذي ذكره رائحة أن هذه الآيات لم تكن بالمحفوظات التي  
كتبها كتاب الوحي ، وليس فيه ما يدلُّ على أن أصحاب الرسول كانوا قد نسوها جميعاً ،  
حتى يُخاف عليها وعلى أمثالها الضياع ، ويخشى عليها السقوط عند الجمع واستنساخ المصحف الإمام ،

كما يفترى أولئك الخرفاء صون. بل الرواية نفسها تثبت صراحة أن في الصحابة من كان يقرؤها وسمعا الرسول منه .

ثم إن دستور جمع القرآن - وقد مرّ آنفاً - يؤيد أنهم لم يكتبوا في المصحف إلا ما ظاهر الحفظ والكتابة والإجماع على قرآنيته : ومنه هذه الآيات التي يدور عليها الكلام هنا من غير ما شك .

ولا يفوتنك في هذا المقام أمران : ( أحدهما ) أن كلمة « أَسْقَطْتُهُنَّ » في بعض روايات هذا الحديث ، معناها أَسْقَطْتُهُنَّ نسياناً ، كما تدلُّ على ذلك كلمة « أُنْسِيْتُهُنَّ » في الرواية الأخرى . . ومحالُّ أن يُراد بها الإسقاط عمداً ، لأن الرسول ﷺ لا ينبغي له ولا يعقل منه أن يبدل شيئاً في القرآن بزيادة أو نقص من تلقاء نفسه، وإلا لكان خائناً أعظم الخيانة . والخائن لا يمكن أن يكون رسولاً .

هذا هو حكم العقل المجرد من الهوى، وهو أيضاً حكم النقل في كتاب الله؛ إذ يقول سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ، وإذ يقول جلّ ذكره : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي . إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ » .

( الأمر الثاني ) أن روايات هذا الخبر لا تنفيذ أن هذه الآيات التي سمعها الرسول من عبّاد بن بشرٍ قد آتحت من ذهنه الشريف جملةً غاية ما تنفيدها أنها كانت غائبة عنه ثم ذكرها وحضرت في ذهنه بقراءة عبّاد. وغيبة الشيء عن الذهن أو غفلة الذهن عن الشيء، غير محوه منه. بدليل أن الحافظ منا لأى نص من النصوص يعيب عنه هذا النص إذا اشتغل ذهنه بغيره، وهو يوقن في ذلك الوقت بأنه مخزون في حافظته بحيث إذا دعا إليه داعٍ استعرضه واستحضره ثم قرأه . أما النسيان التام المرادف لالتحاء الشيء من الحافظة، فإن الدليل قام على استحالتة على النبي ﷺ فيما يُحَلُّ بوظيفة الرسالة والتبليغ . وإذا عرض له نسيان فإنه سحابة صيف لا تجيء إلا لتزول . ولا ريب أن نسيان الرسول هنا كان بعد

أن أدّى وظيفته وبلغ الناس وحفظوا عنه . فهو نسيانٌ لم يخلّ بالرسالة والتبليغ .. قال  
البدر العيني في باب نسيان القرآن من شرحه لصحيح البخارى مانصّه :

وقال الجمهور : « جاز النسيان عليه ( أى على النبي ﷺ ) فيما ليس طريقه البلاغ  
والتعليم ، بشرط ألا يُقرَّ عليه ، بل لا بدّ أن يذكره . وأما غيره فلا يجوز قبل التبليغ ،  
وأما نسيان ما بلغه كما في هذا الحديث فهو جائز بلا خلاف » اهـ .

هذا . ولقد كنت في الطبعة الأولى تابعت بعض السكتين هنا في اتهام هذه الرواية  
بالدسّ والوضع ، ولكن تبين لى بعد إعادة النظر ، وتنبيه بعض ذوى الفطن ، أن الخبر  
صحيح رواه الشيخان ؛ ففي صحيح البخارى عن هشام عن عروة عن عائشة رضی الله عنها  
قالت « سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ . فَقَالَ : يَرْحُمُهُ اللَّهُ .  
لَقَدْ أَذُّ كَرْنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً مِنْ سُورَةِ كَذَا » . زاد في رواية أخرى : « وقال : أُسْقَطْتُهُنَّ  
مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا » .

وفي صحيح مسلم عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ  
مِنَ اللَّيْلِ ، قَالَ : « يَرْحَمُهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذُّ كَرْنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أُسْقَطُهَا مِنْ سُورَةِ  
كَذَا وَكَذَا »

وقال النووي في كتابه التبيان في آداب حملة القرآن مانصّه : « وثبت في الصحيحين  
أيضاً عن عائشة رضی الله عنها أن النبي ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ ، فَقَالَ : « رَحِمَهُ اللَّهُ .  
لَقَدْ أَذُّ كَرْنِي آيَةً كُنْتُ أُسْقَطُهَا » . وفي رواية في الصحيح « كُنْتُ أُنْسِيهَا » اهـ .  
سبحان ربى ! « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » .

(٢) وأما احتجاجهم الثانى وهو الاستثناء الذى فى قوله سبحانه « سُنُقِرْتُكَ فَلَا  
تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » فلا يدلُّ على ما زعموا ، لأنه استثناء صورى لا حقيقى . والحكمة  
فيه أن يعلن الله عباده أن عدم نسيانه ﷺ الذى وعده الله إياه فى قوله : « فَلَا تَنْسَى »  
إنما هو محض فضل من الله وإحسان ، ولو شاء سبحانه أن ينسيه لأنساه . وفى ذلك

الاستثناء الصوري فاندتان : إحداهما ترجع إلى النبي ﷺ حيث يشعر دائماً أنه مغمورٌ  
بنعمة الله وعنايته، مادام متذكراً للقرآن لا ينساه. والثانية تعود على أمته حيث يملكون  
أن نبههم ﷺ فيما خصه الله به من العطايا والخصائص لم يخرج عن دائرة العبودية ، فلا  
يفتنون فيه كما فتن النصارى في المسيح بن مريم .

والدليل على أن هذا الاستثناء صوري لا حقيقي أمران : (أحدهما) ما جاء في سبب  
النزول وهو أن النبي ﷺ كان يتعب نفسه بكثرة قراءة القرآن حتى وقت نزول الوحي ،  
مخافة أن ينساه. ووفلت منه، فاقترض رحمة الله بحبيبه أن يطمئنه من هذه الناحية، وأن  
يريمه من هذا العناء ، فنزلت هذه الآية . كما نزلت آية « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ  
بِهِ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنَهُ » وآية « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ  
وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » .

(ثانيهما) أن قوله « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله إياه .  
والمشيئة لم تقع بدليل ما مرَّ بك من نحو قوله : « إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنَهُ » . وإذاً  
فالنسيان لم يقع، للعلم بأن عدم حصول المعلق عليه يستلزم عدم حصول المعلق. فالذي عنده  
ذوق لأساليب اللغة ، ونظر في وجوه الأدلة ، يتردد في أن الآية وعد من الله أكيد ،  
بأن الرسول يقرئه الله فلا ينسى، وعداً منه على وجه التأييد، من غير استثناء حقيقي لوقت  
من الأوقات. وإلا لما كانت الآية مطمئنة له عليه الصلاة والسلام، ولما كان نزولها أشبه  
بالعبث وانمو الكلام .

قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره للاستثناء في هذه الآية ما نصه :  
« ولما كان الوعد على وجه التأييد والقرين ، ربما يوهم أن قدرة الله لا تسع غيره، وأن  
ذلك خارج عن إرادته جل شأنه، جاء بالاستثناء في قوله « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » ، فإنه إذا  
أراد أن ينسيك شيئاً لم يعجزه ذلك ، فالقصد هو نفي النسيان رأساً . وقالوا : إن ذلك

كما يقول الرجل لصاحبه « أنت سهيبي فيما أملك إلا ماشاء الله » لا يقصد الاستثناء شيء، وهو من استعمال القلة في معنى النفي. وعلى ذلك جاء الاستثناء في قوله تعالى في سورة هود « وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوزٌ » أى غير مقطوع. فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأييد والتخليد بكرم من الله وسعة جود، لا بتحقيم عليه وإيجاب، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب، لم يمنع من ذلك مانع.

وما ورد من أنه ﷺ نسي شيئاً كان يذكره، فذلك إن صح، فهو في غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التي أمر بتبليغها. وكل ما يقال غير ذلك، فهو من مدخلات الملحدين، التي جازت على عقول المغفلين، فلو نواها ما طهره الله، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة ﷺ، ويؤمن بكتاب الله أن يتلق بشيء من ذلك « اهـ ».

ذلك رأى في معنى الاستثناء، وثمة وجه آخر فيه، وهو أنه استثناء حقيقي، غير أن المراد به منسوخ التلاوة دون غيره، ويكون معنى الآية أن الله تعالى يقرئ نبيه فلا ينسيه إلا ماشاءه وهو ما نسخت تلاوته لحكمة من الحكم التي بينها العلماء في مبحث النسخ. والدليل على هذا قوله سبحانه في سورة البقرة: « مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا » قال العلامة أبو السعود في تفسيره: وقرئ « مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِكُهَا » وقرئ « مَا نُنسِكُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسخُهَا » والمعنى أن كل آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معاً، إلى بدل أو إلى غير بدل « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّنْهَا » أى نوع آخر هو خير للعباد بحسب الحال في النوع والثواب من الذاهبة. وقرئ « بقلب الهمزة ألفاً (أو مثلها) أى فيما ذكر من النفع والثواب » اهـ ما أردنا نقله. وأياما يكن معنى الاستثناء في آية « سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » فإنه لا يفهم منه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نسي حرفاً واحداً مما أمر بتلاوته وتبليغه للخلق،

وإبقاء التشريع على قراءته وقرآنيته من غير نسخ . وذلك على أن المراد من النسيان الحو التام من الذاكرة . أما إن أريد به غيبة الذهن عنه فقد سبق القول فيه قريباً . ولا تحسبن أن دواعي سهو الرسول ونسيانه تنال من مقامه ، فإنها دواع شريفة على حد ما قيل :

« يا سائل عن رسول الله كيف سها؟ والسهوء من كل قلب غافل لاهي  
سها عن كل شيء سره ، فسها عما سوى الله ، فالتعظيم لله

( ٤٣ و ) وأما احتجاجهم الثالث والرابع بأن الصحابة قد حذفوا من القرآن عند جمعه ما زأوا المصلحة في حذفه ، ومنه آية المتعة وضيعة الثنوت ، فهو احتجاج باطل قائم على إهمال النصوص الصحيحة المتضافرة على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن ، وكانوا أيقظ الخلق في حراسة القرآن ، ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر ، وردوا كل ما لم يثبت تواتره لأنه غير قطعي وبأبي عليهم دينهم وعقلهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعي . وقد سبق لك ما وضعوه من الدساتير المحكمة الرشيدة في كتابة الصحف على عهد أبي بكر ، وكتابة المصاحف على عهد عثمان . فارجع إليها إن شئت لتعرف مدى إمعان هؤلاء المبطلين في التجني والضلال .

وإذا كان هؤلاء الطاعنون يريدون أن يلزموا الصحابة ويعيبوهم بهذه الحيلة البالغة لكتاب الله ، حتى أسقطوا ما لم يتواتر ، وما لم يكن في العرصة الأخيرة ، وما نسخت تلاوته وكان يقرؤه من لم يبلغه النسخ ، تقول : إذا كانوا يريدون أن يلزموا الصحابة والقرآن بذلك ، فالأولى لهم أن يلزموا أنفسهم وأن يواروا سواتهم . لأن المسلمين كانوا ولا يزالون أكرم على أنفسهم من أن يقولوا في كتاب الله بغير علم ، وأن ينسبوا إلى الله ما لم تقم عليه حجة قاطعة ، وأن يسلكوا بالقرآن مسلك الكتب المحرفة والأنجيل المبدلة .

وإننا نذكر هؤلاء بتلك الكلمة التي يردّونها هم ، وهى : « من كان بيته من زجاج فلا يرجن<sup>١</sup> الناس بالحجارة » . ا .

وكلمة الفصل فى هذا الموضوع : أن آية المتعة التى يزعمون ، وصيغة القنوت التى يحكون ، لم تثبت قرآنيتهما حتى يكونا فى عداد القرآن ، وإن ادعوا قرآنيتهما فعليهما البيان : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

قال صاحب الانتصار ما نصّه : « إن كلام القنوت المروى أن أبى بن كعب أثبتّه فى مصحفه ، لم تقم الحجّة بأنه قرآن منزل ، بل هو ضربٌ من الدعاء ، وأنه لو كان قرآناً لتمثل إلينا نقل القرآن ، وحصل العلم بصحته » ثم قال « ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآناً منزلاً ثم نُسخ وأبيح الدعاء به وخلط بما ليس بقرآن . ولم يصحّ ذلك عنه ، إنما روى عنه أنه أثبتّه فى مصحفه ، وقد أثبت فى مصحفه ما ليس بقرآن من دعاء أو تأويل » ا ه . وهذا الدعاء هو القنوت الذى أخذ به السادة الخنفيه . وبعضهم ذكر أن أبا رضى الله عنه كتبه فى مصحفه ، وسماه سورة الخلع والحفد ، لورود مادّة هاتين الكلمتين فيه ، وقد عرفت توجيه ذلك .

والخلاصة أن بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم فى مصحف أو مصاحف خاصّة بهم ربما كتبوا فيها ما ليس بقرآن ، مما يكون تأويلاً لبعض ما غمض عليهم من معانى القرآن ، أو مما يكون دعاء يجرى مجرى أدعية القرآن فى أنه يصح الإتيان به فى الصلاة عند القنوت ، أو نحو ذلك ، وهم يعلمون أن ذلك كله ليس بقرآن . ولكن ندره أدوات الكتابة ، وكونهم يكتبون القرآن لأنفسهم وحدهم دون غيرهم ، هوّن عليهم ذلك ؛ لأنهم أمنوا على أنفسهم اللبس واشتباه القرآن بغيره . فظنّ بعض قصار النظر أن كل ما كتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن ، مع أن الحقيقة ليست كذلك إنما هى ما علمت . أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ أتى عليه حين من الدهر نهى

عن كتابة غير القرآن إذ يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه مسلم : « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلَيْمَحُهُ » وذلك كله مخافة الألبس والخلط والاشتباه في القرآن الكريم .

(٥) وأما احتجاجهم الخامس بأن كثيراً من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى تحفظ الصحابة ، وقد قتل بعضهم وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه ، فلا يُسَلَّم لهم ؛ لأن نفس ما كان يتحفظه الشهداء من القراء ، كان يتحفظه كثير غيرهم أيضاً من الأحياء الذين لم يُستشهدوا ولم يموتوا ، بدليل قول عمر : « وَأَخْشَى أَنْ يَمُوتَ الْقُرَاءُ مِنْ سَائِرِ الْمَوَاطِنِ » ومعنى هذا أن القراء لم يموتوا كلهم . إنما المسألة مسألة خشية وخوف . ومعلوم أن أبا بكر كان من الحفاظ ، وكذلك عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم ، وهؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن في الصحف ، وعاش منهم من عاش حتى نسخ في المصاحف وحينئذ فكتابة زيد ما كتبه ، هي كتابة لكل القرآن ، لم تفلت منه كلمة ولا حرف .

وكان القرآن كله مكتوباً كما سبق شرحه وبيانه ، حتى إن الصحابة في جمعه كانوا يستوتقون له بأن يعتمدوا على الحفظ والكتابة معاً ، دون الاكتفاء بأحدهما وكانوا فيما يعتمدون عليه من الكتابة يتأكدون من أنه كتب بين يدي النبي ﷺ ويطلبون على ذلك شاهدين ، كما سلف إيضاحه .

(٦) وأما احتجاجهم السادس بأن ما كان مكتوباً من القرآن على العظام ونحوها كان غير منظم ولا مضبوط الخ ؛ فينتقض ما أثبتناه آنفاً في جمع القرآن ، من أن ترتيب آياته كان توقيفياً ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرشد كُتَّاب الوحي أن يضعوا آية كذا في مكان كذا من سورة كذا . وكان يُقْرَأُ أصحابه كذلك ، ويحفظها الجميع ، ويكتبها من شاء منهم لنفسه على هذا النحو ، حتى صار ترتيب القرآن وضبط آياته معروفاً مستفيضاً بين الصحابة حفظاً وكتابة . ووجدوا ما كتب عند الرسول من القرآن ،



مرتب الآيات كذلك في كل رقعة أو عظمة ، وإن كانت العظام والرقاع منتشرة وكثيرة مُبعثرة . على أننا قررنا غير مرة أن التمويل كان على الحفظ والتلقي قبل كل شيء ، ولم يكن التمويل على المكتوب وحده ، فلا حرم كان في الحفظ والكتابة معاً ، ضمان للنظام والترتيب ، والضبط والحصر .

وأما قولهم في هذا الاحتجاج : « وقد ضاع بعضها » فيظهر أنهم استندوا في ذلك إلى ماورد من أنه فقدت آية من آخر سورة براءة ، فلم يجدوها إلا عند خزينة بن ثابت فظن هؤلاء أن هذا اعتراف منا بضياع شيء من مكتوب القرآن . وليس الأمر كما فهموا ، بل المعنى أن الصحابة لم يجدوا تلك الآية مكتوبة إلا عند خزينة بخلاف غيرها من الآيات ، فقد كانت مكتوبة عند عدّة من الصحابة ، ومع ذلك فقد كان الصحابة يقرءونها ويحفظونها ويعرفونها بدليل قولهم : فقدت آية . وإلا فما أدرام أنها فقدت من الكتابة لو لم يحفظوها ؟

وأما قولهم في هذا الاحتجاج أيضاً : إن ضياع ذلك البعض دعا الصحابة إلى دعوى النسخ وهو ممن غريب المزاعم ، فهو قولٌ أئيمٌ أرادوا به الطعن على النسخ وإنكاره ، وسيأتيك الكلام على النسخ وحكمته ودفع الشبه عنه في مبحث خاص إن شاء الله .

(٧) وأما احتجاجهم السابع بما نسبوه إلى الحجاج ، فهي نسبة كاذبة ، لا برهان لهم بها ، ولا دليل عليها . وهاهو التاريخ ، فليأتوا لنا منه بسُلطان مبين على أن الحجاج جمع المصاحف ، فضلاً عن أنه نقص منها أو زاد فيها . ولو أنه فعل ذلك لنقل إلينا متواتراً ، لأن هذا مما تتوافر الدواعي على نقله وتواتره ! وكيف يفعل ذلك ، والأمة كلها تُقرئه ، وأئمة الدين الموجودون في عهده كالحسن البصرى يسكتون ولا ينكرون ، ولا يبدفون ولا يستقتلون ؟ « إن هذا إلا اختلاق » .

ثم إن الحجاج كان عاملاً من العمال على بعض أقطار الإسلام ، فأنى له أن يجمع  
المصاحف ويحرقها فيما عدا ولايته التي هو عامل عليها ؟  
وإذا فرضنا أن الحجاج كان له من القوة والشوكة ما أسكت به كل الأمة في زمانه  
على هذا الخرق الواسع في الإسلام والقرآن ، فما الذي أسكت المسلمين بعد انقضاء عهد  
الحجاج ؟ وإذا كان الحجاج قد استطاع التحكم في المصاحف ، والتلاعب فيها بالزيادة  
والنقص ، فكيف استطاع أن يتحكم في قلوب الحفاظ وهم آلاف مؤلفة في ذلك العهد ،  
حتى يحرق منها ما شاء ويثبت ما أراد ؟ . . .

هذه دعاوى ساقطة ، تحمل أدلة سقوطها في ألقاظها ، وتدل على جرأة القوم وإغراقهم  
في الجهل والضلال . « وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » . نسأل الله السلامة بمنه وكرمه .  
أمين .

## الشبهة الثانية

يقولون : إن القرآن كما حصل فيه نقص عند الجمع، حصلت فيه زيادة . والدليل على ذلك إنكار ابن مسعود أن المعوذتين من القرآن ، وأن في القرآن ما هو من كلام أبي بكر وكلام عمر .

وننقض هذه الشبهة (أولاً) : بأن ابن مسعود لم يصح عنه هذا النقل الذي تمسكتم به من إنكاره كون المعوذتين من القرآن . والمسألة مذكورة في كثير من كتب التفسير وعلوم القرآن مع تحصيلها والجواب عليها .

وخلاصة ما قالوه : أن المسلمين أجمعوا على وجوب تواتر القرآن . وبشكل على هذا ما نقل من إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين . بل روى أنه حك من مصحفه المعوذتين ، زعما منه أنها ليستا من القرآن .

وقد أجابوا عن ذلك بمنع صحة النقل ، قال النووي في شرح المهذب مانعه : « أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد شيئاً منها كفر . وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » ١ هـ وقال ابن حزم في كتاب القدح الملعى : ( هذا كذب على ابن مسعود وموضوع ) . بل صح عن ابن مسعود نفسه قراءة عاصم ، وفيها المعوذتان والفاتحة . وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر « أنه صلى الله عليه وسلم قرأهما في الصلاة » . زاد ابن حبان من وجه آخر عن عقبة بن عامر أيضاً : « فإن استطعت ألا تفوتك قراءةهما في صلاة فافعل » ، وأخرج أحمد من طريق أبي العلاء بن الشَّخِير عن رجل من الصحابة أن النبي ﷺ قرأنا المعوذتين وقال له : إذا أنت صليت فاقرأ بهما . وإسناده صحيح .

(ثانياً) يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته،

كان قبل علمه بذلك ، فلما تبين له قرآنيتهما بعد ، تم التواتر ، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأيهما من القرآن .

قال بعضهم: «يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي صلى الله عليه وسلم ولم تتواترا عنده ، فتوقف في أمرها . وإنما لم ينكر ذلك عليه ، لأنه كان يصدد البحث والنظر ، والواجب عليه التثبت في هذا الأمر » اهـ . ولعل هذا الجواب هو الذي نستريح إليه النفس ، لأن قراءة عاصم عن ابن مسعود ثبت فيها للمعوذتان والفاطحة وهي صحيحة ، ونقلها عن ابن مسعود صحيح ، وكذلك إنكار ابن مسعود للمعوذتين جاء من طريق صححه ابن حجر . إذأ فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود ، جمعاً بين الروایتين .

وما يقال في نقل إنكاره قرآنية للمعوذتين يقال في نقل إنكاره قرآنية الفاتحة بل نقل إنكاره قرآنية الفاتحة ، أدخل في البطلان ، وأعرق في الضلال ، باعتبار أن الفاتحة أم القرآن وأنها السبع المثاني التي تُتَنَّى وتكرر في كل ركعة من ركعات الصلاة ، على لسان كل مسلم ومسلمة . فخش لا بن مسعود أن يكون قد خفي عليه قرآنيتهما ، فضلاً عن إنكاره قرآنيتهما . وقصارى ما نقل عنه أنه لم تكتبها في مصحفه ، وهذا لا يدل على الإنكار . قال ابن قتيبة مانصه : « وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه ، فليس لظنه أنها ليست من القرآن - معاذ الله - ، ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والذيان ، والزيادة والنقصان » اهـ ومعنى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود للفاتحة في مصحفه كان سببه وضوح أنها من القرآن ، وعدم الخوف عليها من الشك والتسيان والزيادة والنقصان .

( ثالثاً ) أننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر للمعوذتين وأنكر الفاتحة بل أنكر القرآن كله ، فإن إنكاره هذا لا يضرنا في شيء ، لأن هذا الإنكار لا ينفذ تواتر القرآن ، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر . ولم يقل أحد في الدنيا :

إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف . وإلا لأمكن هدم كل تواتر ، وإبطال كل علم قام عليه ، بمجرد أن يخالف فيه مخالف ، ولو لم يكن في العير ولا في النفي . قال ابن قتيبة في مشكل القرآن : - « ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن . لأنه رأى النبي ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه ، ولا نقول إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار » ٥١ .

(رابعا) أن ما زعموه من أن آية « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » الخ من كلام أبي بكر فهو زعمٌ باطل ، لا يستند إلى دليل ولا شبه دليل . وقد جاء في الروايات الصحيحة أنها نزلت في واقعة أحد ، لعتاب أصحاب رسول الله ﷺ على ما صدر منهم ، وأنها ليست من كلام أبي بكر . وذلك أنه لما أصيب المسلمون في غزوة أحد بما أصيبوا به ، وكسرت رباعية<sup>(١)</sup> النبي صلى الله عليه وسلم ، وشج<sup>(٢)</sup> وجهه الشريف ، وجحشت<sup>(٣)</sup> ركبته ، وشاع بين المقاتلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل . هنالك قال بعض المسلمين : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي فياخذ لنا أمانا من أبي سفيان . وبعضهم جلسوا وألقوا بأيديهم . وقال أناس من المنافقين : إن كان محمد قد قتل ، فالحقوا بدينكم الأول فقال أنس بن النضر عم مالك : إن كان محمد قتل ، فإن رب محمد لم يقتل . وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه . ثم قال : اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء ، (يعني المسلمين) وأبرأ إليك مما قال هؤلاء (يعني المنافقين) ، ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قتل رضي الله عنه .

وروي أن أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك ، فقد ورد أنه قال :

(١) الرباعية : هي السن التي بين الناب والثنية . (٢) شجُّ الوجه : جرحه .

(٣) جحشُ الركبة : خدشها .

عرفت عينيه تحت المغفر تزهران ، فنادت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين : أبشروا !  
هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاحاز إليه ثلاثون من أصحابه رضی الله عنهم  
ينافحون عنه . ثم لام النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على الفرار . فقالوا : يا رسول الله  
فدينناك بأبائنا وأبنائنا . أنا الخبير أنك قتلت ، فرعبت قلوبنا ، فولينا مدبرين ، فأنزل  
الله تعالى هذه الآية : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ  
أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَبْصُرَ اللَّهَ شَيْئاً » الخ  
من سورة آل عمران .

والظاهر أن هؤلاء الطاعنين بزيادة هذه الآية وأنها من كلام أبي بكر ، يعتمدون  
فيها طعنوا على ما كان من عمر يوم وفاة رسول الله ﷺ ، ومن ردّ أبي بكر عليه بهذه  
الآية ، فزعموا أنها من كلام أبي بكر ، وما هي من كلام أبي بكر . إنما هي من كلام  
رب العزة ، أنزلها قبل وفاة الرسول ﷺ بيضع سنين ، والمسلمون جميعاً - ومنهم أبو بكر  
وعمر - يحفظونها ويعرفونها . غير أن منهم من ذهل عنها كعمر ، لمول الحادث وشدة  
الصدمة ، وتصدع قلبه بموت رسول الرحمة وهادى الأمة ﷺ .

وكان من آثار ذلك أن عمر رضی الله عنه غفل عن هذه الآية يوم توفي رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فقام يومئذ وقال : « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله  
ﷺ توفي . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات . ولكنه ذهب إلى ربه ، كما  
ذهب موسى بن عمران . فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : مات .  
والله ليرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم كارجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ،  
زعموا أن رسوله الله ﷺ مات .

هنالك نهض أبو بكر بنقذ الموقف فقال : على رسلك يا عمر ، أنصت ، فحمد الله  
وأثنى عليه . ثم قال : أيها الناس : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان

يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » إلى آخرها . قال الراوى : فوالله ، لكانَّ الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يؤمئذ ، فأخذها الناس من أبي بكر . وقال عمر : ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، ففقرت<sup>(١)</sup> حتى وقعت على الأرض ، ما تحملنى رجلاى وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات « ا ه .

وهذه الآية - كما ترى - لا يشم منها رائحة أنها من كلام أبي بكر ، بل هي تحمل في طيها أدلة كونها من كلام الله ، وأن الصعابة يعلمون أنها من كلام الله ، نزلت قبل أن ينزل بهم هذا الخطب الفادح بوضع سنين . ولكن ما الحيلة فيمن أعمام الهوى والتعصب ؟ « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

(خامساً) : أن ما ادَّعوه من أن آية « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّىً » من كلام عمر ، مردوداً أيضاً بمثل ما رددنا به زعمهم السابق في آية « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » الخ . بل زعمهم هذا أظهر في البطلان ، لأن الثابت عن عمر أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم « لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى » فنزلت « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّىً » في سورة البقرة . وهناك فرق بين كلمة عمر في تمنّيه الذى هو سبب النزول ، وبين كلمة القرآن الفازلة بذلك السبب ، فأنت ترى أن الآية جاء فيها الفعل بصيغة الأمر ولم يقرن بلفظ « لو » . أما تمنّى عمر فجاء الفعل فيه بصيغة الماضى وقرن بلفظ « لو » . وتحقيق القرآن أمنيةً أو أمنياتٍ لعمر ، لا يدل على أن ما نزل تحقيقاً لهذه التمنيات يعتبر من كلام عمر . بل البعد بينهما شاسع ، والبون بعيد .

(١) قال فى المختار : « والعقر بفتح الحين : أن تسلّم الرجل قوائمه فلا يستطيع أن يقاتل من الفرق والدهش . وبابه طرب . ومنه قول عمر رضى الله عنه : ففقرت حتى خررت إلى الأرض » ا ه .

### الشبهة الثالثة

يزعم بعض غلاة الشيعة أن عثمان ومن قبله أبو بكر وعمر أيضاً حرّفوا القرآن، وأسقطوا كثيراً من آياته وسوره. ورووا عن هشام بن سالم من أبي عبد الله: أن القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ كان سبعة عشر ألف آية<sup>(١)</sup>. وروى محمد بن نصر عنه أنه قال: كان في سورة «لم يكن» اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم. وروى محمد ابن جهم الملالى وغيره عن أبي عبد الله أن لفظ «أمة هي أربي من أمة» في سورة النحل ليس كلام الله، بل هو محرف عن موضعه، وحقيقة المنزل «أمة هي أركي من أمتكم». ومنهم من قال: إن للقرآن كانت فيه سورة تسمى سورة الولاية وأنها أسقطت بتأمرها، وأن أكثر سورة الأحزاب سقط؛ إذ أنها كانت مثل سورة الأنعام، فأسقطوا منها فضائل أهل البيت. وكذلك ادعوا أن الصحابة أسقطوا لفظ «وَيْلَكَ» من قبل «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» وأسقطوا لفظ «عَنْ وِلَايَةِ عَلِيٍّ» من بعد «وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُؤُونَ» وأسقطوا لفظ «بِعَلِيٍّ بن أبي طالب» من بعد «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» وأسقطوا لفظ «آل مُحَمَّدٍ» من بعد «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا» إلى غير ذلك.

فالقرآن الذي بأيدي المسلمين اليوم شبرقاً وغرباً، أشدّ تحريفًا عند هؤلاء الشيعيين من التوراة والإنجيل، وأضعف تأليفاً منها وأجمع للأباطيل! «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟».

وننقض هذه الشبهة بما يأتي :-

(أولاً) أنها اتهامات مجردة عن السند والدليل، وكانت لا تستحق الذكر لولا

(١) مع العلم بأن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ومثنا آية وكسور كما يأتي.



أن ردّها بعض الملاحدة ، وربما يحدّث بها بعض المفتونين . ويكفي في بطلانها أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يقيموا عليها برهاناً ولا شبه برهان .

« والدعاوى مالم يُقيموا عليها بَيِّنَاتٍ ، أبنائِها أذعِياءُ »

ولكن هكذا شاءت حقاقتهم وسفاهتهم ! « وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .

(ثانياً) أن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرأ من هذا السخف ، ولم يُطلق أن يكون منسوباً إليهم وهو منهم ، فعزاه إلى بعض من الشيعة جمع بهم التفكير وغاب عنهم الصواب قال الطبرسي<sup>(١)</sup> في مجمع البيان مانصه: « أما الزيادة فيه - أي القرآن - فجمع على بطلانها . وأما النقصان فقد روى عن قوم من أصحابنا وقوم من الحشوية . والصحيح خلافه . وهو الذي نصره المرتضى ، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء » . ٥١ .

وقال الطبرسي أيضاً في مجمع البيان مانصه: « أما الزيادة في القرآن فجمع على بطلانها ، وأما النقصان فهو أشد استحالة . ثم قال : إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية اشتدّت ، والدواعي توفّرت على نقله وحراسته ، وبلغت إلى حد لم يبلغه شيء فيما ذكرناه ، لأن القرآن مفخرة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون معيّراً أو منقوصاً ، مع العناية الصادقة والضبط الشديد ؟ » ٥١ .

(ثالثاً) أن التواتر قد قام ، والإجماع قد انعقد ، على أن الوجود بين دفّتي المصحف كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تغيير ولا تبديل . والتواتر طريق

(١) الطبرسي من رؤساء الشيعة ، وكتابه مجمع البيان هو المرجع عندهم .

واضحة من طرق العلم . والإجماع سبيل قويم من سبيل الحق . « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » .

(رابعاً) أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - وهو الذي يزعمون أنهم يناصرونه ويتشيعون له بهذه الهدايات - صحَّ النقل عنه بتحديد جميع القرآن ، على عهد أبي بكر ثم عهد عثمان . ولعلك لم تنس أنه قال في جمع أبي بكر ما نصه : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » . وكذلك قال في جمع عثمان ما نصه : « يا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والغلو في عثمان ، وقولكم : حرَّاقُ مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملاء منا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقوله : « لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلتُ في المصاحفِ مثلَ الذى فعل عثمانُ » وبهذا قطع الإمام السنة أولئك المفترين ، وردَّ كيدهم في نحوهم مخذولين . فآين يذهبون ؟ « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » ؟ .  
« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

(خامساً) : أن الخلافة قد انتهت إلى علي كرم الله وجهه بعد أبي بكر وعمر وعثمان ، فماذا منعه أن يجهر وقتئذ بالحق في القرآن ، وأن يوضح للناس ما أخطأ فيه أسلافه على هذا الزعم والبهتان ؟ مع أنه الإمام المعصوم في عقيدة أولئك المبطلين ، ومع أنه كان من سادات حفظة القرآن ، ومن أشجع خلق الله في نصرة الدين والإسلام . ولقد صار الأمر بعده إلى ابنه الحسن رضى الله عنه ، فماذا منعه الآخر من انتهاز هذه الفرصة كي يظهر حقيقة كتاب الله للأمة . هذه مزاعم لا يقولها إلا مجنون ، ولا يصدق بها إلا مافون !!

وصف هذا

الشبهة الرابعة

يقولون : ورد أن عبد الله بن مسعود قال : « يا معشر المسلمين . أُعزّل عن نسخ  
المصاحف ، ويتولاه رجلٌ - والله - لقد أسلمتُ وإنه لفي صلبِ رجلٍ كافرٍ ؟ » اه .  
قالوا : وهو يعني بهذا الرجل زيد بن ثابت ، ويريد بذلك الكلام الطعن على  
جمع القرآن . وهذا يدلُّ بالتالي على أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس موضع ثقة ،  
ولم يبلغ حدّ التواتر .

وننقضُ شبهتهم هذه . ( أولاً ) بأن كلام ابن مسعود هذا - إذا صحَّ - لا يدل  
على الطعن في جمع القرآن ، إنما يدلُّ على أنه كان يرى في نفسه أنه هو الأولى أن يسند  
إليه هذا الجمع ، لأنه كان يثق بنفسه أكثر من ثقته بزید في هذا الباب . وذلك لا ينافي  
أنه كان يرى في زيد أهليةً وكفايةً للنهوض بما أسند إليه ، وإن كان هو في نظر  
نفسه أكفأ وأجدر . غير أن المسألة تقديرية ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان  
لزید أصدق من تقدير ابن مسعود له . كيف وقد عرفت فيما سبق مجموعة المؤهلات والمزايا  
التي توافرت فيه ، حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية . أضف إلى ذلك أن  
عثمان ضمَّ إليه ثلاثة ، ثم كان هو وجمهور الصحابة مُشرفين عليهم مراقبين لهم ، وناهيك  
في عثمان أنه كان من حفاظ ومعلمي القرآن !

وخلاصة هذا الجواب أن اعتراض ابن مسعود - على فرض صحته - كان منصباً  
على طريقة تأليف لجنة الجمع ، لا على صحة نفس الجمع . مع أن كلمة ابن مسعود السالفة  
لا تدلُّ على أكثر من أنه كان يكتبرُ زيداً بزمن طويل ، إذ كان عبد الله مسلماً  
وزيد لا يزال ضميراً مستتراً في صلب أبيه . وإيس هذا بطعن في زيد ، فكم ترك  
الأول للآخر . ولو كان الأمر بالسن لا ختل كثير من نظام الكون . ثم إن كلمة

ابن مسعود ربما يفهم منها الطعن في زيد من ناحية أن أباه كان كافراً ، ولكن هذا ليس بطعن ، فكثير من أكابر الصحابة كانوا في مبدأ أمرهم كفاراً ، وخرجوا من أصلاب آباء كافرين . والله تعالى يقول : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » ويقول : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » .

(ثانياً) : أننا إذا سلمنا صحة ما نقل عن ابن مسعود ، وسلمنا أنه أراد الطعن في صحة جمع القرآن ، لا نسلم أنه دام على هذا الطعن والإنكار ، بدليل ما صح عنه أنه رجع إلى ما في مصحف عثمان ، وحرق مصحفه في آخرة الأمر ، حين تبين له أن هذا هو الحق ، وبدليل ما صح عنه من قراءة عاصم عن زُرعة ، وقد تقدم .

(ثالثاً) أن كلام ابن مسعود هذا - على تسليم صحته وأنه أراد به الطعن في صحة الجمع ، وأنه دام عليه ولم يرجع عنه - لا نسلم أنه بدل على إبطال تواتر القرآن فإن التواتر كما أسلفنا يكفي في القطع بصحة مرويه أن ينقل عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب بشرطه ، وليس من شروطه ألا يخالف فيه مخالف حتى يقدر في تواتر القرآن أن يخالف فيه ابن مسعود أو غير ابن مسعود ، ما دام جم غفير من الصحابة قد أقروا جمع القرآن على هذا النحو في عهد أبي بكر مرة ، وفي عهد عثمان مرة أخرى .

### الشبهة الخامسة

يقولون : كيف يكون القرآن متواتراً . مع ما يروى عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد أبي بكر ما نصه : « فقامت فتتبع القرآن أجمه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره ، وهما « لقد جاءكم رسول » إلى آخر السورة .

ثم كيف يكون القرآن متواتراً ، مع ما يروى أيضاً عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد عثمان ما نصه : « فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب كنتُ أسمعُ رسولَ الله ﷺ يقرأها ، لم أجد لها مع أحدٍ إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » ؟

والجواب على هذه الشبهة (أولاً) أن كلام زيد بن ثابت هذا ، لا يبطل التواتر . وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة ، لم تثبت قرآنيتهما بقول أبي خزيمة وحده . بل ثبتت بأخبار كثيرة غامرة من الصحابة عن حفظهم في صدورهم ، وإن لم يكونوا كتبوه في أوراقهم . ومعنى قول زيد : « حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عند غيره » أنه لم يجد الآيتين اللتين هما ختام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أبي خزيمة ، فالذي انفرد به أبو خزيمة هو كتابتهما لا حفظهما ، وليس الكتابة شرطاً في التواتر ، بل المشروط فيه أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ولو لم يكتبه واحد منهم ، فكتابة أبي خزيمة الأنصاري كانت توثيقاً واحتياطاً فوق ما يطلبه التواتر ويقضيه ، فكيف نقدر في التواتر بانفراده بها !؟

(ثانياً) يقال مثل ذلك فيما روى عن زيد في آية سورة الأحزاب : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » فإن معناه أن زيدا لم يجدها مكتوبة عند أحد إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصاري . ويدلُّ على أن هذا هو المعنى الذي أراده زيد بعبارة تلك ، قولُ زيد نفسه فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب الخ ، فإن تعبيره بلفظ « فقدتُ » يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية ، وأنها كانت معروفة له ، غير أنه فقد مكتوبها ، فلم يجدها إلا مع خزيمة ، وإلا فمن الذي أنبأ زيدا أنه فقد آية ؟

(ثالثاً) أن كلام زيد فيما مضى من ختام التوبة وآية الأحزاب ، لا يدل على

عدم توأترهما ، حتى على فرض أنه يريد انفراد أبي خزيمه وخزيمه بذكرهما من حفظهما .  
غاية ما يدل عليه كلامه ، أنهما انفردا بذكرهما ابتداء ، ثم تذكر الصحابة ما ذكرناه ،  
وكان هؤلاء الصحابة جمعاً يؤمن تواطؤهم على الكذب ، فدونت تلك الآيات في الصحف  
وللصحف ، بعد قيام هذا التواتر فيها .

### الشبهة السادسة

يقولون : كانت الآيات تكتب على الحجارة وسعف النخل والعظام خوفاً عليها  
من الضياع ، وبقي جانب كبير منها محفوظاً في صدور الرجال . وقد نشأ عن ذلك عدة  
مشاكل يعتبرها الباحثون فيه كافية لإثبات كون القرآن الخالي لا يحتوي جميع الآيات  
التي نطق بها محمد ، وبمضها يختلف في القراءة واللفظ والمعنى . ويقولون بعبارة أخرى  
إنه من المستحيل أن يكون القرآن الخالي حاوياً لجميع ما أنزل ، إذ من المؤكد أنه ذهب  
منه جانب ليس بقليل ، وأنسى منه جانب آخر ، قال ابن عمر : « لا يقولن أحدكم  
قد أخذت القرآن كله . قد ذهب منه كثير . ولكن ليقل : قد أخذت ما ظهر منه » .  
فهذا يثبت أن القرآن الخالي لا يتضمن جميع ما كان مسطوراً في اللوح المحفوظ . ولا هو  
طبق ما نطقت به شفتا محمد ، سيما أن في آيات عديدة منه اختلافات مدهشة ، ولا يعلم  
نصها الصحيح أحد » اهـ .

وننقض هذه الشبهة بما يأتي :

(أولاً) أن كتابة القرآن على الحجارة والسمف والعظام ، وبقاء جانب كبير منه  
مخفوظاً في صدور الرجال ، لا يلزم منه مشكلة واحدة فضلاً عن عدة مشاكل ، إنما  
هو وهم من الأوهام تخيلوه نخالوه ، وبدليل أنهم لم يذكروا سندهم فيما ذهبوا إليه من  
هذا الشطط .

(ثانياً) أن الحجارة وسعف النخل والعظام التي كتبت عليها بعض آيات القرآن لم تكن بحيث يمكن أن يتخيل أولئك الطاعنون أو يخيلوا إلى الناس أنها لا تصلح للكتابة عليها، بل كانت العرب لبيداتها ولبعدها عن وسائل الحضارة وال عمران، تصطفى من أنواع الحجارة الموفرة عندها نوعاً رقيقاً يكون كالصحيفة يصلح للكتابة وللبقاء، أشبه بما نراه اليوم من الكتابة الجميلة المنقوشة على صفحات مصنوعة مما نسميه (الجبس). وكذلك سعف النخل يكشطون الخوص عنه، ويكتبون في الجزء العريض منه بعد أن يصفوه ويهدبوه فيكون أشبه بالصحيفة. وقل مثل هذا في العظام، بدليل أن الروايات الواردة في ذلك نصت على نوع خاص منه وهو عظام الأكتاف، وذلك لأنها عريضة رقيقة ومصقولة صالحة للكتابة عليها بسهولة.

(ثالثاً): أن استنتاجهم من هذا كون القرآن الخالي لا يحتوي جميع الآيات التي نطق بها محمد، استنتاج معكوس، وفهم منكوس، لأن كتابة القرآن وحفظه في آن واحد في صدور آلاف مؤلفة من الخلق، ادعى إلى بقاء ذلك القرآن، وأدلى على أنه لم تفلت منه كلمة ولا حرف. كيف وأحد الأمرين من الكتابة والحفظ كاف في هذه النعمة؟ فما بالك إذا كان القرآن كله مكتوباً بخطوط أشخاص كثيرين، ومحفوظاً في صدور جماعات كثيرين!

(رابعاً) قولهم: «وبعضها يختلف في القراءة واللفظ والمعنى» إن أرادوا به الطعن في تعدد القراءات واختلاف وجوه الأداء، فقد سبق في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ما يكفيك في الرد عليهم، وسيأتيك في مبحث القراءات ما يزيدك تنوراً في هذا الموضوع، وإن أرادوا به شيئاً آخر فليهم البيان. وحسبك أن تعرف أن اختلاف حروف القرآن أمر تقتضيه الحكمة، وبوجبه عموم الدعوة الإسلامية. خصوصاً لمن شافهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم على اختلاف قبائلهم، وتنوع

لهجاتهم ، وتباين وجوه نطقهم ، عربٌ تؤلف بينهم العروبة الواحدة ، ويجمعهم اللسان العربي العام . فأى عيب على القرآن إذا اختلفت حروف أدائه ، وكيفيات النطق بكلماته ، ليسع القبائل العربية جميعاً ، وليقتنى لها تلاوة ألفاظه ، وتفهم معانيه ؟ ولئلا يقول أحد منها : لوجاء القرآن بلغتنا لكان لنا معه شأن ، ولأتينا بمثله ، وعارضنا بلاغته ! « **وَأَلَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** »

( خامساً ) : قولهم إنه من المستحيل أن يكون القرآن الخالي حاوياً لجميع ما أنزل إلخ ، كلامٌ مجردٌ من السند والحجة ، لا يستحق الرد ، فإن استندوا فيه إلى ماسبق فقد استندوا إلى أوهم من بيت العنكبوت ، وقد عرفت وجوه الوهن التي فيه . وإن استندوا إلى ما ذكروه بعدما نسبوه لابن عمر ، فقد زادوا الطين بلة ؛ لأن هذه النسبة إلى ابن عمر نسبة خاطئة كاذبة ، وعلى فرض صحتها فهي موقوفة وليست برفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى فرض رفعها فهي معارضة للأدلة القاطعة المتوافرة في تواتر القرآن وسلامته من التغيير والزيادة والنقصان ، ومعارض القاطع ساقط مهما كانت قيمة سنده في خبر الواحد .

( سادساً ) : أن نهايتهم التي ختموا بها هذه الشبهة أقبح من بدايتهم ، لأنهم رتبوها على تلك الأكاذيب والمهاترات ، ثم زادوا فيها اتهاماً جديداً مجرداً من السند والحجة أيضاً ، وهو أن في آيات عديدة من القرآن اختلافات مدهشة ، ولا يعلم نصها الصحيح أحد ، وهكذا خرجوا من اتهام إلى اتهام ، واحتجوا بكذب على كذب ، وهانت عليهم كرامتهم وعقولهم ، فقالوا ماشاء لهم الهوى والتعصب إلى هذا الحد وأنت خير بأن القرآن الخالي وصل إلينا محفوظاً من كل عيب كما نطق به الرسول ﷺ وكما خطه الله تعالى بقلمه في لوحه . « **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** . »



أما زعمهم أن فيه اختلافات مدهشة ، فقد علمت في مبحث نزول القرآن على سبعة  
أحرف مدى اختلاف وجوه القراءات وحكمته ، وأنه لا يؤدي إلى تناخل وتناقض حتى  
يكون مدهشاً .

وأما نصوص القرآن الصحيحة فقد علمها وحفظها جمع يؤمن توأطوهم على الكذب  
في كل طبقة من طبقات الأمة . من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم .  
قادة هؤلاء الجهلة الدجالين أنه لا يعلم نصوص القرآن الصحيحة أحد ، ادعاء  
مفصوح ، وكذب مكشوف .

قال صاحب مُسَلَّم الثبوت - وهو من أشهر الكتب في أصول الفقه الإسلامي - :  
« ما نُقِلَ آحاداً فليس بقرآن قطعاً ، ولم يُعرف في هذا خلافٌ لواحد من أهل المذاهب .  
والدليل على ذلك أن القرآن مما تتوافر الدواعي على نقله لتضمُّنه التجدُّى ، ولأنه أصل  
الأحكام باعتبار المعنى واللفظ جميعاً ، ولذلك عُلِمَ جهد الصحابة في حفظه بالتواتر القاطع ،  
وكل ما تتوافر الدواعي على نقله ينقل متواتراً عادة ، فوجوده ملزوم التواتر عند الكل  
عادة ، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر انتفى الملزوم قطعاً . والمنقول آحاداً ليس متواتراً  
فليس قرآناً » اهـ بتصرف قليل .

خطٌ منيعٌ من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة

أو الدواعي والعوامل التي توافرت في الصحابة حتى استظهروا القرآن

والحديث النبوي وتثبتوا فيهما

إن الناظر في الشبهات السالفة وأمثالها ، يبدو له في وضوح أن القوم يحاولون الطعن  
في القرآن عن طريق النيل من الصحابة ، فطوراً يقولون : إن الصحابة حين جمع القرآن  
لم يكونوا يستظهرونه ، وإن الذين استظهروه منهم ماتوا قبل جمعه واستشهدوا ، وطوراً  
يقولون : إن الصحابة لم يثبتوا في جمع القرآن ، بل حطبوا فيه بليل ، وزادوا فيه ونقصوا  
منه ماشعوا .

وقد كثرت هجمات أعداء الإسلام من هذه الناحية كثرة فاحشة، بحيث إذا استقصينا شبهاتهم كلها ضاق بنا نطاق هذا التأليف، وخرجنا جملةً من الجو العليّ الهاديّ اللذيذ، إلى ميدان صاحب بالقييل والقتال، والصيال والجدال، والدفاع والنضال.

وكذلك كثرت هجمات أعداء الإسلام على السنة النبوية من ناحية الصحابة أيضاً، فتارةً يستكثرون عليهم أن يكونوا قد حفظوا الحديث الشريف وهو موسوعات كبيرة، وتارةً يتهمونهم بالخيانة والتزيّد وعدم الثبوت والتحرّي، وبينون على ذلك مفتريات ما أنزل الله بها من سلطان.

يريدون بهذه الاتهامات الجريئة للصحابة، أن يزغزغوا ثقة الناس بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، حتى يفتنوا المسلمين عن دينهم، وحتى يقيموا الحواجز والعوائير في طريق غير المسلمين، مخافة أن يجتذبهم الإسلام إليه بحماسه الأخاذة، وقوّته المحولة، وتعاليمه الوضّاءة.

وبرغم أن شبهات القوم كلها متشابهة، وطرق دفعها هي الأخرى متشابهة، فإن واجب الحيلة والحذر يقتضينا بعد ما تقدّم أن نقيم خطأً منيعاً من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة، وأن نؤلّف هذا الخط من جبهتين قويتين، الجبهة الأولى تطاول السماء بتجلية الدواعي والعوامل التي توافرت في أصحاب رسول الله ﷺ حتى جعلت منهم كثرة غامرة يحفظون القرآن والحديث، وينقلونها نقلاً متواتراً مستفيضاً. والجبهة الثانية تُفاخر الجوزاء بنظم الدواعي والعوامل التي توافرت فيهم رضوان الله عليهم، حتى جعلتهم يقشّبون أبلغ ثبوت وأدقّه في القرآن وجمع القرآن وكل ما يتصل بالقرآن، وفي الحديث الشريف وكل ما يتصل بالحديث الشريف.

وإني أستهنيح الله فتوحاً وتوفيقاً في هذه المحاولة الجميلة « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيُبَيِّنَ مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ».

## ١ - الجبهة الأولى

أو الدواعي والعوامل في حفظ الصحابة للكتاب والسنة

وتقلهم لهما

ولنبداً بشرح العوامل والدواعي التي يسرت للصحابة حفظ الكتاب والسنة وقلهما، حتى لا يستبعد ذلك عليهم أحد، ولا يطعن في الكتاب والسنة عن هذا الطريق أحد:

### العامل الأول

أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة؛ ولا يحدِّقون الخط والكتابة، اللهم إلا نَزَرَ يسيراً لا يُصاغ منهم حكم على المجموع. وترجع هذه الأمية السائدة فيهم إلى غلبة البداوة عليهم، وبعُدِّهم عن أسباب المدنية والحضارة، وعدم اتصالهم اتصالاً علمياً وثيقاً بالأمتين المتحضرتين في العالم لذلك الحين: أمة الفرس في الشرق، وأمة الروم في الغرب. ومعلوم أن الكتابة والقراءة وأحشاء الأمية في أية أمة، رهينٌ بخروجها من عهد السذاجة والبساطة، إلى عهد المدنية والحضارة.

ثم إن هذه الأمية تجعل المرء منهم لا يعول إلا على حافظته وذاكرته فيما يهيمه حفظه وذكره. ومن هنا كان تعويل الصحابة على حوافظهم يقدحونها في الإحاطة بكتاب الله وسنن رسوله ﷺ، لأن الحفظ هو السبيل الوحيدة أو الشبيهة بالوحيدة إلى إحاطتهم بهما. ولو كانت الكتابة شائعة فيهم، لا اعتمدوا على النقش بين السطور، بدلا من الحفظ

نعم . عمل الرسول على كتابة القرآن ، وكان له كُتَّابٌ يكتبون الوحي كما سبق ، وكان بعض الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم كذلك ، غير أن هؤلاء وهؤلاء كانوا فئة قليلة بجانب الجُمِّ الغفير من سواد الأمة الكثير . ولعلك لم تنس أن كتابة القرآن في عهد الرسول كان الغرض منها زيادة التوثق والاحتياط للقرآن الكريم ، بتقييده وتسجيله بالنقش ، فوق تقييده وتسجيله بالحفظ .

أما السنة النبوية فقد نهى النبي ﷺ أصحابه عن كتابتها أول الأمر مخافة اللبس بالقرآن ، إذ قال عليه الصلاة والسلام : « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلَيْمِحُهُ ، وَحَدَّثُوا عَنِّي فَلَا حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري .

نعم . خشى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختلط القرآن بالسنة ، إذا هم كتبوا السنة كما كانوا يكتبون القرآن ، أو أن تتوزع جهودهم وهي لا تحمل أن يكتبوا جميع السنة وجميع القرآن فقصرهم على الأهم أولاً وهو القرآن . خصوصاً إذا لاحظنا أن أدوات الكتابة كانت نادرة لديهم إلى حد بعيد ، حتى كانوا يكتبون في اللخاف والسعف والعظام كما علمت .

فرحة بهم من ناحية ، وأخذاً لهم بتقديم الأهم على المهم من ناحية ثانية ، وحفظاً للقرآن أن يشبهه بالسنة إذا هم كتبوا السنة بجانب القرآن نظراً إلى عزة الورق وندرة أدوات الكتابة ، رعاية لهذه الغايات الثلاث نهى الرسول عن كتابة السنة .

أما إذ أمن اللبس ، ولم يُخشِ الاختلاط ، وكان الأمر سهلاً على الشخص ، فلا عليه أن يكتب الحديث الشريف ، كما يكتب القرآن الكريم . وعلى ذلك تُحمل الأحاديث الواردة في الإذن بكتابة السنة آخراً الأمر ، والواردة في الإذن لبعض الأشخاص

كعبدا لله بن عمرو (رضى الله عنه). ولهذا الموضوع مبحثٌ خاصٌّ به فاطلبه إن شئت في علوم الحديث .

وأياً ما تكن كتابة القرآن والسنة النبوية، فإن التعويل قبل كل شيء كان على الحفظ والاستظهار، ولا يزال التعويل حتى الآن على التلقّي من صدور الرجال، ثقةً عن ثقة، وإماماً عن إمام، إلى النبي ﷺ .  
غير أن الرجل الأُمّي والأمة الأُمّية يكونان أسبق من غيرها إلى الحفظ، للمعنى الذي أسلفناه لك .

### العامل الثاني

أن الصحابة كانوا أمة يُضرب بها المثل في الذكاء والألمعية، وقوة الحافظة وصفاء الطبع، وسيلان الذهن وحدة الخاطر! وفي التاريخ العربي شواهد على ذلك يطول بنا تفصيلها، ولعلها على بالٍ منك. حتى لقد كان الرجل منهم ربما يحفظ ما يسمعه لأول مرة مهما كثر وطال، وربما كان من لغة غير لغته، ولسانٍ سوى لسانه، وحسبك أن تعرف أن رءوسهم كانت دواوين شعرهم، وأن صدورهم كانت سجلّ أنسابهم، وأن قلوبهم كانت كتاب وقائعهم وأيامهم! كل أولئك كانت خصائص كامنة فيهم وفي سائر الأمة العربية من قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام فأرهم فيهم هذه القوى والمواهب، وزادهم من تلك المزايا والخصائص بما أفاد طبعهم من صقل، ونفوسهم من طهر، وعقولهم من سمو، خصوصاً إذا كانوا يسمعون لأصدق الحديث وهو كتاب الله، وخير الهدى وهو هدى محمد ﷺ .

### العامل الثالث

بساطة هذه الأمة العربية ، واقتصارها في حياتها على ضروريات الحياة من غير ميل إلى الترف ، ولا إنفاق جهد أو وقت في الكاليات. فقد كان حسب الواحد منهم لقيمات يُقمنَ صلبه ، وكان يكفيه من معيشته ما يذكره شاعرهم في قوله :-

« وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا نَوْمَةٌ وَتَبَطُّحٌ وَتَمَرٌ عَلَى رَأْسِ النَّخِيلِ وَمَاءٌ »

ومثلك يعلم أن هذه الحياة الهادئة الوادعة ، وتلك العيشة الراضية القاصدة ، تُوفّر الوقت والمجهود ، وترضى الإنسان بالموجود ، ولا تشغل البال بالمتفقد. ولهذا أثره العظيم في صفاء الفكرة وقوة الحافظة وسيلان الأذهان ، خصوصاً أذهان الصحابة في اتجاهاها إلى حفظ القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك على حد قول القائل :-

« ... فصادفَ قلباً خالياً فتمكنا » .

### العامل الرابع

حبُّهم الصادقُ لله ولرسوله ، حباً ملك مشاعرهم ، واحتلَّ مكان العقيدة فيهم . وأنت تعرف من دراسة علم النفس ، أن الحبَّ إذا صدق وتمكن ، حمل الحبَّ حملاً على تربيته آثار محبوبه والتلذُّذ بحديثه، والتنادُّر بأخباره، ووعى كل ما يصدر عنه ويبدُر منه . ومن هنا كان حب الصحابة لله ورسوله ، من أقوى العوامل على حفظهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . على حدِّ قول القائل :

« لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرِكَ تَشغُلُهَا  
عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِمُهَا عَنِ الزَّادِ »  
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ  
وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادٍ

إِذَا شَكَّتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ وَاعَدَهَا رُوحَ الْقُدُومِ فَتَحِيًّا عِنْدَ مِيعَادِ «  
أما حبُّ الصحابة العميق لله تعالى ، فلا يحتاج إلى شرح وبيان ، ولا إلى إقامة  
دليل وبرهان ، فهم خير القرون بنصِّ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «خير القرون  
قرَّرتي ثمَّ الذين يَلُوكُهُمْ» ، وهم الذين بذلوا نفوسهم ونفائسهم رخيصةً في سبيل رضاه ،  
وهم الذين باعوا الدنيا بما فيها يتفقون فضلاً من الله ، وهم الذين حملوا هداية الإسلام  
إلى الشرق والغرب ، وأتوا بالمعجب المُجَافِ في نِجَاحِ الدَّعوة الإسلاميَّة بالحضرة والبدو ،  
وكانوا أحرىء بامتداح الله إياهم غير مرة في القرآن ، وبثناء الرسول صلى الله عليه وسلم  
عليهم في أحاديث عظيمة الشأن !

وأما مظاهر حُبِّهم للرسول صلى الله عليه وسلم فما حكاه التاريخ الصادق عنهم من  
أنه ما كان أحدٌ يحبُّ أحداً مثل ما كان يحبُّ أصحاب محمدٍ محمداً . دَمُ الرجل منهم  
رخيصة في سبيل أن يُقَدِّى رسول الله ﷺ من شوكة يشاكها في أسفل قدمه . وماء  
وضوئه يتقدرونه في اليوم الشديد البرد يتبرَّكون به ، وأب الواحد منهم وأبناؤه من الدِّ  
أعدائه ما داموا يعادون محمداً ، وحديث محمد موضع التنافس من رجالهم ونسائهم ، حتى  
إذا أعيى الواحد منهم طَلابُهُ ، تتأوب هو وزميل له الاختلاف إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، على أن يقوم أحدهما بعمل الآخر عند ذهابه ، ويقوم الآخر برواية ما سمعه  
وعرفه من الرسول بعد إيباه (١) .

وهذه وافدة النساء تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم «يارسول الله غلبنا عليك  
الرجال ، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله» إلى غير ذلك  
من شواهد ومظاهر ، تدلُّ على مبلغ هذا الحب السامى الشريف ، ويرحم الله القائل :-

(١) انظر باب التناوب في طلب العلم من صحيح البخارى .

« أَسْرَتْ قُرَيْشٌ مُسْلِمًا فِي غَزْوَةٍ      فَمَضَى بِلَا وَجَلٍ إِلَى السِّيَافِ  
سَأَلُوهُ : هَلْ يُرْضِيكَ أَنْكَ سَالِمٌ      وَلَكَ النَّبِيُّ فِدَى مِنْ الْإِتْلَافِ  
فَأَجَابَ : كَلَّا. لَأَسْلِمْتُ مِنَ الرَّدَى      وَيُصَابَ أَنْفُ مُحَمَّدٍ بِرُعَافِ

ولقد كان من مظاهر هذا الحب - كما رأيت تسابُّهم إلى كتاب الله يأخذونه عنه ويحفظونه منه . ثم إلى سُنَّته الغراء يحيطون بأقوالها وأفعالها وأحوالها وتقريراتها . بل كانوا يتفنتون في البحث عن هَدْيِهِ وخبره ، والوقوف على صفته وشكله ، كما تجدد ذلك واضحا من سؤال الحسن والحسين عن حِلْيَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أُجِيبَا به من تَجْلِيَةِ تلك الصور الحمديَّة الرائعة ، ورسمها بريشة المصوِّر الماهر ، والصَّنَاعِ القادر ، على يد أبيها علي بن أبي طالب ، وخالها هذ بن أبي هالة ، رضى الله عنهم أجمعين <sup>(١)</sup> .

### العامل الخامس

بلاغة القرآن الكريم إلى حدِّ فاق كل بيان ، وأخرس كل لسان ، وأسكت كل معارض ومكابر ، وهدم كل مجادل ومهاتر ، حتى قام ولا يزال يقوم في فم الدنيا معجزة من الله لحبيبه ، وآية من الحق لتأييد رسوله . وبعد كلام الله في إعجازه وبلاغته ، كلامُ محمد ﷺ في إشرافه ودباجته وبراعته ، وجزالة ألفاظه وسموِّ معانيه وهدايته . فقد كان ﷺ أفصح الناس وأبلغ الناس ، وكان العرب إلى جانب ذلك مأخوذين بكل فصيح بليغ ، متنافسين في حفظ أجود المنظوم والمنثور . فمن هنا هبوا هبة واحدة يحفظون القرآن ، ويفهمون القرآن ، ويعملون بالقرآن ، وينامون ويستيقظون على القرآن . وكذلك

(١) انظر في ذلك ما يرويه محمد أبو عيسى الترمذى متفرقا في كتاب الشمايل من

طريق سفيان بن وكيع ، رضى الله عنهم .



السنة النبوية كانت عنايتهم بحفظها والعمل بها تلى عنايتهم بالقرآن الكريم يفتاقلونها ويتبادرونها كما سمعت .

والكلام في أسرار بلاغة القرآن ووجوه إعجازه، وفي بلاغة كلام النبوة وامتيازه، وفي تنافس العرب في ميدان البيان، كل ذلك مما لا يحتاج إلى شرح ولا تبيان، فهذا كتاب الله ينطق علينا بالحق، ويتحدّى بإعجازه كافة الخلق. وهذا بحر النبوة يفيض بالدراري واللالى، ويزخر بالهدايات البالغة والحكم الفوالى. وهذا تاريخ الأدب العربي يسجل لأولئك العرب فوقهم في صناعة الكلام، وسبقهم في حلبة الفصاحة كافة الأنام، وامتيازهم في تذوق أسرار البلاغة خصوصاً بلاغة القرآن !! .

### العامل السادس

الترويج في الإقبال على الكتاب والسنة علماء وعاملاً، وحفظاً وفهماً، وتعليماً ونشراً وكذلك الترهيب من الإعراض عنهما، والإهمال لهما .

نقرأ في القرآن الكريم قوله سبحانه : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ، لِيُؤْتِيَهُمُ اجْرُهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » . فتأمل كيف قدّم تلاوة القرآن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؟ ونقرأ قوله جلّ ذكره : « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » . فانظر كيف حثّ بهذا الأسلوب البارع على تدبر القرآن والتذكر والاتعاظ به ؟ ونقرأ قوله عزّ اسمه : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ . أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم . فتدبر كيف يكون وعيد من كتم القرآن وهدى القرآن ؟

ثم نقرأ في السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم : ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله يتلون كتابَ الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينةُ، وغشيتهم الرحمةُ، وحققتهم الملائكةُ، وذَكَرَهُمُ اللهُ فيمن عندهُ . رواه مسلم وأبو داود وغيرهما .

ونقرأ في صحيح البخارى ومسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

ونقرأ لأبي داود والترمذى وابن ماجه قوله عليه السلام : « عرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورةٍ من القرآن أو آيةٍ أوتيتها رجلٌ ثم نسيها » .

أليس ذلك وأمثال ذلك - وهو كثير - يحفز الهمم ويحرك العزائم، إلى حفظ القرآن واستظهاره والمداومة على تلاوته ، مخافة الوقوع في وعيد نسيانه وهو وعيد كما سمعت شديد ؟ .

أما السنة النبوية فقد جاء في شأنها عن الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله سبحانه : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » . وقوله : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا » . وقوله : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

وجاء ترغيباً في السنة النبوية من الحديث الشريف قوله عليه السلام : « نَصَرَ اللَّهُ امرأً سمع منا حديثاً ، فآداه كما سمعه ، فَرَبٌّ مُبْلَغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » وهو حديث متواتر، وقوله صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع : « ألا : فليبلغنَّ الشاهدُ الغائبَ ، فلعلَّ بعض من يبلُغُهُ أن يكون أَوْعَى له من بعض من سمعهُ » رواه الشيخان . وجاء ترهيباً من

الإعراض عن السنة ، قوله صلى الله عليه وسلم : « من رغب عن سنّتي فليس مني » .  
رواه مسلم وقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا هل عسى رجلٌ يبلغه الحديث عني وهو  
مُتَكَبِّرٌ عَلَىٰ أُرَيْكَتِهِ ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ،  
وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه . وإن ما حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم  
كما حرّمه الله » أخرجه أبو داود والترمذي . زاد أبو داود في أوله : « ألا إني أوتيتُ  
الكتابَ ومثله معه » . فأنت ترى في أمثال هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ،  
ما يحفز همة المؤمن الضعيف إلى الإقبال على روائع النبوة يستهديها ، وبدائع النبي صلى الله  
عليه وسلم يستظهرها ، فكيف أنت والصحابة الذين كانوا لا يضارعون طولَ باع  
ولا علوَّ همة في هذا الميدان ! !

### العامل السابع

منزلة الكتاب والسنة من الدين ، فالكتاب هو أصل التشريع الأول والدستور  
الجامع لخير الدين والآخرة ، والقانون المنظم لعلاقة الإنسان بالله وعلاقته بالمجتمع  
الذي يعيش فيه . ثم السنة هي الأصل الثاني للتشريع ، وهي شارحة للقرآن الكريم ،  
مفصلة لجملة ، مقيدة لمطلقه ، مخصصة لعامه ، مبينة لمبهمه ، مظهرية لأسراره كما قال  
سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ  
يَتَفَكَّرُونَ » . ومن هنا يقول يحيى بن كثير : « السنة قاضية على الكتاب ، وليس  
الكتاب قاضياً على السنة » يريد بهذه الكلمة ما وضّحه السيوطي بقوله : « والأصل  
أن معنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبينة له ، ومفصلة لجملاته ، لأن لو جازته  
كنوزاً تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها ، وذلك هو المنزل عليه ﷺ

وهو معنى كون السنة قاضية على الكتاب، وليس القرآن مبيناً للسنة، ولا قاضياً عليها، لأنها بيّنة بنفسها، إذ لم نصل إلى حدّ القرآن في الإعجاز والإيجاز، لأنها شرح له، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشرح « اهـ .

ولا ريب أن الصحابة كانوا أعرف الناس بمنزلة الكتاب والسنة، فلا غرو أن كانوا أحرص على حدّقتها وتحفظها والعمل بهما .

### العامل الثامن

ارتباط كثير من كلام الله ورسوله بوقائع وحوادث وأسئلة، من شأنها أن تثير الاهتمام . وتنبه الأذهان، وتلفت الأنظار إلى قضاء الله ورسوله فيها، وحدثتهما عنها وإجابتهما عليها، وبذلك يتمكن الوحي الإلهي والكلام النبوي في النفوس فضلَ تمكن، وينتفش في الأذهان على مرّ الزمان .

تجول مرّة في رياض القرآن الكريم، تجده يساير الحوادث والطوارئ في تجددها ووقوعها، فتارةً يجيب السائلين على أسئلتهم بمثل قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» وتارةً يفصل في مشكلة قامت، ويقضى على فتنة طفت، بمثل قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ، لَا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» إلى قوله: «أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ» وهن ست عشرة آية من سورة النور تزلن في حادث من أروع الحوادث، هو اتهام أم المؤمنين السيدة الجليلة عائشة زوج رسول الله ﷺ . وبنت الصديق أبي بكر (رضى الله عنها وعن أبيها) . وفي هذه الآيات دروس اجتماعية قرئت ولا تزال تقرأ على الناس إلى يوم الساعة ولا تزال تسجل براءة هذه الحصان الطاهرة من فوق سبع سموات . وتارةً يلفت القرآن أنظار المسلمين إلى تصحيح

أغلاطهم التي وقفوا فيها ويرشدهم إلى شاكلة الصواب . كقوله سبحانه في سورة آل عمران « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال » إلى آيات كثيرة بعدها . وكلها نزلت في غزوة أحد تدل المسلمين على خطئهم في هذا الموقف الرهيب ، وتحذرهم أن يقفوا حينئذٍ آخراً في مثل ذلك المأزق العصيب .

وعلى هذا النمط نزلت سور في القرآن وآيات تفوت العدد وتجاوز الإحصاء .

وإذا تجولت في رياض الحديث النبوي الشريف بطالعك منه العجب العاجب في هذا الباب . انظر قصة الخزومية التي سرقت وقول الرسول ﷺ لمن شفع فيها : « وايمُ الله لو أن بنت محمد سرقت لقطعت يدها » رواه أصحاب الكتب الستة . ثم تأمل حدث تلك المرأة الجهنية التي أقرت بزناها بين يدي رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا ، كيف أمر الرسول فكفلها وليها حتى وضعت حملها ، ثم أتى بها فرجمت ، ثم صلى رسول الرحمة عليها . ولما سئل صلوات الله وسلامه عليه كيف تصلى عليها وهي زانية ؟ قال : « إنها ثابتة توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لو ستمهم . وهمل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟ » رواه مسلم . وتدبر الحديث المعروف بحديث جبريل ، وفيه يسأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها على مرأى ومسمع من الصحابة . وقد قال لهم أخيراً : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . أخرجه الخمسة غير البخاري . والناظر في السنة يجدها في كثرتها الغامرة ، تدور على مثل تلك الوقائع والحوادث والأسئلة .

وقد قرّر علماء النفس أن ارتباط المعلومات بأموار مقارنة لها في الفكر ، تجعلها أتقى على الزمن ، وأثبت في النفس ، فلا بدع أن يكون ما ذكرنا داعية من دواعي حفظ الصحابة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، على حين أنهم هم المشاهدون لتلك الوقائع والحوادث ، المشافهون بمخاطب الحق ، المواجهون بكلام سيد الخلق ، في هذه المناسبات الملائمة والأسباب

القائمة ، التي تجعل نفوسهم مستشرفة لقضاء الله فيها ، متعطشة إلى حديث رسوله عنها ،  
فينزل الكلام على القلوب وهي مقشوفة ، كما ينزل الغيث على الأرض وهي متعطشة ،  
تنهل بلهف ، وتأخذه بشغف ، وتمسكه وتمحوص عليه بيقظة ، وتعز به وتمتد عن حقيقة ،  
وتنتفع به وتنفع ، بل تهتز به وتربو وتنبت من كل زوج بهيج !! .

### العامل التاسع

اقتران القرآن دائماً بالإعجاز ، واقتران بعض الأحاديث النبوية بأمور خارقة  
للعادة ، تروع النفس ، وتشوق الناظر ، وتهول السامع . وإنما اعتبرنا ذلك الإعجاز  
وخرق العادة من عوامل حفظ الصحابة ، لأن الشأن فيما يخرج على نواميس الكون  
وقوانينه العامة ، أن يتقرر رضى حافظة من شاهده ، وأن يتركز في فؤاد كل من عاينه فرداً  
كان أو أمة؛ حتى لقد يتخذ مبدأً تؤرخ بمحدوثة الأيام والسنون ، وتقاس بوجوده الأعمار  
والآجال .

أما القرآن الكريم فإعجازه سارٍ فيه سريان الماء في العود الأخضر ، لا تسكاد  
تخلو سورة ولا آية منه . وأعرف الناس بوجوه إعجازه ، وأعظمهم ذوقاً لأسرار  
بلاغته ، هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يصدرون في هذه المعرفة وهذا  
الذوق عن فطرتهم العربية الصافية ، وسليقتهم السليمة السامية ، وتمهرهم في فنون البيان  
وصناعة اللسان . ومن هذا كان القرآن حياتهم الصحيحة ، به يقومون ويقعدون ،  
وينامون ويستيقظون ، ويمشون ويتعاملون ، ويلتذون ويتعبدون . وهذا هو معنى  
كونه روحاً في قول الله سبحانه: « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » وليست  
هناك طائفة في التاريخ تمثل فيها القرآن روحاً ، كما تمثل في هذه الطبقة العليا الكريمة  
طبقة الصحابة الذين وهبوه حياتهم فوهبهم الحياة ، وطبعهم طبعة جديدة حتى صاروا

أشبهه بالملائكة ، وهكذا سواهم الله بكتابه خلقاً آخر « فَمَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ  
الْخَالِقِينَ » ۱۱ .

وأما السنة النبوية ، فقد اقترن بعضها بمعجزات خارقة ، وأمامك أحاديث المعجزات  
وهي كثيرة فيها المعجب والمطرب . غير أنا نربأ بك أن تكون فيها كحاطب ليل ،  
على حين أن بين أيدينا في الصحيح منها الجم الغفير والعدد الكثير ، « وَلَا يُنَبِّئُكَ  
مِثْلُ خَبِيرٍ » .

وهاك نموذجاً واحداً رواه البخارى ومسلم عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي  
رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى عليه وسلم قال يوم خيبر : « لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ  
غداً رجلاً يفتحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يحبُّ اللهُ ورسولَهُ ، ويحبُّ اللهُ ورسولَهُ ، فباتَ الناسُ  
يدوكونَ ( أى يخوضون ) لياتهم ، أيهم يعطاها ، فلما أصبحَ الناسُ غدوا على رسول الله  
صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها . فقال : أينَ على بنُ أبي طالب ؟ فقيلَ  
يا رسولَ اللهِ هو يشتكى مرضاً بعينيه . قال : فأرسلوا إليه . فأتى به ، فبصقَ رسولُ اللهُ  
صلى الله عليه وسلم بعينيه ، ودعا له ، فبرئَ حتى كأن لم يكن به وجعٌ . فأعطاهُ  
الرايةَ ، فقال على رضي الله عنه : يا رسولَ اللهُ أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال :  
انفذْ على رسلِكَ حتى تنزلَ بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلامِ ، وأخبرهم بما يجبُ  
عليهم من حقِّ اللهِ تعالى فيه ، والله لأن يهدى اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك  
من حُمْرِ النعمِ » .

وهذه الوصية من الرسول ﷺ لعل في هذا المقام ، جديرةٌ وحدها أن تقطع السنة  
أولئك الأفاكين الذين يزعمون أن الإسلام قام على السيف والقوة ، واعتمد على البطش  
والقسوة ، ولم ينتشر بالدليل والحجة ولم يجيء بالسلام والرحمة . « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ  
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا » ! .

## العامل العاشر

حكمة الله ورسوله في التربية والتعليم ، وحسن سياستهما في الدعوة والإشاد ، مما جعل الكتاب والسنة يتقرران في الأذهان ، ويسهلان على الصحابة في الحفظ والاستظهار .

أما القرآن الكريم ، فسبب أن تعرف من حكمة الله به في التربية والتعليم ، أنه أنزله على الأمة الإسلامية باللغة الحبيبة إلى نفوسهم ، وبالأسلوب الخلاب والنظم المعجز الآخذ بقلوبهم ، وأنه تدرج بهم في نزوله ، فلم ينزل جملة واحدة يرهتهم به وبمجزون عنه ، بل أنزله منجماً في مدى عشرين أو بضع وعشرين سنة ، ثم ربطه بالحوادث والأسباب الخاصة في كثير من سوره وآياته ، ودعمه بالدليل والحجة ، وخطب به العقول والضمائر ، وناط به مصلحتهم وخيرهم وسعادتهم ، وصدر في ذلك كله عن رحمة واسعة بهم ، يكادون يلمسونها باليد ويرونها بالعين ! « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُظَهِّرَكُمْ ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ » .

وأما السنة النبوية ، فقد ضربت الرقم القياسي في باب هذه السياسة التعليمية الراشدة ، حتى إذا كان علماء التربية في العصور الحديثة ، قد عدوا من الحكمة في التعليم والتربية الاستعانة بوسائل الإيضاح ، وألوان التشويق ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم النبي الأمي ، كان من قبل أربعة عشر قرناً ، ومن قبل أن يولد علم التربية وعلم النفس ، كان هو المعلم الأول في رعاية تلك الوسائل الموضحة ، وهاتيك المشوقات الرائعة ، حتى تفتحت قلوب سامعيه للهداية ، وامتلات صدور أصحابه بتعاليمه ، كأنما كتبت فيها كتاباً بالكلمة والحرف .



ذلك لأنه ﷺ كان أفصح الناس لساناً ، وأوضحهم بياناً وأجودهم إلقاءً ، ينتقى عيون الكلام وهو الذي أوتى جوامع الكلم ، ويفتتح الكلام ويختتمه بأشداقهِ ويفضله تفصيلاً يُراعى فيه المقام والأفهام ، ولا يسرد الحديث سرداً يزرى برؤفقه أو يذهب بشيء منه ، بل يتكلم كلاماً لوعده العادُّ لأحصاءه . وكان يعيد الكلمة ثلاثاً أو أكثر من ثلاث عند الحاجة ، كما تحفظ عنه ، كما جاء في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « هَلَاكُ الْمُتَنَطِّعُونَ » قالها ثلاثاً . وكما جاء في حديث البخاري ومسلم أنه ﷺ قال : « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَايِرِ (ثلاثاً) قلنا : بلى يا رسول الله قال : الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وشهادةُ الزورِ - وكان مُتَكِنًا فجلسَ - فإزالَ بِكَرُّهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ » .

ومن هديه ﷺ أنه كان إذا خطب احمرَّت عيناه ، وعلا صوتُهُ واشتدَّ غضبه حتى كأنه منبهر جيش يقول : صَبِّحْكُمْ وَمَسَاءَكُمْ . ويقول : بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كِهَاتَيْنِ ( وَ يَقْرَأُ مِيزَانَ أَصْبَعِيهِ السَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى ) ويقول : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ . نَمَّ يَقُولُ : أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ . مَنْ تَرَكَ مَا آلا فَلَاهِلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا <sup>(١)</sup> فَإِلَى وَعَلَى » رواه مسلم .

ومن وسائل إيضاحه ﷺ أنه كان يضرب لهم الأمثال الرائعة التي تُجَلِّي لهم المعاني ، كأنها العروسُ بارعة ليلة الزفاف ، أو الشمسُ ساطعة ليس دونها سحاب . تأمل قوله وهو يضرب المثل في ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخطر إهمالهما ، ثم قل لي بربك : هل يبارح ذا كرتك هذا التمثيل البديع ؟

(١) الضياع يفصح الضاد : يستعمل مصدرًا لضع ، ويستعمل اسمًا بمعنى العيال أو الضائعين منهم . قال في القاموس : « والضياع أيضاً العيال ، أو ضيعتهم » هـ ولا يخفى أن المعنى المصدرى غير مُراد هنا .

يروى البخارى عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال : مثل القائم في حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استموا في سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها . وكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مرؤا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً . وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً .

ومن وسائل إيضاحه ﷺ أسئلته التي كان يلقيها على أصحابه ، فيوظف بها انتباههم ، ويرهف بسببها شعورهم ، حتى يستقبلوا هديه بنفوس عطاش ، وقلوب ظماء ، فيستقر فيها أثبت استقرار ، ويلق بها علوق الروح بالأجسام .

وإليك مثلاً واحداً : عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسوله الله ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن قويت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحته عليه ، ثم طرح في النار » رواه مسلم .

ومن العجائب في وسائل إيضاحه عليه الصلاة والسلام أنه كان يستعين برسم يديه الكريمتين على توضيح المعاني وتقريبها إلى الأذهان ، مع أنه النبي الأمي الذي لم يقرأ كتاباً ، ولم يجلس إلى أستاذ ، ولم يذهب إلى مدرسة ، ولم يدرس الرسم ولا الهندسة .  
قرأ في صحيح البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مرتباً ، وخط وسطه خطاً ، وخطاً خوطوا إلى جنب الخط ( أى الذى فى الوسط ) ، وخطاً خارجاً . فقال : أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا الإنسان ( يريد الخط الذى فى الوسط ) وهذا الأجل مُحَيِّطُ به ( يريد الخط الخارج )

وَهَذِهِ الْأَعْرَاضُ تَنْهَشُهُ (يشير إلى الخطوط التي حولها) إِنَّ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا  
وَهَذَا الْأَمَلُ (يعنى الخطَّ الخارج).

ومن سياسته الحكيمة في التعليم والتربية ، أنه كان ينتهر فرصة الخطأ في أفهامهم ،  
فيصحح لهم الفكرة في حينها ، وبلقهم تعاليمه السامية ونفوسهم مستشرفة لها. من ذلك  
ما يقصه علينا البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : « جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى  
بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَهُمْ  
تَقَالُوهَا (أى رأوها قليلة) وَقَالُوا : أَيْنَ نَحْنُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ  
مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَا أَنَا فَأُصَلِّيَ اللَّيْلَ أَبَدًا . وَقَالَ الْآخَرُ : وَأَنَا  
أَصُومُ الدَّهْرَ أَبَدًا . وَقَالَ الْآخَرُ : وَأَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا . فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا !! أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ  
لِلَّهِ ، وَأَتَقَاكُمْ لِلَّهِ ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأُرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ  
عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي . »

وكان من وسائل إيضاحه تمثيله صلى الله عليه وسلم بالعمل . يصلى ويقول : « صَلُّوا  
كَأَنَّكُمْ رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي » ويحج ويقول : « خُذُوا عَنِّي مِمَّا سَكَّرَكُم » ويشير بأصبعيه السبابة  
والوسطى ويقول : « بَعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ » كما تقدّم في رواية مسلم .

## العامل الحادي عشر

الترغيب والترهيب اللذان يفيض بهما بحر الكتاب والسنة . ولا ريب أن غريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير، وأن يحميها من كل شر، سواء ما كان فيهما من عاجل وما كان من آجل، ومن هنا تمحّص النفوس الموقّعة على وعى هداية القرآن وهدى الرسول، وتعمل جاهدة على أن تحفظ منهما ما وبهها الإمكان .

أما النفوس الضالة المخدولة، فإنها مصروفة عن هذه السعادة بصوارف الهوى والشهوة، أو محجوبة عن هذا المقام بحجاب التعصب والجود على الفتنة، أو مرتطمة بظلام الجهل في أحوال الضلال والنكال .

ولسنا بحاجة أن نلتمس شواهد الترغيب والترهيب من الكتاب والسنة، فمددنا فيماض بأوفى ما عرف العلم من ضروب الترغيب والترهيب، وفنون الوعد والوعيد، وأساليب التبشير والإنذار على وجوه مختلفة، واعتبارات متنوعة، في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق على سواء .

وهاك نموذجاً من ترغيبات القرآن وترهيباته على سبيل التذكير، والذكرى

تنفع المؤمنين . -

يقول تبارك اسمه في سورة واحدة هي سورة السجدة « وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَنْتَ أَنْتَ أَنْتَ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ \* قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ \* ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ \* وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ \* وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ \* فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا  
 إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا  
 الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ \*  
 تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ \*  
 فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيَنَ جَزَاءُِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* أَفَمَنْ كَانَ  
 مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوُونَ \* أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ  
 كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي  
 كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ \* وَلَنُدْخِلَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْيِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ  
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ  
 الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ .

فانظر بعين بصيرتك في أساليب هذه الترغيبات، وفنون تلك الترهيبات، التي احتوتها  
 هذه الآيات، والقرآن مليء بكله من هذه الأنوار على هذا الفرار ! .

ولا تحسبن السنة النبوية إلا بحراً متلاطم الأمواج في هذا الباب. وهالك نموذجاً بل  
 نماذج منها تدلك على مدى ما تتأثر به النفوس البشرية عند ما يمرُّ بها الوعد والوعيد،  
 وما يتركه هذا التأثر من ثبات الأوامر والنواهي واستقرارها في الذهن، وانتفاشها  
 في صحيفة الفكر، ثم اندفاع الإنسان من ورائها إلى العمل والاتباع .

ها هو صلى الله عليه وسلم يبشر واصل رحمه بسعة الرزق والبركة في العمر فيقول :  
 « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُدْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » أخرجه  
 البخاري والترمذي .

وها هو ﷺ يتحدث بالوعد لمن جعل الآخرة همه ، وبالوعيد لمن جعل الدنيا همه

فيقول: « من كانت الآخرة همّة جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همّة جعل الله الفقر بين عينيه ، وفرق الله عليه شمله ، ولم يأتيه من الدنيا إلا ما قدر له » رواه الترمذي .

وها هو صلى الله عليه وسلم يحرّض المؤمنين على القتال ويحثهم على الدفاع والنضال ، فيقول : « تضمّن الله لمن خرج في سبيل الله ، لا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي ، وإيمانٌ بي ، وتصديقٌ برسلي ، فهو عليّ ضامنٌ أن أدخِلَهُ الْجَنَّةَ ؛ أو أُرْجِعُهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، والذي نفسُ محمدٍ بيده ما منَ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كَلِمٍ ؛ لَوْ نُفِئَ لَوْ نُدِمَ ، وَرِيحُهُ رِيحُ مَسِكَ . والذي نفسُ محمدٍ بيده لولا أن أشقّ على المسلمين ما قعدتُ خلفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا أَبَدًا . وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحِلُّهُمْ ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَتَّبِعُونِي وَيَشْقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أُغْزَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أُغْزَوْ فَأُقْتَلَ » أخرجه الثلاثة والنسائي .

فأنت ترى في هذه الكلمات النبوية قوة هائلة محولة ؛ تجعلها ماثلة في الأذهان ، كما تجعل النفوس رخيصة هينة في سبيل الدفاع عن الدين والأوطان . حتى لقد كان الرجل يستمع إلى هذه المرغبات والشوقات وهو يأكل ، فما يبصر حتى يتم طعامه ، بل يرمى بما في يده ، ويقوم فيجاهد متشوقاً إلى الموت ، متلهفاً على أن يستشهد في سبيل الله . كذلك أخرج مالك عن يحيى بن سعيد : « أن رسول الله ﷺ رغب في الجهاد وذكر الجنة ورجلٌ من الأنصار يأكل تمرات ، فقال : إني لحريصٌ على الدنيا إن جلستُ حتى أفرغَ منهن ، فرمى ما في يده ، وحملَ بسيفه ، فقاتل حتى قتل » .

## العامل الثاني عشر

اهتداء الصحابة رضوان الله عليهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، يجلون ما فيهما من حلال ، ويحرمون ما فيهما من حرام ، ويتبعون ما جاء فيهما من نصح وارشاد ، ويتمهدون ظواهرهم وبواطنهم بالتربية والآداب الإسلامية ، دستورهم القرآن ، وإمامهم الرسول عليه الصلاة والسلام .

وما من شك أن العمل بالعلم يقرّره في النفس أبلغ تقرير ، وينقشه في صحيفة الفكر أثبت نقش ، على نحو ما هو معروف في فن التربية وعلم النفس ، من أن التطبيق يؤيد المعارف ، والأمثلة تقيد القواعد ، ولا يطبق أبلغ من العمل ، ولا مثال أمثل من الاتباع ، خصوصاً المعارف الدينية ، فإنها تزكو بتنفيذها ، وتزيد باتباعها . قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أي هداية ونوراً تفرقون به بين الحق والباطل ، وبين الرشd والغى كما جاء في بعض وجوه التفاسير . وذلك أن المجاهدة تؤدي إلى المشاهدة ، والعناية بطهارة القلوب وتزكية النفوس تفجر الحكمة في قلب العبد . قال الغزالي رحمه الله : « أما السكتب والتعليم فلا تنفي بذلك ( أي بالحكمة تتفجر في القلب ) بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد ، إنما تفتح بالمجاهدة ومراقبة الأعمال الظاهرة والباطنة ، والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة ، مع حضور القلب بصافي الفكرة ، والانتطاع إلى الله عز وجل عما سواه ، فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف ؟ فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة . وكم من مقتصر على المهم في التعليم ، ومتوفر على العمل ومراقبة القلب ، فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الأبواب . ولذلك قال ﷺ : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عِلْمٌ وَرَبَّهُ اللَّهُ عِلْمٌ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ » (١) .

(١) قال الحافظ العراقي في هذا الحديث : رواه أبو نعيم في الحلية لكن بسند ضعيف .

### العامل الثالث عشر

وجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم ، يُحفظهم من الكتاب والسنة ما لم يحفظوه ،  
ويعلمهم ما جهلوه ، ويمحيهم إذا سألوه ، ويربهم شاكلة الصواب فيما أخطأوه ، ويقفهم  
على حقيقة الأمر إذا تشككوه ، في صبر وأناة وسعة صدر وكرم نفس وطيب قلب .  
ولا ريب أن هذا عامل مهم يسر لهم الحفظ ويهون عليهم الاستظهار ، ضرورة أنه  
ﷺ مرجع واضح ، ومنهل عذب ، لا سيما إذا لاحظنا أنه ﷺ كان دائم البشر ،  
سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ،  
وأن من جالسه أو قاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة  
لم يرده إلا بها أو بمسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا وصاروا  
عنده في الحق سواء . مجلسه مجلس علم وحياء وأمانة وصبر ، يُدرس فيه القرآن ، وتداع  
فيه السنة ، ويعبق منه أريج الهداية .

### عوامل خاصة بالقرآن الكريم .

تلك العوامل التي ذكرناها عوامل مشتركة بين الكتاب والسنة ، طوّعت للصحابة  
حفظهما واستظهارهما ، والإحاطة بهما وحذقهما .

بيد أن هناك عوامل خاصة توافرت في حفظ الصحابة للقرآن دون السنة .

أولها : أن الله تعالى تحدى بالقرآن أمة العرب ، بل كافة الخلق فقال سبحانه :

« فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ » ولما عجزوا قال : « فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ » ولما  
عجزوا أيضاً قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ » ولما عجزوا الثالثة سجّل عليهم



هزيمتهم وأعلن فَلَجَ القرآن بالإعجاز في هذا الميدان ، إذ قال عزُّ اسمه : « قُلْ لَئِنِ  
اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ  
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

هذا التحدي الذي امتاز به القرآن ؛ فتح عيون الناس جميعاً ، ولفتهم بقوة إليه ، لا  
فرق بين أوليائه وأعدائه . أما أوليائه واتباعوه ؛ فقرأوه من هذه الناحية ، ليُفحِّموا به  
أعداءهم ، ويؤيِّدوا بإعجازه دينهم ونبِيِّهم . وأما أعداؤه ومخالفوه ، فاقتفوا أثره واتباعوه ،  
أملًا في أن يجدوا فيه مَعْمَرًا ، يأخذوا عليه مَطْعَنًا . فلا جرم كان هذا التحدي من  
الدواعي التي توافرت على نقل القرآن وتواتره وجريانه على كل لسان !

ثانيها : عنايته ﷺ بكتابة القرآن فيما تيسر من أدوات الكتابة ، إذ اتخذ كُتَّابًا  
للوحي من أصحابه . وأقرَّ كل من يكتب القرآن لنفسه في الوقت الذي سبى فيه عن كتابة  
السنة في الحديث الذي أسلفناه من رواية مسلم « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا  
غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمِحْهُ » .

وغنى عن البيان ، أن الكتابة من عوامل تيسير الحفظ والاستظهار .

ثالثها : تشريع قراءة القرآن في الصلاة ، فرضاً كانت أو نفلاً ، سرّاً أو جهراً ،  
ليلية أو نهارية ؛ حتى صلاة الجنائز . ومثل الصلاة في ذلك خطبة الجمعة . وتلك وسيلة  
فعالة ؛ جعلت الصحابة يقرأونه ويسمعونه ؛ ثم جعلتهم عن هذا الطريق يتحفظونه  
ويستظهرونه ، لا فرق بين رجل وامرأة ، وصغير وكبير ؛ وغنى وفقير ، على قدر ما سمح  
به استعداد كل منهم .

رابعها : الترغيب في تلاوة القرآن ولو في غير صلاة ومن غير وضوء . اقرأ إن شئت  
قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً بِرَجُونَ تِجَارَةَ لَنْ تَبُورَ ، لِيُوقِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَرِيَدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ .  
لِأَنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ . »

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ  
الْكِرَامِ الْبَرَّةِ . وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَتَمَتَّعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ »  
رواه البخاري ومسلم . ويقول ﷺ : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ  
وَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ  
النَّهَارِ » رواه الشيخان أيضاً .

ويقول ﷺ : « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَهُ حَسَنَةٌ ، وَالْحَسَنَةُ  
بِعَشْرٍ أَمْثَالِهَا . لَا أَقُولُ : أَلَمْ حَرْفٌ . وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ ؛ وَوَامٌ حَرْفٌ ؛ وَمِيمٌ  
حَرْفٌ » رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « يُقَالُ لِقَارِي الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقُ وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ  
تُرْتَلُّ فِي الدُّنْيَا ؟ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا » رواه أبو داود والترمذي  
والنسائي . ويقول صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ »  
رواه البخاري .

فهل يعقل أن أصحاب محمد ﷺ الذين سمعوا ذلك وأمثال ذلك ؛ يتوانون لحظةً  
عن قراءة القرآن ؟ ثم ألا تكون تلك التلاوة سبيلاً إلى أن يحدِّقوه ويحرزوه ؟ .

خامسها عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم القرآن وإذاعته ونشره ، إذ كان  
يفرِّقه على الناس على مكث كما أمره الله . وكان يسمعهم إياه في الخطبة والصلاة ، وفي  
الدروس والعظات ؛ وفي الدعوة والإرشاد ، وفي الفتوى والقضاء ؛ وكان يرغِّب في تعليمه  
ونشره كما سمعت . وكان يرسل بعثات القراء إلى كل بلد يعلمون أهله كتاب الله ، كما  
أرسل مُصَعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته ﷺ إليها ، وكما أرسل

مُعاذ بن جبل إلى مكة بعد الفتح للإقراء . قال عبادة بن الصامت : كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن .

سادسها : القُداسة التي امتاز بها كتاب الله عن كل ما سواه ، حيث اجتمع فيه من المزايا ما قصصنا عليك وما لم نقصص عليك . كنسبته إلى الله تعالى ، وكحرمة قراءته على الجنب والحائض والنفساء ، وكحرمة مسِّ مصحفه وحمله على أولئك جميعاً وعلى المحدث حدثنا أصغر أيضاً ، إلى غير ذلك .

ولاشك أن هذه القُداسة تلفت الأنظار إليه ، وتخلع هم المؤمنين به عليه ، فيحيطون به علماً ، ويخضعون لتعاليمه عملاً . وذلك ما حدا المسلمين في كل عصر ومصر أن يُعنوا بحفظ كتاب الله حتى عصرنا الذي نعيش فيه ، فما بالك بعصر الصحابة وهو عصر العلم والنور ، والتقوى والهداية ، والنشر والدعوة ؟ !

أما بعد :

فهذه بضعة عشر عاملاً توافرت في أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم حتى حفظوا الكتاب والسنة ، وقد جمعناها لك هذا الجمع ، معتمدين أن من ورائها عوامل شخصية توافرت في بعض القراء وبعض المحدثين منهم دون بعض . والسبيل إلى تلك العوامل الشخصية دراسة تراجم أولئك القراء والمتصدِّرين لرواية الحديث من الصحابة ، فارجع إليها إن شئت ، واحرص على ما ذكرنا لك ، وضع منها أسلحة علمية مرهفة تشهرها في وجه أولئك الخونة الذين يخوضون في الصحابة بغير علم ، ويطعنون في الكتاب والسنة عن طريق الطعن فيهم بعد الحفظ والضبط .

ونحن نتحدَّى أمم العالم بهذه الدواعي التي توافرت في الصحابة حتى نقلوا الكتاب والسنة ، وتواتر عنهم ذلك خصوصاً القرآن الكريم .

« أولئك آباؤي فجنني بمثلهم إذا جمعتمنا باجريرُ الجامعِ ! »

غمرهم الله برحمته ورضوانه ، وصبَّ عليهم شآبيب جوده وإحسانه . آمين .

## ب - الجبهة الثانية

### أو عوامل تثبت الصحابة في الكتاب والسنة

الآن وقد فرغنا من عوامل حفظ الصحابة للكتاب والسنة ، نعرض على عوامل تثبتهم - رضوان الله عليهم - فيهما. فنذكر أن الناظر في تاريخ الصحابة ، يروعه ما يعرفه عنهم في تثبتهم ، أكثر مما يروعه عنهم في حفظهم ؛ لأن التثبت فضيلة ترجع إلى الأمانة الكاملة والعقل الناضج من ناحية ، ثم هو في الصحابة بلغ القمة من ناحية أخرى ، إذ كان تثبتاً بالفاء، وحذراً دقيقةً ، وحيطة نادرة ، وتحريماً عميقاً لكتاب الله تعالى وهدى رسوله ﷺ في كل ما يتصل بهما عن قرب أو بعد .

ولهذا التثبت النادر في دقته واستقصائه ، بواعث ودواع ، أو أسباب وعوامل ، يجعل بنا أن نقدّمها إليك ، كأسلحة ماضية تنافح بها عن الكتاب والسنة ، وعن الصحابة في أدائهم للكتاب والسنة .

### العامل الأول

أن الله تعالى أمر في محكم كتابه بالتثبت والتحرى ، وحذر من الطيش والتسرّع ، في الأنبياء والأخبار ، بله القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، فقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَّبِعُونَا أُن تَصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . » .

وكذلك نهى الله عن اتباع ما لا دليل عليه إلا أن تسمع الأذن ، أو ترى العين ، أو يعتد القلب عن برهان ، فقال عز من قائل : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . » .

وقد عاب القرآن على من يأخذون بالظن فيما لا يكتفي فيه الظن ، فقال الله جلَّ شأنه : « إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » إلى غير ذلك من أدلة كثيرة في الكتاب والسنة تأمر بالنظر ، وكان الصحابة هم المخاطبين بهذه التعاليم والمشافهين بها ، فلا ريب أن تكون تلك الآداب الإسلامية من أهمِّ العوامل في تثبتهم وحذرهم خصوصاً فيما يتصل بكتاب ربهم وسنة نبيهم . وبعيد كل البعد ، بل محالٌ كل الاستحالة ، أن يكونوا قد أهملوا هذا النصيح السامى ، وهم خير طبقة أُخرجت للناس .

### العامل الثانى

ما سمعوه من التهيب الشديد، ومن التهديد والوعيد، لمن يكذب على الله أو يفترى على رسوله ومصطفاه . قال الله سبحانه : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ؟ » فانظر كيف سلك الله من افترى الكذب عليه في سلك من قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ؟ ثم انظر كيف قدَّمه عليهما في الذِّكر وصدده في الوعيد ، وبعته أول من نعت بالإغراق في الظلم .

وقال سبحانه : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ » وقال سبحانه : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ . أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ؟ . » .

ونقرأ في السنة النبوية أنه ﷺ قال : « من كذب علىَّ متعمداً فليقبوا مقعدهُ من النارِ » . وهو حديث مشهور ، بل متواتر ، ورد أنه قد رواه اثنان وستون صحابياً منهم العشرة المبشرون بالجنة ، ولا يعرف حديث اجتمع عليه العشرة المبشرون بالجنة إلا

هذا، ولا حديث يروى عن أكثر من ستين صحابياً إلا هذا.

ولقد سمع الصحابة هذه الترهيبات وأمثالها. وما أمثالها في القرآن والسنة بقليل، بل لقد سمع الأصحاب نهي رسول الله ﷺ عما دون الكذب وما كان أقل من التزديد، إذ حذرهم رواية الضعفاء والمذخولين فقال: سيكون في آخر أمتي أناسٌ يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم» رواه مسلم. بل حذرهم ﷺ رواية الجهولين فقال: «إنَّ الشيطانَ ليمثلُ في صورةِ الرجلِ فيأتى القومَ فيحدثهم الكذبَ، فيتفرقونَ فيقولُ الرجلُ منهم: «سمعتُ رجلاً أعرفُ وجهه ولا أعرفُ اسمه يحدثُ كذا وكذا» رواه مسلم.

فهل يستبيح عاقل منصف لنفسه أن يقول: إن الصحابة الذين سمعوا هذه النصائح وتلك الزواجر عن التزديد والافتراء يقدمون على كذب في القرآن والسنة، أو يقصرون في الثبوت والتحرى والاحتياط في نقل الذكر الحكيم، والهدى النبوي الكريم؟! .

### العامل الثالث

أن الإسلام أمرهم بالصدق ونهاهم عن الكذب إطلاقاً، فقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» وأنت خير بأن هذا الخطاب بهذه الصيغة في هذا المقام مع تقديم الأمر بالتقوى، فيه إشارة إلى أن الصدق للمأمور به من مقتضيات الإيمان ومن دعائم التقوى، ويفهم من هذا أن من كذب واقترب، فسبيله سبيل من كفر وطغى. كما صرح سبحانه بذلك في قوله: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ» .

ويقول النبي ﷺ: «عليكم بالصدق فإنه مع البرِّ وهما في الجنة. وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار» رواه ابن ماجه .

وعن صفوان بن سليم رضى الله عنه قال: قلنا يارسول الله: أيبكون المؤمنُ جباناً قال: «نعم». قلنا: أفيكونُ بخيلاً؟ قال: «نعم». قلنا: أفيكونُ كذاباً؟ قال: «لا» أخرجه مالك، فانظر إلى الحديث الأول كيف جعل الصدق هادياً إلى البرِّ وإلى الجنة، وجعل الكذب هادياً إلى الفجور وإلى النار. ثم انظر إلى الحديث الثاني كيف اعتبر الكذب أخش من الجبن والبخل، وأخرجه في هذه الصورة الشنيعة التي لا تجتمع هي والإيمان في نفس واحدة أبداً!

وستقتضى العجب حين تعلم أن الرسول ﷺ بالغ في تقبيح الكذب حتى في توافه الأشياء ومحقرات الأمور! استمع إليه ﷺ وهو ينهى عن الكذب في المزاح بهذه الطريقة الرادعة فيقول: «ويلٌ للذي يحدثُ ليضحكُ منه القومُ فيكذب، ويلٌ له، ويلٌ له» رواه أبو داود والترمذى. ثم استمع إليه ﷺ وهو يتوعد من يكذب في منامه ويقول: «من كذب في حلمٍ كلف يومَ القيامةِ أن يعقدَ بينَ شعيرَتين، وليسَ يعاقدُ بينهما أبداً».

قل لى بربك: هل تلك الطبقة الأولى للممتازة التي سمعت ذلك وأضعاف ذلك بأذائها من فم رسولها والتي اعتنقت الإيمان بعد البحث والنظر، واعتقدته طريقاً إلى سعادتها وعزها، والتي باعت أنفسها وأموالها لله بأن لها الجنة في نعيمها وخلودها. نقول: هل تلك الطبقة الكريمة ترضى بعد ذلك كله أن تترك رأسها وتنكص على أعقابها؟ فكذب على الله ورسوله، أو لا تتحرى الصدق في كتاب الله وسنة رسوله! ذلك شططٌ بميد لا يجوز إلا على عقول المغفلين!

## العامل الرابع

أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا مُعَرِّمِينَ بالتفقه والتعلم ، مولعين بالبحث والتنقيب ، مشغوفين بكلام الله وكلام رسول الله ، يقدون المجالس لمدارسة القرآن وفهمه ، ويركبون ظهور المطايا لطلب العلم وأخذه . وكانت عناية الرسول بتعليمهم القرآن تفوق كل عناية ، بقرؤه عليهم ، ويخطبهم به ، ويزين إمامته لهم بقراءته في صلاته ، وفي دروسه وعظاته . وكان فوق ذلك يجب أن يسمعه منهم كما يجب أن يقرأه عليهم . روى البخارى ومسلم أن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأ على القرآن . قلت : يا رسول الله . أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمع من غيرى . فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » قال : حسبك الآن . فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان .

وكذلك كان الصحابة ، همهم أن يقرأوا القرآن ويستمعوه . روى الشيخان عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف أصوات رُفَقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِاللَّيْلِ حِينَ يَدْخُلُونَ ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ » .

وروى الدارى وغيره بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول لأبى موسى الأشعري : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده القرآن . قال النوى : وقد مات جماعات من الصالحين بسبب قراءة من سألوه القراءة .

وقد سبق في عوامل حفظ الصحابة للسنة مدى عنايتهم بالإقبال عليها والاهتمام ببقاء



رسول الله ﷺ للتعلم منه والأخذ عنه . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال :  
حدّثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : كُنَّا نَدْرُسُ الْعِلْمَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ  
إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « تَعَلَّمُوا مَا سَأَلْتُمْ أَنْ تَعَلَّمُوا ، فَإِنْ يَأْجُرْكُمْ اللَّهُ  
حَتَّى تَعْمَلُوا » . رواه الدارمي موقوفاً على معاذ بسند صحيح . وكلمة العلم في هذا الحديث  
شاملة لعلم الكتاب وعلم السنة .

أليس هذا الولوع بالكتاب والسنة من دواعي تثبتهم فيهما ، كما هو من دواعي  
حفظهم لها ، لأن اشتهار الشيء وذبوعه ، واين الألسنة به ، يجعله من الوضوح والظهور ،  
بحيث لا يشوبه لَبْسٌ ، ولا يخالطه زَيْفٌ ، ولا يُقْبَلُ فيه دخيل .

### العامل الخامس

يسر الوسائل لدى الصحابة إلى أن يتثبتوا ، وسهولة الوصول عليهم إلى أن يتقنوا على  
جَلِيَّةِ الأَمْرِ ، فيما استغلق عليهم معرفته من الكتاب والسنة . وذلك لمعاصرتهم رسول الله  
ﷺ يتصلون به في حياته ، فيشفي صدورهم من الريبة والشك ، ويريح قلوبهم بما يُشِعُّ  
عليهم من أنوار العلم وحقائق اليقين .

أما بعد غروب شمس النبوة ، وانتقاله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه . فقد كان  
من السهل عليهم أيضاً أن يتصلوا بمن سمعوا بأذانهم من رسول ﷺ ، والسامعون  
يومئذ عدد كثير وجم غفير ، يساكنونهم في بلدهم ، ويمجالسونهم في نواديهم ، فإن شك  
أحدهم في آية من كتاب الله ، أو خبر عن رسول الله أمكنه التثبّت من عشرات سواه ،  
دون عَنَتٍ ولا عسر !

## العامل السادس

شجاعة الأصحاب شجاعةً فطرية ، وصراحتهم صراحةً طبيعية ، نشئوا عليهم ما مُنذُ حداثتهم ، وطبعوا عليهم بفطرتهم وبيئتهم ، كأمة متبدية لا تعرف ختل الحضارة الملوثة ، ولا تألف نفاق المدنية اللذبة . ثم جاء الإسلام فبرز فيهم هذا الخلق الفاضل ، وزادهم منه ، وبنى حضارته الصحيحة ومدنيته الطاهرة عليه ، بمثل ، ما سمعت في أصدق الحديث وخير الهدى . حتى لقد كان الرجل منهم يقف في وسط الجمهور يردُّ على أمير المؤمنين وهو يلقي خطاب عرشه ردًّا قويًّا صريحًا خسنًا . بل كانت المرأة تقف في بهرة المسجد الجامع فتقاطع خليفة المسلمين وهو يخطب ، وتعارض رأيه برأيها ، وتفرع حجته بحجتها فيما تعتقد أنه أخطأ فيه شاكلة الصواب ، وأمير المؤمنين في الحالين يغتبط بهاتيك الصراحة ويسرُّ بتلك الشجاعة ، ويعلن اغتباطه بموقف ذلك العربي الخشن الذي ردَّ عليه ، كما يعلن رجوعه عن رأيه إلى رأى هذه السيدة التي حاجته بين يديه ، وما أمر عمر بيميد عنكم ، ولا مجهول لكم ، لا عند ولايته الخلافة وهو قائم يلقي خطاب عرشه ، ولا عند ما وقف على منبره ينهى عن التغالى في مهور النساء !! .

فهل يرضى العقل والمنطق أن تُجرح هذه الأمة الصريحة القوية وتتهم بالكذب أو بالسكوت على الكذب في كلام الله ، وفي سنة رسول الله ؟ ! .

ثم ألا يحملهم هذا الخلق المشرق فيهم على كمال التثبت ودقة التحرى في كتاب الله وسنة رسول الله ؟ « لَقَدْ أَسْفَرَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ » ! .

## العامل السابع

تكافل الصحابة تكافلاً اجتماعياً فرضه الإسلام عليهم ، فجعل عيونهم مفتحة لكل من يكذب على الله ، أو يفترى على رسول الله ، أو يخوض في الشريعة بغير علم ، أو يفترى في الدين بغير حجة .

أجل : لقد كان كل واحد منهم يعتقد أنه عضو في جسم الأمة ، عليه أن يتعاون هو والمجموع في المحافظة على الملة ، ويعتقد أنه لينة في بناء الجماعة ، عليه أن يعمل على سلامتها من الدغل والزغل ، والافتراء والكذب ، خصوصاً في أصل التشريع الأول وهو القرآن وأصله الثاني وهو سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبين يديك الكتاب والسنة ، فاقراً فيهما إن شئت أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تجدها كثيرة متآخذة ، تقرر ذلك التكافل الاجتماعى الإسلامى بين آحاد الأمة ، بما لا يدع مجالاً لفترى على الله ، ولا يترك حيلة لحاطب ليل في حديث رسول الله .

استمع إلى كلام الحق وهو يحض على دعوة الخير وفضيلة النصح؛ إذ يقول سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: « وَاتَّقُوا اللَّهَ مِنْكُمْ أَئِمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ . وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » إلى أن قال جل ذكره: « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . وهكذا قدم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان به ، تنويهاً بجلالتهما . وحثاً على التمسك بجليلهما ، وإشارة إلى أن الإيمان بالله لا يُصان ولا يكون إلا بهما .

وتدبر قول الله تعالى في سورة المائدة: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ. ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ. لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» .

ثم تأمل حكم الله على بنى الإنسان جميعاً بأنهم غريقون في الخسران ، إلا من جمع عناصر السعادة الأربعة ، وهى الإيمان ، والعمل الصالح ، والتوصية بالحق ، والتوصية بالصبر فى قوله سبحانه: «وَالْعَصْرِ: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَنِفٍ خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» .

سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، وشؤفوها بخطابه من فم رسول الله عن جبريل عن الله ، ثم سمعوا بعد ذلك من كلام رسول الله أمثال ما يأتى :-

(١) يقول ﷺ : « والذى نفسى بيده لتسأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » . رواه الترمذى بسند حسن عن حذيفة رضى الله عنه .

(٢) وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ ، وَعَلَى أَنْتَرَةِ عَلَيْنَا ، وَعَلَى الْأَنْفَازِ الْأَمْرِ أَهْلَهُ ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا (أى ظاهراً) ، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ بُرْهَانٌ ، وَعَلَى أَنْ تَقُولَ الْحَقَّ أَيْنَمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ » رواه الشيخان .  
فهل بعد هذا كله يُعقل أن يعث الصحابة ، أو يقرؤوا من يعثُ بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ ! .

## العامل الثامن

تعويدهم الصدق وترويضهم عليه عملاً ، كما أُرشدوا إليه وأدبوا به فيما سمعت علماء .  
وأنت خير بأن التربية غير التعليم ، وأن العلم غير العمل ، وأن نجاح الفرد والأمة مرهون  
بمقدار ما ينهلان من رحيق التربية ، وما يَقْطِفَان من ثمرات الرياضة النفسية والقوانين  
الخلقية .

أما العلم وحده فقد يكون سلاح شقاء و نذير فناء ؛ كما نرى ونسمع ، ويالهول ما نرى  
وما نسمع !! .

ولقد أدرك الإسلام هذه الناحية الجليلة في بناء الأمم ، فأعارها كل اهتمام وعُنِيَ  
بالتنفيذ والعمل أكثر مما عُنِيَ بالعلم والكلام . ولملك لم تنس أنه ﷺ قال لمن يدرسون  
العلم في مسجد قباء تلك النصيحة الذهبية الحكيمة « تعلموا ما شئتم أن تعلموا ، فلن  
يأجركم الله حتى تعملوا » ! .

ولملك لم تنس أيضاً أن الإسلام شرع عقوبة من أشنع العقوبات ، لمن اقترف نوعاً  
من الكذب وهو نوع الخوض في الأعراض ، تلك العقوبة هي حدُّ القذف الذي  
يقول الحق جل شأنه فيه من سورة النور : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا  
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ  
هُمْ الْمُنْفِقُونَ » .

فتأمل كيف عاقب هذا القاذف الكاذب بالجلد ثمانين ، وردَّ شهادته وحكم بأنه  
من المنافقين ، بل قال : « وأولئك هم المنافقون » أى لا فاسق سواهم ولا خارج عن  
حدود الدين والأدب إلا هم !

ثم شَفَّفَ مسمعيك بما يرويه أبو داود في سننه من أن عبد الله بن عامر قال :

« جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِنَا وَأَنَا صَبِيٌّ صَغِيرٌ ، فَذَهَبْتُ لِأَلْعَبَ ، فَقَالَتْ أُمِّي : تَعَالَ حَتَّى أُعْطِيَكَ . فَقَالَ ﷺ . وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ ؟ قَالَتْ : تَمْرًا . فَقَالَ : أَمَا إِنَّكَ لَوَلِمَ تَفْعَلِي أَكْتُبْتُ عَلَيْكَ كَذْبَةً » انصوّر في هذه التربية السامية كيف لم يسمح الرسول ﷺ لأمّ أن تعدّ طفلها الصغير وعداً غير صادق ، بل يسألها: ما الذي كانت تعطيه لوجاء؟ ثم يقرر أنها لو خاست بهدها هذا لكتبها الله عليها كذبة! وهكذا يكتبني بذكر كلمة « كذبة » في هذا المقام ردعاً لها وزجراً، ومنه تعلم أن لفظ الكذب كان سوط عذاب يخيف الصحابة رجالاً ونساء . وذلك لما يسمعون عنه من شناعة ، ولما يعرفون فيه من بشاعة ! ولما تَأَصَّلَ في نفوسهم من فضيلة الصدق وشرف الحق ! أفبعد هذه التربية العالية يصحُّ أن يُقال : إن الصحابة يكذبون على الله ورسوله ولا يَتَشَبَّهُونَ ! ألا إن هؤلاء من إفكهم ليهرفون بما لا يعرفون، ويُسرفون في تجريح الفضلاء واتهام الأبرياء ولا يستحون ، فويل لهم من يومهم الذي يُوعدون !

### العامل التاسع

القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ؛ التي كانوا يجدونها في رسول الله ﷺ ماثلةً كاملةً ، جذابةً أخاذةً . ولا يَعْزُبَنَّ عن بالك أن القدوة الصالحة خير عامل من عوامل التعليم والتربية والتأديب والتهديب ، خصوصاً بين نبيٍّ ومُتَّبِعِيهِ ، وأستاذٍ ومُتَعَلِّمِيهِ ، ورئيسٍ ومرءوسيه ، وراعٍ ورعيته .

وها نحن أولاء نرى علماء النفس والاجتماع ، وأقطاب التربية والتعليم ، وبنّاء الأخلاق والأمم : نراهم لا يزالون يتحدّثون في القدوة الصالحة، ويوشّون بالقدوة الصالحة، ويبحثون عن القدوة الصالحة؛ وذلك لمكانتها من التأثير والإصلاح، والتعويم والنجاح، في الأفراد والأمم على سواء !! .

ولم يعرف التاريخ ولن يعرف قدوةً أسمى، ولا أسوةً أعلى، ولا إمامةً أسنى، من محمد ﷺ، في كافة مناحي الكمال البشري، خصوصاً خلقه الرضى، وأدبه السنى، ولا سيما صدقه وأمانته، وتحرّيه ودقته ! .

أجل : فقد كان ﷺ مشهوراً بالصدق، معروفاً بالأمانة، حتى من قبل بعثته ورسالته، فكان إذا سار أشاروا إليه بالبنان؛ وقالوا: هذا هو الصادق، وإذا حكم رضوا حكومته وقالوا: هذا هو الأمين !

وكانت هذه الفضائل المشرقة فيه، من بواعث إيمان المنصفين من أهل الجاهلية به. ولقد اضطرّ أن يشهد له بها أعداؤه الألداء، كما آمن بها أتباعه الأوفياء. فهذا أبو سفيان بن حرب زعيم حزب المعارضة له يُقرُّ بين يدي قيصر الروم بصدق محمد وأنهم لم يحفظوا عليه كذبةً واحدة قبل رسالته، ويكاد يؤمن القيصر متأثراً في جملة ما تأثر، بهذه الشهادة التي انطلق بها لسان ألدّ خصوم محمد يومئذ، ثم يقول في التعليق على كلام أبي سفيان والتنويه بصدق محمد عليه الصلاة والسلام: « ما كان (أى محمد) لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ ! والحديث طويل مشهور يرويه البخارى في صحيحه . فراجعه إن شئت .

وهذا قائل قريش يقول للنبي ﷺ في مَعْرِضٍ من المعارض : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به . وبسبب ذلك أنزل الله تعالى « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . » .

ومما يذكر بالإعجاب والفخر لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم أنه عرض الإسلام على بنى عامر بن صعصعة، وذلك قبل الهجرة، وقبل أن تقوم للدين شوكة، فقال كبيرهم: أراءيت إن نحن تابعتك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيبكون لنا الأمر من بعدك؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بتلك الكلمة الحكيمة الخالدة:

« الأمرُ لله يضعه حيثُ يشاء » ! فقال له كبيرهم أفنهدف<sup>(١)</sup> نحو رُنا للعرب دونك  
فإذا أظهرَكَ اللهُ كان الأمرُ لغيرنا ؟ لاجابة لنا بأمرِكَ .

وهنا تتجلى سياسة الإسلام ، وأنها سياسةٌ صريحةٌ مكشوفةٌ ، ورشيده شريفةٌ ،  
لا تعرفُ اللفَّ والدوران ، ولا تعتمدُ الكذب والتضليل ، كما تتجلى صراحةً نبيُّ الإسلام ،  
وصدقُ نبيِّ الإسلام ، وشرفُ نبيِّ الإسلام ؛ عليه الصلاة والسلام !! .

نعم : لقد كان محمد ﷺ في ضيقٍ أى ضيقٍ ، يحتاج إلى أقلِّ معاونة من عدو أو  
صديق ، وهذا حتى من العرب يستطيع أن يكتسبه ويتقوى به ولكنه عليه الصلاة  
والسلام ، لا يستطيع أن يعدَّ فيخلف ، ولا أن يحدث فيكذب ، ولا أن يعاهد فيمدر !  
يسألونه أن يكونوا الخلفاء من بعده إذا أسلموا فيقول بملء فيه « الأمرُ لله يضعه  
حيثُ يشاء » ولو أنه قال إن شاء الله مثلاً لدانوا له أجمعين ، وأصبحوا من حزبه وجنده  
المسلمين ! .

مرحى مرحى لسياسة الإسلام . وأخلاق نبيِّ الإسلام !! .

وإذا كانت هذه الأخلاق العليا هي منار القدوة للصحابة في رسول الله ، فكيف  
لا يقتبسون من هذه الأنوار ، ولا يضربون في حياتهم على هذه الأوتار ؟ فضلاً

---

(١) في القاموس : أهداف له الشيء عرضاً هـ .

وقال في لسان العرب ، الإهدافُ : الدنوُّ . أهداف له القومُ أى قربوا . . . وكل شيء  
قد استقبلك استقبالاً فهو مههدفٌ ومستهدف . هـ . وقال الزمخشري في أساس البلاغة :  
أهداف له الشيء واستهدف : انتصب وعرض . وقال عبد الرحمن بن أبي بكر لأبيه أبي بكر  
رضي الله تعالى عنهما : لقد أهدفت لى يوم بدر فصغتُ عنك هـ فالفعل لازم غير متعدي .  
ومعنى صفتُ عنك : ملت وأعرضت . تدبر .



عن أن يقال عنهم : إنهم يكذبون أو لا يتحرون في كتاب الله وسنة رسول الله  
« سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

### العامل العاشر

سمو تربية الصحابة على فضائل الإسلام كلها ، وكمال تأديبهم بأداب هذا الدين  
الحنيف وشده خوفهم من الله ، وصفاء نفوسهم إلى حد لا يتفق والكذب  
خصوصاً الكذب على الله تعالى ، والتجنى على أفضل الخليفة صلوات الله  
وسلامه عليه .

يقول علماء الأخلاق والمشتغلون بعلم النفس وعلوم الاجتماع : إن الكذب جنابة  
قبيحة ، لا يمكن أن يصدر إلا عن نفسٍ ساقطة لم تتأدب ، ولا يتصور أن يفشو إلا في  
شعبٍ شاذ لم يتهذب .

ونحن إذا استعرضنا تاريخ الصحابة — رضوان الله عليهم — نشاهد العجب في  
عظمة تأديب الإسلام لهم ، وتربيته إياهم تربية سامية جعلتهم أشباه الملائكة يمشون  
على الأرض ، لاسيما ناحية الصدق والأمانة ، والتمثت والتحرى والاحتياط . وذلك من  
كثرة ماقرر القرآن فيهم لهذه الفضائل ، ومن عناية الرسول ﷺ بهم علماء وعملاً  
ومراقبة، حتى أصبحوا بنعمة من الله وفضل منطبعة قلوبهم على هذه الجلائل ، متشبعة  
نفوسهم بمبادئ الشرف والنبيل ، تأبى عليهم كرامتهم أن يقاربوا الكذب أو يقارفوا  
التهجم . لاسيما التهجم على مقام الكتاب العزيز ، وكلام صاحب الرسالة ﷺ .

قالت عائشة رضي الله عنها : « ما كان خلق أشدَّ على أصحاب رسول الله ﷺ  
من الكذب . ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب  
فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه أحدث توبة لله عز وجل » رواه مسلم في مقدمة صحيحه .

## عوامل أخرى

إذا استعرضت بعض العوامل السابقة في حفظ الصحابة للكتاب والسنة ، تجد منها عوامل صالحة أيضاً لأن تكون دواعي تثبتهم في الكتاب والسنة ، ولهذا أكتفى بالإشارة إليها دون إعادتها :

١ - فذ كاه العرب وقوة حواظهم وصفاء طبعهم إلى آخر ما ذكرنا في العامل الثاني هناك . لا شك أنه داعية من دواعي تثبتهم أيضاً ، لأن الشأن فيمن نشأ على هذه الصفات ؛ أن يكون واثقاً مما حفظ ، فلا يحتاج إلى تزبُّدٍ ولا يقع في تهجم .

٢ - وحبُّ الصحابة لله ولرسوله عامل كذلك من عوامل التثبيت ، لأن الحب الصادق لا يقنع إلا بما يثق أنه كلام حبيبه من غير لبسٍ ولا شك ، ولا يرضى أن يفترى الكذب على حبيبه ، ولا يقبل أن يتقول عليه أو يتهجم في كلامه ، خصوصاً إذا عرف أنه يكره ذلك منه . ( انظر العامل الرابع من عوامل الحفظ ) .

٣ - وموقف الصحابة في محراب الفصاحة والبيان ، وعلو كعبهم في نقد الكلام ، وكال ذوقهم في إدراك إعجاز القرآن وبلاغة النبي عليه الصلاة والسلام ، كل أولئك يسر عليهم التثبيت ، ويهون عليهم أن يردوا ما ليس من كلام الله وكلام رسوله ، ضرورة أنهم يدركون الفوارق بين الأساليب الفاضلة والمفضولة ، ويزنون كلامهم بموازينهم البلاغية الصادقة . ( انظر العامل الخامس من عوامل الحفظ ) .

٤ - وعلم الصحابة بمنزلة الكتاب والسنة من الدين ، يجعلهم بلا شك يهتمون بالتثبيت منهما ، والحيطه لهما . ( انظر العامل السابع من عوامل الحفظ ) .

٥ - واقتران الكتاب بالإعجاز ، واقتران السنة ببعض العجرات والغرائب ، ثم ارتباط كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول بالحوادث والوقائع ، كل أولئك مما يجعل

النفوس تتوهم منها ولا تشبه فيهما ولا تقبل التزبد والكذب عليهما . ( انظر العامل الثامن والتاسع من عوامل الحفظ ) .  
إذا جمعت هذه العوامل وأمثالها إلى العشرة المسطورة بين يديك ، رأيت بضعة عشر عاملا من الدواعي للتوافرة ، والأدلة الفاتمة ، على أمانة الصحابة وتشبههم من الكتاب والسنة .

### مظاهر هذا التثبت

وهكذا نقصفح تاريخ الصحابة ، ونقتفي آثارهم ، فإذا هي شواهد حق على تفاضل فضيلة الصدق فيهم ، وشدة نفورهم ، ونقاء ساحتهم من الكذب وما يشبه الكذب . هذا عمر رضی الله عنه يقول : « أَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا مَا لَمْ نَرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ آمَنًا ، فَإِذَا رَأَيْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا ، فَإِذَا اخْتَبَرْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا » . وهذا على كرم الله وجهه يقول : « أعظمُ خطايا عندَ الله عزَّ وجلَّ اللسانُ الكذوبُ » . ويقول مرة أخرى : « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ ، فلأن أجزء من السماء أحبُّ إليَّ من أن أكذبَ عليه » .

وإن شئتم فاعجبوا من سعيد بن المسيب وهو أحد من ربَّاهم الصحابة : رمدت عيناه مرة حتى بلغ الرمد خارجهما ( والرمد وسخ أبيض من مجرى الدمع من العين ) فقيل له : لو مسحت عينيك . فقال : وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك فأقول : لا أفعل !؟

وتدبروا ما رواه مسلم بسنده عن مجاهد قال : جاء بشير العدوي إلى ابن عباس ، فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعل ابن عباس

لَا يَأْذَنُ لَهُ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ . فقال : يا ابن عباس ، مالي لا أراك تسمع لحديثي ، أهدئك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع ! فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول ﷺ : ابْتَدَرْتُهُ أَبْصَارُنَا ، وَأَصْغَيْنَا إِلَيْهِ بَأْذَانِنَا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف .

ومن هذا الورع البالغ والحذر الدقيق ، تخرج كثير من أكابر الصحابة عن الرواية والتحديث ، فلم يسمع منهم إلا النزر اليسير ، مع أن لديهم من رسول الله القمير الكثير . يُحَدِّثُ ابن الزبير - رضي الله عنه - فيقول : قلت لأبي : مالي لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ؟ فقال : أما إنني لم أفرقه منذ أسلمت ولكني سمعته يقول : من « كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » رواه البخاري وأبو داود .

وإذا كان هذا مظهرًا من مظاهر حذرهم واحتياطهم للسنة النبوية ، فإذا تقدر من مظاهر حذرهم واحتياطهم لكتاب الله العزيز ؟ ! إنني أعتقد أنك إذا رجعت إلى أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف ، تشاهد العجب العاجب من روائع هذه المظاهر .

فهذا عمر يأخذ بخناق هشام بن حكيم ويسوقه إلى النبي ﷺ وما نقم عليه إلا أنه قرأ سورة الفرقان على وجه لم يقرأه عمر ، ولم يكن يعرف عمر أنه هكذا نزل ، ولم يرسل عمر هشامًا حتى انتهى به إلى رسول الله ﷺ وأمره الرسول أن يرسله ، ثم استقرأها عليه الصلاة والسلام ، وقال في قراءة كليهما : « هَكَذَا أَنْزَلْتَهُ » . وقال : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَيَّ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ فَأَقْرَأُوا مَا تيسر منه » هذا ملخص ما كان بين عمر وهشام ، ومثل ذلك وقع من أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيرها مع أصحابهم ، مما تعرضه عليك الروايات المبسوطة هناك في هذا الموضوع !

أضف إلى هذا تلك الدقة البالغة التي أجلناها لك في دستور أبي بكر ودستور  
عثمان رضی الله عنهما في جمع القرآن بالصحف والمصاحف ، وهي على مقربة منك .  
فارجع إليها إن شئت .

ويشبه هذين الدستورين في جمع القرآن ، دستور أبي بكر في حماية السنة والحیطة  
لها والتثبت منها ، إذ جمع أصحاب رسول الله ﷺ وشاورهم في الأمر ، ثم انتهوا  
إلى اتباع ما يأتي :-

أن ينظروا في خبر الواحد نظرةً فاحصة ، يعرضونه على كتاب الله تعالى وماتواتر  
أو اشتهر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن خالف شيئاً منها زيفوه وردوه ،  
وإن لم يخالف نظروا نظرة ثانية فيمن جاء به ، فلا يقبلون إلا من عرف بالعدالة  
والضبط والصدق والتحرى ، وإلا طالبوه بالتزكية من طريق آخر يشهد معه ويروى  
مارواه ، وبرغم هذا وذلك فقد التزموا التقليل من الرواية لأن الإكثار مَظَنَّة الخطأ  
ومثار الاشتباه .

نعم : حدهم ورعهم وشدة خوفهم من الله ، أن يحصنوا حديث رسول الله بهذا  
الدستور الدقيق الرشيد القائم على رعاية هذه القواعد الثلاث : النظر في الخبر والنظر  
في المخبر ، والإقلال من الرواية .

ويرحم الله ابن الخطاب فقد أخذ بالأسس التي وضعها أبو بكر لحياطة الكتاب  
والسنة ، ثم بنى عليها ، وشمخ بها ، وزاد فيها ، حتى تشدد مع الأمناء الموثقين ، وضيق  
الخناق على الصحابة للكثيرين ، حتى روى أنه حبس ثلاثة من مشاهير الصحابة سنة  
كاملة ، وماتم منهم إلا أنهم أكثروا الرواية . وإذا صحَّ هذا فهو درسٌ قاسٍ من  
الفاروق لعامة الشعب في الاحتياط لأصول التشريع والتبصُّر والتدقيق في الرواية تحملاً  
وأداءً ، على حد قول الشاعر :

« إني وقتلي سئليكَا ثم أَعْفِيَهُ كَالْتَوَزِ يُضْرَبُ لِمَاعَاتِ الْبَقْرِ »

ثم جاء دور عثمان وعلي ، فحذوا حذو أبي بكر وعمر ، إذ أوى الكتاب في كنفهما إلى ركن ركين وظل ظليل ، وبقيت السنة في عهدهما رفيعة العِمَاد ، قوية السُنَاد ، حتى تلقاها بنو أمية على ما تركها الخلفاء ، بيضاء مشرقة ، ليلاً كنهارها .

ولبثت السنة في العهد الأموي معقمة بعزتها ومنعتها ، حتى طلع نجم الملك العادل عمر بن عبد العزيز ، على رأس المائة الثانية فردّد صدق جده عمر بن الخطاب ، في ضرورة صون السنة ووعيتها ، ولكن رأى أن يكون ذلك عن طريق الكتابة والنقش في السطور بعد أن وُعيت في العهد الماضي عن طريق الحفظ في القلوب والصدور . وبذلك انتقل الحديث النبوي إلى دور جديد سعيد ، هو دور التأليف والكتابة والتقييم ، مما كان له أبلغ الأثر في وصوله إلينا موزوناً بأدق موازين العلم والبحث الدقيق .

### نتيجة ذلك

ولقد كان من نتيجة ذلك كله أن أحيط الكتاب والسنة بسياج من الفولاذ والحديد ، وأن حُفظ الدين من العبث بأصول التشريع ، وأن أخذ خلف الأمة درساً قيماً عن سلفهم الصالح في ضرورة الاستبراء للدين ، واليقظة في حراسة الكتاب والسنة ، ووجوب نقد الرواة وفحص الرويات . وبهذا أيضاً أخذ الطريق على الدس والذسامين وحيكت الشباك للدجالين والوضّاعين ، وأصبح الدين الإسلامي منبع الحوزة محفوظ الذمار ، إلى درجة تفاخر بها شعوب العالم ؛ وأمم الأرض ، وأديان الدنيا ، مما لا يكاد يوجد مثله ولا قريب منه في تاريخ أية شريعة من الشرائع السماوية والوضعية ، منذ خلق الله السموات والأرض إلى يوم الناس هذا ! ! .

## الموقف خطير

ولا تحسبن أيها القارىء الكريم أنى بالفت أو أسرفت ، وإن كنت قد أطلت  
وأكثرت ، فإن هذا البحث جليل وخطير يتصل فى جلالته وخطورته بتلك الطائفة  
المتمايزة التى اختارها الله لتلقى كتابه ، ومعاصرة رسوله ﷺ وحسن النياحة عنه فى نشر  
هداية الإسلام ، والدفاع عن حجة الدين الحنيف .

أولئك هم حجر الزواحة فى بناء هذه الأمة المسلمة ، عنهم قبل غيرهم تلقت الأمة كتاب  
الله ، وحدقت سنة رسول الله ، وعرفت معالم الإسلام ، فالفض من شأنهم والتحقير لهم ،  
بل النظر إليهم بالعين المجرّدة من الاعتبار ، لا يتفق والمركز السامى الذى تبوءوه ،  
ولا يوائم المهمة الكبرى التى انتدبوا لها ونهضوا بها ، كما أن الطعن فيهم والتجريح لهم ،  
يزلزل بناء الإسلام ، ويقوّض دعائم الشريعة ، ويشكك فى صحة القرآن ، ويضيع الثقة  
بسنة سيد الأنام ! .

ومن أشد ما يجرح به الصحابة اتهامهم بسوء الحفظ وعدم الضبط ولمزهم بالكذب  
والافتراء على الله ورسوله ، ونزهم بعدم التثبت والتحجّر فى نقلهم كتاب الله وسنة رسوله  
إلى الأمة ! .

لذلك عني علماء الإسلام قديماً وحديثاً بالدفاع عن عرين الصحابة ، لأنه - كما رأيت -  
دفاع عن عرين الإسلام . ولم يكن ذلك الدفاع نزوة هوى ، ولا نبوة عصبية ، بل كان  
نتيجة لدراسات تحليلية ، وأبحاث تاريخية ، وتحقيقات بارعة واسعة ، أحصتهم عدداً ،  
ونقدتهم فرداً فرداً ، وعرضتهم على أدق موازين الرجال ، مما تباهى به الأمة الإسلامية  
كافة الأمم والأجيال .

وبعد هذا التحقيق والتدقيق ، خرج الصحابة رضى الله عنهم من بوتقة هذا  
البحث ، وإذا هم خير أمة أخرجت للناس ، وأسمى طائفة عرفها التاريخ ، وأنبل

أصحاب نبيّ ظهر على وجه الأرض، وأوعى وأضبط جماعة ما استَحْفِظُوا عليه من كتاب الله وهَدَى رسول الله ﷺ .

وقد اضطرّ أهل السنة والجماعة، أن يعلنوا رأيهم هذا كعقيدة، فقرروا أن الصحابة عدول . ولم يشذَّ عن هذا الرأي إلا المبتدعة والزنادقة قبيحهم الله . قال أبو زرعة الرازي : « إذا رأيت الرجل ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك لأن الرسول حق ، والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وإنما أدى ذلك إلينا كُله الصحابة . وهؤلاء (يعني الزنادقة) يريدون أن يجرّحوا شهودنا، ليلبثوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى ، وهم زنادقة ! اهـ .

### شهادة عليا من الله للصحابة

وفوق ما تقدم نجد الحق سبحانه وتعالى، يمدح أصحاب محمد ﷺ غير مرة، ونرى الرسول ﷺ يُطْرِي صحابته في غير موضع . اقرأ إن شئت قوله جلّ جلاله : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » إلى آخر سورة الفتح . ثم اقرأ إن شئت قوله عزّ اسمه : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » وقوله جلّت حكيمته : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » إلى قوله : « وَيُوَثَّقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » في سورة الحشر . وتأمل قوله عزّ من قائل : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » الخ ، وقوله : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » ولا ريب أن الصحابة هم المشافهون بهذا الخطاب ، فهم داخلون في مضمونه بادئ ذي بدء ، متحققون بمزاياه أول الأمر ! !



## شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه

وكذلك نقرأ في صحيح السنة ما يشهد بفضل الصحابة وكمال امتيازهم على الثقلين سوى النبيين والمرسلين . روى الترمذى وابن حبان في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرَضاً ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله فيوشك أن يأخذه » .

وروى البزار في مسنده رجال كلهم موثقون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين » وجاء في صحيح البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال في شأن أصحابه : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مدة أحدهم ولا نصيفه » . وتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم . . . » .

فأنت ترى من هذه الشهادات العالية في الكتاب والسنة ، ما يرفع مقام الصحابة إلى الذروة ، وما لا يترك لطاعن فيهم دليلاً ولا شبه دليل .

## حكمة الله في اختيار الصحابة

والواقع أن العقل المجرد من الهوى والتعصب ، يحيل على الله في حكمته ورحمته ، أن يختار لجل شريعته الختامية أمة مغموزة أو طائفة مملوذة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ومن هنا كان توثيق هذه الطبقة السكرية طبقة الصحابة ، يعتبر دفاعاً عن الكتاب والسنة وأصول الإسلام من ناحية ، ويعتبر إنصافاً أدبياً لمن يستحقونه من ناحية ثانية ، ويعتبر تقديراً لحكمة الله البالغة في اختيارهم لهذه المهمة العظيمة من ناحية ثالثة . كما أن توهينهم

والنيل منهم ، يُعَدُّ غَمَزًا في هذا الاختيار الحكيم ، ولمزًا في ذلك الاصطفاء والتكريم ،  
فوق ما فيه من هدم الكتاب والسنة والدين .

على أن المتصفح لتاريخ الأمة العربية وطبائعها ومميزاتها ، يرى من سلامة عنصرها ،  
وصفاء جوهرها ، وسمو مميزاتها ، ما يجعله يحكم مطمئنًا ، بأنها صارت خير أمة أخرجت  
للناس ، بعد أن صهرها الإسلام . وطهرها القرآن ، ونفى خبيثها سيد الأنام ، عليه  
الصلاة والسلام .

ولكن الإسلام قد ابتلى حديثًا بمثل أو بأشدّ مما ابتلى به قديمًا ، فانطلقت السنة  
في هذا العصر تُرجف في كتاب الله بغير علم ، وتخوض في السنة بغير دليل ، وتطعن في  
الصحابة دون استحياء ، وتنال من حَفَظَةِ الشريعة بلا حجة ، وتتهمهم تارة بسوء الحفظ ،  
وأخرى بالتزويد وعدم التثبت وقد زوّدناك وسأحناك فانزل في الميدان ولا تخش عداك .  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » نصرنا الله  
بنصرة الإسلام ، وثبت منا الأقدام والأقلام ، والحمد لله في البدء وفي الختام ، وصلى الله  
على سيدنا محمد وآله وصحابه الأعلام ، آمين .

## المبحث التاسع

في ترتيب آيات القرآن وسوره

معنى الآية :

آيات القرآن جمع آية ، والآية تطلق في لسان اللغة بإطلاقات :

أولها : المعجزة . ومنه قوله تعالى : « سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ »

أي معجزة واضحة .

ثانيها : العلامة . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ » أى علامة ملكه .

ثالثها : العبرة . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى عبرة لمن يعتبر .

رابعها : الأمر العجيب . ومنه قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا آبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً »

خامسها : الجماعة . ومنه قولهم : خرج القوم بأيهم أى بجماعتهم . والمعنى أنهم لم يدعوا وراءهم شيئاً .

سادسها : البرهان والدليل ، نحو قوله جلّ ذكره : « وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » والمعنى أن من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال ، خلق عوالم السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان . تلك كلها إطلاقات لغوية ، وقد يستلزم بعضها بعضاً . ثم خُصَّت الآية في الاصطلاح بأنها طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن ، والمناسبة بين هذا المعنى الاصطلاحى والمعانى اللغوية السالفة واضحة ، لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها ، ثم هى علامة على صدق من جاء بها ﷺ ، وفيها عبرة وذكري لمن أراد أن يتذكر ، وهى من الأمور العجيبة لسكانها من السموات والإعجاز ، وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف ، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم ، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته ، وعلى صدق رسوله فى رسالته .

طريقة معرفة الآية :

لا سبيل إلى معرفة آيات القرآن إلا بتوقيف من الشارع، لأنه ليس للقياس والرأى مجال فيها، وإنما هو محض تعليم وإرشاد، بدليل أن العلماء عدّوا « ألمص » آية، ولم يعدّوا نظيرها وهو « المر » آية، وعدّوا « بس » آية، ولم يعدّوا نظيرها وهو « طس » آية، وعدّوا « حمسق » آيتين، ولم يعدّوا نظيرها وهو « كهيمص » آيتين، بل آية واحدة، فلو كان الأمر مبنيًا على القياس لكان حكم المثليين واحدًا فيما ذكر، ولم يجيء هكذا مختلفًا.

ذلك مذهب الكوفيين، لأنهم عدّوا كل فاتحة من فوائح السور التي فيها شيء من حروف الهجاء آية سوى حمسق، فإنهم عدّوها آيتين، وسوى طس. ولم يعدّوا من الآيات ما فيه « ر » وهو « آر » و « المر »، وما كان مفرداً وهو « ق، ص، ن » أي لم يعدّوا شيئاً منها آية.

وغير الكوفيين لا يعتبرون شيئاً من الفوائح آية إطلاقاً. وحيث قلنا: إن المسألة توقيفية، فلا يشتهن عليك هذا الخلاف. لأن كلاً وقف عند حدود ما بلغه أو علمه. ولا تقولن كيف عدّوا ما هو كلمة واحدة آية؟ لأن الوارد عن الشارع هو هذا، كما عدت كلمة « الرحمن » في صدر سورة الرحمن آية، وكما عدت كلمة « مدهامتان » آية، وقوفاً عند الوارد.

أخرج البخارى وأبو داود والنسائى عن أبى سعيد بن المعلى قال : كنتُ أصلى فى المسجدِ ، فدعانى رسولُ الله ﷺ فلم أجبهُ ، ثم أتيتُهُ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ إني كنتُ أصلى . فقال : ألم يقل الله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ » . ثم قال : لأعلمنك سورةً هى أعظمُ السورِ فى القرآنِ قبلَ أنْ تخرُجَ منَ المسجدِ ثمَّ أخذَ بيدي ، فلما أرادَ أنْ يخرُجَ قلتُ له : ألم تقل :

لأعلمنك سورةً هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: الحمد لله رب العالمين « هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته ، اه . فهذا الحديث يدل على أن الفاتحة سبع آيات ، وعلى أنها هي المرادة بالسبع المثاني في قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » .

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي هريرة أنه قال : قال النبي ﷺ « إن لكل شيء سنماً ، وإن سنماً ، القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هي سيدة آي القرآن : آية الكرسي » اه .

وأخرج مسلم والترمذي عن أبي بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا المنذر . أتدرى أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، ف ضرب في صدري وقال لي هنك العلم أبا المنذر » اه .

وأخرج الخمسة إلا النسائي عن أبي مسعود البدرى أنه قال : قال النبي ﷺ : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » اه .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود قال « أقرأني رسول الله صلى عليه وسلم سورة من الثلاثين من آل حم » قال : يعني الأحقاف ، لأن السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين .

وقال ابن العربي : ذكر النبي صلى الله عليه وسلم : « أن الفاتحة سبع آيات ، وسورة الملك ثلاثون آية » اه .

رأى آخر :

وبعض العلماء يذهب إلى أن معرفة الآيات ، منه ما هو سماعيٌّ وتوقيفيٌّ ، ومنها ما هو قياسيٌّ ، ومرجع ذلك إلى الفاصلة ، وهي الكلمة التي تكون آخر الآية ، نظيرها قرينة السجع في النثر ، وقافية البيت في الشعر . يقولون : فما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم

وقف عليه دائماً تحققتنا أنه فاصلة ، وما وصله دائماً تحققتنا أنه ليس فاصلة ، وما وقف عليه مرةً ووصله أخرى احتمال الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة أو لتعريف الوقف التام أو للاستراحة ، واحتمل الوصل أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها ، وفي هذا مجال للقياس ، وهو ما ألحق غير المنصوص عليه بالنصوص عليه لأمر يقتضى ذلك . ولا محذور فيه لأنه لا يؤدي إلى زيادة ولا نقصان في القرآن ، وإنما غاية تعيين محل الفصل أو الوصل .

وقد يلاحظ في الكلمة الواحدة من القرآن أمران ، يقتضى أحدهما عدّها من الفواصل ، والآخر يقتضى خلاف ذلك . مثال ذلك كلمة « عليهم » الأولى في سورة الفاتحة ، منهم من يعتبرها رأس آية ، ومنهم من لا يراها كذلك . وسبب هذا أنهم اختلفوا في البسمة أم هي آية من الفاتحة أم لا ؟ مع اتفاقهم على أن عدد آيات الفاتحة سبع . فالذين ذهبوا إلى أن البسمة آية من الفاتحة جعلوا « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » إلى آخر السورة آية واحدة . والذين ذهبوا إلى أن البسمة ليست آية منها جعلوا الآية السابعة ما بعد كلمة « عَلَيْهِمْ » الأولى ، واعتبروا هذه الكلمة فاصلة لوقوعها في آخر الآية السادسة . ومن المرجحات لعدّها فاصلة تحقّق التناسب بين الآيات في المقدار ، بخلاف ما إذا لم يعتبر فاصلة فإن هذه الآية الأخيرة تطول وتزيد على ما سواها كثيراً . ومن المرجحات لعدم عدّها فاصلة أنها لا تشاكل فواصل الفاتحة ، فإنه جاء في كل واحدة منها قبل الحرف الأخير بامتداد بخلاف هذه . أضف إلى ذلك أنه لم تجيء فاصلة على هذا النمط في سورة من السور .

واعلم أنه قد تطلق الآية القرآنية ويراد بعضها أو أكثر . ولكن على ضرب من الحجاز والتوشع ، فلا تتوقفن فيه . مثال إطلاق الآية على بعضها ، قول ابن عباس : أَرْجَى آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » فإن هذه

الجملة الكريمة بعض آية باتفاق . ومثال إطلاق الآية على أكثر منها قول ابن مسعود :  
« أَحْكُمُ آيَةً » فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .  
فإنهما آيتان باتفاق .

### عدد آيات القرآن :

قال صاحب التبيان مانصه : وأما عدد آي القرآن فقد اتفق العادون على أنه ستة  
آلاف ومائتا آية وكسر ، إلا أن هذا الكسر يختلف مبلغه باختلاف أعدادهم :  
ففي عدد المدني الأول سبع عشرة ، وبه قال نافع .

وفي عدد المدني الأخير أربع عشرة عند شيبه ، وعشر عند أبي جعفر .  
وفي عدد المكي عشرون .

وفي عدد الكوفي ست وثلاثون . وهو مروى عن حمزة الزيات .

وفي عدد البصري خمس ، وهو مروى عن عاصم الجحدري . وفي رواية عنه أربع ،  
وبه قال أيوب بن المتوكل البصري ، وفي رواية عن البصريين أنهم قالوا : تسع عشرة ،  
وروى ذلك عن قتادة .

وفي عدد الشامي ست وعشرون وهو مروى عن يحيى بن الحارث الذماری ١٥٠ .  
وقال صاحب التبيان أيضاً قبل ذلك مانصه : « عدد المكي منسوب إلى عبد الله  
ابن كثير أحد السبعة ، وهو يروى ذلك عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب .  
وعدد المدني على ضربين : عدد المدني الأول وعدد المدني الأخير . فعدد المدني  
الأول غير منسوب إلى أحد بعينه . وإنما نقله أهل الكوفة عن أهل المدينة مُرسلاً ،  
ولم يسموا في ذلك أحداً ، وكانوا يأخذون به وإن كان لهم عدد مخصوص .  
وعدد المدني الأخير منسوب إلى أبي جعفر بن يزيد بن القعقاع أحد العشرة ، وشيبة  
ابن نَصَّاح . وقد رواه عنهما إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري بواسطة

سليمان بن جاز . وقد وهم من نسب عددالمدني الأول إلى أبي جعفر وشيبة ، وعددالمدني الأخير إلى إسماعيل بن جعفر . وكان الذي أوقعه في ذلك ما ذكر في بعض الكتب من أن نافعا روى عنهما عددالمدني الأول ، وأن أبا عمرو عرض العدد المذكور على أبي جعفر ، فإن رواية ذلك عنهما لا تقتضى نسبه إليهما . وأما نسبة عددالمدني الأخير إليهما فهو مما لا ريب فيه « ٥١ . ما أردنا نقله ، تنويراً في هذا الموضوع ، الذي اضطربت فيه بعض النقول .

### سبب هذا الاختلاف :

سبب هذا الاختلاف أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي تعليماً لأصحابه أنها رؤوس آي ، حتى إذا علموا ذلك وصل ﷺ الآية بما بعدها طلباً لتمام المعنى ، فيظن بعض الناس أن ما وقف عليه النبي ﷺ ليس فاصلة ، فيصلها بما بعدها معتبراً أن الجميع آية واحدة ، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها . وقد علمت أن الخطب في ذلك سهل ، لأنه لا يترتب عليه في القرآن زيادة ولا نقص .

وآيات القرآن مختلفة في الطول والقصر ، فأطول آية هي الذين في سورة البقرة التي هي أطول سورة ، وأقصر آية كلمة « يس » الواقعة في صدر سورة يس .

### فوائد معرفة الآيات :

يزعم بعض الناس أنه لا فائدة من معرفة آيات القرآن . والرد عليهم نذكر لهذه المعرفة ثلاث فوائد لا فائدة واحدة :

( الفائدة الأولى ) : العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم . وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل بطولها تلك الثلاث القصار . ووجه ذلك أن الله تعالى أعلن التحدي بالسورة الواحدة فقال سبحانه : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ



عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ « والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة . وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر ، وهي ثلاث آياتٍ قصار . فثبت أن كل ثلاث آياتٍ قصار معجزة ، وفي قوتها الآية الواحدة الطويلة التي تسكفها .

( الفائدة الثانية ) : حسن الوقف على رءوس الآي عند من يرى أن الوقف على الفواصل سنة ، بناءً على ظاهر الحديث الذي استدلوا به فيما يرويه أبو داود عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية ، يقول « بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقف . « الحمد لله رب العالمين » ثم يقف . « الرحمن الرحيم » ثم يقف .

قال صاحب التبيين في موضع آخر ما نصه : ( قال بعض العلماء : وفي الاستدال به - أي بذلك الحديث - على ما ذكر نظر ، وذلك لأنه حديث غريب غير متصل الإسناد . رواه يحيى بن سعد الأموي وغيره عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة . والأصح ما رواه الليث عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مالك أنه سأل أم سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته فقالت : ما لكم وصلاته ؟ ثم نعتت قراءته مفسرة حرفاً حرفاً . ذكر ذلك الترمذي ) ١ هـ .

أقول : ويمكن الجمع بين هذين الحديثين بأن النبي ﷺ كان تارة يقف على كل فاصلة ولو لم يتم المعنى ، بياناً لرءوس الآي . وكان تارة يتبع في الوقف تمام المعنى فلا يلتزم أن يقف على رءوس الآي ، لتسكون قراءته مفسرة حرفاً حرفاً . وعلى هذا يمكن أن يقال : حينما كان الناس في حاجة إلى بيان الآيات حسن الوقف على رءوس الآي ، ولو لم يتم المعنى ، وحينما كان الناس في غنى عن معرفة رءوس الآي لم يحسن الوقف إلا حيث يتم المعنى .

ويحتمل أن كلمة «مفسرةً حرفاً حرفاً» في الحديث الآنف يراد بها الترتيل وإخراج الحروف من مخارجها ، فلا تعارض الحديث الأول .

( الفائدة الثالثة ) اعتبار الآيات في الصلاة والخطبة؛ قال السيوطي مانصه: « يترتب على معرفة الآي وعددها وفواصلها أحكام فقهية ، منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة ، فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات . ومنها اعتبارها في الخطبة ، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة ، ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويلة ، وكذا الطويلة على ما حققه الجمهور . ثم قال : ومنها اعتبارها في السورة التي تقرأ في الصلاة أو ما يقوم مقامها ، وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الصبح بالسنتين إلى المائة . ومنها اعتبارها في قراءة قيام الليل إلى آخر ما قال » اهـ ما أردنا نقله . بيد أنه نقل عن الهذلي في كامله مانصه : « اعلم أن قوماً جهلوا العدد وما فيه من الفوائد حتى قال الزعفراني : إن العدد ليس بعلم ، وإنما اشتغل به بعضهم ليرؤج به سوقه . قال : وليس كذلك فقيه من الفوائد معرفة الوقف ، ولأن الإجماع انقصد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية . وقال جمع من العلماء : تجزئ بآية ، وآخرون بثلاث آيات ، وآخرون لا بد من سبع . والإعجاز لا يقع بدون آية . فللمد فائدة عظيمة في ذلك » اهـ غير أننا لا ندرى ما الذي أراده الهذلي على التعيين من كلامه هذا ؟ ولا عن أي مذهب يتحدث ؟ .

### ترتيب آيات القرآن

انقصد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم بالمصاحف ، كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، وأنه لا مجال لظرائر والاجتهاد فيه . بل كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول صلى الله عليه وسلم ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها . ثم يقرؤها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه ،

ويأمر كتاب الوحي بكتابتها معينا لهم السورة التي تكون فيها الآية ، وموضع الآية من هذه السورة. وكان يتلوه عليهم مرارا وتكرارا في صلاته وعظاته وفي حكمه وأحكامه. وكان يعارض به جبريل كل عام مرة ، وعارضه به في العام الأخير مرتين . كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في المصاحف . وكذلك كان كل من حفظ القرآن أوشبثا منه من الصحابة ، حفظه مرتب الآيات على هذا النمط . وشاع ذلك وذاع ، وملا البقاع والأسماع ، يتدارسونه فيما بينهم ، ويقروونه في صلاتهم ، ويأخذ بعضهم عن بعض ، ويسمعه بعضهم من بعض بالترتيب القائم الآن فليس لواحد من الصحابة والخلفاء الراشدين يدٌ ولا تصرفٌ في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم . بل الجمع الذي كان على عهد أبي بكر لم يتجاوز نقل القرآن من العسب واللاخاف وغيرها في صحف ، والجمع الذي كان على عهد عثمان لم يتجاوز نقله من الصحف في مصاحف . وكلا هذين كان وفق الترتيب المحفوظ المستفيض عن النبي ﷺ عن الله تعالى . أجل : انمقد الإجماع على ذلك تاما لا ريب فيه . ومن حكي هذا الإجماع جماعة ، منهم الزركشي في البرهان ، وأبو جعفر في المناسبات إذ يقول ما نصه : ( ترتيب الآيات في سورها واقعٌ بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين ) .

واسمند هذا الإجماع إلى نصوص كثيرة منها ما سبق لك قريبا ، ومنها ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخصَ ببصره ثم صوبه ثم قال : « أتاني جبريلُ فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى** » إلى آخرها .

ومنها ما ثبت في السنن الصحيحة من قراءة النبي ﷺ بسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء ومن قراءته لسورة الأعراف في صلاة المغرب وسورة « **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** » وسورة الروم في صلاة الصبح ، وقراءة سورة السجدة وسورة « **هَلْ أَتَى عَلَى**

الْإِنْسَانَ « في صبح يوم الجمعة ، وقراءته سورة الجمعة والمنافقين في صلاة الجمعة ، وقراءته سورة ق في الخطبة وسورة اقتراب وق في صلاة العيد ، كان يقرأ ذلك كله مرتب الآيات على النحو الذي في المصحف على مرأى ومسمع من الصحابة .

ومنها ما أخرجه البخارى عن ابن الزبير قال قلت لعثمان بن عفان : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا » نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها ( والمعنى لماذا تكتبها ؟ أو قال لماذا تتركها مكتوبة ؟ مع أنها منسوخة ) قال يابن أخى لا أغير شيئاً من مكانه .

فهذا حديث أبلغ من الصبح في أن إثبات هذه الآية في مكانها مع نسخها توقيفي لا يستطيع عثمان باعترافه أن يتصرف فيه ، لأنه لا مجال للرأى في مثله .

ومنها : ما رواه مسلم عن عمر قال : ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله حتى طعن بأصبعه في صدرى ، وقال : « تكفيك آية الصَّيْفِ التي في آخر سورة النساء » .

فأنت ترى أنه ﷺ دله على موضع تلك الآية من سورة النساء ، وهى قوله سبحانه : « يَسْتَفْتُونَكَ ؟ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » الخ .

#### ملاحظة :

ذكر بعضهم أن كلمات القرآن ٧٧٩٣٤ أربع وثلاثون وتسعمائة وسبعة وسبعون ألف كلمة ، وذكر بعضهم غير ذلك . قيل وسبب الاختلاف في عدد الكلمات أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ، ولفظ ورسم ، واعتبار كل منها جائز ، وكل من العلماء اعتبر أحدها هو جائز ؛ قال السخاوى : « لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة ، لأن ذلك إن أفاد فإنما يفيد في كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان . والقرآن لا يمكن فيه ذلك » اهـ ولكن

ورد من الأحاديث في اعتبار الحروف ما أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فلهُ بِهِ حَسَنَةٌ . والحسنةُ بِعَشْرٍ أمثالها ، لا قول : « آلم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » وأخرج الطبراني عن عمر ابن الخطاب مرفوعاً « القرآنُ ألفُ ألفِ حرفٍ وسبعةٌ وعشرونَ ألفَ حرف ، فمن قرأه صابراً مُحْتَسِباً كان له بكلِّ حرفٍ زوجةٌ من الحُورِ العِينِ » . قال السيوطي بعد أن أورده: رجاله ثقات إلا شيخ الطبراني محمد بن عبيد بن آدم بن أبي إياس تسكلم فيه الذهبي ثم قال : وقد حمل ذلك ( أي العدد المذكور في هذا الحديث ) على ما نسخ رسمه من القرآن ، إذ الموجود الآن لا يبلغ هذا العدد ، وهو يريد أن هذا الرقم الكبير الذي روى في هذا الحديث ملحوظ فيه جميع الحروف النازلة من القرآن ما نسخ منها وما لم ينسخ والله تعالى أعلم .

#### شبهة وتفنيدها

يقولون : إن ابن أبي داود أخرج بسنده ، عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : « أتى الحارثُ بنُ خزيمَةَ بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال : أشهدُ أنني سمعتُهما من رسولِ اللهِ وَوَعَيْتُهما . فقال عمر : أنا أشهدُ لقد سمعتُهما ثم قال : لو كانتا ثلاثَ آيات لجعلتها على حِدَةٍ ، فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها في آخرها » يقولون : هذا الحديث يدل على أن ترتيب الآيات لم يكن في القرآن كله بتوقيف ، وإنما كان عن هَوَى من الصحابة وعن تصرف منهم ولو في البعض .

ونجيب : ( أولاً ) بأن هذا الخبر معارض للقاطع ، وهو ما أجمعت عليه الأمة . ومعارض القاطع ساقط عن درجة الاعتبار ، فهذا خبر ساقط مردود على قائله .

( ثانياً ) أنه معارض لما لا يُحصى من الأخبار الدالة على خلافه ، وقد تقدم كثير منها . بل لابن أبي داود مخرجه خبر يعارضه ، ذلك أنه أخرج أيضاً عن أبي أنهم

جمعوا القرآن ، فلما انتهوا إلى الآية التي في سورة براءة : « مُنَّم أَنْصَرَ فُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » ظنوا أن هذه آخر ما نزل ، فقال أبي : إن رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ » إلى آخر السورة .

## ترتيب السور

معنى السورة :

السورة في اللغة تطلق على ما ذكره صاحب القاموس بقوله : « والسورة : الْمَنْزِلَةُ ، ومن القرآن معروفة ، لأنها منزلة بعد منزلة : مقطوعة عن الأخرى ، والشرف ، وما طال من البناء وحسن ، والعلامة ، وعرق من عروق الحائط » ٥١ .

ويمكن تعريفها اصطلاحاً ، بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع . قالوا : وهي مأخوذة من سور المدينة . وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة ، وآية بجانب آية ، كالسور توضع كل آية فيها بجانب لبنة ، ويقام كل صف منه على صف .

وإما لما في السورة من معنى العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو السور ورفعته الحسية ، وإما لأنها حصن وحماية لحمد ﷺ وما جاء به من كتاب الله القرآن ، ودين الحق الإسلام ، باعتبار أنها معجزة تخرس كل مكابر ، ويحقُّ الله بها الحق ويبطل الباطل ، ولو كره الجرمون . أشبه بسور المدينة ، يُحَصِّنُهَا ويحميها غارة الأعداء ، وسطوة الأشقياء . وسور القرآن مختلفة طولاً وقصراً . فأقصر سورة فيه سورة الكوثر ، وهي ثلاث آيات قصار . وأطول سورة فيه سورة البقرة ، وهي خمس وثمانون أوست وثمانون ومائتا آية . وأكثر آياتها من الآيات الطوال . بل فيها آية الدين التي هي أطول آية في القرآن كما سبق . وبين سورة البقرة وسورة الكوثر سور كثيرة تختلف طولاً وتوسطاً وقصراً ومرجع الطول

والقصر والتوسط وتحديد المطلع والمقطع ، إلى الله وحده ، لحكم سامية ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها .

### حكمة تسوير السور :

لتجزئة القرآن إلى سور فوائده وحكم :

« منها: التيسير على الناس وتشويقهم إلى مدارس القرآن وتحفظه، لأنه لو كان سبيكة واحدة لا حلقات بها لصعب عليهم حفظه وفهمه ، وأعيانهم أن يخوضوا عباب هذا البحر الخضم الذي لا يشاهدون فيه عن كثبٍ مرافي ولا شواطي .

ومنها : الدلالة على موضوع الحديث ومحور الكلام ، فإن في كل سورة موضوعاً بارزاً تتحدث عنه ، كسورة البقرة ، وسورة يوسف ، وسورة النمل ، وسورة الجن .  
ومنها : الإشارة إلى أن طول السورة ليس شرطاً في إعجازها ، بل هي معجزة وإن بلغت الغاية في القصر كسورة الكوثر .

قال صاحب الكشاف في فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً كثيرة مانصه: منها (أى الفوائد) أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف، كان أحسن وأنعم من أن يكون باباً واحداً .

ومنها : أن القارى إذا أتم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا قطع ميلاً أو فرسخاً نفس ذلك عنه ونشط للسير ، ومن ثم جزئ القرآن أجزاءً وأخاساً .

ومنها : أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها ، فيعظم عنده ما حفظه ، ومنه حديث أنس : « كَانَ الرَّجُلُ

إِذْ قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدًّا فِينَا . . . وَمَنْ نَمَّ كَانَتْ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ بِسُورَةِ أَفْضَلِ .

ومنها : أن التفصيل بحسب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض ، وبذلك تتلاحق المعاني والنظم ، إلى غير ذلك من الفوائد « ١ هـ .

### أقسام السور :

قسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام ، خضوا كلامها باسم معين ، وهي : الطوال ، والمئين ، والمثنى ، والمفصل . فالطوال سبع سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . فهذه ستة ، واختلفوا في السابعة أي الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة أم هي سورة يونس ؟؟ .

والمئون : هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .

والمثنى : هي التي تلي المئين في عدد الآيات وقال الفراء : هي السور التي آياتها أقل من مائة آية لأنها ثنئى ( أى تكرر ) أكثر مما تُثنئى الطوال والمئون .

والمفصل : هو أواخر القرآن ، واختلفوا في تعيين أوله على اثني عشر قولاً ، فقيل

أوله « ق » ، وقيل غير ذلك ، وصحح النووي أن أوله الحجرات . وسمى بالمفصل لكثرة الفصل بين سورته بالبسملة ، وقيل لقلة المنسوخ منه ، ولهذا يسمى المحكم أيضاً ، كما روى البخارى عن سعيد بن جبير قال : « إن الذى تدعونه المفصل هو المحكم » .

والمفصل ثلاثة أقسام : طوال ، وأوساط ، وقصار . فطواله من « أول الحجرات »

إلى سورة « البروج » . وأوساطه من سورة « الطارق » إلى سورة « لم يكن » . وقصاره

من سورة « إذا زلزلت » إلى آخر القرآن .



### المذاهب في ترتيب السور :

اختلف في ترتيب السور على ثلاثة أقوال : ( الأول ) أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبي ﷺ ؛ إنما كان باجتهاد من الصحابة . وينسب هذا القول إلى جمهور العلماء ، منهم مالك والقاضي أبو بكر فيما اعتمده من قوايه . وإلى هذا المذهب يشير ابن فارس في كتاب المسائل الخمس بقوله : « جمع القرآن على ضربين : أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين ، فهذا هو الذي تولته الصحابة رضی الله عنهم . وأما الجمع الآخر وهو الآيات في السور ، فذلك شيء تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه عز وجل .

وقد استدلوا على رأيهما هذا بأمرين : (أحدهما) أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان ، فلو كان هذا الترتيب توقيفياً منقولاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ما ساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه ويختلفوا فيه ذلك الاختلاف الذي تصوّرناه لنا الروايات . فهذا مصحف أبي بن كعب ، روى أنه كان مبدوءاً بالفاحة ، ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، ثم الأنعام . وهذا مصحف ابن مسعود كان مبدوءاً بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران الخ على اختلاف شديد . وهذا مصحف علي كان مرتباً على النزول ، فأوله « اقرأ » ثم المدثر ثم « ق » ، ثم المزمل ، ثم « تبت » ثم التكويم ، وهكذا إلى آخر المسك والمدني .

(الدليل الثاني) : ما أخرجه ابن أشته في المصاحف من طريق إسماعيل بن عباس عن حبان بن يحيى عن أبي محمد القرشي قال : « أمرهم عثمان أن يتابعوا الطوال فجعل سورة الأنفال وسورة التوبة في السبع ، ولم يفصل بينهما بيسم الله الرحمن الرحيم » اه ولعله يشير بهذا إلى ما رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : « قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من الثاني ، وإلى براءة وهي من

المئين، فقرنت بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ووضعتوها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان رضي الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول : ضموا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً . وكانت قصتها شبيهة بقصتها . فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما . ولم أكتب بينهما سطر « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ووضعتهما في السبع الطوال » ٥١ .

ويمكن أن يناقش هذا المذهب بالأحاديث الدالة على التوقيف وستأتيك في الاحتجاج للقول الثاني . ويمكن أيضاً مناقشة دليلهم الأول باحتمال أن اختلاف من خالف من الصحابة في الترتيب ، إنما كان قبل علمهم بالتوقيف ، أو كان في خصوص ما لم يرد فيه توقيف دون ما ورد فيه . ويمكن مناقشة دليلهم الثاني بأنه خاصٌ بحمل وروده ، وهو سورة الأنفال والتوبة ويونس ، فلا يصح أن يصاغ منه حكم عام على القرآن كله .

#### القول الثاني :

أن ترتيب السور كلها توقيفي بتعليم الرسول ﷺ كترتيب الآيات وأنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر منه ﷺ . واستدل أصحاب هذا الرأي بأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف منهم أحد . وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف ، لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم . لكنهم لم يتمسكوا بها بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم ، وعدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها ، ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعاً . ثم ساقوا روايات لمذهبهم كأدلة يستند إليها الإجماع .

منها مارواه الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفى قال كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف . إلى أن جاء في هذه الرواية ما نصه :

فقال لنا رسول الله ﷺ : « طرأ على حزب من القرآن فأردتُ ألا أخرجَ حتى أفضيه فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاثَ سورٍ ، وخمسَ سورٍ ، وسبعَ سورٍ ، وتسعَ سورٍ ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من « ق » حتى نختم . قالوا : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

لكن هذه الدلالة غير ظاهرة فيما نفهم ، اللهم إلا في ترتيب حزب المفصل خاصة بخلاف ما سواه .

واحتجوا المذهب أيضاً بأن السور المتجانسة في القرآن لم يلتزم فيها الترتيب والولاء ، ولو كان الأمر بالاجتهاد للوحد مكان هذا التجانس والتماثل دائماً ، لكن ذلك لم يكن ، بل دليل أن سور المسبحات لم ترتب على التوالي بينما هي متماثلة في افتتاح كل منها بتسبيح الله . بل فصل بين سورها بسورة « قد سمع » والمتمحنة والمنافقين ، وبدليل أن ( طسم الشعراء وطسم القصص ) لم يقابلا مع تماثلهما ، بل فصل بينهما بسورة أقصر منهما وهي « طس » .

وقد أيد هذا المذهب أبو جعفر النحاس فقال : « المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ لحديث وائله : أعطيتُ مكان التوراة السبع الطوال » . وكذلك انتصر أبو بكر الأنباري لهذا المذهب فقال : أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم فرقته في بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمرٍ يحدث ، والآية جواباً لاستخبر ، ويقف جبريلُ النبي ﷺ على موضع السورة والآيات والحروف . كله من النبي صلى الله عليه وسلم فن قدم سورة أو آخرها أفسد نظم القرآن . »

وأخرج ابن أشتة في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل لم قدمت البقرة وآل عمران وقد أنزل قبلهما بضع وثمانون

سورة بمكة، وإنما أنزلنا بالمدينة؟ فقال: قدمتا وألّف القرآن على علم من ألقه به. إلى أن قال: فهذا مما يُذتّهى إليه ولا يُسأل عنه اهـ.

ويمكن مناقشة هذا المذهب (أولاً): بأن الرواية التي ساقوها وأمثالها خاصة بمعالها، فلا ينسحب حكم التوقيف على الكل. ثم هي ظنية في إفادة كون الترتيب عن توقيف.

(ثانياً): أن حديث ابن عباس السابق في القول الأول صريح في أن عثمان كان قد اجتهد في ترتيب الأنفال والتوبة ويونس.

(ثالثاً): أن الإجماع الذي استندوا إليه لا يدل على توقيف في ترتيب جميع السور؛ لأنه لا يشترط أن يستند الإجماع إلى نص في ترتيب جميع السور، فحسب الصحابة أن يحملهم الاجتهاد الموفق على أن يُجمعوا على ترتيب عثمان للسور ويتركوا ترتيب مصاحفهم، توحيداً لكلمة الأمة، وقطعاً لمرق النزاع والفتنة، إذا ترك كلٌّ رأيه في هذا الترتيب.

### القول الثالث:

أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي ﷺ، وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة وقد ذهب إلى هذا الرأي فطاحل من العلماء. ولعله أمثل الآراء، لأنه وردت أحاديث تفيد ترتيب البعض كما مرّ بك من الرأى الثاني القائل بالتوقيف، وخلا البعض الآخر مما يفيد التوقيف. بل ووردت آثار تصرّح بأن الترتيب في البعض كان عن اجتهاد كالحديث الآنف في القول الأول الروى عن ابن عباس.

بيد أن المؤيدين لهذا المذهب اختلفوا في السور التي جاء ترتيبها عن توقيف والسور التي جاء ترتيبها عن اجتهاد. فقال القاضي أبو محمد بن عطية: «إن كثيراً من السور

قد علم ترتيبها في حياة النبي ﷺ كالسبع الطوال والحواميم والمفصل. وأما ما سوى ذلك فيمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده .

وقال أبو جعفر بن الزبير : الأثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ، ويبقى فيها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف كقوله ﷺ « اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران » رواه مسلم .

وكحديث سميد بن خالد : « قرأ رسول الله ﷺ بالسبع الطوال في ركعة » رواه ابن أبي شيبه في مصنفه . وفيه « أنه عليه الصلاة وسلم كان يجمع المفصل في ركعة » وروى البخاري عن ابن مسعود أنه قال صلى الله عليه وسلم في بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إِنْهُمْ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ ، وَهُمْ مِنْ تِلَادِي » (١)

(١) العتاق : جمع عتيق ، وهو القديم من كل شيء ، والمراد بالعتاق هنا ما نزل أولا . والتلاد - بكسر التاء وفتحها - ضد الطارف وهو المستحدث . من المال ونحوه . والمراد بالتلاد هنا ، ما نزل أولا أيضا . قال في المختار : وفي الحديث « هُنَّ مِنْ تِلَادِي » يعني السور ، أي من الذي أخذته من القرآن قديما .

فذكرها نسفا كما استقر ترتيبها . وفي صحيح البخاري أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ قل هو الله أحد ، والمعوذتين .

وقال السيوطي ما نصه : الذي ينشر له الصدر ما ذهب إليه البيهقي ، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأبفال . ولا ينبغي أن يستدل بقراءة سور أولا على أن ترتيبها كذلك . وحينئذ فلا يرد حديث قراءة النساء

قبل آل عمران ، لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب . ولعله فعل ذلك لبيان الجواز « ٥١ » .

والأمر على كل حال سهل ، حتى لقد حاول الزركشي في البرهان أن يجعل الخلاف من أساسه لفظياً فقال : والخلاف بين الفريقين - أي القائلين بأن الترتيب عن اجتهاد ، والقائلين بأنه عن توقيف - لفظي ، لأن القائل بالثاني يقول : إنه رمز إليهم ذلك ، لهمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ، ولهذا قال مالك : إنما ألّفوا القرآن على ما كانوا يسمونه من النبي ﷺ مع قوله بأن ترتيب السور كان باجتهاد منهم ، قال الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي ، أو بمجرد إسناد فعلي ، بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر ، وسبقه في ذلك جعفر بن الزبير « ٥١ » .

### احترام هذا الترتيب :

وسواء أكان ترتيب السور توقيفياً أم اجتهادياً فإنه ينبغي احترامه ، خصوصاً في كتابه المصاحف ، لأنه عن إجماع الصحابة ، والإجماع حجة . ولأن خلافه يجرُّ إلى الفتنة ، ودرء الفتنة وسدُّ ذرائع الفساد واجب .

أما ترتيب السور في التلاوة ، فليس بواجب ، إنما هو مندوب . وإليك ما قاله الإمام النووي في كتابه التبيان إذ جاء في هذا الموضوع بما نصه : « قال العلماء : الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ، ثم ما بعدها على الترتيب ، سواء أقرأ في الصلاة أم في غيرها ، حتى قال بعض أصحابنا : إذا قرأ في الركعة الأولى سورة « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » يقرأ في الثانية بمد الفاتحة من البقرة .

قال بعض أصحابنا : ويستحبُّ إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها . ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جُعل هكذا لحكمة ، فينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشرع باستثنائه ، كصلاة الصبح يوم الجمعة ، يقرأ في الأولى سورة السجدة ، وفي الثانية « هَلْ أَعَلَى الْإِنْسَانِ » . وصلاة العيد في الأولى « ق » ، وفي الثانية « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » . وركعتي الفجر في الأولى « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفي الثانية « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » . وركعات الوتر في الأولى « سَبِّحْ آمَنَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » وفي الثانية « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفي الثالثة « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » وَالْمَعْوَذَاتَيْنِ .

ولو خالف المواولة فقرأ سورة لا تلي الأولى ، أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها ، جاز؛ فقد جاءت بذلك آثار كثيرة . وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الركعة الأولى من الصبح بالكهف ، وفي الثانية بيوسف .

وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف . وروى ابن أبي داود عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه في المصحف . وبإسناده الصحيح عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له : إن فلانا يقرأ القرآن منكوساً فقال : « ذلك منكوس القلب » .

وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعا متأكداً ، لأنه يذهب بعض ضروب الإعجاز ، ويُرْبِلُ حكمة ترتيب الآيات . وقد روى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي الإمام التابعي الجليل وعن الإمام مالك بن أنس أنهما كرها ذلك ، وأن مالكاً كان يعيبه ويقول : هذا عظيم . . . وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن ، وليس هذا من الباب ، فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة ، على ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم ، والله أعلم . اهـ رحمه الله .

شبهتان خفيفتان :

( الشبهة الأولى ) ، يقولون : كيف كان ترتيب القرآن توقيفياً مع أن مصاحف

الصحابة كانت مختلفة ؟ .

والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القائلين بأن ترتيب السور كلها اجتهادى أما القائلون بأن منه اجتهادياً ومنه توقيفياً ، فمن السهل الجواب عنهم بأن الاختلاف بين الصحابة وقع في القسم الاجتهادى لا التوقيفى . وأما القائلون بأن ترتيب السور كله توقيفى ، فيمكن الجواب عنهم بأنهم اختلفوا فيما اختلفوا قبل أن يعلو التوقيف فيه . ولما جمع عثمان القرآن على هذا الترتيب علموا ما لم يكونوا يعلمونه ، ولذلك تركوا ترتيب مصاحفهم ، وأخذوا بترتيب عثمان . ويهوّن الأمر في اختلاف مصاحفهم أنها كانت مصاحف فردية ، لم يكونوا يكتبونها للناس إنما كانوا يكتبونها لأنفسهم ، فبداهة أن الواحد منها لم يُثبت فيها إلا ما وصل إليه بمجوده الفردى ، وقد يفوته ما لم يفته سواه من تحقيق أدق أو علم أوسع . ولهذا كان يوجد بتلك المصاحف الفردية بعض آيات قد تكون منسوخة ، وربما لم يبلغ صاحب ذلك المصحف نسخها . وقد يهمل صاحب المصحف إثبات سورة لشهرتها وغناها بهذه الشهرة عن الإثبات ، كما ورد أن مصحف ابن مسعود لم تكن به الفاتحة . وقد يكتب صاحب المصحف ما يرى أنه بحاجة إليه من غير القرآن في نفس المصحف كما تقدم ذلك في قنوت الحنفية الذى روى أن بعض الصحابة كان قد كتبه بمصحفه وسماه سورة الخلع والحفد .

( الشبهة الثانية ) يقولون : كيف يكون ترتيب القرآن توقيفياً على حين أن رواية

ابن عباس السابقة تصرح بأن عثمان لم يسمع في شأن ترتيب الأنفال مع براءة شيئاً إنما هو اجتهاد ونظر منه ؟ .



والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القول بأن الترتيب اجتهادى ، ولا على القول بأن منه اجتهاديا ومنه توقيفيا . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن اجتهاد عثمان كان فيما لم يرد فيه توقيف من الشارع .

أما القول بأن ترتيب السور كله توقيفى ، فقد أجابوا على هذه الشبهة بجوابين :

( أولهما ) : أن حديث ابن عباس هذا غير صحيح لأن الترمذى - وهو راويه - قال فى

تخرجه : إنه حسن غريب لا يعرف إلا من طريق يزيد الفارسى عن ابن عباس . ويزيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديثه الذى انفرد به فى ترتيب القرآن .

( ثانيهما ) : أنه على فرض صحته يجوز أن جواب عثمان لابن عباس كان قبل أن يعلم

بالتوقيف ثم علمه بعد ذلك . لكن يرد على هذا الجواب أن الرواية تفيد أن جواب عثمان

هذا كان بعد جمع القرآن وترتيب سوره ، فكيف كان توقيفياً وعمان هو الجامع والمرتب ولا يعلم دليل التوقيف ؟ .

## المبحث العاشر

فى كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه وما يتعلق بذلك

### ١ - الكتابة

معروف أن الأمة العربية كانت موسومة بالأمية مشهورة بها لا تدرى ما الكتابة ولا الخط . وجاء القرآن يتحدث عن أميتها هذه فقال : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا أفراد قلائل فى قریش ، تعلموا الخط ودروسه قبيل الإسلام

وكان ذلك كان إرهاباً من الله وتمهيداً لمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وتقرير دين الإسلام، وتسجيل الوحي المنزل عليه بالقرآن، لأن الكتابة أدعى إلى حفظ التنزيل وضبطه، وأبعد عن ضياعه ونسيانه .

وكادت تتفق كلمة المؤرخين على أن قريشاً في مكة لم تأخذ الخط إلا عن طريق حرب بن أمية بن عبد شمس . لكنهم اختلفوا فيما أخذ عنه حرب . فرواية أبي عمرو الداني تذكر أنه تعلم الخط من عبد الله بن جدعان ، وفيها يقول زياد بن أنعم : « قلت لابن عباس : معاشر قريش هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي تجمعون فيه ما اجتمع ، وتفرقون فيه ما افترق ، هجاء بالألف واللام والميم ، والشكل والقطع ، وما يكتب به اليوم ؟ قال ابن عباس : نعم . قلت : فمن علمكم الكتابة ؟ قال : حرب بن أمية ، قلت : فمن علم حرب بن أمية ؟ قال : عبد الله بن جدعان ، قلت : فمن علم عبد الله بن جدعان ؟ قال : أهل الأنبار ، قلت : فمن علم أهل الأنبار ؟ قال : طاريء طراً عليهم من أهل اليمن من كندة ، قلت : فمن علم ذلك الطاريء ؟ قال : الخليل بن الموهب كان كاتب هود نبي الله عز وجل . »

أما رواية الكلبي فتقص علينا أن حرباً تعلم الكتابة من بشر بن عبد الملك ؛ وفيها يقول عوانة : « أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم ، مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدره ، وكذا عامر بن جذرة ، وهم من عرب طي . تعلموه من كاتب الوحي لسيدنا هود عليه السلام ، ثم علموه أهل الأنبار ، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرها . فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم في بلاد العراق ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان فتعلم منه جماعة من أهل مكة » اهـ .

ومن هنا وجد عدد يحذق الخط والكتابة قبيل الإسلام ، ولكنهم نزر يسير  
بجانب تلك الكثرة الغامرة من الأميين . وفي ذلك يمتنُّ رجل من أهل دومة الجندل  
على قریش فيقول :

« لا تبحدوا نعاء بشرٍ عليكمو فقد كان ميمون النقيية أزهررا  
أناكم بخط الجزم<sup>(١)</sup> حتى حفظتمو من المال ما قد كان شتى مبعثرا  
فأجريت الأقلام عوداً وبدأة وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا  
وأغنيتمو عن مسند الحى حميرٍ ومازرت في الصحف أقلام حميرا»

أولئك أهل مكة . أما أهل المدينة فكان بينهم أهل الكتاب من اليهود ، وقد  
دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وفيها يهودى يعلم الصبيان الكتابة ، وكان فيها بضعة  
عشر رجلاً يحذقون الكتابة ، منهم المنذر بن عمرو ، وأبى بن وهب ، وعمرو بن سعيد  
وزيد بن ثابت الذى تعلم كتابة اليهود بأمر من النبي ﷺ .

### شأن الكتابة فى الإسلام :

ثم جاء الإسلام ، فخارب فيما حارب أمية العرب ، وعمل على محوها ، وطفق  
يرفع من شأن الكتابة ويعلى من مقامها . وإن كنت فى شك ، فهذه أوائل آيات نزلن  
من القرآن الكريم ، يشيد الحق فيها بالقلم ، وما يعلم الله عباده بوساطة القلم ، إذ يقول  
جلت جكته : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » إلى أن قال : « وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ،  
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وهذه سورة « ن » يخالف العلى الأعلى فيها بالقلم وما يسطرون ، إذ يقول « نَّ وَالْقَلَمِ  
وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . » وهذا من أروع ألوان التنبيه إلى  
جلال الخط والكتابة ومزاياها .

(١) سمي بالجزم لأنه جزم - أى قطع - من الخط المسمى بالسند ، وهو خط حمير .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع أصحابه دفعا إلى أن يتعلموا الخطَّ ويحذقوا الكتابة ، ويهيئ لهم السهل بكل ما يستطيع من وسيلة مشروعة .  
حتى لقد ورد أن المسلمين في غزوة بدر أسروا ستين مشركا فكان مما يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم في فداء الواحد منهم أن يعلم عشرة من أصحابه الكتابة والخط .  
وهكذا أعلن الرسول بعمله هذا أن القراءة والكتابة عدلان للحرية ، وهذا منتهى ما تصل إليه المهمم في تحرير شعب أمي من رق الأمية .  
وبمثل هذه الطريقة أخذت ظلمات الأمية تقبضد بأفوار الإسلام شيئا فشيئا ، وحل محلها العلم والكتابة والقراءة . وهذا من أدل الأدلة على أن الإسلام دين العلم والحضارة والمدنية .

### النبي ﷺ يقرأ ويكتب :

حتى لقد قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم عرف القراءة والكتابة في آخر أمره بعد أن قامت حجته . وعلت كلمته ، وعجز العرب في مقام التحدى عن أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الذي جاء به ، وكان الحكمة في ذلك هي الإشارة إلى شرف الخط والكتابة .  
وأن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم في أول أمره إنما كانت حالا وقتية اقتضاها إقامة الدليل والإعجاز واضحا على صدق محمد في نبوته ورسالته ، وأنه مبعوث الحق إلى خليفته ولو كان وقتئذ كاتباً قارئاً وهم أميون ، لراحت شبهتهم في أن ماجاء به نتيجة اطلاع ودرس ، وأثرُ نظر في الكتب وبحث .

وفي هذا المعنى يقول سبحانه :

« وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَنْ لَا رِتَابَ

الْمُبْطُونِ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ \* .

قال العلامة الألوسي بعد تفسيره لهذه الآية ما نصه : واختلف في أنه صلى الله عليه وسلم أكان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا ؟ فقيل إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة ، واختاره البغوي في التهذيب ، وقال : إنه الأصح . وادعى بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها ، وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية ، فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب<sup>(١)</sup> تعرف الكتابة حينئذ . وروى ابن أبي شعبة وغيره : « ما مات ﷺ حتى كتب وقرأ » ونقل هذا للشعبي فصدقه وقال : سمعت أقواما يقولونه وليس في الآية ما ينافيه . وروى ابن ماجه عن أنس قال : قال ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بي مكتوبا على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرضُ بثمانية عشر » .

ثم قال : ويشهد للكتابة أحاديث في صحيح البخاري وغيره كما ورد في صلح الحديبية : فأخذ رسول الله ﷺ الكتابَ وليسَ يحسنُ يكتبُ فكتبَ : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . الحديث .

ومن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروي ، وأبو الفتح النيسابوري ، وأبو الوليد الباجي من المغاربة ، وحكاه عن السمتاني . وصنف فيه كتابا ، وسبقه إليه ابن منية . ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه ، وكتب به إلى علماء الأطراف ، فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتاب بعد أميته صلى الله عليه وسلم لاتنافي المعجزة ، بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم .

(١) لعل مراده بهذه الكلمة ، ظهور فساد الارتياب وأنه لا قيمة له .

وقد ردَّ بعض الأجلة كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » . وقال : كل ما ورد في الحديث من قوله « كتب » فعناه أمر بالكتابة ، كما يقال : كتب السلطان بكذا لفلان . وتقديم قوله تعالى : « مِنْ قَبْلِهِ » على قوله سبحانه : « وَلَا تَخْطُوهُ » كالصريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً . وكون القيد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطرد . وظنَّ بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده ، فقال : يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب ، ولو لا هذا الاعتبار ، لكان الكلام خلوّاً عن الفائدة . وأنت تعلم أنه لو سلمَّ ما ذكره من الرجوع ، لايتم أمر الإفادة إلا إذا قيل بحجية المفهوم ، والظان بمن لا يقول بحجيته .

ثم قال الألويسي في تفنيد هذه الردود مانصه :

« ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ليس نصّاً في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام . ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو وأكثر من بعث إليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب أميون ، لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد . وأما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالكتابة ، بخلاف الظاهر . وفي شرح صحيح مسلم للنووي عليه الرحمة نقلاً عن القاضي عياض ، إن قوله في الرواية التي ذكرناها : « ولا يحسن يكتب فكتب » كالنص في أنه ﷺ كتب بنفسه ، فالمدلول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه ثم قال : « وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة ، وشنعت كل فرقة على الأخرى في هذا . فإله تعالى أعلم » اه .

وأقول إن التشنيع ليس من أدب العلماء ولا من أدب الباحثين . والمسألة التي نحن بصدها مسألة نظرية . والحكم في أمثالها يجب أن يكون لما رجع من الأدلة لاللهوى

والشهوة . ونحن إذا استعرضنا حُجج هؤلاء وهؤلاء نلاحظ أن أدلة أميته ﷺ قطعية يقينية . وأن أدلة كونه كتب وخطَّ بيمينه ظنية غير يقينية ، ولم يدع أحد أنها قطعية يقينية . ثم إن التعارض ظاهرٌ فيما بين هذه وتلك . غير أنه تعارض ظاهريٌّ يمكن دفعه بأن نحمل أدلة الأمية على أولى حالاته صلى الله عليه وسلم ، وأن نحمل أدلة كتابته على أخريات حالاته ؛ وذلك جمعاً بين الأدلة . ولا ريب أن الجمع بينها أهدى سبيلاً من إعمال البعض وإهمال البعض ، مادام في كلٍّ منها قوة الاستدلال ، وما دام الجمع ممكناً على أية حال . أما لو لم يمكن الجمع فلا مشاحة حينئذ في قبول القطعي ورد الظني ؛ لأن الأول أقوى من الثاني « وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً » .. هذا هو الميزان الصحيح ، لدفع التعارض والترجيح ، فاحكم به عند الاختلاف والاشتباه ، « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

### كتابة القرآن :

بعد ما قصصنا عليكم من تلك الفدلسكة التاريخية ، في الخطوط والكتابة العربية ، نلقت نظرك إلى أن كتابة القرآن ، وفيهاها بحثها في مبحث جمع القرآن ( من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٥٦ ) وذكرنا هناك كيف كتبت القرآن ؟ وفيم كتبت ؟ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم على عهد عثمان ( رضی الله عنهما ) .

ومنه تعلم أن عناية الرسول ﷺ وأصحابه بكتابة القرآن ، كانت عناية فائقة . بذلك على هذه العناية أن النبي ﷺ كان له كتاب يكتبون الوحي ، منهم الأربعة الخلفاء ، ومعاوية ، وأبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت ابن قيس ، وأرقم بن أبي ، وحنظلة بن الربيع ، وغيرهم . فكان ﷺ إذا أنزل عليه شيء يدعو أحد كتّابه هؤلاء ، ويأمره بكتابة ما نزل عليه ، ولو كان كلمة ، كما روى أنه

لما نزل عليه قوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ  
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » قال ابن أم مكتوم وعبد الله  
ابن جحش : يا رسول الله، إنا أعميان، فهل لنا رخصة ؟ فأنزل الله « غير أولي الضرر » .  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائتموني بالكتف والدواة » وأمر زيداً  
أن يكتبها . فكتبها فقال زيد « كأنى أنظرُ إلى موضعها عند صدع الكتف » .  
ورواية البخارى اقتضرت هنا على عبد الله بن أم مكتوم وليس فيها ابن جحش .  
ولعلك لم تنس حديث ابن عباس : « كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة  
دعا بعض من يكتب ، فقال : « ضعوا هذه في الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا » .  
وقوله صلى الله عليه وسلم « من كتب عنى شيئاً غير القرآن فليمحجه » وقول أبى بكر لزيد  
ابن ثابت : إنك رجل شاب لا تفهمك . وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ .  
أضف إلى ذلك أن الصحابة كانوا يكتبون القرآن فيما يتيسر لهم حتى فى العظام  
والرقاع وجريد النخل ورقيق الحجارة ونحو ذلك مما يدل على عظيم بلائهم فى هذا الأمر  
الجلل ! (رضى الله عنهم أجمعين) .



## ب - رسم المصحف

رسم المصحف يراد به الوضع الذي ارتضاه عثمان رضى الله عنه فى كتابة كلمات القرآن وجر وفه . والأصل فى المكتوب أن يكون موافقاً تمام الموافقة للمنطوق ، من غير زيادة ولا نقص ، ولا تبديل ولا تغيير . لكن المصاحف العثمانية قد أهمل فيها هذا الأصل ، فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفاً لأداء النطق ، وذلك لأغراض شريفة ظهرت وتظهر لك فيما بعد .

وقد عني العلماء بالكلام على رسم القرآن وحصر تلك الكلمات التي جاء خطها على غير مقياس لفظها . وقد أفرده بعضهم بالتأليف منهم الإمام أبو عمرو الداني إذ ألف فيه كتابه المسمى «المتنع» . ومنهم العلامة أبو عباس المراد كشي إذ ألف كتاباً أسماه : «عنوان الدليل فى رسوم خط التنزيل» . ومنهم العلامة الشيخ محمد بن أحمد الشهير بالمتولى إذ نظم أرجوزة سماها «اللؤلؤ المنظوم فى ذكر جملة من الرسوم» ثم جاء العلامة المرحوم الشيخ محمد خلف الحسيني شيخ المقاريء بالديار المصرية ، فشرح تلك المنظومة ، وذيّل الشرح بكتاب سماه «مرشد الخيران إلى معرفة ما يجب اتباعه فى رسم القرآن» .

### قواعد رسم المصحف :

وللمصحف العثماني قواعد فى خطه ورسمه ، حصرها علماء الفن فى ست قواعد ، وهى الحذف ، والزيادة ، والهمز ، والبديل ، والفصل والوصل ، وما فيه قراءتان فقريء على إحداها . وهالك شيئاً عنها بالإجمال ، ليكون الفرق بينها وبين مصطلح الخطوط فى عصرنا على بال منك :-

(قاعدة الحذف) : خلاصتها أن الألف تحذف من إاء النداء نحو «يأيتها الناس»

ومن ها التنبيه نحو « هأنتم » ومن كلمة « نا » إذا وليها ضمير نحو « أنجبناكم »<sup>(١)</sup> ومن لفظ الجلالة « الله » ، ومن كلمة « إله » ، ومن لفظي « الرحمن ، وسبحان » ، وبعد لام نحو كلمة « خلائف » وبين اللامين في نحو « السكّالة » ومن كل مُشْتَقِي نحو « رجلان » ، ومن كل جمع تصحيح لذكر أو لمؤنث نحو « سَمَاعُونَ ، المومِنَات » ، ومن كل جمع على وزن مفاعل وشبهه نحو « المساجد ، والنصارى » ، ومن كل عدد نحو « ثلاث » .  
ومن البسطة ، ومن أول الأمر من سأل ، وغير ذلك ، ( إلا ما استثنى من هذا كله ) .  
وتحذف الياء من كل منقوص منون رفعا وجرا ، نحو « غَيْرَ بَاقٍ وَلَا عَادٍ » .  
ومن هذه الكلمات : « أَطِيعُونَ ، اتَّقُونَ ، خَافُونَ ، آزْهَبُونَ ، فَأَرْسَلُونَ ، وَأَعْبُدُونَ » ، ( إلا ما استثنى ) .

وتحذف الواو : إذا وقعت مع واو أخرى في نحو : « لَا يَسْتَوُونَ ، فَأَوْوُوا إِلَى الكهف » .

وتحذف اللام : إذا كانت مدغمة في مثلها نحو « الليل ، والذي » ( إلا ما استثنى ) .  
وهناك حذف لا يدخل تحت قاعدة كحذف الألف من كلمة « مالك » وكحذف الياء من « إبراهيم » ، وكحذف الواو من هذه الأفعال الأربعة : « وَيَدْعُوا الْإِنْسَانَ ، وَيَحْجُوا اللَّهَ الْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُوا الدَّاعِ ، سَنَدْعُو الزَّبَانِيَةَ » .

( قاعدة الزيادة ) . خلاصتها أن الألف تزداد بعد الواو في آخر كل اسم مجموع أو في حكم المجموع ، نحو : « مُلَاقُوا رَبَّهُمْ ، بَنُوا إِسْرَائِيلَ ، أُولُوا الْأَنْبَابِ » . وبعد الهجزة المرسومة واوا نحو « تَاللَّهِ تَفْتَأُ » فإنها ترسم هكذا : « تَاللَّهِ تَفْتَوُا » . وفي كلمات « مِائَةٌ ، وَمِائَتَيْنِ ، وَالظُّنُونِ ، وَالرُّسُولِ ، وَالسَّبِيلِ » ، في قوله تعالى : « وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » .  
« وَأَطْمَعْنَا الرَّسُولَا » . « فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » .

(١) كل هذه الأمثلة ترسم بدون ألف هكذا : أنجبنيكم . إله . الرحمن . الخ .

وتزاد الياء في هذه الكلمات: « نبيأ ، آناء ، من تلقاء . بأيكم المفتون ، بأيدي »  
من قوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيدي » .  
وتزاد الواو في نحو « أولو ، أولئك ، أولاء ، أولات » .

« قاعدة الهمز » خلاصتها أن الهمزة إذا كانت ساكنة تكتب بحرف حركة ما قبلها  
نحو « أئذن ، أوئمن البأساء » ، ( إلا ما استثنى ) . أما الهمزة المتحركة ، فإن كانت  
أول الكلمة واتصل بها حرف زائد ، كتبت بالألف مطلقاً ، سواء أكانت مفتوحة أم  
مكسورة نحو « أيوب ، أولو ، إذا ، سأصرف ، سأنزل ، فبأي » ( إلا ما استثنى ) .  
وإن كانت الهمزة وسطاً ، فإنها تكتب بحرف من جنس حركتها ، نحو « سأل ،  
سئل ، تقرأوه » ( إلا ما استثنى ) . وإن كانت متطرفة كتبت بحرف من جنس حركة  
ما قبلها نحو « سبأ ، شاطيء ، أوأؤ » ( إلا ما استثنى ) وإن سكن ما قبلها حذفت<sup>(١)</sup> نحو  
« ملء الأرض ، يخرج الخبء » ( إلا ما استثنى ) . والمسئنيات كثيرة في الكل .  
( قاعدة البدل ) : خلاصتها أن الألف تكتب واواً للتفخيم في مثل الصلاة والزكاة  
والحياة ، ( إلا ما استثنى ) وترسم ياء إذا كانت منقلبة عن ياء نحو « بتوقاًكم ، يا حسرتنا  
يا أسناً » . وكذلك ترسم الألف ياءً في هذه الكلمات : « إلى ، على ، أنى . بمعنى كيف ؟ .  
متى ، بلى ، حتى ، لدى » ما عدا « لدى الباب » في سورة يوسف ، فإنها ترسم ألفاً .  
وترسم النون ألفاً في نون التوكيد الخفيفة ، وفي كلمة « إذن » .

وترسم هاء التأنيث تاء مفتوحة في كلمة « رحمت » بالبقرة والأعراف ، وهود  
ومريم ، والروم ، والزخرف . وفي كلمة « نعمة » بالبقرة ، وآل عمران ، والمائدة ،  
 وإبراهيم ، والنحل ، ولقمان ، وقاطر ، والطور . وفي كلمة « لعنة الله » . وفي كلمة

(١) أي حذفت من الحرف ورسمت مفردة .

معصية « بسورة قلم سمع . وفي هذه الكلمات : « إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ، قُرَّةَ عَيْنٍ ،  
جَنَّةُ نَعِيمٍ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ » وفي كلمة امرأة أضيفت إلى زوجها نحو «امرأة عمران ، امرأة  
نوح » وفي غير ذلك .

(قاعدة الوصل والفصل) : خلاصتها أن كلمة « أن » بفتح الهمزة توصل بكلمة  
« لا » إذا وقعت بعدها . ويستثنى من ذلك عشرة مواضع . منها : « أن لا تقولوا ،  
أن لا تميدوا إلا الله » .

وكلمة « من » توصل بكلمة « ما » إذا وقعت بعدها . ويستثنى « من ماملكت  
أيمانكم » في الفساد والروم ، « ومن مارزقناكم » في سورة المنافقين .  
وكلمة « من » توصل بكلمة « من » مطلقا .

وكلمة « عن » توصل بكلمة « ما » . إلا قوله سبحانه « عن ما هوا عنه » .  
وكلمة « إن » بالكسر توصل بكلمة « ما » التي بعدها ، إلا قوله سبحانه :  
« وإن ما ترينك » .

وكلمة « أن » بالفتح توصل بكلمة « ما » مطلقا من غير استثناء .  
وكلمة « كل » توصل بكلمة « ما » التي بعدها ، إلا قوله سبحانه « كل ما ردوا  
إلى الفتية ، من كل ما سألتوه » .

وتوصل كلمات « نعمًا ، وربما ، وكأنا ، ويكأن » . ونحوها .  
(قاعدة ما فيه قرأتان) خلاصتها أن الكلمة إذا قرئت على وجهين ، تكتب  
برسم أحدهما ، كما رسمت الكلمات الآتية بلا ألف في المصحف وهي : مالك يوم الدين ،  
يخادعون الله وواعدنا موسى ، تفادوهم ، ونحوها ، وكلها مقروءة بإثبات الألف  
وحذفها . وكذلك رسمت الكلمات الآتية بالتاء المفتوحة ، وهي غياية الجب ، أنزل  
عليه آية ، في المنكبوت « ثمرة من أكامها » في فصلت ، « وم في العرقة آمنون »

في « سبأ » . وذلك لأنها جمعاء مقروءة بالجمع والإفراد . وغير هذا كثير ، وحسبنا ما ذكرناه للتبثيل والتنوير .

### مزايا الرسم العماني :

لهذا الرسم مزايا وفوائد :

(الفائدة الأولى) الدلالة في القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان ، وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر ، كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر . فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذي هو خلاف الأصل ، وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذي هو الأصل . وإذا لم يكن في الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رُسمت به ، مثال الكلمة تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجوه متعددة قوله تعالى : « إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ أِن » رُسمت في المصحف العماني هكذا : « إِنْ هَذَا لَسَاحِرَان » من غير نقط ولا شكل ولا تشديد ولا تخفيف في نوني إِنْ وهذان ، ومن غير ألف ولا ياء بعد الذال من هذان .

وحجىء الرسم كما ترى ، كان صالحاً عندهم لأن يُقرأ بالوجوه الأربعة التي وردت كلها بأسانيدهم صحيحة . ( أولها ) قراءة نافع ومن معه إذ يشددون نون « إِنْ » ويخففون « هَذَا » بالألف .

(ثانيها) : قراءة ابن كثير وحده إذ يخفّف النون في « إِنْ » ويشدد النون في « هَذَا » .

(ثالثها) قراءة حفص إذ يخفّف النون في « إِنْ » و « هَذَا » بالألف .

(رابعها) : قراءة أبي عمرو بتشديد « إن » وبالياء وتخفيف النون في « هذين » فتدبر هذه الطريقة المثلى الضابطة لوجوه القراءة لتعلم أن سلفنا الصالح كان في قواعد رسمه للمصحف أبعد منا نظراً وأهدى سبيلاً .

### القاعدة الثانية :

إعادة الهماني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة ، وذلك نحو قطع كلمة « أم » في قوله تعالى : « أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » ووصلها في قوله تعالى : « أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إذ كتبت هكذا « أمن » بإدغام الميم الأولى في الثانية وكتابتها ميمًا واحدة مشددة ، فقطع أم الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أم المنقطعة التي بمعنى بل ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست كذلك .

### القاعدة الثالثة :

الدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة « أيدٍ » من قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ » إذ كتبت هكذا « بأيدٍ » وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي : زيادة الميم تدل على زيادة المعنى .

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو وهي :

« وَيَدْعُوا الْإِنْسَانَ ، وَيَمْخُؤُا اللَّهُ الْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُوا الدَّاعِ ، سَنَدْعُوا الزَّبَانِيَةَ » فإنها كتبت في المصحف العثماني هكذا : « وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ ، وَيَمْخُ اللهُ ، الْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » ولكن من غير شط ولا شكل في الجميع .

قالوا: والسرُّ في حذفها من « وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ » هو الدلالة على أن هذا الدعاء سهل على الإنسان يسارع فيه كما يسارع إلى الخير ! بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير . والسرُّ في حذفها من « وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ » الإشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله .

والسرُّ في حذفها من « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » الإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين . والسرُّ في حذفها من « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » الإشارة إلى سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش ! ويجمع هذه الأسرار قول المراكشي :  
« والسرُّ في حذفها من هذه الأربعة سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود » ا هـ .

#### الفائدة الرابعة :

الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة ياء في قوله سبحانه « وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى » إذ كتبت هكذا « وَإِيتَائِي ذِي الْقُرْبَى » ومثل كتابة الضمة واوًا في قوله سبحانه : « سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ » إذ كتبت هكذا ( سأوريكم ) ومثل ذلك الدلالة على أصل الحرف نحو الصلاة والزكاة إذ كتبا هكذا : « الصلوة ، الزكوة » ليفهم أن الألف فيهما معقلبة عن واو . ( من غير نقط ولا شكل كما سبق ) .

#### الفائدة الخامسة :

إفادة بعض اللغات الفصيحة ، مثل كتابة هاء التانيث تاء مفتوحة دلالة على لغة طيبي ، وقد تقدمت الأمثلة لهذا النوع . ومثل قوله سبحانه : « يَوْمَ يَأْتِي لَّا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » كتبت بحذف الياء هكذا « بَاتِ » للدلالة على لغة هذيل .

الفائدة السادسة :

حملُ الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال ، ولا يتكلموا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة . وينضوى تحت هذه الفائدة مزيتان : ( إحداهما ) التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيبه وتجويدهم . فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف ، مهما تكن قاعدة رسمه واصطلاح كتابه . فقد تخطى المطبعة في الطبع ، وقد يخفى على القارئ بعض أحكام تجويده ، كإثباته والإظهار والإخفاء والإدغام والروم والإشمام ونحوها ، فضلاً عن خفاء تطبيقها .

ولهذا قرّر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها . بل لابدّ من التثبت في الأداء والقراءة ، بالأخذ عن حافظٍ ثقة . وإن كنت في شكٍ فقل لي بربك : هل يستطيع المصحف وحده بأي رسم يكون ، أن يدل قارئاً أياً كان على النطق الصحيح بفوائج السور الكريمة ؟ مثل « كهيعص حم عسق ، طسم » ؟ ؟ ؟ ومن هذا الباب الروم والإشمام في قوله سبحانه « مالك لا تأمنا على يوسف » من كلمة « لا تأمنا » !

( المزية الثانية ) اتصال السند برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وتلك خاصة من خواص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم . قال ابن حزم : « نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم مع الأئصال ، خص الله به المسلمين دون سائر الملل . وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد في كثير من كتب اليهود ، ولكن لا يقربون فيه من موسى قريباً من محمد صلى الله عليه وسلم . بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عاماً . إنما يبلغون إلى شمعون ونحوه . ثم قال : وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق . وأما



النقل المشتمل على طريق فيه كذاب أو مجهول العين، فكثير في نقل اليهود والنصارى،  
وأما أقوال الصحابة والتابعين، فلا يمكن اليهود أن يبلغوا صاحب نبي أو تابعي، ولا  
يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولص « ١٠ هـ

### هل رسم المصحف توقيفي؟

للعلماء في رسم المصحف آراء ثلاثة :

(الرأى الأول) : أنه توقيفي لا يجوز مخالفته . وذلك مذهب الجمهور . واستدلوا  
بأن النبي ﷺ كان له كُتَّاب يكتبون الوحي ، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم  
وأقرَّهم الرسول على كتابتهم ، ومضى عهده ﷺ والقرآن على هذه السكتبة لم يحدث  
فيه تغيير ولا تبديل . بل ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع الدستور لكتّاب الوحي  
في رسم القرآن وكتابته . ومن ذلك قوله لماوية وهو من كتّبة الوحي : « أَلَيْقِ اللَّهِ وَآءَ  
وَحَرَفِ الْقَلَمِ وَأَنْصَبِ الْبَاءِ ، وَفَرَّقِ السَّيْنَ ، وَلَا تُعَوِّرِ الْمِيمَ ، وَحَسِّنِ اللَّهَ ، وَمُدِّ  
الرَّحْمَنَ ، وَجَوِّدِ الرَّحِيمَ ، وَضَعْ قَلَمَكَ عَلَى أُذُنِكَ الْبُسْرَى ، فَإِنَّهُ أَذْكَرُ لَكَ » .

ثم جاء أبو بكر فكتب القرآن بهذا الرسم في صحف ، ثم حذا حذوه عثمان في  
خلافته ، فاستنسخ تلك الصحف في مصاحف على تلك السكتبة وأقر أصحاب النبي صلى  
الله عليه وسلم عمل أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، وانتهى الأمر بعد ذلك إلى  
التابعين وتابعي التابعين ، فلم يخالف أحد منهم في هذا الرسم ، ولم ينقل أن أحداً منهم  
فكَّر أن يستبدل به رسماً آخر من الرسوم التي حدثت في عهد ازدهار التأليف ، ونشاط  
التدوين ، وتقدم العلوم . بل بقي الرسم العثماني محترماً متبعاً في كتابة المصاحف لا يُمسُّ  
استقلاله ، ولا يُباح حماه ! .

وملخص هذا الدليل أن رسم المصاحف العثمانية ، ظفر بأمور كل واحد منها يجعله

جديراً بالتقدير ووجوب الاتباع . تلك الأمور هي إقرار الرسول ﷺ عليه ، وأمره بدستوره . وإجماع الصحابة - وكانوا أكثر من اثني عشر ألف صحابي - عليه ، ثم إجماع الأمة عليه بعد ذلك في عهد التابعين والأئمة المجتهدين !

وأنت خير بأن اتباع الرسول واجب فيما أمر به أو أقر عليه؛ لقوله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » والاهتداء بهدى الصحابة واجب خصوصاً الخلفاء الراشدين ، لحديث العرْبَابُضِ بْنِ سَارِيَةَ وفيه يقول صلى الله عليه وسلم « فَإِنَّهُ مَنْ بَعَثَ مِنْكُمْ فَسِيرَىٰ آخْتِلافًا كَثِيرًا ، فَمَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُوا عَلَيْهَا بِالتَّوَّاجِدِ » ولا ريب أن إجماع الأمة في أي عصر واجب الاتباع ، خصوصاً العصر الأول . قال تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ، وَنُضَلِّهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا » .

وعن حكي إجماع الأمة على ما كتَبَ عثمان ، صاحب المفتح إذ يروى بإسناده إلى مصعب بن سعد قال : « أدركتُ الناسَ حين شَقَّقَ عثمان رضى الله عنه المصاحف ، فأعجبهم ذلك ولم يعبه أحدٌ » وكذلك يروى شارح العقيلة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن عثمان أرسل إلى كل جنود من أجناد المسلمين مصحفًا ، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف الذى أرسل إليهم . ولم يُعرف أن أحداً خالف في رسم هذه المصاحف العثمانية .

والتفادُ الإجماع على تلك المصطلحات في رسم المصحف دليل على أنه لا يجوز العدول عنها إلى غيرها . ويرحم الله الإمام الخراز إذ يقول :

«وبعد جرده الإمام في مصحف ليقتهدى الأنام  
ولا يكون بعده اضطراب وكان فيما قد رأى صوابُ

وقصة اختلافهم شهيرة كقصة اليمامة المسيرة  
فبينى لأجلِ ذا أن نقتفى مرسوم ما أصله في المصحف  
ونقتدي بفعله وما رأى في جعله لن يخط ملجأ

### أقوال العلماء في التزام الرسم العثماني :

روى السخاوي بسنده أن مالكا رحمه الله سئل : رأيت من استكتب مصحفاً  
أترى أن يكتب على ما استعدته الناس من الهجاء اليوم؟ فقال : لأرى ذلك ، ولكن  
يكتب على السكتبة الأولى . قال السخاوي : والذي ذهب إليه مالك هو الحق ، إذ فيه  
بقاء الحالة الأولى إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى ، ولا شك أن هذا هو الأجرى بعد  
الأخرى . إذ في خلاف ذلك تجهيل الناس بأولية ما في الطبقة الأولى .

وقال أبو عمرو الداني : لا يخالف لمالك من علماء الأمة في ذلك . وقال أبو عمرو  
الداني أيضاً : سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو والألف ، أترى أن يغير  
من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال : لا . قال أبو عمرو : يعني الألف والواو الزيدتين  
في الرسم المعدومتين في اللفظ نحو « أولوا » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ألف  
أو ياء أو غير ذلك .

وجاء في حواشي المنهج في فقه الشافعية ما نصه : « كلمة الربا تكتب بالواو  
والألف كما جاء في الرسم العثماني ، ولا تكتب في القرآن بالياء أو الألف ، لأن رسمه  
سنة متبعة » .

وجاء في المحيط البرهاني في فقه الحنفية ما نصه « إنه ينبغي ألا يكتب المصحف  
بغير الرسم العثماني » .

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري مانصه: «وقال جماعة من الأئمة إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتابة أن يتبعوا هذا للرسم في خط المصحف؛ فإنه رسم زيد بن ثابت، وكان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب وحيه».

وقال البيهقي في شنب الإيمان: «من كتب مصحفاً ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئاً؛ فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدرأنا عليهم».

ويمكن مناقشة هذا الرأي الأول بأن الأدلة التي ساقوها لاتدل على تحريم كتابة القرآن بغير هذا الرسم؛ إذ ليس فيها زجر الإثم ووعيده، ولا نهى الحرام وتهديده، إنما قصارها الدلالة على جواز الكتابة بالرسم العثماني ووجاهته ودقته. وذلك محل اتفاق وتسليم.

### الرأي الثاني:

أن رسم المصاحف اصطلاحى لاتوقيفى، وعليه فتجوز مخالفته. ومن جنح إلى هذا الرأي ابن خلدون في مقدمته. ومن تحمّس له القاضى أبو بكر فى الانتصار؛ إذ يقول مانصه:

«وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخَطَّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ماعده، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف. وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه، أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية».

بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته. ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد ويتقص لعله بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يحقن عليهم الحال. ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوّج الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والمجاء القديمين؛ وجاز أن يكتب بالخطوط والمجاء الحديثة، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة، وكان الناس قد أجازوا ذلك وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى، من غير تأنيب ولا تناكر، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حديث محدود مخصوص، كما أخذ عليهم في القراءة والأذان.

والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز، فشكل رسم دالّ على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته ونصوب الكتاب به على أى صورة كانت.

وبالجملّة فكل من ادّعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه. وأنى له ذلك؟ اه بتلخيص.

ونوقش هذا المذهب:

(أولاً): بالأدلة التي ساقها جمهور العلماء لتأييد مذهبهم. وهامى بين يديك عن

كُتِبَ، بعضها من السنة، وبعضها من إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم.

(ثانياً): أن ما ادّعه من أنه ليس في نصوص السنة ما يوجب ذلك وبدل عليه مردود

بما سبق من إقرار الرسول كُتِبَ الوحي على هذا الرسم، ومنهم زيد بن ثابت الذي كتب

المصحف لأبي بكر وكتب للمصاحف لعثمان، والحديث الأنف، وفيه يقول الرسول لمعاوية:  
« أَلَيْسَ الدَّوَاةَ وَحَرَفِ الْقَلَمِ الْحِجَّ ». فإنه حجة على أنه عليه السلام كان واضع دستور الرسم لهم .  
( ثالثاً ) أن قول القاضي أبي بكر : « ولذلك اختلفت خطوط المصاحف » الح  
لا يُسَلِّمُ له بمد قيام الإجماع وانقاده ومعرفة الناس بالرسم التوقيفي وهو رسم عثمان على  
ماقرروه هناك .

وتزيدك هنا ما ذكره العلامة ابن المبارك نقلًا عن العارف بالله شيخه عبدالعزيز الدباج  
إذ يقول في كتابه الإبريز ما نصه : « رسم القرآن سرًّا من أسرار الله المشاهدة وكال  
الرفعة ، قال ابن المبارك فقلت له : هل رسم الواو بدل الألف في نحو « الصلاة ، والزكاة ،  
والحياة ، ومِسْكَاة » . وزيادة الواو في « سَأُورِيكُمْ ، وَأُولَئِكَ ، وَأُولَاءِ ، وأولات » .  
وكالياء في نحو « هُدَيْيَهُمْ ، وَمَلَأْنَاهُ ، وَبِأَيْتِكُمْ ، وَبِأَيْدِيهِ » . هذا كله صادر من النبي  
صلى الله عليه وسلم ، أو من الصحابة ؟ فقال : « هو صادر من النبي عليه السلام وهو الذي  
أمر الكتاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة ، فما نقصوا ولا زادوا على ما سمعوه  
من النبي » فقلت له : إن جماعة من العلماء ترخَّصوا في أمر الرسم وقالوا : وإنما هو  
اصطلاح من الصحابة مشوا فيه على ما كانت قريش تكتب عليه في الجاهلية . وإنما  
صدر ذلك من الصحابة لأن قريشًا تعلموا الكتابة من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة  
ينطقون بالواو في الربا ، فكتبوا على وفق منطقتهم . وأما قريش فإنهم ينطقون فيه  
بالألف ، وكتابتهم له بالواو على منطق غيرهم وتقليد لهم ، حتى قال القاضي أبو بكر البلاقاني :  
كل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ،  
فإنه ليس في الكتاب ولا في السنة ولا في الإجماع ما يدل على ذلك ؟ . قال : -

« ما للصحابة وللغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من  
النبي ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها ، لأسرار

لا تهتدى إليها العقول، وهو سرٌّ من الأسرار خصَّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية. وكان أن نظم القرآن معجز، فرسمه أيضاً معجزاً! وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الألف في «مائة» دون «فئة». وإلى سر زيادة الياء في «بأيدٍ وبأيِّكم»؟ أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في «سَمَوْا» بالفتح، ونقصانها من «سَعَوْ» بسبأ؟ وإلى سر زيادتها في «عَتَوْا» حيث كان، ونقصانها من «عَتَوْ» في الفرقان؟ وإلى سر زيادتها في «آمَنُوا»، وإسقاطها من «بَاؤُ، جَاؤُ، تَبَوَّؤُ، فَاؤُ» بالبقرة؟ وإلى سر زيادتها «يَعْفُوا الَّذِي»، ونقصانها من «يعفو عنهم» في النساء؟ أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض، كحذف الألف من «قُرْءَانًا» بيوسف والزخرف، وإثباتها في سائر المواضع؟ وإثبات الألف بعد واو «سَمَوَاتٍ» في فصلت وحذفها من غيرها. وإثبات الألف في «الميعاد» مطلقاً، وحذفها من الموضع الذي في الأنفال وإثبات الألف في «سِرَّاجًا» حيثما وقع، وحذفه من موضع الفرقان وكيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها في بعض؟ فكل ذلك لأسرار إلهية، وأغراض نبوية. وإنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرِك إلا بالفتح الرباني، فهي بمنزلة الألفاظ والحروف للقطعة التي في أوائل السور، فإن لها أسراراً عظيمة، ومعاني كثيرة. وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها، ولا يدركون شيئاً من المعاني الإلهية التي أشير إليها! فكذلك أمر الرسم الذي في القرآن حرفاً بحرف.

وأما قول من قال: إن الصحابة اصطَلحوا على أمر الرسم المذكور، فلا يخفى ما في كلامه من البطلان، لأن القرآن كتب في زمان النبي ﷺ وبين يديه. وحينئذ فلا يخلو ما اصطَلح عليه الصحابة، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها، فإن كان عينها

بطل الاصطلاح ، لأن أسبقية النبي ﷺ تنافي ذلك وتوجب الاتباع . وإن كان غير ذلك فكيف يكون النبي ﷺ كتب على هيئة كهيئة الرسم القياسي مثلاً ، والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى ؟ فلا يصح ذلك لوجهين : ( أحدهما ) نسبة الصحابة إلى المخالفة ، وذلك محال ، ( ثانيهما ) : أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز زيادة حرف في القرآن ولا نقصان حرف منه . وما بين الدفتين كلام الله عز وجل ، فإذا كان النبي ﷺ أثبت ألف الرحمن والعالمين مثلاً ، ولم يزد الألف في «مائة» ولا في «ولأوضحوا» ولا الياء في «بأيد» ونحو ذلك ، والصحابة عما كسوه في ذلك وخلفوه ، لزم أنهم - وحاشاهم من ذلك - نصرفوا في القرآن بالزيادة والنقصان ، ووقعوا فيما أجمعوا عليه وغيرهم على ملاها محل لأحد فعله ، ولزم تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين ، لأننا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة أو زائدة على ما في علم النبي ﷺ وعلى ما عنده وأنها ليست بوحي ولا من عند الله ولا نطقها بعينها ، شككنا في الجميع . وثن جوزنا لصحابي أن يزيد في كتابته حرفاً ليس بوحي ، لزمنا أن يجوز لصحابي أن ينقص حرف من الوحي ، إذ لا فرق بينهما ، وحينئذ تنحل عروة الإسلام بالنكالية ! .

ثم قال ابن المبارك بعد كلام . . فقلت له : فإن كان الرسم توقيفياً بوحي إلى النبي ﷺ وأنه كألفاظ القرآن فلم لم ينقل تواتراً حتى ترتفع عنه الريبة وتطمئن به القلوب كألفاظ القرآن ؟ فإنه ما من حرف إلا وقد نقل تواتراً لم يقع فيه اختلاف ولا اضطراب . وأما الرسم فإنه إما نقل بالآحاد ، كما يعلم من الكتب الموضوعة فيه . وما نقل بالآحاد وقع الاضطراب بين النقلة في كثير منه . وكيف تضع الأمة شيئاً من الوحي ؟ . فقال : « ماضية الأمة شيئاً من الوحي ، والقرآن بحمد الله محفوظ ألفاظاً ورسمًا . فأهل القرآن والشهود والعيان ، حفظوا ألفاظه ورسمه ، ولم يضيعوا منها شعرة واحدة ، وأدركوا ذلك بالشهود والعيان الذي هو فوق التواتر . وغيرهم حفظوا ألفاظه الواصلة إليهم بالتواتر واختلافهم



في بعض حروف الرسم لا يقدح ولا يصير الأمة مضيعة ، كما لا يضر جهل العامة بالقرآن وعدم حفظهم لألفاظه « ٥١ .

### الرأى الثالث :

يميل صاحب التبيان ومن قبله صاحب البرهان ، إلى ما يفهم من كلام العز ابن عبد السلام ، من أنه يجوز بل تجب كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات للمروفة الشائمة عندهم ، ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثماني الأول ، لثلا يوقع في تغيير من الجهال. ولكن يجب في الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثماني ، كأثر من الآثار النفيسة للمورثة عن سلفنا الصالح ، فلا يهمل مراعاة لجهل الجاهلين ، بل يبقى في أيدي العارفين الذين لا تخلو منهم الأرض . وهالك عبارة التبيان في هذا المقام إذ يقول ما نصه :

وأما كتابته ( أى المصحف ) على ما أحدث الناس من الهجاء ، فقد جرى عليه أهل المشرق ، بناء على كونها أبعد من اللبس ، وتعاماه أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك وقد سئل . هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء ؟ فقال : « لا : إلا على السكتبة الأولى » . قال في البرهان : قلت : وهذا كان في الصدر الأول ، والعلم حتى غض . وأما الآن فقد يخشى الالتباس ، ولهذا قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول باصطلاح الأئمة ، لثلا يوقع في تغيير من الجهال . ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه ، لثلا يؤدي إلى دروس العلم . وشيء قد أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين . » وان تخلو الأرض من قائم لله بحجة « ٥١ .

أقول : وهذا الرأى يقوم على رعاية الاحتياط للقرآن من ناحيتين : ناحية كتابته في كل عصر بالرسم المعروف فيه ، إبعاداً للناس عن اللبس والخلاط في القرآن ، وناحية إبقاء

رسمه الأول المأثور ، بقرؤه العارفون ومن لا يخشى عليهم الالتباس . ولا شك أن الاحتياط  
مطلب ديني جليل ، خصوصاً في جانب حماية التنزيل .

## ج - الشبهات التي أثيرت حول كتابة القرآن ورسمه

### الشبهة الأولى :

يقولون : روى عن عثمان أنه حين عرض عليه المصحف قال : « أحسنتم وأجملتم ،  
إن في القرآن لحناً مستقيمه العرب بألسنتها » .

ويقولون : روى عن عكرمة أنه قال : « لما كتبت المصاحف عرضت على  
عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال : لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو  
قال : ستعربها بألسنتها . لو كان الكاتب من ثقيف والملى من هذيل لم توجد فيه  
هذه الحروف .

أورد أعداء الإسلام هاتين الروایتين وقالوا : إنهما طعنان صريحان في  
رسم المصحف ، فكيف يكون مصحف عثمان وجمعه للقرآن ، موضع ثقة ،  
وإجماع من الصحابة ؟ وكيف يكون توقيفياً ؟ وهذا عثمان نفسه يقول بملء فيه :  
« إن فيه لحناً » .

ونجيب على هذه الشبهة أولاً : بأن ما جاء في هاتين الروایتين ضعيف الإسناد ،  
وأن فيهما اضطراباً وانقطاعاً . . قال العلامة الألوسي في تفسيره : « إن ذلك لم يصح  
عن عثمان أصلاً » اهـ ولعلك تلح معي دليل سقوط هاتين الروایتين مائلاً فيهما

من جِراء هذا التناقض الظاهر بين وصفهما نسخ المصحف بأنهم أحسنوا وأجلوا ،  
ووصفهما المصحف الذى نسخوه بأن فيه لحناً . وهل يقال للذين لحنوا فى المصحف :  
أحسنتم وأجلتم ؟ .

اللهم إلا إذا كان المراد معنى آخر .

ثانياً : أن المعروف عن عثمان فى دقته وكال ضبطه وتحريه يجعل صدور أمثال  
هاتين الروایتين من المستحيل عليه . انظر إلى ما سبق من دستوره فى جمع القرآن .  
ثم انظر إلى ما أخرجه أبو عبيد عن عبد الرحمن بن هانىء مولى عثمان قال : كنت  
عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة إلى أبى بن كعب فيها « لم  
يُتسنَّ » وفيها « لا تبدل لخلق » وفيها « فأمهل الكافرين » فدعا بدواة فحبا  
أحد اللامين وكتب « خلق الله » وحا « فأمهل » وكتب « فمهل » وكتب « لم يتسنه »  
فألحق فيها الماء .

قال ابن الأبارى : فكيف يدعى عليه أنه رأى فساداً فأمضاه ؟ وهو يوقف على  
ما يكتب ويرفع الخلاف الواقع من الناسخين فيه ، فيحكم بالحق ويلزمهم إثبات الصواب  
وتخليده . ٥١ .

ثالثاً : على فرض صحة ما ذكر يمكن أن تؤوله بما يتفق والصحيح للتواتر عن عثمان  
فى نسخ المصاحف وجمع القرآن ، ومن نهاية التثبت والدقة والضبط .

وذلك بأن يراد بكلمة « لحناً » فى الروایتين المذكورتين قراءة ولغة . والمعنى أن فى  
القرآن ورسم مصحفه وجهاً فى القراءة لاتلين به السنة العرب جميعاً ، ولكنها لاتلبث أن  
تلين به السنة جميعاً بالمران وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه . وقد ضرب بعض أجلاء  
العلماء لذلك مثلاً كلمة ( الصراط ) بالصاد المبدلة من السين فقرأ العرب بالصاد عملاً  
بالرسم ، وبالسين عملاً بالأصل .

الشبهة الثانية :

يقولون : روى عن سعيد بن جبیر أنه كان يقرأ « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » ويقول « هُوَ مِنْ لَحْنِ الْكِتَابِ » .

والجواب : هل غرار ماسبق ، أى أن ابن جبیر لا يريد بكلمة « لحن » الخطأ . إنما يريد بها اللغة والوجه في القراءة على حد قوله تعالى : « وَاتَّقِرْ فَتَمَّ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » . والدليل على هذا التوجيه أن سعيد بن جبیر نفسه كان يقرأ : « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » ، فلو كان يريد باللحن الخطأ مارضى لنفسه هذه القراءة . وكيف يرضى ما يعتقد أنه خطأ ؟

وهذه الكلمة في آية من سورة النساء ونصها : « لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . أُولَٰئِكَ سَنُوْٓءِيهِمْ أَجْرًا عَظِيْمًا » فكلمة « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » قرأها الجمهور بالياء منصوباً كما ترى . وقرأها جماعة بالواو ، منهم أبو عمرو في رواية بونس وهارون عنه . ولكل من القراءتين وجه صحيح فصيح في اللغة العربية ، فالنصب مخرّج على المدح ، والتقدير « وأمدح المقيمين الصلاة » . والرفع مخرّج على العطف ، والمعطوف عليه مرفوع كما ترى .

الشبهة الثالثة :

يقولون : ألا يكفى في الطمن على جمع القرآن ورسمه ما روى عن ابن عباس في قوله تعالى : « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا » أنه قال : إن الكاتب أخطأ والصواب : « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا » .

ونجيب (أولاً) بما أجاب به أبو حيان إذ يقول ما نصه : إن من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك ، فهو طاعن في الإسلام ملحد في الدين ، وابن عباس برىء من ذلك القول ١٥٠ .

(ثانياً) بما أخرجه ابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه فسّر « تَسْتَأْنِسُوا » فقال : أى تستأذنونوا من يملك الإذن من أصحابها يعنى أصحاب البيوت .

(ثالثاً) أن القراء لم يرووا غير قراءة « تَسْتَأْنِسُوا » فلو كان ذلك النقل صحيحاً عن ابن عباس لنقلوا عنه أنه قرأ « تَسْتَأْذِنُوا » .

(رابعاً) إذا سلمنا للحاكم أن هذا الخبر صحيح عن ابن عباس ، فإننا نرده برغم دعوى هذه الصحة ، لأنه معارض للقاطع المتواتر وهو قراءة « تَسْتَأْنِسُوا » والقاعدة أن معارض القاطع ساقط ، وأن الرواية متى خالفت رسم المصحف فهي شاذة لا يلتفت إليها ولا يعول عليها .

#### الشبهة الرابعة :

يقولون : ألا يكفى في الطعن على جمع القرآن ورسمه ما روى عن ابن عباس أيضاً أنه قرأ « أَفَلَمْ يَدَّبِّبِينَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً » . فقيل له : إنها في المصحف « أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا » فقال : أظن الكتاب كتبها وهو ناعس . ونجيب : بأنه لم يصح ذلك عن ابن عباس . قال أبو حيان : بل هو قول ملحد زنديق . وقال الزمخشري : ونحن ممن لا يصدق هذا في كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكيف يخفى هذا ؟ حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام ( أى المصحف الإمام ) وهو مصحف عثمان ، وكان متقلبا بين أيدي أولئك الأعلام ، المحتاطين

لدين الله المهيمنين عليه ، لا يفعلون عن جلاله ودقائه ، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي أُقيم عليها البناء ؟ هذا والله فِرْيَةٌ ، ما فيها مِرْيَةٌ ١٥ . وقال الفراء : لا يتلى إلا كما أنزل : « أَفَلَمْ يَبْأَسْ » ١٥ . وعلى ذلك تكون رواية ذلك في الدر المنثور وغيره عن ابن عباس رواية غير صحيحة . ومعنى « أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا » : أفلم يملوا قال القاسم بن معن : هي لغة هوازن . وجاء بها الشعر العربي في قول القائل :

« أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي      أَلَمْ تَيَأْسُوا أَنِّي أَبْنُ فَارِسٍ زَهْدَمٍ <sup>(١)</sup> »

أى ألم تعلموا .

#### الشبهة الخامسة :

يقولون : من وجوه الطعن أيضاً ما روى عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى « وَقَصَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ » إنما هي « ووصى رَبُّكَ » التزقت الواو بالصاد وكان يقرأ : ووصى ربك ، ويقول : أَمَرَ رَبُّكَ ، إنيهما واوان التصقت إحداهما بالصاد وروى عنه أنه قال : أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم . ووصى ربك أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ . فلصقت إحدى الواوين بالصاد ، فقرأ الناس : « وَقَصَى رَبُّكَ » ولو نزلت على القضاء ما أشرك أحد .

ونجيب : عن ذلك كله (أولاً) بما أجاب به ابن الأنباري إذ يقول : « إن هذه الروايات ضعيفة » .

---

(١) قال في القاموس : زَهْدَمٌ كجعفر : فرس لعنترة ، وفرس لبشر بن عمرو الرياحي - إلى أن قال - والزهدمان أخوان من عبس : زَهْدَمٌ ، وَكَرْدَمٌ .

(ثانياً) أن هذه الروايات معارضة للمتواتر القاطع ، وهو قراءة « وقضى » ومعارض القاطع ساقط .

(ثالثاً) أن ابن عباس نفسه ، وقد استفاض عنه أنه قرأ : « وقضى » وذلك دليل على أن ما نسب إليه في تلك الروايات من الدسائس الرخيصة التي لفقها أعداء الإسلام . قال أبو حيان في البحر : والمتواتر هو « وقضى » وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة ، بمعنى أمر . وقال ابن مسعود وأصحابه بمعنى « وصى » اهـ إذن رواية « وقضى » هي التي انمقد الإجماع عليها من ابن عباس ، وابن مسعود ، وغيرهما فلا يتعلق بأذيال مثل هذه الرواية الساقطة إلا ملحد ، ولا يرفع عقيرته بها إلا عدو من أعداء الإسلام .

#### الشبهة السادسة :

يقولون : إن ابن عباس روى عنه أيضاً أنه كان يقرأ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ضِيَاءً <sup>(١)</sup> » ويقولون ، خذوا هذه الواو ، واجعلوها في « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا آكُفُّم . » وروى عنه أيضاً أنه قال : انزعوا هذه الواو ، واجعلوها في « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » .

ونجيب ( أولاً ) بأن هذه الروايات ضعيفة ؟ لم يصح شيء منها عن ابن عباس .

( ثانياً ) أنها معارضة للقراءة المتواترة المجمع عليها ، فهي ساقطة .

( ثالثاً ) أن بلاغة القرآن قاضية بوجود الواو لا بحذفها ، لأن ابن عباس نفسه فسر

الفرقان في الآية المذكورة بالنصر ، وعليه يكون الضياء بمعنى التوراة أو الشريعة . فالقيام للواو لأجل هذا التفسير .

(١) الآية في سورة الأنبياء - لكن اتصال الواو بكلمة « ضياء » . ونص الآية

الكريمة : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ » .

الشبهة السابعة :

يقولون : روى عن ابن عباس في قوله تعالى : « مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ » أنه قال : هي خطأ من الكاتب . هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة . إنما هي : « مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ كَمِشْكَاةٍ » .

و يجيب (أولاً) بأنها رواية معارضة للقاطع المتواتر ، فهي ساقطة .

(ثانياً) أنه لم ينقل عن أحد من القراء أن ابن عباس قرأ : مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ ، فكيف يقرأ رضى الله عنه بما يعتقد أنه خطأ ، ويترك ما يعتقد أنه صواب ؟ إلا إنها كذبة مفضوحة ! ولو أنهم نسبوها لأبي بن كعب ، لكان الأمر أهون ، لأنه روى في الشواذ أن أبي بن كعب قرأ : مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ . والذي ينبغي أن تحمل عليه هذه الروايات أن أبيتاً رضى الله عنه . أراد تفسير الضمير في القراءة المعروفة للمتواترة وهي مثل نوره . فهي روايات عنه في التفسير لافي القراءة ، بدليل أنه كان يقرأ : « مَثَلُ نُورِهِ » .

دفع عام عن ابن عباس

كل ما روى عن ابن عباس في تلك الشبهات ، يمكن دفعه دفعاً عاماً بأن ابن عباس قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت وأبي بن كعب ، وهما كانا في جمع المصاحف . وزيد بن ثابت كان في جمع أبي بكر أيضاً . وكان كاتب الوحي ، وكان يكتب ما يكتب بأمر النبي ﷺ وإقراره . وابن عباس كان يعرف ذلك ويوقن به ، فبحال إذن أن ينطق لسانه بكلمة تحمل رائحة اعتراض على جمع القرآن ورسم القرآن أو إلا فكيف يأخذ عن زيد وابن كعب ثم يعترض على جمعهما ورسمهما ؟



الشبهة الثامنة :

يقولون : روى عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : سألت عائشة عن الحسن القرآن ، عن قوله تعالى : « إِنْ هَذَا إِلَّا لِسَاحِرٍ رَّانٍ » وعن قوله تعالى : « وَالْمُؤْمِنِينَ وَالصَّالَاتِ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » وعن قوله تعالى : « إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ » . فقالت : يابن أخى هذا من عمل الكتاب ، قد أخطأوا فى الكتاب . قال السيوطى فى هذا الخبر : إسناده صحيح على شرط الشيخين . ويقولون أيضاً : روى عن أبى خلف مولى بنى مجح أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة فقال : جئت أسألك عن آية فى كتاب الله ، كيف كان رسول الله ﷺ يقرأها ؟ قالت : آية آية ؟ قال : « الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » أو « الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَوْا » . قالت : أيهما أحب إليك ؟ قلت : والذى نفسى بيده لإحداهما أحب إلى من الدنيا جميعاً . قالت : أيهما ؟ قلت : « الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَوْا » . فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرأها ، وكذلك أنزلت ، ولكن الهجاء حرف .

ونجيب (أولاً) بأن هذه الروايات مهما يكن سندها صحيحاً ، فإنها مخالفة للمتواتر القاطع ، ومعارض القاطع ساقط مردود ، فلا يلتفت إليها ، ولا يعمل بها .  
(ثانياً) أنه قد نص فى كتاب إتحاف فضلاء البشر ، على أن لفظ « هذان » قد رسم فى المصحف من غير ألف ولا ياء ، ليحتمل وجوه القراءات الأربع فيها ، كما شرحنا ذلك سابقاً فى فوائد رسم المصحف . وإذن فلا يعقل أن يقال أخطأ الكتاب ، فإن الكاتب لم يكتب ألفاً ولا ياء . ولو كان هناك خطأ تعتمده عائشة ما كانت تنسبه للكاتب ، بل كانت تنسبه لمن يقرأ بتشديد (إن) وباللألف لفظاً فى (هذان) . ولم ينقل عن عائشة ولا عن غيرها تخطئة من قرأ بما ذكر ، وكيف تنكر هذه القراءة وهى متواترة مجمع عليها ؟ ، بل هى قراءة الأكثر ، ولها وجه فصيح فى العربية لا يخفى على مثل عائشة . ذلك هو إلزام المثنى الألف فى جميع حالاته . وجاء منه قول الشاعر العربى :-

« واهالسى ثم واهاه واهاه يا ليت عيناها لنا وفاها  
وموضع الخللخال من رجلاها بثمان يرضى به أباه  
إن أباه وأبأ أباه قد بلغا في المجد غايتها »

فبعيداً عن عائشة أن تذكر تلك القراءة ولو جاء بها وحدها رسم المصحف .

( ثالثاً ) أن مانسب إلى عائشة رضى الله عنها من تخطئة رسم المصحف في قوله تعالى :

« والمقيمين الصلاة » بالياء ، مردود بما ذكره أبو حيان في البحر إذ يقول ما نصه :

« وذكر عن عائشة رضى الله عنها وعن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ كاتب

المصحف . ولا يصح ذلك عنهما ، لأنها عريبان فصيحان ، وقطع النعوت مشهور في لسان

العرب . وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره وقال الزمخشري : « لا يلتفت

إلى ما زعموا من وقوعه خطأ في خط المصحف . وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب

» يريد كتاب سيبويه « ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص

من الافتنان ، وخفى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل

كانوا أعمدة في الغيرة على الإسلام ، وذب المطاعن عنه ، من أن يتركوا في كتاب الله

ثلمة يسدها من بعدهم ، وخرقا يرفوه من يلحقهم » .

( رابعاً ) أن قراءة « والصابئون » بالواو ، لم ينقل عن عائشة أنها خطأت من

يقراها ، ولم ينقل أنها كانت تقرأ بالياء دون الواو . فلا يعقل أن تكون خطأت من

كتب بالواو .

( خامساً ) أن كلام عائشة في قوله تعالى : « يؤتون ما آتوا » لا يفيد إنكار

هذه القراءة المتواترة المجمع عليها . بل قالت للسائل : أيهما أحب إليك ؟ ولا تحصر

للمسوع عن رسول الله ﷺ فيما قرأت هي به . بل قالت : إنه مسموع ومنزل فقط .

وهذا لا ينافي أن القراءة الأخرى مسموعة ومنزلة كذلك . خصوصاً أنها متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم . أما قولها : ولكن الهجاء حرف ، فكلمة حرف مأخوذة من الحرف بمعنى القراءة واللغة ، والمعنى أن هذه القراءة المتواترة التي رسم بها المصحف ، لغة ووجه من جوه الأداء في القرآن الكريم . ولا يصح أن تكون كلمة حرف في حديث عائشة مأخوذة من التحريف الذي هو الخطأ ، وإلا كان حديثنا معارضاً للمتواتر ، ومعارض القاطع ساقط .

### الشبهة التاسعة :

يقولون : روى عن خارجة بن زيد بن ثابت أنه قال : « قالوا يزيد يا أبا سعيد « أوهمت » إنما هي « ثمانية أزواج من الضأن اثنتين <sup>(١)</sup> اثنتين ، ومن المعز اثنتين اثنتين ومن الإبل اثنتين اثنتين ، ومن البقر اثنتين اثنتين . » فقال : لا . إن الله تعالى يقول « فجعلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » فهما زوجان ، كل واحد منهما زوج . الذكر زوج ، والأنثى زوج « اه . قال أعداء الإسلام : فهذه الرواية تدل على تصرف نساخ المصحف واختيارهم ما شاءوا في كتابة القرآن ورسمه .

والجواب أن كلام زيد هذا لا يدل على ما زعموا . إنما يدل على أنه بيان لوجه ما كتبه وقرأه سماعاً وأخذاً عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تصرفاً وتشبيهاً من تلقاء نفسه . وكيف يتصور هذا من الصحابة في القرآن وهم مضرب الأمثال في كمال ضبطهم وتشبهم في الكتاب والسنة . لاسيما زيد بن ثابت ، وقد عرفت فيما سبق من هو زيد في حفظه

---

(١) يريدون آية سورة الأنعام ونصها : « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ

وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ » الخ .

وأمانته ودينه وورعه ؟ ! وعرفت دستورهِ الدقيق الحكيم في كتابة الصحف والمصاحف !  
« فأنى يؤفكون » ؟

### الشبهة العاشرة :

يقولون : إن مروان هو الذى قرأ « ملك يوم الدين » من سورة الفاتحة بحذف الألف من لفظ « مالك » . ويقولون : إنه حذفها من تلقاء نفسه دون أن يرد ذلك عن النبي ﷺ فضلاً عن أن يتواتر عنه قراءةً ولفظاً ، أو يصح كتابةً ورسمًا .  
والجواب أن هذا كذب فاضح ( أولاً ) لأنه ليس لهم عليه حجة ولا سند .

( ثانياً ) أن الدليل قام ، والتواتر تم ، والإجماع انمقد ، على أن النبي ﷺ قرأ لفظ « مالك يوم الدين » بإثبات الألف وحذفها ، وأخذ أصحابه عنه ذلك . فممن قرأ بهما على وابن مسعود وأبي بن كعب . وممن قرأ بالقصر أى حذف الألف أبو الدرداء وابن عباس وابن عمر . وممن قرأ بالمد أى إثبات الألف أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين . وهؤلاء كلهم كانوا قبل أن يكون مروان ، وقبل أن يولد مروان ، وقبل أن يقرأ مروان . وقصارى ما فى الأمر أن مروان اتفق أن روايته كانت القصر فقط . وذلك لا يضرنا فى شيء . كما اتفق أن رواية عمر بن عبدالعزيز كانت المد فقط .  
( ثالثاً ) أن كلمة « إمالك » رسمت فى المصحف العثماني هكذا « ملك » كما سبق .

### خلاصة الدفاع :

والخلاصة أن تلك الشبهة وما مائلها ، مدفوعة بالنصوص القاطعة ، والأدلة الناصحة ، على أن جميع القرآن الذى أنزله الله وأمر بإثباته ورسمه ؛ ولم ينسخه ناسخ فى تلاوته ، وهو هذا الذى حواه مصحف عثمان بين الدفتين ، لم ينقص منه شيء ، ولم يزد فيه شيء ، بل

إن ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على ما نظمه الله سبحانه وتعالى ورتبه رسوله ﷺ من آى وسور . لم يقدم من ذلك مؤخر ، ولم يؤخر منه مقدم . وقد ضبطت الأمة عن النبي ﷺ ترتيب آى كل سورة ومواقعها ، كما ضبطت منه نفس القراءات وذات التلاوة على ما سبق وما سيجيء في الكلام على القراءات إن شاء الله .

فليلاحظ دائماً في الرد على أمثال تلك الشبهات أمران : (أولهما) تلك القاعدة الذهبية التي وضعها العلماء : وهي أن خبر الأحاد إذا عارض القاطع سقط عن درجة الاعتبار ، وضرب به عرض الحائط ، مهما تكن درجة إسناده من الصحة .

(ثانيهما) خطأ الدفاع الذي أقنناه في البحث الثامن حصناً حصيناً دون النيل من الصحابة وآتهم بسوء الحفظ أو عدم الثبوت والتحرى ، خصوصاً في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

### شبهة على التزام الرسم العثماني في هذا العصر :

يقولون : إن كثيراً من المتعلمين لا يحفظون القرآن ولا يحسنون قراءته في المصحف ، لعدم معرفتهم الرسم العثماني . فلماذا ننتقيد بهذا الرسم ولا نكتب المصاحف اليوم باصطلاح الكتابة المعروف ، تسهياً على الناشئة ، وتيسيراً على الناس ؟

والجواب (أولاً) أن للعلماء آراء في ذلك بالجواز ، بل قال بعضهم - وهو العز ابن عبد السلام - بوجوب كتابة المصحف للعامة باصطلاح كتابتهم الحديث خشية الالتباس كما يجب كتابته بالرسم العثماني محافظةً على هذا التراث العزيز . وقد سبق شرح آراء العلماء قريباً . وما هي منك ببييد .

(ثانياً) أن في الرسم العثماني مزايا وفوائد ذكرناها سابقاً .

(ثالثاً) أن مذهب الجمهور قائم على أدلة متوافرة على وجوب التزام هذا الرسم

عندهم . وقد تقدمت تلك الأدلة أيضاً .

(رابعاً) أن مصطلح الخط والكتابة في عصرنا، عرضة للتغيير والتبديل . ومن المبالغة في قداسة القرآن حمايته من التغيير والتبديل في رسمه .

(خامساً) أن إخضاع المصحف لمصطلحات الخط الحديثة ، ربما يجرُّ إلى فتنة ، أشبه بالفتنة التي حدثت أيام عثمان ، وحملته على أن يجمع القرآن . فربما يقول بعض الناس لبعض ، أو بعض الشعوب لبعض ، عند اختلاف قواعدهم في رسم المصحف : رسمى خيرٌ من رسمك ، أو مصحفى خيرٌ من مصحفك ، أو رسمى صواب ورسمك خطأ . وقد يجر ذلك إلى أن يؤثَّم بعضهم بعضاً ، أو يقاتل بعضهم بعضاً . ومن المقرَّر أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

(سادساً) أن الرسم العثماني أشبه بالرسم العام الذي يجمع الأمة على كتابة كتاب ربها في سائر الأعصار والأمصار ، كاللغة العربية ، فإنها اللسان العام الذي يجمع الأمة على قراءة كتاب ربها في سائر الأعصار والأمصار . وما يكون لنا أن نفرط في أمر هذا شأنه يجمع الشتات ، وينظم الأمة في سلك واحد لافرق بين ماض وحاضر وآت ! .

(سابعاً) أنه يمكن تسهيل القراءة على الناس بإذاعة القرآن كثيراً إذاعة مضبوطة دقيقة ، وبإذاعة فن التجويد في المدارس وفي أوساط المتعلمين ، وأخيراً يمكن - كما قالت مجلة الأزهر - أن ننَّبِّه في ذيل كل صفحة من صفحات المصحف على ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف ، والاصطلاح المألوف . لاسيما أن رسم المصاحف العثمانية لا يخالف قواعدها في الخط والإملاء إلا قليلاً ، وفي كلمات معدودة : أضف إلى ذلك أن الفرق بين الرسمين لا يوقع القارئ اليقظ في لبس عند تأمله وإمعانه غالباً .

ولقد مرت على الأمة أجيال وقرون، وما شعرت بفضاضة في التزامها الرسم العثماني، على أن المعوّل عليه أولاً وقبل كل شيء هو التلقّي من صدور الرجال . وبالتلقّي يذهب الفموض من الرسم كأنثاً ما كان . وليس بعد العيان بيان .

## د - المصاحف تفصيلاً

لملك لم تنس ما ذكرناه في المباحث السابقة عن نشأة المصاحف العثمانية وكتابتها ورسمها ، وتحريق عثمان ماسواها من المصاحف الفردية التي كانت لبعض الصحابة ، والتي كان يخالف بعضها بعضاً ، على مقدار ما وصل إليه علم الواحد منهم بأحرف القراءات ، وبما نسخ وما لم تنسخ تلاوته في العرصة الأخيرة . ولأجل الإحاطة بما يتصل بالمصاحف العثمانية ، يجدر بنا أن نتحدث عما يأتي :

### الحروف السبعة في المصاحف العثمانية :

المصاحف التي نسخها عثمان رضی الله عنه كان مجموعها مشتملاً على الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن ، كما بينا ذلك أوفى بيان تحت عنوان خاص في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ، فارجع إليه إن شئت . ويؤيده هنا أن هذه المصاحف نسخت من الصحف التي جمعت على عهد أبي بكر وكانت عند حفصة .

ومن المتفق عليه أن هذه الصحف كتب فيها القرآن بحروفه السبعة التي نزل عليها ولم يرد أن عثمان أمرهم أن يتركوا ستة أحرف منها ويبقوا حرفاً واحداً كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء . فلنستمسك بالمتفق عليه حتى يثبت لدينا ما ينفيه . فما يكون لنا أن نترك اليقين للشك . ثم إن دفع الفتنة ، وتوحيد الكلمة بين المسلمين لا يتوقف على ترك ستة

أحرف وإبقاء حرف واحد من الأحرف التي نزل عليها القرآن، بل إن الذي يدفع الفتنة ويوحد الكلمة، هو إقرار النازل كما نزل، من تعدد حروفه إلى سبعة، رحمة بهذه الأمة. غاية ما يجب في هذا الباب، هو إحاطة المسلمين علماً بهذه الحروف، حتى يتركوا ما عداها، ولا يعتمدوا سواها؛ وحتى يعتمد كل منهم صواب قراءة غيره مادامت قراءته لا تتعدها. ومن هنا تجتمع كلمتهم وتنطفي فتتمهم، على نمط ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين اشتعلت مثل هذه الفتنة بين بعض الصحابة، فجالهم بأن أفهمهم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وقرر فيهم هذا المعنى، وحكم بأن كلاً من المختلفين على صواب في قراءته وأنها هكذا أنزلت. وما كان لعثمان وجهور الصحابة وجميع الأمة أن يتركوا هدى الرسول في هذا « وَإِنَّ خَيْرَ الْمَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ».

بقي أن نفسر لك معنى قول عثمان للرهط القرشيين الثلاثة « إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا » فقد فهم بعضهم من هذه الجملة أن عثمان أمر أن يتركوا ستة أحرف، ويقتصرُوا في نسخ المصاحف على حرف قريش ولقنهم وحدهم. وهذا مردود بوجوه:

(أحدها) أن اللفظ لا يؤدي ذلك المعنى.

(ثانيها) أن القرآن فيه كلمات كثيرة من لغات قبائل أخرى وليست من لغة قريش: انظر في ذلك ما قدمناه في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أيضاً، وما ذكره السيوطي في الإتيان في النوع السابع والثلاثين.

(ثالثها) أن المصاحف العثمانية كانت مشتملة على الأحرف السبعة كما بينا آنفاً.

(رابعها) أنه لم ينقل إلينا نقلاً صحيحاً صريحاً أنهم تركوا من الأحرف السبعة شيئاً



فضلا عن أن يتركوها ما عدا واحدا، ولو فعلوا ذلك لنقل متواتراً، لأن هذا الأمر الجلل، مما تتوافر الدواعي على نقله وتواتره. وقصارى ما وصلنا من بعض الطرق أنهم اختلفوا في كلمة « التابوت » في قوله تعالى من سورة البقرة: « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ » الخ أيا كتبونها بالتاء المفتوحة؛ أم بالهاء، فأمرهم عثمان أن يكتبوها بالتاء المفتوحة، لأنها كذلك في لغة قريش.

وهذا يوضح لنا أن عثمان في كلمته تلك، إنما يريد الاختلاف في الكتابة والرسم لا في الألفاظ والألفاظ والحروف. أو يريد أن لغة قريش متوافر فيها التواتر أكثر من غيرها فليأخذوا بها عند الاختلاف لهذا الغرض وحده، وهو التواتر الذي شرطوه في دستور كتابتهم وجمعهم. أضف إلى ذلك أن المصاحف نقلت من الصحف التي جمع أبو بكر رضى الله عنه القرآن فيها، والتي ظفرت بالتواتر وإجماع الأمة كما قدمنا. فهل يرضى عثمان ويوافق الصحابة جميعاً على أن يخرقوا هذا الإجماع، ويمشوا بذلك التواتر، في أمر جعل الله تمدد الوجوه والحروف فيه رحمة بالأمة إلى هذا اليوم؟ ذلك فهم بعيد.

### الصحف والمصاحف

قلنا: إن أبا بكر رضى الله عنه جمع القرآن في صحف، وإن عثمان جمعه ونسخه في مصاحف. والفرق بين الصحف والمصاحف في الأصل أن الصحف جمع صحيفة، وهي القطعة من الورق أو الجلد يكتب فيها.

أما المصحف فهو بزيادة اسم المفعول من أصفه أى جمع فيه الصحف. فكان للمصحف ملحوظ في معناه اللغوي دفناه، وهما جانباه أو جلداه اللذان يتخذان جامعاً لأوراقه، ضابطاً لصفحه، حافظاً لها.

ولا يلحظ هذا في معنى الصحف ، وإن كان يصح استعمال كلا اللفظين في كلا المعنيين استعمالاً متوسماً فيه .

هذا في أصل اللغة ، أما في الاصطلاح فالمراد بالصحف الأوراق المجردة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر ، وكانت سوراً مرتبة آياتها فقط ؛ كل سورة على حدة ، لكن لم يترتب بعضها إثر بعض . والمراد بالصحف اصطلاحاً الأوراق التي جمع فيها القرآن مع ترتيب آياته وسوره جميعاً على الوجه الذي أجمعت عليه الأمة أيام عثمان رضي الله عنه . وقد أطلق بعضهم لفظ المصحف على صحف أبي بكر ، وتوجيهه لا يخفى .

ولقد بقيت الصحف عند أبي بكر حتى حضرته الوفاة فدفنها إلى عمر لأنه وصى له بالهدى ، ولما مات عمر انتقلت إلى ابنته أم المؤمنين حفصة بوصية من عمر ، ثم طلبها عثمان ونسخ المصاحف منها وردها إليها وبقيت عندها حتى توفيت رضي الله عنها .

وقد حضر جنازتها مروان والي المدينة وقتئذ ورغب إلى أخيها عبد الله بن عمر أن يبعث إليه بالصحف ، فبعتها إليه ، وكان مروان قد طلبها من السيدة حفصة من قبل فأبت رضي الله عنها . أخرج ابن أبي داود في رواية أن مروان أحرق هذه الصحف ؟ وفي رواية أنه غسلها ، وفي رواية شققها . ولا مانع من الجمع بين هذه الروايات الثلاث بأنه غسلها أولاً ، ثم شققها ثانياً ، ثم أحرقها أخيراً ، مبالغة في التكريم والحو ، كما روى أنه قال : إنما فعلت هذا لأني خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب ، أي يظن أن فيها ما يخالف المصاحف ، فإنها كانت صحفاً منثورة ، لاتأخذ شكل المصاحف المجموعة المنظومة .

#### عدد المصاحف

اختلفوا في عدد المصاحف التي استنسخها عثمان رضي الله عنه ، فصبوب ابن عاشر

أنها ستة : المكي ، والشامي ، والبصري ، والكوفي ، والمدني العام الذي سيره عثمان رضي الله عنه من محل نسخه إلى مقره ، والمدني الخاص به الذي حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام . وقال صاحب زاد القراء : لما جمع عثمان القرآن في مصحف سماه الإمام ونسخ منه مصاحف فأنفذ منها مصحفاً إلى مكة ، ومصحفاً إلى الكوفة ، ومصحفاً إلى البصرة ، ومصحفاً إلى الشام ، وحبس مصحفاً بالمدينة ، وهذا القول كسابقه في أنها ستة ، وذهب السيوطي وابن حجر إلى أنها خمسة . ولعلهما أرادا بالخمسة ما عدا المصحف الإمام فيكون الخلاف لفظياً بينه وبين سابقه .

وقيل إنها ثمانية ، خمسة متفق عليها وهي الكوفي والبصري والشامي والمدني العام والمدني الخاص ، وثلاثة مختلف فيها وهي المكي ، ومصحف البحرين ، ومصحف اليمن . وقيل إن عثمان رضي الله عنه أنفذ إلى مصر مصحفاً .

ولعل القول بأن عددها ستة ، هو أولى الأقوال بالتبول . والمفهوم على كل حال أن عثمان رضي الله عنه ، قد استنسخ عدداً من المصاحف في بحاجة الأمة وجمع كلماتها وإطفاها فتنها . ولا يتعلق بتعيين العدد كبير غرض ، فيختلفوا في هذا التعيين ما وسعتهم أدلة ذلك الاختلاف . والله تعالى أعلم بالحقيقة .

### كيف أنفذ عثمان المصاحف الثمانية ؟

كان الاعتماد في نقل القرآن - ولا يزال - على التلقي من صدور الرجال ثقة عن ثقة وإماماً عن إمام إلى النبي ﷺ . لذلك اختار عثمان حُفَاظاً يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار الإسلامية واعتبر هذه المصاحف أصولاً ثواني مبالغة في الأمر ، وتوثيقاً للقرآن ولجمع كلمة المسلمين . فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب . روى أن عثمان رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني ، وبعث عبد الله بن السائب

مع المكى ، والمغيرة بن شهاب مع الشامي ، وأبا عبد الرحمن السلي مع الكوفي ، وعامر ابن عبد القيس مع البصري . ثم نقل التابعون عن الصحابة فقرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم تلقياً عن الصحابة الذين تلقوه من فم النبي ﷺ فقاموا في ذلك مقام الصحابة الذين تلقوه من فم النبي ﷺ . ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط ، حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلادهم على تلقي قراءتهم واعتماد روايتهم . ومن هنا نسبت القراءة إليهم ، وأجمعت الأمة - وهي معصومة من الخطأ في إجماعها - على ما في هذه المصاحف ، وعلى ترك كل ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال ، لأنه لم يثبت عندهم ثبوتاً متواتراً أنه من القرآن .

### أين المصاحف العثمانية الآن ؟

وليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن فضلا عن تعيين أماكنها . وقصارى ما علمناه أخيراً أن ابن الجزرى رأى في زمانه مصحف أهل الشام ، ورأى في مصر مصحفاً أيضاً .

أما المصاحف الأثرية التي تحتويها خزائن الكتب والآثار في مصر ويقال عنها إنها مصاحف عثمانية فإننا نشك كثيراً في صحة هذه النسبة إلى عثمان رضى الله عنه ، لأن بها زركشة ونقوشاً موزعة كعلامات للفصل بين السور ، ولبيان أعشار القرآن ، ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ، ومن النقط والشكل أيضاً كما علمت .

نعم إن المصحف المحفوظ في خزانة الآثار بالمسجد الحسيني والنسب إلى عثمان رضى الله عنه ، مكتوب بالخط الكوفي القديم ، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً . ورسمه يوافق رسم المصحف المدنى أو الشامى حيث رسم فيه كلمة «من يرتد» من سورة المائدة بدالين اثنين

مع فك الإدغام ، وهي فيها بهذا الرسم . فأكبر الظن أن هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضها . وكذلك المصحف المحفوظ بتلك الخزانة . ويقال إن علي بن أبي طالب رضی الله عنه كتبه بخطه ، يلاحظ فيه أنه مكتوب بذلك الخط الكوفي القديم . بيد أنه أصغر حجماً ، وخطه أقل تجويفاً من سابقه ، ورسمه يوافق غير المدني والشامي من المصاحف العثمانية ، حيث رسمت فيه الكلمة السابقة « من يرتد » بدال واحدة مع الإدغام ، وهي في غيرها كذلك . فمن الجائز أن يكون كاتبه علياً ؛ أو يكون قد أمر بكتابته في الكوفة .

ثم إن عدم بقاء المصاحف العثمانية قاطبة لا يضرنا شيئاً مادام المول عليه هو النقل والتلقي ثقة عن ثقة ، وإماماً عن إمام ، إلى النبي ﷺ . وذلك متواتر مستفيض على أكل وجه في القرآن حتى الآن .

على أن المصاحف العثمانية نسخت على غرارها الآلاف المؤلفة في كل عصر ومصر ، مع المحافظة على الرسم العثماني ؛ كما سيجيء إن شاء الله ، فاصبر « وما صبرك إلا بالله » .

#### المصاحف في دور التجويد والتحسين :

كانت المصاحف العثمانية أشبه بماء نزل من السماء ، فأصاب أرضاً خصبة صالحة ، ولكنها ظامئة ممتعشة . فما كاد يصل إليها الماء حتى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ! كذلك المصاحف الشريفة ، ما كاد عثمان يرسلها إلى الآفاق الإسلامية حتى أقبلت عليها الأمة من كل صوب وحذب ، وحتى اجتمعت عليها الكلمة في الشرق والغرب ، وحتى نسخت على غرارها آلاف مؤلفة من المصاحف المقدسة في كل جيل وقبيل .

ومما يلفت النظر أن يد التجويد والصفل والتحسين أخذت تتناول المصاحف على ألوان شتى وضروب متنوعة ، فهناك تحسينات مادية أو شكلية ترجع إلى النسخ والطبع والحجم والورق والتجليد والتذهيب ونحو ذلك . وهذه لاتعدينا كثيراً ، لأن أمرها هين ، وإن كان فيها بعض التيسير أو التشويق إلى القرآن الكريم . وهناك تحسينات معنوية أو جوهرية ترجع إلى تقريب نطق الحروف وتمييز الكلمات وتحقيق الفروق بين المقابلات عن طريق الإعجام والشكل ونحوهما . وفي هذه نسوق الحديث .

### الإعجام :

إعجام الكتاب : نقطه . قال في القاموس : « أَعْجَمَ فُلَانٌ الْكَلَامَ : ذَهَبَ بِهِ إِلَى الْعُجْمَةِ ، وَالْكِتَابَ : نَقَطَهُ كَعَجْمَهُ وَعَجْمَهُ (أى بتخفيف الجيم وتضعيفها) » . والمعروف أن المصحف العثماني لم يكن منقوطةً ، وذلك للمعنى الذى أسلفناه ، وهو بقاء الكلمة محتملة لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات فيها . بيد أن المؤرخين يختلفون ، فمنهم من يرى أن الإعجام كان معروفاً قبل الإسلام ولكن تركوه عمداً في المصاحف للمعنى السابق . ومنهم من يرى أن النقط لم يعرف إلا من بعد على يد أبى الأسود الدؤلى .

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن إعجام المصاحف لم يحدث على المشهور إلا في عهد عبد الملك بن مروان إذ رأى أن رقعة الإسلام قد اتسعت ، واختلط العرب بالعجم ، وكادت المعجمة تفسد سلامة اللغة ، وبدأ اللبس والإشكال في قراءة المصاحف يُلحُحُ بالناس ، حتى ليشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهى غير معجمة . هنالك رأى بشاقب نظره أن يتقدم للإنقاذ ، فأمر الحجاج أن يعنى بهذا الأمر الجليل ، وندب الحجاج - طاعةً لأمر المؤمنين - رجلين يمالجان هذا المشكل ، هما نصر بن عاصم الليثى ، ويحيى بن يعمر العدوانى . وكلاهما كف ، قدير على ما ندب إليه ،

إذ جمعا بين العلم والعمل، والصلاح والورع، والخبرة بأصول اللغة ووجوه قراءة القرآن .  
وقد اشتركا أيضاً في التلمذة والأخذ عن أبي الأسود الدؤلي .

ويرحم الله هذين الشيخين ، فقد نجعا في هذه المحاولة ، وأعجبا المصحف الشريف  
لأول مرة ، ونقطا جميع حروفه المتشابهة ، والتزما ألا تزيد النقط في أي حرف على  
ثلاث . وشاع ذلك في الناس بعد ، فكان له أثره العظيم في إزالة الإشكال واللبس عن  
المصحف الشريف .

وقيل إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي ، وإن ابن سيرين كان له  
مصحف منقوط ، نقطه يحيى بن يعمر . ويمكن التوفيق بين هذه الأقوال بأن أبا الأسود  
أول من نقط المصحف ولكن بصفة فردية ، ثم تبعه ابن سيرين ، وأن عبد الملك أول من  
نقط المصحف ، ولكن بصفة رسمية عامة ، ذاعت وشاعت بين الناس ، دفعاً للبس  
والإشكال عنهم في قراءة القرآن .

### شكل المصاحف :

شكل الكتاب في اللغة رديف لإعجابه . وقد عرفت أن الإعجام هو النقط . قال  
صاحب القاموس مانصه : « .. والكتاب ( أي وشكل الكتاب : أعجمه ، كأشكله  
كأنه أزال عنه الإشكال ) » . ثم شاع استعمال الشكل في خصوص ما يعرض للحروف  
من حركة أو سكون . والمناسبة بين المعنيين ظاهرة ، لأن في كل منهما إزالة لإشكال  
الحرف ودفعاً للبس عنه .

وانفق المؤرخون على أن العرب في عهدهم الأول ، لم يكونوا يعرفون شكل الحروف  
والكلمات فضلاً عن أن يشكلوها . ذلك لأن سلامة لغتهم ، وصفاء سليقةهم وذلاقة أسنتهم

كل أولئك كان يفنيهم عن الشكل . ولكن حين دخلت الإسلام أم جديدة ؛ منهم العجم الذي لا يعرفون العربية ، بدأت المعجمة تخيف على لغة القرآن . بل قيل إن أبا الأسود الدؤلي سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : « أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » . ففرأها يجر اللام من كلمة « رسوله » . فأفزع هذا اللحنُ الشنيعُ أبا الأسود وقال : عزَّ وجهُ الله أن يبرأ من رسوله . ثم ذهب إلى زياد وإلى البصرة وقال له وقد أجيبتك إلى مسألت . وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله ، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث . وهنا جدَّ جدُّه ، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله ، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف ، وجعل علامة السكون نقطتين

طفق الناس ينهجون منهجه ، ثم امتدَّ الزمان بهم فبدوا يزيدون ويبتكرون ، حتى جعلوا للحرف الشدِّد علامة كالتوس ، ولألف الوصل جرّة فوقها أو تحتهما أو وسطها ، على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة . ودامت الحال على هذا حتى جاء عبد الملك ابن مروان ، فرأى بنافذ بصيرته أن يميز ذوات الحروف من بعضها ، وأن يتخذ سبيله إلى ذلك التمييز بالإعجام والنقط ، على نحو ما تقدم تحت العنوان السابق . وهناك اضطراً أن يستبدل بالشكل الأول الذي هو النقط ، شكلاً جديداً هو ما نعرفه اليوم من علامات الفتحة والكسرة والضمة والسكون . والذي اضطره إلى هذا الاستبدال ، أنه لو أبقى العلامات الأولى على ما هي عليه نقطاً ، ثم جاءت هذه الأخرى نقطاً كذلك لتشابهها واشتبه الأمر . فميز بين الطائفتين بهذه الطريقة . وَنِعْمًا فَعَلَّ ! .

### حكم نقط المصحف وشكله

كان العلماء في الصدر الأول يرون كراهة نقط المصحف وشكله ، مبالغةً منهم في المحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف ، وخوفاً من أن يؤدي ذلك إلى التغيير فيه .



ومن ذلك ما روى عن ابن مسعود أنه قال: جرّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء. وما روى عن ابن سيرين أنه كره النقط والفواتح والخواتم إلى غير ذلك. ولكن الزمان تغير - كما علمت - فاضطر المسلمون إلى إعجام المصحف وشكله لنفس ذلك السبب أي للمحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف، وخوفاً من أن يؤدي تجرده من النقط والشكل إلى التغيير فيه.

فمقول حينئذ أن يزول القول بکراهة ذینک الإعجام والشکل، ويحل محلّه القول بوجوب أو باستحباب الإعجام والشکل. لما هو مقرر من أن الحكم بدور مع علته وجوداً وهدماً. قال النووي في كتابه التبيان مانعه: قال العلماء: ويستحب نقط المصحف وشكله، فإنه صيانة من اللحن فيه. وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط، فإنما كراهاه في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه. وقد أمن ذلك اليوم فلا يمنع من ذلك لسكونه محدثاً، فإنه من المحدثات الحسنة، فلا يمنع منه كمنظأره مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك. والله أعلم اهـ.

### تجزئة القرآن:

كانت المصاحف العثمانية مجردة من التجزئة التي نذكرها، كما كانت مجردة من النقط والشكل. ولما امتدّ الزمان بالناس جعلوا يفتنون في المصاحف وتجزئتها عدة تجزئات، مختلفة الاعتبار. فمنهم من قسم القرآن ثلاثين قسماً، وأطلقوا على كل قسم منها اسم الجزء بحيث لا يخطر بالبال عند الإطلاق غيره، حتى إذا قال قائل: قرأت جزءاً من القرآن، تبادر إلى الذهن أنه قرأ جزءاً من الثلاثين جزءاً التي قسموا المصحف إليها. وجرى على ذلك أصحاب الربعات، إذ طبعوا كل جزء نسخة مستقلة، ومجموع النسخ الجامعة للقرآن كله يسمونه (رَبْعَةٌ). ويوجد من هذا القبيل أجزاء مستقلة بالطبع بأيدي صفار التلاميذ في المدارس وغيرهم.

ومن الناس مَنْ قَسَمُوا الْجُزءَ إِلَى حَزْبَيْنِ، وَمَنْ قَسَمُوا الْحِزْبَ إِلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءِ سَمَوْا  
كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا رُبْعًا .

ومن الناس مَنْ وَضَعُوا كَلِمَةَ خَمْسٍ ، عِنْدَ نِهَآيَةِ كُلِّ خَمْسِ آيَاتٍ مِنَ السُّورَةِ ، وَكَلِمَةَ  
عَشْرٍ عِنْدَ نِهَآيَةِ كُلِّ عَشْرِ آيَاتٍ مِنْهَا ، فَإِذَا انْقَضَتْ خَمْسٌ أُخْرَى بَعْدَ الْعَشْرِ أَعَادُوا كَلِمَةَ  
خَمْسٍ ، فَإِذَا صَارَتْ هَذِهِ الْخَمْسُ عَشْرًا أَعَادُوا كَلِمَةَ عَشْرٍ وَهَكَذَا دَوَّالِيكَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .  
وَبَعْضُهُمْ يَكْتُبُ فِي مَوْضِعِ الْأَخْمَاسِ رَأْسَ الْخَاءِ بَدَلًا مِنْ كَلِمَةِ خَمْسٍ ، وَيَكْتُبُ فِي مَوْضِعِ  
الْأَعْشَارِ رَأْسَ الْعَيْنِ بَدَلًا مِنْ كَلِمَةِ عَشْرٍ . وَبَعْضُ النَّاسِ يَرْمِزُ إِلَى رِهْوَسِ الْآيِ بِرَقْمٍ  
عَدَدِهَا مِنَ السُّورَةِ أَوْ مِنْ غَيْرِ رَقْمٍ . وَبَعْضُهُمْ يَكْتُبُ فَوَاتِحَ السُّورِ كَعُنْوَانٍ يَنْوِّهُ فِيهِ بِاسْمِ  
السُّورَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدِينِيَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

وللعلماءُ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ طَوِيلٌ ، بَيْنَ الْجَوَازِ بِكَرَاهَةِ وَالْجَوَازِ بِلَا كِرَاهَةٍ ، وَلَكِنِ الْخَطْبُ  
سَهْلٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، مَا دَامَ الْفَرَضُ هُوَ التَّيْسِيرُ وَالتَّسْهِيلُ ، وَمَا دَامَ الْأَمْرُ بِعِيدٍ عَنِ اللَّيْسِ  
وَالتَّزْيِيدِ وَالدَّخِيلِ . « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ » .

#### احترام المصحف :

ليس فيما نرى ونسمع ، كتابٌ أُحِيطَ بِهِالَةً مِنَ الْإِجْلَالِ وَالتَّقْدِيسِ ، كَالْقُرْآنِ  
الْكَرِيمِ . حَتَّى لَقَدْ وَصَفَهُ الْحَقُّ جَلَّ شَأْنُهُ بِأَنَّهُ كِتَابٌ مَكْنُونٌ ، وَحُكْمٌ بِأَنَّهُ لَا يَمْسُهُ  
إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ، وَأَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ يَقُولُ : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ  
لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ .  
تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وحتى نهى الرسول ﷺ عن السفر به إلى أرض العدو ، إذا خيف وقوع المصحف  
في أيديهم . والحديث مرّوى في الصحيحين .

وحتى أفتى العلماء بكفر من رمى به في قاذورة ، وبجرمة من باعه لكافر ولو زميًّا ،  
وقالوا بوجوب الطهارة لسه وحمله ، وكذلك ما يتصل به من خريطة وغلاف وصندوق  
على الصحيح .

واستحبوا تحسين كتابته ، وإيضاحها ، وتحقيق جروفها .

قال النووي : ويستحب أن يقوم المصحف إذا قُدِمَ به عليه ، لأن القيام يستحب  
للعلماء والأخيار ، فالمصحف أولى اه .

رزقنا الله الأدب معه ومع كتابه ، ومع كافة من اصطفاهم من عباده ، آمين .

## المبحث الحادى عشر

فى القراءات ، والقراء والشبهات التى أثيرت فى هذا المقام

### ١ - القراءات

القراءات جمع قراءة ، وهى فى اللغة مصدر مسمى لقراء . وفى الاصطلاح مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره فى النطق بالقرآن الكريم ، مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، سواء أ كانت هذه المخالفة فى نطق الحروف أم فى نطق هيئاتها . قال السيوطى عند كلامه على تقسيم الإسناد إلى عالٍ ونازل مانصه : ومما يشبه هذا التقسيم الذى لأهل الحديث ، تقسيم القراء أحوال الإسناد إلى قراءة ورواية وطريق ووجه . فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم ؛ واتفقت عليه الروايات والطرق عنه ، فهو قراءة . وإن كان للراوى عنه ، فرواية . أو لمن بعده فنازلاً ، فطريق . أو لا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تختيار القارىء فيه ، فوجه . ١٥ .

وفى منجد المقرئين لابن الجزرى ما نصّه : « للقراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعز و الناقلة<sup>(١)</sup> ... والمقرىء : العالم بها رواها مشافهة ، فلو حفظ التيسير مثلاً ليس له أن يُقرىء بما فيه إن لم يشافهه من شؤفة به مسلسلاً ، لأن فى القراءات أشياء لا تحكم إلا بالجماع والمشافهة . والقارىء المبتدىء من شرع فى الأفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات . والمبتهى من نقل من القراءات أكثرها وأشهرها » ١٥ .

### نشأة علم القراءات :

قلنا غير مرة : إن العوّل عليه فى القرآن الكريم إنما هو التاقى والأخذ ، فحة

(١) قال فى القاموس : « الناقلة : ضد القاطنين » .

عن ثقة ، وإماماً عن إمام إلى النبي ﷺ ، وإن المصاحف لم تكن ولن تكون هي العمدة في هذا الباب . إنما هي مرجع جامع للمسلمين ، على كتاب ربهم ، ولكن في حدود ما تدل عليه وتعيّنه ، دون ما لا تدل عليه ولا تعيّنّه . وقد عرفت أن المصاحف لم تكن منقوطة ولا مشكولة ، وأن صورة الكلمة فيها كانت لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة ، وإذا لم تحتملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف ، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر وهم جرا . فلا غرو أن كان التعويل على الرواية والتلقي هو العمدة في باب القراءة والقرآن .

وقلنا : إن عثمان رضى الله عنه حين بعث للمصاحف إلى الآفاق أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الأعلب ، وهذه القراءة قد تخالف الذائع الشائع في القطر الآخر عن طريق المبعوث الآخر بالمصحف الآخر .

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ ، فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد ، ومنهم من أخذه عنه بجرنين ، ومنهم من زاد . ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال ، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم ، وأخذ تابع التابعين عن التابعين ، وهم جراً حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات بضبطونها ويعنون بها وينشرونها كما يأتي . هذا منشأ علم القراءات واختلافها ، وإن كان الاختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة إلى مواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم : لكنه - على كل حال - اختلاف في حدود السبعة الأحرف التي نزل عليها القرآن كلها من عند الله ، لا من عند الرسول ولا أحد من القراء أو غيرهم .

وللنويري كتاب مخطوط بدار الكتب في مصر ، وضعه شرحاً للطبيّة في القراءات العشر ، يحمل في أن أنقل إليك منه هنا الكلمة الآتية :

« والاعتماد في نقل القرآن على الحفاظ . ولذلك أرسل ( أى عثمان رضى الله عنه ) كل مصحف مع مَنْ يوافق قراءته في الأكثر وليس بلازم . وقرأ كل مصحف بما في مصحفهم ، وتلقوا ما فيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ . ثم تجرد للأخذ عن هؤلاء قوم أسهروا ليلهم في ضبطها ، وأنعبوا نهارهم في نقلها ، حتى صاوروا في ذلك أئمةً للاقتداء ، وأنجحاً للاقتداء ، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم ، ولم يختلف عليهم اثنان في صحة روايتهم ودرابيتهم . ولتصديهم للقراءة نُسبت إليهم ، وكان المعوّل فيها عليهم . » ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا ، وفي البلاد انقشروا ، وخلفهم أمم بعد أمم ، وعرفت طبقاتهم ، واختلفت صفاتهم ، فكان منهم المتقن للتلاوة المشهورة بالرواية والدراية ، ومنهم المحصّل لوصف واحد . ومنهم المحصل لأكثر من واحد ، فكثرت بينهم لذلك الاختلاف ، وقلّ منهم الائتلاف .

فقام عند ذلك جهابذة الأمة ، وصناديد الأئمة ، فبالقوا في الاجتهاد بقدر الحاصل ، وميزوا بين الصحيح والباطل ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعزّوا الأوجه والروايات ، وبيّنوا الصحيح والشاذّ ، والكثير والناذّ ، بأصول أصلوها ، وأركان فضلها ، الخ . اهـ .

#### طبقات الحفاظ المقرئين الأوائل :

ولقد اشتهر في كل طبقة من طبقات الأمة جماعة بحفظ القرآن وإقراءه . فاشتهرون من الصحابة بإقراء القرآن عثمان ، وعلي ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية .

والشاهرون من التابعين : ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز وسليمان ابن يسار ، وأخوه عطاء وزيد بن أسلم ، ومسلم بن جندب ، وابن شهاب الزهري ،

وعبد الرحمن بن هرمز ، ومماذ بن الحارث المشهور بمماذ القارىء . ( وكل هؤلاء كانوا بالمدينة ) .

وعطاء ، ومجاهد ، وطاوس ، وعكرمة ، وابن أبى مليكة ، وعبيد بن عمير ، وغيرهم ( وهؤلاء كانوا بمكة ) .

وعامر بن عبد القيس ، وأبو العالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر<sup>(١)</sup> وجابر بن زيد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وغيرهم . ( وهؤلاء كانوا بالبصرة ) .

وعلقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، والربيع بن خثيم ، والحارث بن قيس ، وعمر بن شراحيل ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وزر بن حبيش ، وعبيد ابن فضلة ، وأبو زرعة بن عمرو ، وسعيد بن جبير ، والنخعي ، والشعبي . ( وهؤلاء كانوا بالكوفة ) .

والمغيرة بن أبى شهاب الخزومي صاحب مصحف عثمان ، وخليفة بن سعيد صاحب أبى الدرداء ، وغيرها . ( وهؤلاء كانوا بالشام ) .

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويؤمنون بها . فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبه بن نِصاح<sup>(٢)</sup> ، ثم نافع بن أبى نعيم .

وكان بمكة عبد الله بن كثير ، وحמיד بن قيس الأعرج ، ومحمد بن مَحْتَصِن .

وكان بالكوفة يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبى النجود ، وسليمان الأعمش ، ثم حمزة ثم الكسائي .

---

(١) قال فى القاموس : « يَمْرُ كَيْفَعَلْ أَسْمَاءُ » .

(٢) قال فى القاموس : وَنِصَاحَةٌ وَالِدُ شَيْبَةَ الْقَارِي هَكَذَا بِالتَّاءِ الْمَرْبُوطَةِ . وَلِئِنْ

الَّذِي فِي كِتَابِ الْقُرْآنِ كَالنَّشْرِ وَطَبَقَاتِ الْقُرْآنِ « نِصَاحٌ » مِنْ غَيْرِ تَاءٍ مَرْبُوطَةٍ .

وكان بالبصرة عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبو عمرو بن العلاء وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.

وكان بالشام عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكلبي، وإسماعيل بن عبد الله ابن المهاجر. ثم يحيى بن الحارث الذمري، ثم شريح بن يزيد الحضرمي.

وقد لمع في سماء هؤلاء القراء نجوم عدّة مهروا في القراءة والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم، ويؤخذ عنهم.

### أعداد القراءات :

ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراءات فقيل : القراءات السبع ، والقراءات العشر ، والقراءات الأربع عشرة .

وأحظى الجميع بالشهرة ونباهة الشأن ، القراءات السبع .

وهي القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة المعروفين وهم : نافع، وعاصم، وحزرة، وعبد الله بن عامر ؛ وعبد الله بن كثير ؛ وأبو عمرو بن العلاء ، وعلى الكسائي . والقراءات العشر هي هذه السبع وزيادة قراءات هؤلاء الثلاثة : أبي جعفر ، ويعقوب ، وخلف . وعلم القراءات أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . ثم أهل عهد التدوين للقراءات ولم يكن لهذه السبعة بهذا العنوان وجود أيضاً، بل كان أول من صنف في القراءات أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي حاتم السجستاني، وأبي جعفر الطبري، وإسماعيل القاضي . وقد ذكروا في القراءات شيئاً كثيراً ، وعرضوا روايات تروى على أضعاف قراءة هؤلاء السبعة .

ثم اشتهرت قراءات هؤلاء السبعة بعد ذلك على رأس المائتين في الأمصار الإسلامية . فكان الناس في البصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع .



ومكثت القراءات السبع على هذه الحال دون أن تأخذ مكانها من التدوين حين خاتمة القرن الثالث ، إذ نهض ببغداد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس لجمع قراءات هؤلاء الأئمة السبعة غير أنه أثبت اسم الكسائي وحذف يعقوب .

وجاء اقتصاره على هؤلاء السبعة مصادفة واتفاقاً ، من غير قصد ولا عمد . ذلك أنه أخذ على نفسه ألا يروى إلا عن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العرفى ملازمة القراءة واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقى منه . فلم يتم له ما أراد هذا إلا عن هؤلاء السبعة وحدهم . وإلا فأئمة القراء لا يحصون كثرة ، وفيهم من هو أجلُّ من هؤلاء قدرأ ، وأعظم شأنًا .

وإذن فليس اقتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة بمحاصرٍ للقراء فيهم ، ولا بملزم أحدًا أن يقف عند حدود قراءاتهم . بل كل قراءة توافرت فيها الأركان الثلاثة للضابط المشهور وجب قبولها<sup>(١)</sup> .

ومن هنا كانت القراءات العشر ، بزيادة قراءات : يعقوب ، وأبي جعفر ، وخلف . على قراءات أولئك السبعة .

وكانت القراءات الأربع عشرة ، بزيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة ، وهي قراءات الحسن البصرى ، وابن محيصن ، ويحيى اليزيدى ، والشنبوذى .

---

(١) أى إن وجدت الآن . ولكن هيئات أن توجد ، بعد أن استقر الأمر في الواقع وعرف أنه ليس بعد القراءات العشر التي بين أيدينا قراءة أخرى متواترة . وسيستقبلك تحقيقه فيما بعد فانتظروه .

### فوائد اختلاف القراءات :

استوفينا هذه النقطة بياناً في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف (من ص ١٣٨ - ص ١٤٢).

### أنواع اختلاف القراءات

تكلمنا على هذا الموضوع في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أيضاً (من ص ١٢٨ - ص ١٨٠).

### ضابط قبول القراءات

لعلماء القراءات ضابط مشهور ، يزنون به الروايات الواردة في القراءات فيقول : كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تفديراً ، ووافقت العربية ولو بوجه ، وصح إسنادها ولو كان عن فوق العشرة من القراء ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها ، ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن . وهذا الضابط نظمه صاحب الطيِّبة فقال :

« وكلُّ ما وافقَ وجهَ النحويِّ وكان للرسم احتمالاً يحوي

وصحَّ إسناداً ، هو القرآنُ فهذه الثلاثةُ الأركانُ

وحيثما يختلُّ ركنٌ أثبتِ شذوذَهُ لو أنه في السبعةِ »

والمراد بقولهم : « ما وافق أحد المصاحف العثمانية » أن يكون ثابتاً ولو في بعضها

دون بعض . كقراءة ابن عامر : « قالوا اتخذ الله ولداً » من سورة البقرة ، بغير واو .

وكقراءته : « وبالزبر وبالكتابِ المنيرِ » بزيادة الباء في الاسمين ، فإن ذلك ثابتٌ في

المصحف الشامي . وكقراءة ابن كثير : « جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » في الموضع الأخير من سورة التوبة ، بزيادة كلمة « من » فإن ذلك ثابت في المصحف المكي .

والمراد بقولهم : « ولو تقديرأ » أنه يكفي في الرواية أن توافق رسم المصحف ، ولو موافقة غير صريحة ، نحو : « مَالِكٍ يَوْمَ الدِّينِ » ، فإنه رسم في جميع المصاحف بحذف الألف من كلمة « مالك » . فقراءة الحذف تحتمله تحقيقاً كما كتب « مَلِكِ النَّاسِ » ، وقراءة الألف تحتمله تقديرأ كما كتب : « مَالِكِ الْمَلِكِ » ، فتكون الألف حذفت اختصاراً ، كما حذفت في حالات كثيرة ألمعنا إليها سابقاً في قواعد رسم المصحف . أما الموافقة الصريحة فكثيرة نحو قوله سبحانه : « وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا » فإنها كتبت في المصحف بدون نقط . وهنا وافقت قراءة « نُشِزُهَا » بلازاي وقراءة « نُشِزُهَا » بالراء .

ومن بعد نظر الصحابة في رسم المصحف أن الكلمة التي رُويت على الأصل وعلى خلاف الأصل كانوا يكتبونها بالحرف الذي يخالف الأصل ، ليعتادل مع الأصل الذي لم يكتب في دلالة الصورة الواحدة على القراءتين ، إذ يدل على إحداهما بالحروف وعلى الثانية بالأصل . نحو كلمتي ( الصراط ، والمصيطرون ) بالصاد المبدلة بالسين ، فإنهم كتبوها بالصاد وعدلوا عن السين التي هي الأصل ، لتكون قراءة السين وإن خالفت الرسم قد أتت على الأصل فيعتدلان ، وتكون قراءة الإشمام أيضاً محتملة . ولو كتب ذلك بالسين على الأصل لفات هذا الاحتمال وعدت قراءة غير السين مخالفة للرسم والأصل كليهما . ولذلك كان الخلاف المشهور في بصطة الأعراف دون بسطة البقرة ؛ لكون حرف البقرة كتب بالسين وحرف الأعراف كتب بالصاد .

والعلامة النويري على الطيبة كلمة نفيسة في هذا الموضوع إذ يقول ما نصه :

« اعلم أن الرسم هو تصوير الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها والوقف عليها والعماني هو الذي رُسم في المصاحف العثمانية. وينقسم إلى قياسي، وهو ما وافق اللفظ، وهو معنى قولهم: تحقيقاً. وإلى سماعي وهو ما خالف اللفظ، وهو معنى قولهم: بتديراً وإلى احتمالي وسياتي.

ومخالفة الرسم اللفظ محصورة في خمسة أقسام، وهي الدلالة على البديل نحو: «الصراط» وعلى الزيادة نحو: «مالك»، وعلى الحذف نحو: «لكننا هو»، وعلى الفصل نحو: «فمال هؤلاء»، وعلى أن الأصل الوصل نحو: «ألا يسجدوا» فقراءة الصاد والحذف والإثبات والفصل والوصل خمستها وافقها الرسم تحقيقاً، وغيرها بتديراً، لأن السين تبدل صاداً قبل أربعة أحرف منها الطاء كما سيأتي، وألف مالك عند المثبت زائدة، وأصل «لكننا» الإثبات، وأصل «فمال» الفصل، وأصل «ألا يسجدوا» الوصل. فالبديل في حكم المبدل منه، وكذا الباقي. وذلك ليتحقق الوفاق التقديري، لأن اختلاف القراءتين إذا كان يتغاير دون تضاد ولا تناقض فهو في حكم الموافق، وإذا كان يتضاد أو تناقض ففي حكم المخالف. والواقع الأول فقط، وهو الذي لا يلزم من صحة أحد الوجهين فيه بطلان الآخر.

وتحقيقه: أن اللفظ تارة يكون له جهة واحدة، فيرسم على وفقها، فالرسم هنا حصر جهة اللفظ، فمخالفة مناقض. وتارة يكون له جهات فيرسم على إحداها، فلا يحصر جهة اللفظ، فاللفظ به موافق تحقيقاً، وبغيره بتديراً، لأن البديل في حكم المبدل منه. وكذا بقية الخمسة.

والقسم الثالث ما وافق الرسم احتمالاً. ويندرج فيه ما وقع الاختلاف فيه بالحركة والسكون نحو «القدس»، وبالتخفيف والتشديد نحو «ينشركم» بيونس، وبالقطع والوصل المعبر عنه بالشكل نحو «ادخلوا» بغافر، وباختلاف الإجماع نحو «يملون» و«يفتح»، وبالإجماع والإهمال نحو «فنشروها» وكذا المختلف في كيفية لفظها

كالمدغم والمسهل والممّال والمرقّق والمدوّر، فإن المصاحف العثمانية هكذا كلها، لتجردها عن أوصافها.

فقول الناظم : « وكان للرسم احتمالاً » دخل فيه ما وافق الرسم تحقيقاً بطريق الأولى، وسواء وافق كل المصاحف أو بعضها، كقراءة ابن عامر « قَالُوا أَلَمْ نَخْذُ اللَّهَ وَلَدًا » وبالزُّبُرِ وبالكتاب « فإنه ثابت بالشامى، وكان كثير في « جناتِ تجرِي من تحتهِ الأنهارُ » بالتوبة، فإنه ثابت في السكوفى، إلى غير ذلك.

وقوله « احتمالاً » يحتمل أن يكون جعله مقابلاً للتحقيقى . فتسكون التهمة عنده ثنائية، وهو التحقيق والاحتمالى، ويكون قد أدخل التقديرى فى الاحتمالى، وهو الذى فعله فى نشره . ويحتمل أن يكون نلّك التهمة، ويكون حكم الأوائن ثابتاً بالألوية . ولولا تقدير موافقة الرسم للزم السكل مخالفة السكل فى نحو « السَّمَوَاتِ وَالصَّالِحَاتِ وَاللَّيْلِ » .

ثم إن بعض الألفاظ يقع فيه موافقة إحدى القراءتين أو القراءات تحقيقاً والأخرى تقديراً، نحو « مَلِكٌ »، وبعضها يقع فيه موافقة القراءتين أو القراءات تحقيقاً، نحو « أَنْصَارًا لِلَّهِ، فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَيَعْفِرْ لَكُمْ، وَهَيْتَ لَكَ » .

واعلم أن مخالف صريح الرسم فى حرف مدغم أو مبدل أو ثابت أو محذوف أو ونحو ذلك، لا يُعدُّ مخالفاً إذا ثبتت القراءة به ووردت مشهورة. ألا ترى أنهم يعدُّون إثبات ياءات الزوائد وحذف ياء « تَسْأَلُنِي » بالكهف، وقراءة « وَأَكُونُ مِنَ الْعَالَمِينَ » ونحو ذلك من مخالف الرسم غير مردود، لرجوعه لمعنى واحد، وتمشيه مع صحة القراءة وشهرتها . بخلاف زيادة كلمة ونقصانها، وتقديمها وتأخيرها، حتى ولو كانت حرف معنى فإن له حكم الكلمة، ولا نسوغ مخالفة الرسم فيه . وهذا هو الحدُّ الفاصل فى حقيقة اتباع الرسم ومخالفته « اهـ » .

وقولهم في الضابط المذكور : « وافق العربية ولو بوجه » يريدون وجهاً من وجوه قواعد اللغة سواء أكان أفصح أم فصيحاً ، مجعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله ، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاها الأئمة بالإسناد الصحيح وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية .

هاك الحافظ أبو عمرو الداني في كتابه جامع البيان بعد ذكره إسكان كلمة « بَارئِكُمْ » و « بِأَمْرِكُمْ » في قراءة أبي عمرو ، وبعد حكاية إنكار سيبويه لذلك ، يقول مانصه : « والإسكان أصح في النقل وأكثر في الأداء . وهو الذي اختاره وأخذ به ، إلى أن قال : وأئمة القراء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الأفضى في اللغة والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل . والرواية إذا ثبتت عندهم لا يردّها قياس عربية ولا فُشُوْة لُغة لأن القراءة سُنَّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها » اهـ .

( قلت ) وهذا كلام وجيه فإن علماء النحو إنما استمدوا قواعدهم من كتاب الله تعالى وكلام رسوله وكلام العرب ، فإذا ثبتت قرآنية القرآن بالرواية المقبولة كان القرآن هو الحَكَم على علماء النحو وما قعدوا من قواعد ، ووجب أن يرجعوا بمقواعدهم إليه ، لا أن يرجع نحن بالقرآن إلى قواعدهم المخالفة لحكْمها فيه ، وإلا كان ذلك عكساً للآية ، وإهمالاً للأصل في وجوب الرعاية !

وقولهم في ذلك الضابط : « وصحَّ إسناده » يريدون به أن يروى تلك القراءة عدلً ضابط عن مثله وهكذا إلى الرسول ﷺ من غير شذوذ ولا علة قاذحة . بل شرطوا فوق هذا أن تكون الرواية مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له ، غير معدودة عندهم من الغلط ، ولا مما شذَّ به بعضهم . والمحقق ابن الجزرى يشترط التواتر ويصرح به في هذا الضابط ، ويعتبر أن ما اشتهر واستفاض موافقاً الرسم والعربية في قوة المتواتر في القطع بقرآنيته ، وإن كان غير متواتر .

منطوق هذا الضابط ومفهومه :

يدل هذا الضابط بمنطوقه، على أن كل قراءة اجتمع فيها هذه الأركان الثلاثة يحكم بقبولها، بل لقد حكموا بكفر من جحدتها<sup>(١)</sup>. سواء أكانت تلك القراءة مروية عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة؛ أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين. ويدل هذا الضابط بمفهومه على أن كل قراءة لم تتوافر فيها هذه الأركان الثلاثة. يحكم بعدم قبولها. وبعدم كفر من يجحدتها. سواء أكانت هذه القراءة مروية عن الأئمة السبعة أم عن غيرهم، ولو كان أكبر منهم مقاماً، وأعظم شأنًا. هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف الخلف، كما صرح به الداني، ومكي، والمهدوي، وأبو شامة. وناهيك بهؤلاء الأربعة أنهم أئمة في قراءات القرآن وعلوم القرآن.

قال أبو شامة في كتابه المرشد الوجيز ما نصه: « فلا ينبغي أن يفتر بكل قراءة تُعزى إلى واحدٍ من هؤلاء الأئمة السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة، وأنها كذلك أنزلت، إلا إذا دخلت في ذلك الضابط. وحينئذ فلا ينفرد بنقلها مصنف عن غيره، ولا يختص ذلك بنقلها عنهم، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصحة؛ فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لاعلى من تُنسب إليه. والقراءات المنسوبة إلى كل قارى من السبعة وغيرهم، منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ. غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءاتهم، تركن النفس إلى ما نُقل عنهم فوق ما نُقل عن غيرهم » اهـ لكن رأى أبي شامة وأضراجه في القراءات السبع غير سديد كما سيحىء.

(١) قد يقال: لا يسلم لهم ذلك إلا إن كانت القراءة متواترة معلومة من الدين بالضرورة، ويمكن أن يجاب بأن هذه الأركان الثلاثة أمانة التواتر والعلم من الدين بالضرورة. كما يأتي تفصيله. وإذن يكون الحكم صحيحاً.

ثم إن مفهوم هذا الضابط المحكوم عليه بما ترى تنضوى تحته بضع صور  
يخالف بمضاهكهم بعض تفصيلاً، وإن اشتركت كلها في الحكم عليها إجمالاً بعدم قبولها  
كما علمت .

ذلك أن الضابط المذكور يصدق مفهومه بنفي الأركان الثلاثة، ويصدق بنفي واحد  
واثنين منها . ولكل حالة حكم خاص نعلمه من عبارة الإمام مكى التي نسوقها إليك  
ونصها : « فإن سأل سائل : ما الذى يقبل من القراءات الآن فيقرأ به ؟ وما الذى يقبل  
ولا يقرأ به ؟ وما الذى لا يقبل ولا يقرأ به ؟ فالجواب أن جميع ما روى من القراءات  
على أقسام : قسم يقرأ به اليوم : وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال ، وهن أن ينقل عن  
الثقات عن النبي ﷺ ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن سائفاً ، ويكون  
موافقاً لخط المصحف .

فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث قرئ به وقطع على تعينه وصحته وصدقه ،  
لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقة خط المصحف وكفر من جرده . قال : والقسم الثانى :  
ما صح نقله عن الآحاد وصحَّ وجهه في العربية وخالف لفظه خط المصحف . فهذا  
يُقبل ولا يُقرأ به <sup>(١)</sup> لعلتين : إحداهما أنه لم يؤخذ عن إجماع ، إنما أخذ أخبار الآحاد ،  
ولا يثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد . والعللة الثانية أنه يخالف لما قد أجمع عليه فلا يقطع  
على تعينه وصحته ، وما لم يقطع على صحته لا تجوز القراءة به ولا يكفر من جرده ،

(١) ومعنى هذا أنه يقبل على اعتبار أنه خبر شرعى يصح الاحتجاج به عند من يرى  
ذلك وهم الحنفية دون الشافعية ، ولا يقرأ به على أنه قرآن ، ولا ليوم القارىء أحداً أنه  
قرآن . قال النووي : « اعلم أن الذى استقرت عليه المذاهب وآراء العلماء أن من  
قرأ بها (أى الشواذ) غير معتقد أنها قرآن ولا موهم أحداً ذلك بل لما فيها من الأحكام =



ولبس ما صنع إذا جعده . والقسم الثالث : هو ما نقله غير ثقة أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف . قال : ولكل صنف من هذه الأقسام تمثيل تركنا ذكره اختصاراً « ٥١ » .

ثم انبرى المحقق ابن الجزرى لذلك التمثيل الذى تركه مكى اختصاراً فقال : -  
( مثال القسم الأول ) : ملك ومالك ، ويخضعون ، ويخادعون ، وأوصى ووصى ،  
ويطوع ، وتطوع ونحو ذلك من القراءات المشهورة .

( ومثال الثانى ) قراءة ابن مسعود وأبى الدرداء : « والذكر والأنثى » فى قوله تعالى « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » بحذف لفظ « ماخلق » . وقراءة ابن عباس ذ « وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ عَضْبًا » ، بإبدال كلمة أمام من كلمة وراء ، وبزيادة كلمة صالحة « وأما الغلام فكان كافرًا » بزيادة كلمة « كافرًا » ونحو ذلك مما ثبت برواية الثقات إلى أن قال :

( ومثال القسم الثالث ) مما نقله غير ثقة كثير كما فى كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف كقراءة ابن السميع وأبى السمال وغيرهما فى « نُنَجِّيكَ <sup>(١)</sup> بِيَدِنِكَ » بالجيم المعجمة « وَلَنْ خَلَقَكَ آيَةً » بفتح اللام أى من قوله « خَلَقَكَ » بسكونها .  
وكالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه والى جمعها أبو الفضل محمد ابن جعفر الخزاعى ونقلها عنه أبو القاسم الهذلى وغيره « إِمَّا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ = الشرعية عند من يحتج بها أو الأحكام الأدبية ؛ فلا كلام فى جواز قراءتها . وعلى هذا يحمل حال من قرأها من المتقدمين . وكذلك أيضاً يجوز تدوينها فى الكتب والتكلم على ما فيها . وإن قرأها باعتماد قرآنيها أو لإيهاهم قرآنيها حرم ذلك . ونقل ابن عبد البر فى تمهيده إجماع المسلمين عليه « ٥١ » .

(١) هنا سقط . والصواب « نُنَجِّيكَ » بالحاء المهملة فى « نُنَجِّيكَ بِيَدِنِكَ » الخ .

العلماء « برفع الماء ونصب الهمزة ، بمعنى برفع لفظ الجلالة ونصب لفظ العلماء .  
وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه فتكلف توجيهها ، فإنها لا أصل  
لها ، وإن أبا حنيفة لبرىء منها .

ومثال ما نقله ثقة ولا وجه له في العربية - ولا يصدر هذا إلا على وجه السهو  
والغلط وعدم الضبط ، يعرفه الأئمة المحققون والحفاظ الضابطون ، وهو قليل جداً بل  
لا يكاد يوجد .

وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن نافع « مَعَائِشَ » بالهمز ثم قال : ويدخل  
في هذين التسمين ما يذكره بعض المتأخرين من شراح الشاطبية في وقف حمزة نحو :  
« أَسْمَائِهِمْ ، وَأَوْلَادِكِ » بياء خالصة ، ونحو « شُرَكَاءُؤُهُمْ ، وَأَحِبَّاءُؤُهُمْ » بواو خالصة .  
ونحو « بَدَأَؤُكُمْ ، وَأَخَاهُ » بألف خالصة ، ونحو « رَأَىؤُكُمْ ، وَتَرَىؤُكُمْ » واشمَزَتْ  
في اشمَزَتْ ، وفادَارَؤُكُمْ في فادَارَؤُكُمْ » بحذف الهمزة في ذلك كله مما يسمونه للتخفيف  
الرسمي ولا يجوز في وجه من وجوه العربية ، فإنه إما أن يكون منقولاً عن ثقة - ولا سبيل  
إلى ذلك - فهو مما لا يقبل ، إذ لا وجه له . وإما أن يكون منقولاً عن غير ثقة ؛ فنعمه  
أخرى وردّه أولى . مع أني تتبعت ذلك فلم أجده منصوصاً لحمزة لا بطريق صحيحة  
ولا ضعيفة .

ثم قال : ويبقى قسم مردود أيضاً ، وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل  
ألبتة . فهذا ردّه أحق ، ومنعه أشد ؛ ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر .  
وقد ذكر جواز ذلك عن محمد بن الحسن بن مقسم البغدادي المقرئ النحوي وكان  
بمد الثلاثمائة .

قال الإمام أبو طاهر بن أبي هاشم في كتابه البيان : « وقد نبغ نابغ في عصرنا فزعم  
أن كل ما صح عنده وجه في العربية بحرف من القرآن يوافق المصحف فقراءته جائزة في  
الصلاة وغيرها . فابتدع بدعة ضلّ بها قصد السبيل ( قلت ) : وقد عقد له بسبب ذلك

مجلس ببغداد حضره الفقهاء والقراء ، وأجمعوا على منعه ، وأوقف للضرب ، ورجع ،  
وكتب عليه محضر بذلك . كما ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد ، وأشرنا  
إليه في الطبقات « ١٥ .

### ملاحظة :

إما اكتفى القراء في ضابط القراءة المشهورة بصحة الإسناد مع الركنين الآخرين  
ولم يشترطوا التواتر : مع أنه لا بد منه في تحقق القرآنية لأسباب ثلاثة : -  
أحدها : أن هذا ضابط لا تعريف ، والتواتر قد لوحظ في تعريف القرآن على أنه شرط  
أو شرط على الأقل . ولم يلحظ في الضابط لأنه يفتقر في الضوابط ما لا يفتقر في التعاريف .  
فالضوابط ليست لبيان الماهية والحقيقة .

ثانيها : التيسير على الطالب في تمييز القراءات المقبولة من غيرها ، فإنه يسهل عليه  
بمجرد رعايته لهذا الضابط أن يميز القراءات المقبولة من غير المقبولة . أما إذا اشترط  
التواتر فإنه يصعب عليه ذلك التمييز ، لأنه يضطر في تحصيله إلى أن يصل إلى جمع  
يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الرواية . وهيئات أن  
يتيسر له ذلك .

ثالثها : أن هذه الأركان الثلاثة تكاد تكون مساوية للتواتر في إفادة العلم  
القاطع بالقراءات المقبولة . بيان هذه المساواة أن ما بين دفتي المصحف متواتر وجمع عليه  
من الأمة في أفضل عهودها وهو عهد الصحابة ، فإذا صحَّ سند القراءة ووافقت قواعد  
اللغة ثم جاءت موافقة لخط هذا المصحف المتواتر ، كانت هذه الموافقة قرينة على إفادة  
هذه الرواية للعلم القاطع وإن كانت آحاداً .

ولا تنس ما هو مقرر في علم الأثر من أن خبر الآحاد يفيد العلم إذا احتفت به  
قرينة توجب ذلك .

فكان التواتر كان يطلب تحصيله في الإسناد قبل أن يقوم المصحف وثيقة متواترة بالقرآن . أما بعد وجود هذا المصحف المجمع عليه ، فيكفي في الرواية صححتها وشهرتها متى وافقت رسم هذا المصحف ولسان العرب .

قال صاحب الكواكب الدرية نقلاً عن المحقق ابن الجزرى مانصه : « قولنا : « وصحَّ سندها » نعى به أن يروى تلك القراءة العدل الضابط عن مثله ، وهكذا حتى ينتهى ، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذَّ به بعضهم .

وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن ولم يكتف بصحة السند وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر<sup>(١)</sup> . وأن ما جاء بحجى الأحاد لا يثبت به قرآن . وهذا مما لا يخفى مافيه ، فإن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الآخرين من موافقه الرسم وغيره . إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وجب قبوله وقطع بكونه قرآناً ، سواء وافق الرسم أم خالفه » اهـ .

وبهذا التوجيه الذى وجَّهنا به الضابط المذكور ، يهون اعتراض العلامة النووى في شرحه على الطيِّبة ، إذ يقول مانصه : وقوله : « وصحَّ إسناداً » ظاهره أن القرآن يكتفى في ثبوته مع الشرطين المتقدمين بصحة السند فقط ولا يحتاج إلى تواتر . وهذا قول حادث مخالف لإجماع الفقهاء والمحدثين وغيرهم ، كما استراه إن شاء الله تعالى . ولقد ضلَّ بسبب هذا القول قوم فصاروا يقرءون أحرفاً لا يصح لها سند أصلاً ، ويقولون : التواتر

(١) أى في هذا الضابط الذى لوحظ فيه وجود الركنين الآخرين مع هذا الركن . وإنما فسرنا كلامه بذلك لأن التواتر مجرد شرط أو شرط في القرآن كما هو التحقيق . ولأن موضوع حديثه هنا إنما هو اشتراط التواتر في هذا الركن الذى هو جزء من الضابط ، كما صرح به أولاً ، كما يرشد إليه كلامه آخرأ .

ليس بشرط . وإذا طولوا بسند صحيح لا يستطيعون ذلك . ولا بد لهذه المسألة من بعض بسط ، فلذلك نلخصت فيها مذاهب القراء والفقهاء الأربعة المشهورين وما ذكر الأصوليون والمفسرون وغيرهم . رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وذكرت في هذا التعليق المهم من ذلك ، لأنه لا يحتمل التطويل ، فأقول :

« القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة منهم الغزالي وصدر الشريعة وموفق الدين المقدسي وابن مفلح والطوفي ، هو ما نقل بين دفتي المصحف نقلاً متواتراً . وقال غيرهم : هو الكلام المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه . وكل من قال بهذا الحد اشترط التواتر كما قال ابن الحاجب رحمه الله تعالى ، للقطع بأن العادة تقضى بالتواتر في تفاصيل مثله . والقائلون بالأول لم يحتجوا للعادة ، لأن التواتر عندهم جزء من الحد ، فلا تتصور ماهية القرآن إلا به . وحينئذ فلا بد من التواتر عند أئمة المذاهب الأربعة ، ولم يخالف منهم أحد فيما علمت بعد الفحص الزائد . وصرح به جماعات لا يحصون ، كابن عبد البر وابن عطية وابن تيمية والتونسي في تفسيره والنووي والسبكي والإسنوي والأذري والزرکشي والدميري وابن الحاجب والشيخ خليل وابن عرفة وغيرهم ، رحمهم الله تعالى .

وأما القراء فأجمعوا في أول الزمان على ذلك وكذلك في آخره ، لم يخالف من المتأخرين إلا أبو محمد مسكي ، وتبعه بعض المتأخرين . وهذا كلامهم . . الخ « اه . ثم ساق نقولاً كثيرة عزاها إليهم يقصر المقام هنا عن عرضها . وفيما ذكرناه كفاية . وهذا التوجيه الذي وجهناه بالضابط الساف يجعل الخلاف كأنه لفظي ، ويسير بجماعات القراء على جد الطريق في تواتر القرآن « وَمَنْ سَلَكَ الْجِدَدَ أَمِنَ الْعِثَارَ » .

أنواع القراءات من حيث السند :

ينقل السيوطي عن ابن الجزري أن أنواع القراءات ستة :-

(الأول المتواتر) . وهو ما رواه جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم : مثاله ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة . وهذا هو الغالب في القراءات .

(الثاني المشهور) : هو ما صحَّ سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا ، ووافق العربية ، ووافق أحد المصاحف العثمانية ، سواء أكان عن الأئمة السبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة القبولين ، واشتهر عند القراء فلم يعدُّوه من القاطن ولا من الشذوذ ، إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر . مثاله : ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة ، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض . ومن أشهر ما صنّف في هذين النوعين التيسير للداني ، والشاطبية ، وطيبة النشر في القراءات العشر . وهذان النوعان هما اللذان بقرا بهما مع وجوب اعتقادهما ، ولا يجوز إنكار شيء منهما .

(النوع الثالث) ما صحَّ سنده ، وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور . وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده . من ذلك ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجخدرى عن أبي بكر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : « مُتَكَيِّنَ عَلَى رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَّاقِرِيَّ حِسَانَ » . ومنه قراءة « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » بفتح الفاء .

(الرابع الشاذ) وهو ما لم يصحَّ سنده ، كقراءة ابن السَّمِينِغ : « فَالْيَوْمَ نُنَحِّيكَ بِيَدِنِكَ » بالحاء المهملة « لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً » بفتح اللام من كلمة « خَلَقَكَ » .

(الخامس الموضوع) وهو ما نسب إلى قائله من غير أصل . مثال ذلك القراءات التي جمعها محمد بن جعفر الخزازي ، ونسبها إلى أبي حنيفة . وقد سبق الكلام عليها في شرح الضابط الآنف .

( النوع السادس ) ما يشبه المَدْرَج من أنواع الحديث . وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير كقراءة سعد بن أبي وقاص « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمَّ » بزيادة لفظ « من أم » . وقراءة : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ » بزيادة لفظ « في مواسم الحج » وقراءة الزبير : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيَسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » بزيادة لفظ « وَيَسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » .

وإنما كان شبيهاً ولم يكن مُدْرَجاً ، لأنه وقع خلاف فيه . قال عمر رضی الله عنه : « فما أدري أكانت قراءاته ( يعني الزبير ) « أم فسّر » أخرجه سعيد بن منصور ، وأخرجه ابن الأنباري وجزم بأنه تفسير . وكان الحسن يقرأ : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ آوَدُّهُ ، وَالْوَرُودُ : الدُّخُولُ » قال ابن الأنباري : قوله « الْوَرُودُ : الدُّخُولُ » ، تفسير من الحسن لمعنى الورد . وغلط فيه بعض الرواة فأدخله في القرآن .

قال ابن الجزري و آخر كلامه : « وربما كانوا يدخلون التفسير في الكلام بإيضاحاً ، لأنهم متحققون لما تلقوه عن رسول الله ﷺ قرآنًا . فهم آمنون من الالتباس » انتهى بتصرف تبعنا فيه صاحب الكواكب الدرية .

تواتر القرآن :

أكتفى في هذا الموضوع بأن أسوق إليك نقولاً ثلاثة فوق ما نقلته عن النويري من قبل :

أولها : يقول الإمام الغزالي في المستصفى مانصه : حَدُّ الْكِتَابِ مَا نَقَلَ إِلَيْنَا مِنْ دَفْتِي الْمَصْحَفِ عَلَى الْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ الْمَشْهُورَةِ نَقْلًا مَتَوَاتِرًا . ونعني بالكتاب القرآن المنزل . وقيدناه بالمصحف لأن الصحابة بالغوا في الاحتياط في نقله ، حتى كرهوا التعشير والنقط ،

وأمروا بالتجريد؛ كيلا يختلط بالقرآن غيره؛ ونقل إلينا متواتراً، فنعلم أن المكتوب في المصحف المتفق عليه هو القرآن، وأن ما هو خارج عنه فليس منه؛ إذ يستحيل في العرف والعادة مع توافر الدواعي على حفظه أن يهمل بعضه فلا ينقل، أو يختلط به ما ليس منه. ثم قال: فإن قيل: لم شرطتم التواتر؟ قلنا ليحصل العلم به، لأن الحكم بما لا يعلم جهل وكون الشيء كلام الله تعالى أمر حقيقي ليس بوضعي حتى يتعلق بظننا، فيقال: إذا ظنتم كذا فقد حررنا عليكم فعلاً، أو حللناه لكم، فيكون التحريم معلوماً عند ظننا، ويكون ظننا علامة لتعلق التحريم به. إلى أن قال:

ويتشعب عن حد الكلام مسألتان: «(إحداها) مسألة التتابع في صوم كفارة اليمين: فإنه ليس بواجب على قول، وإن قرأ ابن مسعود «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ» لأن هذه الزيادة لم تتواتر، فليست من القرآن، فتحتمل على أنه ذكرها في معرض البيان، لما اعتقده مذهبها، فاعلمه اعتقد التتابع حملاً لهذا المطلق على التقييد بالتتابع في الظهار. وقال أبو حنيفة: يجب التتابع، لأنه وإن لم يثبت كونه قرآناً، فلا أقل من كونه خبراً، والمعمل يجب بخبر الواحد. وهذا ضعيف، لأن خبر الواحد لا دليل على كذبه، وهو<sup>(١)</sup> إن جملة من القرآن فهو خطأ قطعاً، لأنه وجب على رسول الله ﷺ أن يبلغه طائفة من الأمة تقوم الحججة بقولهم، وكان لا يجوز له مناجاة الواحد به. وإن لم يجعله من القرآن، احتمل أن يكون ذلك مذهباً له للدليل قد دل عليه، واحتمل أن يكون خبراً. وما تردد بين

(١) كذا بالأصل الذي نقلت عنه. ولعل الواو في لفظ «وهو» زادتها المطبعة خطأ.

وجملة «لا دليل على كذبه» حالية من لفظ «الواحد»، والمعنى هكذا: لأن خبر الواحد هنا حال كونه لا دليل على كذبه، ولفظ هو ضمير فصل أو عائد على خبر الواحد، إن جملة (أى أبو حنيفة) من القرآن الخ. ويمكن أن تكون كلمة «وهو» كلها مدرجة في الطبع أو النسخ فتدبر.



أن يكون خيراً أو لا يكون ، فلا يجوز العمل به ، وإنما يجوز العمل بما يصرح الراوى بسماعه من رسول الله ﷺ .

( أما المسألة الثانية ) فهى أن البسملة آية من القرآن لكن هل هى آية من أول كل سورة ؟ فيه خلاف . وميل الشافعى - رحمه الله - إلى أنها آية من سورة الحمد وسائر السور ، لكنها فى أول كل سورة آية برأسها ، أو هى مع أول آية من سائر السور آية هذا مما نقل عن الشافعى فيه تردد . وهذا أصح من قول من حمل تردد قول الشافعى على أنها هل هى من القرآن فى أول كل سورة ؟ بل الذى يصرح أنها حيث كتبت مع القرآن بخط القرآن ، فهى من القرآن « ١٥١ ما أردنا نقله بتصريف طفيف .

ثانيها : يقول صاحب مسلم الثبوت وشارحه ما نصه : « ما نقل آحاداً فليس بقرآن قطعاً ؛ ولم يعرف فيه خلاف لواحد من أهل المذاهب ، واستدل بأن القرآن مما تتوافر الدواعى على نقله ، لتضمنه التجدى ، ولأنه أصل الأحكام ، باعتبار المعنى والنظم جميعاً ، حتى تعلق بنظمه أحكامه كثيرة ، ولأنه يتبرك به فى كل عصر بالقراءة ، ولذا علم جهد الصحابة فى حفظه بالتواتر القاطع . وكل ما تتوافر دواعى نقله ، ينقل متواتراً عادة . فوجوده ملزوم التواتر عند الكل عادة ، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر ، انتفى الملزوم قطعاً . وللمنقول آحاداً ؛ ليس متواتراً فليس قرآناً » ١٥١ .

ثالثها : يقول الحافظ جلال الدين فى الإتيان ما نصه : لا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواتراً فى أصله وأجزائه . وأما فى محله ووضعه وترتيبه ، فكذلك عند محقق أهل السنة ، للقطع بأن العادة تقضى بالتواتر فى تفاصيل مثله ، لأن هذا المعجز العظيم ، الذى هو أصل الدين القويم ، والصرط المستقيم ؛ مما تتوافر الدواعى على نقل جملة وتفصيله ، فما نقل آحاداً ولم يتواتر يقطع بأنه ليس من القرآن .

« وذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط في ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله . وليس بشرط في محله ووضعه وترتيبه . بل يكثر فيها نقل الآحاد . قيل وهو الذي يقتضيه صنع الشافعي في إثبات البسمة من كل سورة . ورد هذا المذهب بأن الدليل السابق يقتضى التواتر في الجميع، ولأنه لو لم يشترط لجاز سقوط كثير من القرآن المكرر، وثبوت كثير مما ليس بقرآن منه . أما الأول فلا نألو لم نشترط التواتر في المحل ، جاز ألا يتواتر كثير من المكررات الواقعة في القرآن . مثل « فبأى آلاء ربكما تكذبان » . وأما الثانى فلا نأله إذا لم يتواتر بعض القرآن بحسب المحل ، جاز إثبات ذلك البعض في الموضع بنقل الآحاد . وقال القاضى أبو بكر فى الانتصار : « ذهب قوم من الفقهاء والمتكلمين إلى إثبات قرآن حكماً لا علماً بنجر الواحد دون الاستفاضة . وكره ذلك أهل الحق وامتنعوا منه وقال قوم من المتكلمين : إنه يسوغ إعمال الرأى والاجتهاد فى إثبات قراءة وأوجه وأحرف، إذا كانت تلك الأوجه صواباً فى العربية ، وإن لم يثبت أن النبى ﷺ قرأ بها . وأبى ذلك أهل الحق وأنكروه وخطأوا من قال به » . اهـ

وقد بنى المالكية وغيرهم ممن قال بإنكار البسمة قولهم على هذا الأصل ، وقرروا أنها لم تتواتر فى أوائل السور ، ومالم يتواتر فليس بقرآن . وأجيب من قبلنا بمنع كونها لم تتواتر ؛ فرب متواتر عند قوم دون آخرين ، وفى وقت دون آخر . ويكفى فى تواترها إثباتها فى مصاحف الصحابة فمن بعدهم بخط المصحف مع منعهم أن يكتب فى المصحف ما ليس منه ، كأسماء السور وآمين والأعشار . فلو لم تكن قرآناً لما استجازوا إثباتها بخطه من غير تمييز، لأن ذلك يحمل على اعتقاد كونها قرآناً . فيكونون مفررين بالمسلمين حاملين لهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآناً ، وهذا مما لا يجوز اعتقاده فى الصحابة . فإن قيل : لعلها أثبتت للفصل بين السور . أجيب : بأن هذا فيه تغيير ،

ولا يجوز ارتكابه لمجرد الفصل ، ولو كانت له لكتبت بين براءة والأنفال . ١٠٠  
كلام السيوطي .

وهذه النقول الثلاثة كافية في الموضوع كما ترى لأن عبارتي المستصفي ومسلم الثبوت  
يقينان الدليل واضحاً على تواتر القرآن وإن اختلف طريقتهما في الاستدلال . وعبرة  
السيوطي تذكر الخلاف في عموم هذا التواتر لما كان أصلاً وغير أصل ، وتؤيد هذا العموم  
وترد على من قصر التواتر على أصل القرآن دون محله ووضعه وترتيبه .

### الآراء في القراءات السبع :

هنا يجد الباحث نفسه في معترك مليء بكثرة الخلافات واضطراب النقول واتساع  
المسافة بين المختلفين إلى حد بعيد .

وإليك صورة مصغرة تشهد فيها حرب الآراء والأفكار مشوبةً بين السكاتبين  
في هذا الموضوع :

( ١ ) يببالغ بعضهم في الإشادة بالقراءات السبع ويقول : من زعم أن القراءات السبع  
لا يلزم فيها التواتر فقولته كفر لأنه يؤدي إلى عدم تواتر القرآن جملة . ويعزى هذا  
الرأى إلى مفتي البلاد الأندلسية الأستاذ أبي سعيد فرج بن لب ، وقد تمسس لرأيه كثيراً  
وألف رسالة كبيرة في تأييد مذهبه والرد على من رد عليه .

ولكن دليله الذي استند إليه لا يسلم له ، فإن القول بعدم تواتر القراءات السبع  
لا يستلزم القول بعدم تواتر القرآن . كيف؟ وهناك فرق بين القرآن والقراءات السبع بحيث  
يصح أن يكون القرآن متواتراً في غير القراءات السبع ، أو في القدر الذي اتفق عليه  
القراء جميعاً ، أو في القدر الذي اتفق عدد يؤمن تواترهم على الكذب قرأه كانوا

أو غير قراء ، بينما تكون القراءات السبع غير متواترة ، وذلك في القدر الذي اختلف فيه القراء ولم يجتمع على روايته عدد يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة ، وإن كان احتمالاً ينفيه الواقع كما هو التحقيق الآتي .

(٢) يبالغ بعضهم في توهين القراءات السبع والفض من شأنها ، فيزعم أنه لافرق بينها وبين سائر القراءات ، ويحكم بأن الجميع روايات آحاد . ويستدل على ذلك بأن القول بتواترها منكر يؤدي إلى تكفير من طعن في شيء منها ، مع أن الطعن وقع فعلاً من بعض العلماء والأعلام .

ونناقش هذا الدليل بأننا لانسلم أن إنكار شيء من القراءات يقتضى التكفير على القول بتواترها . وإنما يحكم بالتكفير على من علم تواترها ثم أنكره . والشئ قد يكون متواتراً عند قوم غير متواتر عند آخرين ، وقد يكون متواتراً في وقت دون آخر فطعن من طعن منهم يحمل على مالم يعلموا تواترها منها ، وهذا لا ينفي التواتر عند من علم به ، « وفوق كل ذي علم عليم » .

ويمكن مناقشة هذا الدليل أيضاً بأن طعن الطاعنين إنما هو فيما اختلف فيه وكان من قبيل الأداء . أما ما اتفق عليه فليس بموضع طعن . ونحن لا نقول إلا بتواتر ما اتفق عليه دون ما اختلف فيه .

(٣) يقول ابن السبكي في جمع الجوامع وشارحه ومحشيه : « القراءات السبع متواترة تواتراً تاماً أي نقلها عن النبي ﷺ جمع يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب مثلهم ، وهلم جرا . ولا يضر كون أسانيد القراء آحاداً ، إذ تخصيصها بمجموعة لا يمنع مجيء القراءات عن غيرهم ، بل هو الواقع ، فقد تلقاها عن أهل كل بلد بقراءة إمامهم الجُم الغفير عن مثلهم ؛ وهلم جرا . وإنما أسندت إلى الأئمة المذكورين ورواتهم المذكورين في أسانيدهم ، لتصديهم

لضبط حروفها وحفظ شيوخهم الكل فيها « ٥١ .  
وقد يناقش هذا بأنها لو تواترت جميعاً ، ما اختلف القراء في شيء منها لكنهم اختلفوا  
في أشياء منها ، فإذا لا يسلم أن تكون كلها متواترة .  
ويجاب عن هذا بأن الخلاف لا ينفي التواتر بل الكل متواتر وهم فيه مختلفون ،  
فإن كل حرف من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن بلغه الرسول ﷺ إلى جماعة يؤمن  
تواطؤهم على الكذب حفظاً لهذا الكتاب ، وهم بلغوه إلى أمثالهم وهكذا . ولا شك أن  
الحروف يخالف بعضها بعضاً ، فلا جرم تواتر كل حرف عند من أخذ به وإن كان الآخر  
لم يعرفه ولم يأخذ به . وهنا يجتمع التخالف والتواتر . وهنا يستقيم القول بتواتر القراءات  
السبع بل القراءات العشر كما يأتي .

(٤) ويذهب ابن الحاجب إلى تواتر القراءات السبع ، غير أنه يستثني منها ما كان  
من قبيل الأداء كالمدة والإمالة وتخفيف الهمزة . قال البناني على جمع الجوامع : « وكان وجه  
ذلك أن ما كان من قبيل الأداء بأن كان هيئة للفظ يتحقق اللفظ بدونها ، كزيادة المد على أصله  
وما بعده من الأمثلة ، وما كان من هذا القبيل لا يضبطه السماع عادة لأنه يقبل الزيادة والنقصان ؛  
بل هو أمر اجتهادي . وقد شرطوا في التواتر ألا يكون في الأصل عن اجتهاد . فإن قيل  
قد يتصور الضبط في الطبقة الأولى للعلم بضبطها ما سمعته منه ﷺ على الوجه الذي صدر  
منه من غير تفاوت بسبب تكرار عرضها ما سمعته منه ﷺ . قلنا إن سلم وقوع ذلك  
لم يفد ، إذ لا يأتي نظيره في بقية الطبقات ، فإن الطبقة الأولى لا تقدر عادة على القطع بأن  
ما تلقته الثانية جارٍ على الوجه الذي نطق به النبي ﷺ . وبما تقرر علم أن الكلام فيما زاد  
على أصل المد وما بعده لا في الأصل فإنه متواتر .

الحاصل أنه إن أريد بتواتر ما كان من قبيل الأداء تواتره باعتبار أصله ، كأن  
يراد تواتر المد من غير نظر لمقداره ، وتواتر الإمالة كذلك ، فالوجه خلاف ما قال

ابن الحاجب ، للعلم بتواتر ذلك . وإن أريد تواتر الخصوصيات الزائدة على الأصل ، فالوجه ما قاله ابن الحاجب . قاله ابن قاسم « ا هـ بقليل من التصرف .

لكننا إذا رجعنا لعبارة ابن الحاجب نجدها كما يقول في مختصر الأصول له :  
« القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء ، كالمدة والإمالة وتخفيف الهززة ونحوه » ا هـ وهذا زعمٌ صريحٌ منه بأن المدَّ والإمالة وتخفيف الهززة ونحوها من قبيل الأداء وأنها غير متواترة . وهذا غير صحيح ، كما يأتيك نبؤُهُ في مناقشة ابن الجزرى له طويلاً .

(٥) يذهب أبو شامة إلى أن القراءات السبع متواترة فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء ، أما ما اختلفت الطرق في نقله عنهم فليس بمتواتر ، سواء كان الاختلاف في أداء الكلمة كما ذهب ابن الحاجب أم في لفظها . فالاستثناء هنا أهم مما استثناء ابن الحاجب . وعبارة أبي شامة في كتابه المرشد الوجيز نصها ما يأتي : « ما شاع على السنة جماعة من متأخرى المقرئين وغيرهم من أن القراءات السبع متواترة ، ونقول به فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء السبعة ، دون ما اختلفت فيه ، بمعنى أنه نفيت نسبتها إليهم في بعض الطرق . وذلك موجود في كتب القراءات ، لاسيما كتب المغاربة والمشاركة ، فبينهما تباين في مواضع كثيرة . والحاصل أنا لا نلتزم التواتر في جميع الألفاظ المختلف فيها بين القراء . أى بل منها المتواتر وهو ما اتفقت الطرق على نقله عنهم ، وغير المتواتر وهو ما اختلفت فيه بالمعنى السابق . وهذا بظاهره يتناول ما ليس من قبيل الأداء وما هو من قبيله » ا هـ . نقلًا عن الجلال المحلى في شرح جمع الجوامع بتذييل منه .

ورأى أبو شامة هذا كنت أقول في الطبعة الأولى إنه أمثل الآراء فيما أرى ، وذلك لأمر أربعة :

أولها : أنه رأى سليم من التوهينات التي نوقشت بها الآراء السابقة .

ثانيها : أن يستند إلى الواقع في دعواه وفي دليله . ذلك أن القراءات السبع وقع اختلاف بعضها حقيقة في النطق بألفاظ الكلمات تارة ، وبأداء تلك الألفاظ تارة أخرى . ومن هنا كانت الدعوى مطابقة للواقع . ثم إن دليله يقوم على الواقع أيضاً في أن بعض الروايات مضطربة في نسبتها إلى الأئمة القراء ، فبعضهم نفاها وبعضهم أثبتها . وذلك أمانة انتفاء التواتر ، لأن الاتفاق في كل طبقة من الجماعة الذين يؤمن توأطؤهم على الكذب لازم من لوازم التواتر . وقد انتفى هذا الاتفاق هنا فينتفى التواتر ، لما هو معلوم من أنه كلما انتفى اللازم انتفى الملزوم .

ثالثها : أن هذا الرأي صادر عن إخصائي متمهر في القراءات وعلوم القرآن وهو أبو شامة « وصاحب الدار أدرى بما فيها » .

رابعها : أن هذا الرأي يتفق وما هو مقرر لدى المحققين من أن القراءات قد تتوافر فيها الأركان الثلاثة المذكورة في ذلك الضابط المشهور ، وقد تنتفى هذه الأركان الثلاثة كلاً أو بعضاً ، لا فرق في هذا بين القراءات للسبع وغير السبع على نحو ما تقدم . ويتفق هـذا الرأي أيضاً وما صرحوا به من تقسيم القراءات باعتبار السند إلى ستة أقسام كما سبق .

استدراك :

لكني بعد معاودة البحث والنظر ، واتساع أفق اطلاعي فيما كتب أهل التحقيق في هذا الشأن ، تبين لي أن أبا شامة أخطأه الصواب أيضاً فيمن أخطأ ، وأنتى أخطأت في مشايخته وتأييده .

ويضطرني إنصاف الحق أن أسكر على الوجوه التي أبدته بها بين يديك ، فأقتضها وجهاً ووجهاً . « والرجوع إلى الحق فضيلة » .

١ - فرأى أبي شامة المسطور لم يسلم من مثل تلك التوهينات التي نوقشت بها الآراء السابقة ، وسترى قريباً شدة مناقشته الحساب في كلام ابن الجزرى .

٢ - ثم إن الفطاء قد انكشف عن أن القراءات السبع بل القراءات العشر كلها متواترة في الواقع ، وأن الخلاف بينها لا ينفي عنها التواتر ، فقد يجتمع التواتر والتخالف ، كما بينا عند عرض رأى ابن السبكي ، وكما يستبين لك الأمر فيما يأتي من تحقيق ابن الجزرى .

٣ - أما أن أبا شامة إخصائى متمهرٌ ، فسبحان من له العصمة ، والكمال لله تعالى وحده . على أن الذى رد عليه واخترنا رأيه - وهو ابن الجزرى - إخصائى متمهر أيضاً ، وإليه انتهت الزعامة في هذا الفن ، حتى إذا أطلق لقب المحقق لم ينصرف إلا إليه « وكم ترك الأول للآخر » .

٤ - وأما ما قرره المحققون من تقسيم القراءات إلى متواتر وغير متواتر ، فهو تقسيم لا يعنى عن أبي شامة شيئاً في رأيه هذا ، لأن كلامهم هناك كان في مطلق القراءات ، أما كلامنا وكلام أبي شامة هنا فهو في خصوص القراءات السبع . وبينهما برزخ لا يبغيان .

### الآراء في القراءات الثلاث المتممة للعشر :

لقد علمت فيما سبق ما قيل في القراءات السبع من أنها متواترة أو غير متواترة . أما القراءات الثلاث المكملّة للعشر ، فقيل فيها بالتواتر ، ويعزى ذلك إلى ابن السبكي . وقيل فيها بالصحة فقط ، ويعزى ذلك إلى الجلال المحلى . وقيل فيها بالشذوذ ، ويعزى ذلك إلى الفقهاء الذين يعتبرون كل ما وراء القراءات السبع شاذاً .



التحقيق تواتر القراءات العشر كلها :

والتحقيق الذى يؤيده الدليل ، هو أن القراءات العشر كلها متواترة ، وهو رأى المحققين من الأصوليين والقراء كابن السبكي وابن الجزرى والنويرى ، بل هو رأى أبى شامة فى نقل آخر صححه الناقلون عنه ، وجوزوا أن يكون رأى الآنف مدسوساً عليه ، أو قاله أول أمره ثم رجع عنه بعد . ولعل من الصواب والحكمة أن أترك الكلام هنا للمحقق ابن الجزرى ، يصول فيه ويجول ، ويسهب ويطرب ، واضعاً للحق فى نصابه ، دافعاً للخطأ وشبهاته . فاقراءه واصبر على الإكثار والتطويل ، فإن المقام دقيق وجليل ، « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

قال - رحمه الله - فى كتابه منجد المقرئين ، ابتداء من الصفحة السابعة والخمسين

ما نصه :

(الفصل الثانى فى أن القراءات العشر متواترة فرشاً وأصولاً ، حال اجتماعهم وافتراقهم ، وحلّ مشكل ذلك) اعلم أن العلماء بالفنوا فى ذلك نفيّاً وإثباتاً ، وأنا أذكر أقوال كلّ ثم أبين الحق من ذلك . أما من قال بتواتر الفرش<sup>(١)</sup> دون الأصول فابن الحاجب . قال فى مختصر الأصول له : « القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء ، كالمذ والإمالة وتخفيف الهزمة ونحوه » اهـ . فزعم أن المد والإمالة وما أشبه ذلك من الأصول كالإدغام وترقيق الراءات وتفخيم اللامات ونقل الحركة وتسهيل الهزمة ، من قبيل الأداء وأنه غير متواتر . وهذا قول غير صحيح كما سنبينه .

(١) يراد بالفرش الجزئيات التى يقع الخلاف فى قراءتها ولا يقاس عليها . كقراءة « يَحْدُوعُونَ » فى سورة البقرة لا يقاس عليها ما جاء فى سورة النساء من كلمة « يَحْدُوعُونَ » مع أن الخلاف وقع فى قراءة الأولى . ويراد بالأصول الكليات التى تندرج تحتها جميع الجزئيات المتماثلة ، كقواعد المد والهمز والإمالة .

أما المدُّ فأطلقه وتحتته ما يسكب المعبرات ، فإنه إما أن يكون طبيعياً أو عرضياً .  
والطبيعي هو الذي لا تقوم ذات حروف المد بدونه ، كالألف من قال ، والواو من يقول ،  
والياء من قيل . وهذا لا يقول مسلم بعدم تواتره ، إذ لا تمكن القراءة بدونه . والمدُّ  
العرضيُّ هو الذي يعرض زيادة على الطبيعي لموجب إما سكون أو همز . فأما السكون فقد  
يكون لازماً كما في فوائح السور ، وقد يكون مشدداً نحو « آلم ، ق ، ن ، ولا الضالين »  
ونحوه ، فهذا يلحق بالطبيعي لا يجوز فيه القصر ؛ لأن المدَّ قام مقام حرف توصلًا للنطق  
بالساكن . وقد أجمع المحققون من الناس على مدّه قدرأ سواء . وأما الهمز فعلى قسمين :  
( الأول ) إما أن يكون حرف المد في كلمة والهمز في أخرى وهذا تسميه القراء منفصلاً ،  
واختلفوا في مدّه وقصره ، وأكثرهم على المد . فادعاه عدم تواتر المد فيه ترجيح بلا مرجح ،  
ولو قال العكس لكان أظهر لشبهته ، لأن أكثر القراء على اللمد . ( الثاني )  
أن يكون حرف المد والهمز في كلمة واحدة ، وهو الذي يسمى متصلاً . وقد أجمع القراء  
سلفاً وخلفاً من كبير وصغير وشريف وحقير ، على مدّه ، لا خلاف بينهم في ذلك  
إلا ما روى عن بعض من لا يعمل عليه بطريق شاذة فلا تجوز القراءة به . حتى إن إمام  
الرواية أبا القاسم الهذلي - الذي دخل المشرق والمغرب وأخذ القراءة عن ثلاثمائة وخمسة  
وستين شيخاً ، وقال : رحلت من آخر المغرب إلى فرغانة يميناً وشمالاً ، وجبلًا وبحراً ،  
وألف كتابه الكامل الذي جمع فيه بين الذرّة وأذن الجرّة ، من صحيح وشاذ ومشهور  
ومنكر - قال في باب المدِّ في فصل المتصل : « لم يختلف في هذا الفصل أنه ممدود على  
وتيرة واحدة ، فالقراء فيه على نمط واحد ، وقدروه بثلاث ألفات - إلى أن قال - وذكر  
العراقي أن الاختلاف في مد كلمة واحدة كالاختلاف في مد كلمتين ، ولم أسمع هذا الغيرة .  
وطالما مارست الكتب والعلماء فلم أجد من يجعل مدّ الكلمة الواحدة كمدّ الكلمتين  
إلا العراقي » . قلت : والعراقي هو منصور بن أحمد المقرئ كان بخراسان . ولقد أخطأ

في ذلك ، وشيوخه الذين قرأ عليهم نعرفهم : الإمام أبو بكر بن مهران ، وأبو الفرج  
الشنبوزي ، وإبراهيم بن أحمد المروزي ، ولم يرو عنهم شيء من ذلك في طريق من الطرق .  
فإذا كان ذلك يحسر ابن الحاجب أو من هو أكبر منه على أن يقدم على ما أجمع  
عليه فيقول : هو غير متواتر ، فهذه أقسام المد العرضي أيضاً متواترة : لا يشك في ذلك  
إلا جاهل . وكيف يكون المد غير متواتر وقد أجمع عليه الناس خلفاً عن سلف ؟

فإن قيل : قد وجدنا القراء في بعض الكتب كالتيسير للعافظ الداني وغيره ، جعل  
لهم فيما مَدَّ للهمز مراتب في المد إشباعاً وتوسطاً وفوقه ودونه ، وهذا لا ينضب ؛ إذ للمد  
لا حد له . وما لا ينضب كيف يكون متواتراً ؟ قلت : نحن لا ندعي أن مراتبه متواترة ،  
وإن كان قد ادَّعاه طائفة من القراء والأصوليين . بل نقول : إن المد العرضي من حيث  
هو متواتر مقطوع به قرأه النبي ﷺ ، وأنزل الله تعالى عليه ، وأنه ليس من قبيل الأداء ،  
فلا أقل من أن نقول : القدر المشترك متواتر . وأما ما زاد على القدر المشترك كما صم وحمة  
وورش ، فهو إن لم يكن متواتراً فصحيح مستفاض<sup>(١)</sup> متلقى بالقبول . ومن ادعى تواتر  
الزائد على القدر المشترك فليبين .

وأما الإمالة على نوعها ، فهي وضدها لغتان فاشيتان من الأحرف السبعة التي نزل بها  
القرآن ، مكتوبتان في المصاحف ، متواترتان ، وهل يقول أحد في لغة أجمع الصحابة  
والمسلمون على كتابتها في المصاحف إنها من قبيل الأداء ؟ وقد نقل الحافظ الحجة أبو عمرو  
الداني في كتابه إيجاز البيان الإجماع على أن الإمالة لغة لقبائل العرب ، دعاهم إلى الذهاب  
إليها التماس الخفة . وقال الإمام أبو القاسم الهذلي في كتاب الكامل : إن الإمالة والتفخيم  
لغتان ليست إحداها أقدم من الأخرى : بل نزل القرآن بهما جميعاً . إلى أن قال - والجملة

(١) كذا بالأصل . ولعل صوابه « مستفيض » .

بعد التطويل أن من قال: إن الله تعالى لم ينزل القرآن بالإمالة أخطأ وأعظم الفرية على الله تعالى، وظن بالصحابة خلاف ما هم عليه من الورع والتقى.

قلت: كأنه يشير إلى كونهم كتبوا بالإمالة في المصاحف نحو «يحيى، وموسى، وهدى، ويسعى، والهدى، ويفشها، وجلبها، وآسى، وآتينسكم» وما أشبه ذلك مما كتبوه بالياء على لغة الإمالة، وكتبوا مواضع تشبه هذا بالألف على لغة الفتح، منها قوله عز وجل في سورة إبراهيم: «وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» حتى إنهم كتبوا «تَعْرِفُهُمْ بِسَمَائِهِمْ» في البقرة بالياء، وكتبوا «سَمَائِهِمْ فِي وَجُوهِهِمْ» بالألف وأي دليل أعظم من ذلك؟

قال الهذلي: وقد أجمعت الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا على الأخذ والقراءة والإقراء بالإمالة والتفخيم. وذكر أشياء، ثم قال: وما أحد من القراء إلا رويت عنه إمالة قلت أو كثرت - إلى أن قال - وهي (بمعنى الإمالة) لغة هوازن، وبكر بن وائل، وسعد بن بكر.

وأما تخفيف الهمزة ونحوه من النقل والإدغام وترقيق الراءات وتفخيم اللامات فتواتر قطعاً، معلوم أنه منزل من الأحرف السبعة، ومن لغات العرب الذين لا يحسنون غيره، وكيف يكون غير متواتر أو من قبيل الأداء؟ وقد أجمع القراء في مواضع على الإدغام في مثل «مُدِّكِرٍ، أَثْقَلَتْ»<sup>(١)</sup> دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا، مَالِكٌ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ» وكذلك أجمع القراء في مواضع على تخفيف الهمز نحو «الآن، الله، ألدَّ كَرِينِ» في الاستفهام، وفي مواضع على النقل نحو «لِكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي»، و«يرى، ونرى». وعلى ترقيق الراءات في مواضع نحو «فِرْعَوْنَ، وَمِرْيَةَ» وعلى تفخيم اللامات في مواضع نحو اسم الجلالة بعد الضمة والفتحة.

(١) لعله يريد إدغام التاء في الدال.

وأجمع الصحابة - رضوان الله عليهم - على كتابة الهزمة الثانية من قوله تعالى في آل عمران : « أَوْ نَبِّئُكُمْ » بواو . قال أبو عمرو والداني وغيره : إنما كتبوا ذلك على إرادة تسهيل الهزمة بين بين ا هـ . وكيف يكون ما أجمع عليه القراء إنما عن أمم غير متواتر . وإذا كان اللدّ وتخفيف الهمز والإدغام غير متواتر على الإطلاق ، فما الذي يكون متواتراً ؟ أقصر « الم ، ودابة ، وأولئك » الذي لم يقرأ به أحد من الناس ؟ أم تخفيف همزة « الذَّكْرَيْنِ ، اللَّهُ » الذي أجمع الناس على أنه لا يجوز وأنه لحن ؟ أم إظهار « مُدَّكِرِ » الذي أجمع الصحابة والمسلمون على كتابته وتلاوته بالإدغام ؟ فليت شعري من الذي تقدمه قبل بهذا القول ، فقفي أثره ، والظاهر أنه لما سمع قول الناس : إن التواتر فيما ليس من قبيل الأداء ، ظن أن اللد والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه من قبيل الأداء ، فقال غير مفكر فيه . وإلا فالشيخ أبو عمرو لو فكر فيه ، لما أقدم عليه ، أو لو وقف على كلام إمام الأصوليين من غير مدافعة القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني في كتاب الانتصار ، حيث قال : « جميع ما قرأ به قراء الأمصار مما اشتهر عنهم استفاض نقله . ولم يدخله في حكم الشذوذ ، بل رآه سائماً جائزاً من همز وإدغام ومدّ وتشديد وحذف وإمالة ، أو ترك ذلك كله أو شيء منه ، أو تقديم أو تأخير ، فإنه كله منزل من عند الله تعالى ، ومما وقف الصحابة على صحته ، وخير بينه وبين غيره ، وصوب للجميع القراءة به قال : ولو سوغنا لبعض القراء إمالة ما لم يُمِلَّهُ الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة أو غير ذلك ، لسوغنا لهم جميع قراءة الرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أطال - رحمه الله - الكلام على تقدير ذلك ، وجوز أن يكون النبي ﷺ أقرأ واحداً بعض القرآن بحرف . وبعضه بحرف آخر ، على ما قد يراه أيسر على القارىء » ا هـ .

قلت : وظهر من هذا أن اختلاف القراء في الشيء الواحد مع اختلاف المواضع قد أخذه الصحابي كذلك من رسول الله ﷺ ، وأقرأه كذلك ، إلى أن اتصل بالقراء . نحو قراءة حفص « تَجْرِيهَا » بالإمالة فقط ، ولم يُمِلْ في القرآن غيره ، وقراءة ابن عامر

« إِبْرَاهِيمَ » في مواضع محصورة ، وقراءة أبي جعفر « يُحْزِنُ » في الأنبياء فقط بضم الياء وكسر الزاي ، وفي باقي القرآن بفتح الياء وضم الزاي ، وقراءة نافع عكسه في جميع القرآن بضم الياء وكسر الزاي إلا في الأنبياء فإنه فتح الياء وضم الزاي ، وشبه ذلك مما يقول القراء عنه : جمع بين اللقتين .

وليت الإمام ابن الحاجب أخلى كتابه من ذكر القراءات وتواترها ، كما أخلى غيره كتبهم منها . وإذ قد ذكرها فليته لم يتعرض إلى ما كان من قبيل الأداء . وإذ قد تعرض فليته سكت عن التمثيل ، فإنه إذا ثبت أن شيئاً من القراءات من قبيل الأداء لم يكن متواتراً عن النبي ﷺ ، كتقسيم وقف حمزة وهشام وأنواع تسهيله ، فإنه وإن تواتر تخفيف الهمز في الوقف عن رسول الله ﷺ فلم يتواتر أنه وقف على موضع خمسين وجهاً ولا بعشرين ولا بنحو ذلك . وإنما إن صحَّ شيء منها فوجهٌ ، والباقي لاشك أنه من قبيل الأداء<sup>(١)</sup> .

ولما قال ابن السبكي في كتابه جمع الجوامع : « والسبع متواترة ، قيل : فيما ليس من قبيل الأداء كالمدة والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه » وسُئِلَ عن زيادته على ابن الحاجب « قيل : المقتضية لاختياره أن ما هو من قبيل الأداء كالمدة والإمالة إلى آخره متواترٌ فأجاب - رحمه الله - في كتابه منع الموانع : اعلم أن السبع متواترة ، والمد متواتر ، والإمالة متواترة ، كل هذا بين لاشك فيه . وقول ابن الحاجب : « فيما ليس من قبيل الأداء » صحيح لو تجرد عن قوله : كالمدة والإمالة . لكن تمثيله بهما أوجب فساداً كما سنوضحه من بعد ، فلذلك قلنا : « قيل » ليتبين أن القول بأن المد والإمالة والتخفيف غير متواترة

(١) لعلك فهمت أن مرادهم بكلمة « من قبيل الأداء » ما يتصل بتقدير الأصول المتواترة . مثلاً المدُّ للهمز أصل جاء متواتراً . أما تقديره بأربع حركات أو ست فليس بمتواتر ، لأنه لا يسهل ضبطه . وقيل فيه بالتواتر أيضاً .

ضعيف عندنا ، بل هي متواترة . ثم أخذ يذكر المد والإمالة والتخفيف - إلى أن قال -  
فإذا عرفت ذلك فكلامنا قاض بتواتر السبع . ومن السبع مطلق المد والإمالة وتخفيف  
الهمز بلا شك .

أما من قال : إن القراءات متواترة حال اجتماع القراء لآجال افتراقهم ، فأبو شامة  
قال في المرشد الوجيز في الباب الخامس منه : « فإن القراءات المنسوبة إلى كل قاري من  
السبعة وغيرهم منقسمة إلى الجمع عليه والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة  
الصحيح في قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما نقل عن غيرهم . فما نسب  
إليهم وفيه إنكار أهل اللغة وغيرهم ، الجمع بين الساكنين في تاءات البزّي ، وإدغام  
أبي عمرو ، وقراءة حمزة « فاستطاعوا » وتسكين من أسكن « بارئكم » ونحوه  
« وسبأ ، ويابني ، ومكر السيء » وإشباع الياء في « يرتقى ، ويتقى ، ويبصر <sup>(١)</sup>  
وأفئدة من الناس » وقراءة « ملائكة » بفتح الهمزة ، وهمز « ساقها <sup>(٢)</sup> » وخفض  
« والأرحام » في أول النساء ، ونصب « كن فيكون » والفصل بين المتضايقين في الأنعام ،  
وغير ذلك ، إلى أن قال : فكل ذلك محمول على قلة ضبط الرواة فيه ، ثم قال :  
وإن صحّ النقل فيه فهو من بقايا الأحرف السبعة التي كانت القراءة للباحة عليه على  
ما هو جائز في العربية ، فصيحاً كان أو دون ذلك . وأما بعد كتابة المصاحف على  
اللفظ المنزل ، فلا ينبغي قراءة ذلك اللفظ إلا على اللغة الفصحى من لغة قریش وما نسبها ،  
حملاً لقراءة النبي صلى الله عليه وسلم والسادة من أصحابه على ما هو اللائق ، فإنهم  
إنما كتبوه على لغة قریش ، فكذا قراءتهم به . قال : وقد شاع على السنة جماعة من  
المقرئين المتأخرين وغيرهم من التقليدين : أن القراءات السبع كلها متواترة ؛ أي في  
(١) كذا بالأصل فتأمله .

(٢) لعل الصواب « سوقيه » من قوله سبحانه : « فاستوى على سوقه » فنقد .

كل فرد فرد ممن روى عن هؤلاء الأئمة السبعة . قالوا : والقطع بأنها منزلة من عند الله تعالى واجب . قال : ونحن بهذا نقول ، لكن فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق ، واتفقت عليه الفرق من غير تكبير له ، مع أنه شاع واشتهر واستفاض ، فلا أقل من اشتراط ذلك إذا لم يتفق التواتر في بعضها .

فانظر يا أخى إلى هذا الكلام الساقط ، الذى خرج من غير تأمل ، المتناقض ، فى غير موضع فى هذه الكلمات اليسيرة ! أو قفت عليه شيخنا الإمام ولى الله تعالى أبامحمد ابن محمد بن محمد الجمالى رضى الله عنه ، فقال : ينبغى أن يُعدم هذا الكتاب من الوجود ولا يظهر البتة ، وإنه طعن فى الدين . قلت : ونحن - يشهد الله - أننا لا نقصد إسقاط الإمام أبى شامة ، إذ الجواد قد يعثر ، ولا يجهل قدره . بل الحقُّ أحقُّ أن يُتبع . ولكن نقصد التنبيه على هذه الزلة المزلّة ، ليحذّر منها من لا معرفة له بأقوال الناس ولا اطلاع له على أحوال الأئمة .

أما قوله : « فما نسب إليهم وفيه إنكار أهل اللغة الخ » فغير لائق بمثله أن يجعل ما ذكره منكراً عند أهل اللغة . وعلماء اللغة والإعراب الذين عليهم الاعتماد سلفاً وخلفاً ، يوجّهونها ويستدلون بها . وأنى يسمهم إنكار قراءة تواترت أو استفاضت عن رسول الله ﷺ إلا نوبس لا اعتبار بهم لا معرفة لهم بالقراءات ولا بالآثار ، جدوا على ما علموا من القياسات ، وظنوا أنهم أحاطوا بجميع لغات العرب أفصحها وفصيحتها ، حتى لو قيل لأحدهم شئ من القرآن على غير النحو الذى أنزل الله يوافق قياساً ظاهراً عنده ولم يقرأ بذلك أحد ، لقطع له بالصحة . كما أنه لو سئل عن قراءة متواترة لا يعرف لها قياساً لأنكرها ولقطع بشذوذها ، حتى إن بعضهم قطع فى قوله عز وجل : « مالك لا تأمنا » بأن الإدغام الذى أجمع عليه الصحابة رضى الله عنهم والمسلمون لحن وأنه لا يجوز عند العرب ، لأن الفعل الذى هو تأمين مرفوع ، فلا وجه لسكونه حتى يدغم فى النون التى تليه !



فانظر يا أخى - إلى قلة حياء هؤلاء من الله تعالى . يجعلون ماعرفوه من القياس أصلاً والقرآن والعظيم فرعاً! حاشا العلماء المتقدي بهم من أئمة اللغة والإعراب من ذلك . بل يميثون إلى كل حرف مما تقدم ونحوه ، يبالغون في توجيهه والإنكار على من أنكره . حتى إن إمام اللغة والنحو أبا عبد الله محمد بن مالك قال في منظومته الكافية الشافية في الفصل بين المتضامين :

« وَعُمْدَتِي قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ فَكَمْ لَهَا مِنْ عَاضِدٍ وَنَاصِرٍ »

ولو لا خوف الطول وخروج الكتاب عن مقصوده ، لأوردت مازعم أن أهل اللغة أنكروه ، وذكرت أقوالهم فيها ، ولكن إن مد الله في الأجل ، لأضعن كتاباً مستقلاً في ذلك ، يشفى القلب وبشرح الصدر ، أذكر فيه جميع ما أنكره من لا معرفة له بقراءة السبعة والعشرة .

وقد در الإمام أبي نصر الشيرازى حيث حكى في تفسيره عند قوله تعالى « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » كلام الزجاجى في تضعيف قراءة الخفض . ثم قال : ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين ، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن رد ذلك فقد رد على النبي ﷺ واستقبح ما قرأ به . وهذا مقام محذور لا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو . ولعلمهم أرادوا أنه صحيح فصيح وإن كان غيره أفصح منه ، فإننا لاندعى أن كل ما في القراءات على أرفع الدرجات من الفصاحة .

وقال الإمام الحافظ أبو عمرو الداني في كتابه جامع البيان ، عند ذكر إسكان « بَارِئِكُمْ وَيَأْمُرُكُمْ » لأبي عمرو بن العلاء : « وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الألفسى في اللغة والأفيس في العربية . بل على الأثبت في الأثر والأصح في

النقل . والرواية إذا ثبتت عندهم لم يردّها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنّة متّبعة ، فلزم قبولها والمصير إليها .

قلت : ثم لم يكف الإمام أبا شامة حتى قال : « فكل ذلك ( يعني ما تقدم ) محمول على قلة ضبط الرواة » لا والله . بل كلّه محمول على كثرة الجهل ممن لا يعرف لها أوجها وشواهد صحيحة تخرّج عليها ، كما سنينّه إن شاء الله تعالى في الكتاب الذي وعدنا به آنفاً ، إذ هي ثابتة مستفاضة ؛ ورواها أئمة ثقات . وإن كان ذلك محمولاً على قلة ضبطهم ، فليت شمري أكان الدين قد هان على أهله ؟ حتى يجيء شخص في ذلك الصدر يدخل في القراءة بقلة ضبطه ما ليس منها ، فيسمع منه ويؤخذ عنه ، ويقرأ به في الصلاة وغيرها ، ويذكره الأئمة في كتبهم ، ويقرءون به ويستفاض ، ولم يزل كذلك إلى زماننا هذا لا يمنع أحد من أئمة الدين القراءة به ، مع أن الإجماع منمقد على أن من زاد حركة أو حرفاً في القرآن أو نقص من تلقاء نفسه مُصرّاً على ذلك بكفر ؛ والله جلّ وعلا تولّى حفظه : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » .

وأعظم من ذلك تنزله ؛ إذ قال : « وعلى تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة ، لا ينبغي قراءتها ، ، حملاً لقراء النبي ﷺ وأصحابه على ما هو السائق بهم . فإذا كان النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لم يقرءوا بها مع تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة ، فمن أوصلها إلى هؤلاء الذين قرءوا بها .

ثم يقول : « فلا أقل من اشتراط ذلك » يعني اشتراط الشهرة والاستفاضة . قلت : ألا تنظرون إلى هذا القول ؟ ثم أحد في الدنيا يقول : إن قراءة ابن عامر وحزمة وأبي عمرو ومن اجتمع عليه أهل الحرمين والشام أبي جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر ، وقراءة

البرزى وقنبل وهشام ، إن تلك غير مشهورة ولا مستفاضة وإن لم تكن متواترة ١٩ هذا كلام مَنْ لم يدر ما يقول ، حاشا الإمام أبا شامة منه . وأنا من فرط اعتقادي فيه أكاد أجزم بأنه ليس من كلامه في شيء . ربما يكون بعض الجملة المتعصبين الحقه بكتابه ، أو أنه ألف هذا الكتاب أول أمره ، كما يقع لكثير من المصنفين . وإلا فهو في غيره من مصنفاته كشرحه على الشاطبية ، بالغ في الانتصار والتوجيه لقراءة حمزة « والأرحام » بالخفض ، والفصل بين المتضايقين . ثم قال في الفصل : ولا التفات إلى قول من زعم أنه لم يأت في الكلام مثله ، لأنه ناف ، ومن أسند هذه القراءة مثبت والإثبات مرجح على النفي بالإجماع . قال : ولو نقل إلى هذا الزاعم عن العرب أنه استعمله في النثر لرجع عن قوله . فما باله ما يكتفى بناقلي القراءة من التابعين عن الصحابة رضی الله عنهم ثم أخذ في تقرير ذلك . قلت : هذا الكلام مبين لما تقدم ، وليس منه في شيء . وهو الأليق بمنه ، رحمه الله .

ثم قال أبو شامة في المرشد بعد ذلك القول : « فالحاصل أنا لسنا ممن يلتزم التواتر في جميع الألفاظ المختلف فيها » . قلت : ونحن كذلك ؛ لكن في القليل منها ، كما تقدم في الباب الثاني (١) .

قال : « وغاية ما يبيده مدعى تواتر المشهور منها ، كما دغام أبي عمرو ، ونقل الحركة لورش ، وصلة ميم الجمع وها الكناية لابن كثير ، أنه متواتر عن ذلك الإمام الذي نُسبت تلك القراءة إليه بعد أن يجهد نفسه في استواء الطرفين والواسطة ، إلا أنه بقي عليه التواتر

---

(١) يشير بذلك إلى مثل قراءة هشام « أفئدة » بياء بعد الهمز . فإنه اعتبره صحيحاً مقطوعاً به وإن لم يتواتر ، لأن استفاضته وموافقته الرسم والعربية قرأتين مثلها يفيد العلم في غير المتواتر . انظر المنجد ص ١٩ .

من ذلك الإمام إلى النبي ﷺ في كل فرد فرد من ذلك . ومن ثمّ تسكب العبرات ، فإنها من ثمّ لم ينقلها إلا آحاداً إلا اليسير منها .

قلت : هذا من جنس ذلك الكلام المتقدم . أوقفت عليه شيخنا الإمام واحد زمانه شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب ببيروت الشافعي ، فقال لي : معذور أبو شامة ، حيث إن القراءات كالحديث ، مخرجها كمنخرجه ، إذا كان مدارها على واحد كانت آحادية ؛ وخفي عليه أنها نسبت إلى ذلك الإمام اصطلاحاً ؛ وإلا فكل أهل بلدة كانوا يقرءونها وأخذوها أمّا عن أم . ولو انفرد واحد بقراءة دون أهل بلده لم يوافق على ذلك أحد ، بل كانوا يحتنبونها ويأمرون باجتنابها .

قلت : صدق . وما يدل على هذا ما قال ابن مجاهد : قال لي قنبل : قال القواس في سنة سبع وثلاثين ومائتين : اتى هذا الرجل ( يعني البزى ) فقل له : هذا الحرف ليس من قراءتنا . يعني « وما هو بميت » مخففاً . وإنما يخفف من الميت من قد مات ، ومن لم يميت فهو مشدد . فلقيت البزى فأخبرته ، فقال له : قد رجعت عنه . . . وقال محمد بن صالح : سمعت رجلاً يقول لأبي عمرو : كيف تقرأ « لا يعذب عذابه أحدٌ . ولا يوثق وثاقه أحدٌ » ؟ فقال : « لا يعذب » بالكسر . فقال له الرجل : كيف ؟ وقد جاء عن النبي ﷺ « لا يعذب » بالفتح . فقال له أبو عمرو : لو سميت الرجل الذي قال : سميت النبي ﷺ ما أخذته عنه . أو تدري ماذا ؟ لأنني أتهم الواحد الشاذ إذا كان على خلاف ما جاءت به العامة . قال الشيخ أبو الحسن السخاوي : وقراءة الفتح أيضاً ثابتة بالتواتر . قلت : صدق ؛ لأنها قراءة الكسائي . قال السخاوي : وقد تواتر الخبر عند قوم دون قوم . وإنما أنكرها أبو عمرو ؛ لأنها لم تبلغه على وجه التواتر .

قلت : وهذا كان من شأنهم على أن تعين هؤلاء القراء ليس بلازم ، ولو عين غير

هؤلاء لجاز . وتعيينهم إما لكونهم تصدوا للإقراء أكثر من غيرهم ، أو لأنهم شيوخ  
المعين كما تقدم . ومن ثم كره من كره من السلف أن تنسب القراءة إلى أحد . روى  
ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي قال : كانوا يكوهون سند فلان وقراءة فلان . قلت :  
وذلك خوفاً مما توهمه أبو شامة من القراءة إذا نسبت إلى شخص تكون آحادية . ولم يدر  
أن كل قراءة نسبت إلى قارى من هؤلاء كان قراؤها زمن قارئها وقبله أكثر من قرائها  
في هذا الزمن وأضعافهم . ولو لم يكن انفراد القراء متواتر الكان بعض القرآن غير متواتر  
لأنا نجد في القرآن أحرفاً تختلف القراء فيها ، وكل منهم على قراءة لا توافق الآخر ،  
كأوجه وغيرها ، فلا يكون شيء منها متواتراً . وأيضاً قراءة من قرأ « مالك ويخادعون »  
فكثير من القرآن غير متواتر ، لأن التواتر لا يثبت باثنين ولا بثلاثة .

قال الإمام الجعفرى فى رسالته : وكل وجه من وجوه قراءته كذلك (يعنى متواتراً)  
لأنها أبماضه . ثم قال : فظهر من هذا فساد قول من قال : هو متواتر دونها ، إذ هو عبارة  
عن مجموعها .

ثم قال ابن الجزرى : وما يحقق لك أن قراءة أهل كل بلد متواترة بالنسبة إليهم  
أن الإمام الشافعى رضى الله عنه جعل البسمة من القرآن مع أن روايته عن شيخه مالك  
تقتضى عدم كونها من القرآن ، لأنه من أهل مكة وهم يشبتون البسمة بين السورتين  
ويعدونها من أول الفاتحة آية ، وهو قرأ قراءة ابن كثير على إسماعيل القسطنطينى عن  
ابن كثير ، فلم يعتمد فى روايته عن مالك فى عدم البسمة ، لأنها آحاد ، واعتمد على  
قراءة ابن كثير لأنها متواترة ، وهذا لطيف فتأمل ، فإننى كنت أجد فى كتب أصحابنا  
يقولون : إن الشافعى رضى الله عنه روى حديث عدم البسمة عن مالك ولم يعول عليه ،  
فدل على أنه ظهرت له فيه علة ، وإلا لما ترك العمل به . قلت : ولم أر أحداً من أصحابنا

بين العلة ، فبيننا أنا ليلة مفكر ، إذ فتح الله تعالى بما تقدّم - والله تعالى أعلم - أنها هي العلة . مع أني قرأت القرآن برواية إمامنا الشافعي عن ابن كثير كالبرزي وقنبل . ولما علم بذلك بعض أصحابنا من كبار الأئمة الشافعية قال لي : أريد أن أقرأ عليك القرآن بها .

ومما يزيدك تحميماً ما قاله أبو حاتم السجستاني ، قال : أول من تنبع بالبصرة وجوه القراءات وألفها وتبع الشاذ منها هارون بن موسى الأعمور . قال : وكان من القراء . فكره الناس ذلك ، وقالوا : قد أساء حين ألفها . وذلك أن القراءة إنما يأخذها قرون وأمة عن أفواه أمة ، ولا يلتفت منها إلى ما جاء من راوٍ راوٍ . قلت : يعني أحاداً أحاداً .

وقال الحافظ العلامة أبو سميد خليل كيكلي العلأفي في كتابه المجموع المذهب : وللشيخ شهاب الدين أبي شامة في كتابه المرشد الوجيز وغيره كلام في الفرق بين القراءات السبع<sup>(١)</sup> والشاذة منها . و<sup>(٢)</sup> كلام غيره من متقدمي القراء ما يؤم أن القراءات السبع ليست متواترة كلها ، وأن أعلاها ما اجتمع فيه صحة السند وموافقة خط المصحف الإمام والفصيح من لغة العرب ، وأنه يكفي فيها الاستفاضة ، وليس الأمر كما ذكر هؤلاء . والشبهة دخلت عليهم مع انحصار أسانيدنا في رجال معروفين ، وظنوها كاجتهاد الآحاد<sup>(٣)</sup> .

(١) كذا بالأصل . ولعله قد سقطت هنا كلمة « المتواتر » ، ولعل كلمة « والشاذة »

أصلها « والشاذ » بدون تاء مربوطة . فتدبر .

(٢) كذا بالأصل . ولعله قد سقطت هنا كلمة « في » ويكون الصواب : « وفي كلام

غيره » فتأمل .

(٣) لعل أصله : « فظنوها كأخبار الآحاد » .

قلت : « وقد سألت شيخنا إمام الأئمة أبا المعالي رحمه الله تعالى عن هذا الموضوع فقال : انحصار الأسانيد في طائفة ، لا يمنع مجيء القرآن عن غيرهم . فلقد كان يتلقاه أهل كل بلد ، يقرؤه منهم الجهم الغفير عن مثلهم ، وكذلك دائماً . والتواتر حاصل لهم . ولكن الأئمة الذين تصدوا لضبط الحروف وحفظوا شيوخهم منها وجاء السند من جهتهم <sup>(١)</sup> . وهذه الأخبار الواردة في حجة الوداع ونحوها أجلى <sup>(٢)</sup> ، ولم تزل حجة الوداع منقولة ، فن <sup>(٣)</sup> يحصل بهم التواتر عن مثلهم في كل عصر ، فهذه كذلك . وقال : هذا موضع ينبغي التنبيه له . انتهى والله أعلم . »

ذلك ما قاله العلامة ابن الجزرى في هذا المقام من كتابه المنجد ، ولعله فصل الخطاب في هذا الموضوع ، ولذلك آثرنا أن ننقله إليك محاولين حسن عرضه وضبطه والتعليق عليه مختصراً بقدر الإمكان . ولقد كنت أود أن تكون النسخة التي نقلت منها أكثر تحريراً مما رأيت ، ولكن ما الحيلة ؟ وهى أول طبعة عن نسخة مخطوطة برواق المغاربة من الأزهر الشريف ، ومن شأن البدايات أن يكون فيها نقص ، ثم تصير إلى السكال في النهاية إن شاء الله .

(١) (٢) لعل في هذين الموضعين سقطاً .

(٣) صواب هذه الفاء أن تكون عينا أو ميماً أو باءاً .

## ب - القراء

القراء جمع قارىء وهو في اللغة اسم فاعل من قرأ . ويطلق في الاصطلاح على إمام من الأئمة المعروفين الذين تنسب إليهم القراءات السابقة . وقد سردنا عليك أسماءهم . ونتحفاك هنا بنبذة قصيرة عن كل واحد من مشهورهم وعن بعض من اشتهر بالرواية عنه ، لتطلع على لمحة من فضلهم ، ولتتصل انصالاً علمياً بهذه الفئة الكريمة التي لها هذا الأثر الرائع في المحافظة على أداء القرآن الكريم بتلك الطرق المدوَّنة في جميع أنحاء العالم الإسلامي مدى تلك القرون الطويلة .

ونحن لا نريد بهذه الكلمات استقصاء تاريخهم ولا الأدوار التي مرت قراءاتهم . فذلك شوط واسع . أفردته بالتأليف جماعة ، منهم الذهبي وابن الجزري في طبقات القراء<sup>(١)</sup> .

### القراء السبعة رحمهم الله :

#### ١ - ابن عامر

اسمه عبد الله اليحصبي ، نسبة إلى يحصب ، وهو فخذ من حمير ويكنى أبا نعيم ، وأبا عمران . وهو تابعي جليل ، لقي واثلة بن الأسقع والنعمان بن بشير ، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب الخزومي ، عن عثمان بن عفان ، عن رسول الله ﷺ وقيل إنه

(١) طبقات القراء لابن الجزري عوّلت عليها في تراجم القراء خصوصاً عند الاختلاف بين المراجع ، لأنه هو المعروف بالحقق . وبهذه المناسبة أريد أن تقضى العجب أو الأسف معي على أن الذي عني بطبع هذا الكتاب ونشره هو المستشرق الألماني (ج . برجستراسر) كما سمعت أنه طبع كتاباً بمصر أيضاً في القراءات لابن خالويه ، ثم نقله إلى بلاده ، ومصر كلها محرومة منه .



قرأ على عثمان نفسه، وقد توفي بدمشق سنة ١١٨ ثمانى عشرة ومائة، وقد اشتهر برواية قراءته هشام وابن ذكوان، ولكن بواسطة أصحابه.

(فأما هشام) فقد أخذ القراءة عن عراك بن خالد المزى، عن يحيى بن الحارث الذمارى، عن ابن عامر. وكان هشام قاضياً فقيهاً محدثاً ثقةً ضابطاً، توفي بدمشق سنة ٢٤٥ خمس وأربعين ومائتين.

(وأما ابن ذكوان) فهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشى، الدمشقى. أخذ القراءة عن أيوب بن تميم، عن يحيى بن الحارث الذمارى، عن ابن عامر يقول أبو زرعة فيه: «إنه الحافظ الدمشقى، لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمن ابن ذكوان عندي أقرأ منه»، توفي سنة ٢٤٢ اثنتين وأربعين ومائتين.

وفى ابن عامر وروايته يقول صاحب الشاطبية :-

«وأما دمشق الشام دار ابن عامر فملك يعبد الله طابت محملاً  
هشام، وعبد الله، وهو انقسابه، لذكوان بالإسناد عنه تنقلاً»

## ٢ - ابن كثير

هو أبو محمد، أو أبو معبد، عبد الله بن كثير الدارى. كان إمام الناس فى القراءة بمكة، تحفه السكينة ويحوطه الوقار. لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصارى، وأنس بن مالك.

وروى عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ. وقرأ على عبد الله بن السائب الخزومى. وقرأ عبد الله هذا على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب. وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ. وتوفى سنة ١٢٠ عشرين ومائة بمكة المكرمة. وقد اشتهر بالرواية عنه - ولكن بواسطة أصحابه - البرزى وقنبل.

(أما البزِّيُّ) فهو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بزّة. فالبزّي نسبة إلى بزّة هذا وهو جدّه الأعلى. كان إماماً ضابطاً ثقة انتهت إليه مشيخة الإقراء بمكة روى عن عكرمة بن سليمان عن شبل بن عباد وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين عن ابن كثير. وكان إمام المسجد الحرام ومقرئه ومؤذنه توفي سنة ٢٥٠ خمسين ومائتين. (وأما قُنْبِل) فهو محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن محمد الخزومي المكي يسكنى أبا عمر، ويلقب بقنبل لشدة<sup>(١)</sup>. كان إماماً في القراءة ضابطاً ثقة يؤمه الناس من أقطار الأرض. أخذ القراءة عن أبي الحسن أحمد القواس عن وهب، عن القسط، عن شبل ومعرفة، وكلاهما قرأ علي ابن كثير. توفي سنة ٢٩١ إحدى وتسعين ومائتين. وفي ابن كثير وراوييه يقول صاحب الشاطبية :

« ومكة عبدُ الله فيها مُقامُهُ      هو ابنُ كثيرٍ كثيرُ القومِ مُعتَلًا  
روى أحمدُ البزّيُّ له ومحمدٌ      عليّ سنديّ وهو الملقبُ قُنْبِلًا

### ٣ - عاصم

هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي (والنجود بفتح النون وضم الجيم مأخوذ من نجدت الثياب إذا سويت بعضها ببعض).

كان قارئاً متقناً، آية في التحرير والإنقان والفصاحة وحسن الصوت بقراءة القرآن قرأ على زر بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ. وقرأ أيضاً على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي، معلم الحسن والحسين.

وقرأ عبد الرحمن هذا على الإمام عليّ، وأخذ الإمام عليّ قراءته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. توفي بالكوفة أو بالسماوة سنة ١٢٧ سبع وعشرين ومائة. روى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة.

(١) قُنْبِلٌ كَقُنْفُذٍ: الغلامُ الحادُّ الرأسِ الخفيف الروح. ذلك أصل معناه، ثم سمي به محمد بن عبد الرحمن القاري. انظر القاموس إن شئت.

(أما شعبة) فهو المشهور بابن عيَّاش بن سالم الأسدي وقيل اسمه محمد، وقيل مطرق، ويكنى أبا بكر لأن شعبة اسم مشترك بينه وبين أبي بسطاط شعبة بن الحجاج البصرى. كان إماماً عالماً كبيراً. توفى بالكوفة سنة ١٩٣ ثلاث وتسعين ومائة.

(وأما حفص) فهو أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة البرزاز كان ربيب عاصم: تربي في حجره، وقرأ عليه، وتعلم منه كما يتعلم الصبي من معلمه، فلا جرم كان أدقَّ إتقاناً من شعبة. توفى سنة ١٨٠ ثمانين ومائة.

وفي عاصم وراويه يقول صاحب الشاطبية:

« وبالکوفة الغراء منهم ثلاثةٌ  
أذاعوا فقد ضاعت شذى وقرّ نقلًا  
فأما أبو بكر وعاصمُ اسمه  
فشُعْبَةُ رَاوِيهِ الْمَبْرُزُ أَفْضَلًا  
وذاك ابنُ عيَّاشِ أبو بكرِ الرضا  
وحفصٌ وبالإتقان كان مفضلًا

#### ٤ - أبو عمرو

هو أبو عمرو زبَّان بن العلامار البصرى. كان من أعلم الناس بالقراءة مع صدق وأمانة وثقة في الدين. روى عن مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبیر، عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ. وأقرأ على جماعة منهم أبو جعفر وزيد بن القفّاع والحسن البصرى. وقرأ الحسن على حطان وأبي العالية. وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب. توفى سنة ١٥٤ أربع وخمسين ومائة.

ومن أشهر الرواية عنه الدورى والسوسى، ولكن بواسطة اليزيدى أبى محمد يحيى بن المبارك المدوى المتوفى سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين. وسمى باليزيدى نسبة إلى يزيد ابن منصور خال الخليفة المهدي، لأنه كان يؤدب ولده.

(أما الدورى) فهو أبو عمر حفص بن عمر المقرئ الضريير ، ولقب بالدورى نسبة إلى الدور ، وهو موضع بالجانب الشرقى من بغداد ، كان ثقة ضابطاً ؛ أول من جمع القراءات. روى عن اليزيدى عن أبي عمرو ، وتوفى سنة ٢٤٦ ست وأربعين ومائتين .  
(وأما السوسى) فهو أبو شبيب صالح بن زياد، روى عن اليزيدى عن أبي عمرو .  
وكان ثقة ضابطاً . توفى سنة ٢٦١ إحدى وستين ومائتين .

وفى أبي عمرو وراوييه يقول صاحب الشاطبية :

« وَأَمَّا الْإِمَامُ الْمَازِنِيُّ صَرِيحُهُمْ أَبُو عَمْرٍو الْبَصْرِيُّ فَوَالِدُهُ الْعَلَاءُ  
أَفَاضَ عَلَيَّ يَحْيَى الْيَزِيدِيُّ سَيِّبُهُ فَأَصْبَحَ بِالْعَذْبِ الْفُرَاتِ مُعَلِّلاً  
أَبُو عَمْرٍو الدُّورِيُّ وَصَالِحُهُمْ أَبُو شُعَيْبٍ هُوَ السُّوسِيُّ عَنْهُ تَقَبُّلاً »

٥ - حمزة

هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفى مولى عكرمة بن ربيع التميمى . قرأ على أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش ، على يحيى بن وثاب ، على زر بن حبيش ، على عثمان وعلى وابن مسعود ، على النبي ﷺ . كان ورعاً بكتاب الله ، مجوداً له عارفاً بالفرائض والعربية ، حافظاً للحديث . توفى بجلوان سنة ١٥٦ ست وخمسين ومائة .

ومن اشتهر بالرواية عنه خلف وخلاد ، لكن بواسطة أبي عيسى سليم بن عيسى الحنفى الكوفى المتوفى سنة ١٨٨ ، ثمان وثمانين ومائة .

(أما خلف) فهم أبو محمد خلف بن هشام بن طالب بن البزار . كان زاهداً عابداً .  
روى عن سليم بن عيسى الحنفى عن حمزة . وتوفى سنة ٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين .  
(وأما خلاد) فهو أبو عيسى خلاد بن خالد الأحول الصيرفى . روى عن سليم بن

عيسى عن حمزة. وكان أضبط أصحاب سليم وأجلهم عرفاناً وتحققاً. توفى بالكوفة سنة ٢٢٠ عشرين ومائتين .

وفي ذلك يقول صاحب الشاطبية :

« وَحَمَزَةٌ مَا أَرْكَاهُ مِنْ مُتَوَرِّعٍ      إِمَامًا ، صَبُورًا ، لِلْقُرْآنِ مُرْتَلًّا  
رَوَى خَلْفَ عَنْهُ وَخِلاَدَ الَّذِي      رَوَاهُ سَلِيمٌ مُتَقِنًا وَمُحَصَّنًا »

### ٦ - نافع

هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني . أخذ القراءة عن أبي جعفر القارى وعن سبعمين من التابعين ، وهم أخذوا عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة ، عن أبي بن كعب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة المنورة . توفى سنة ١٦٩ تسع وستين ومائة .

ومن اشتهر بالرواية عنه قالون وورش :

( أما قالون ) فهو أبو موسى عيسى بن مينا النحوى . ولقب بقالون لجودة قراءته لأن قالون معناه الجيّد فى أصل وضعها . قرأ على نافع واختصّ به كثيراً ، وقال : قرأت على نافع غير مرة ، وكتبت عنه . توفى سنة ٢٢٠ عشرين ومائتين .

( وأما ورش ) فهو عثمان بن سعيد المصرى ، يكنى أباسعيد ، ويلقب بورش لشدة بياضه <sup>(١)</sup> . رحل إلى المدينة فقرأ على نافع ختمات سنة ١٥٥ خمس وخمسين ومائة ، ثم رجع إلى مصر فانتهد إليه رئاسة الإقراء بها ، وكان حسن الصوت جيد القراءة . توفى سنة ١٩٧ سبعم وتسعين ومائة .

وفي ذلك يقول صاحب الشاطبية :

(١) الوَرَشُ فى أصل اللغة : يطلق على شيء يصنع من اللبن . فيصح أن يضرب به المثل فى البياض . انظر القاموس .

« فَأَمَّا الْكَرِيمُ السَّرُّ فِي الطَّيِّبِ <sup>(١)</sup> نَافِعٌ فَذَلِكَ الَّذِي أَخْتَارَ الْمَدِينَةَ مَنْزِلًا  
وَقَالُونَ عَيْسَى ثُمَّ عَمَّانُ وَرَشُومٌ بِصُحْبَتِهِ الْمَجْنَدُ الرَّفِيعُ تَأْتِلًا

## ٧ - الكسائي

هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي . لقب بالكسائي لأنه كان في الإحرام  
لابسًا كساءً ، قال أبو بكر الأنباري : اجتمعت في الكسائي أمور : كان أعلم الناس بالنحو  
وأوحدهم بالفريب ، وكان أوحد الناس بالقرآن ، فكانوا يكثرون عليه ، حتى يضطر  
أن يجلس على الكرسي ويتلو القرآن من أوله إلى آخره ؛ وهم يسمعون منه ويضبطون  
عنه . توفي سنة ١٨٩ تسع وثمانين ومائة .

وقد اشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والدوري .

(أما أبو الحارث) فهو الليث بن خالد المروزي . كان من أجلاء أصحاب الكسائي  
تفة وضبطًا . توفي سنة ٢٤٠ أربعين ومائتين .

(وأما الدوري) فهو أبو عمر حفص بن عمر الدوري الذي أئعنا إليه في الرواية  
عن أبي عمرو .

وفي الكسائي وروايته يقول صاحب الشاطبية :

« وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ فَالْكَسَائِيُّ نَهْتُهُ لِمَا كَانَ فِي الْإِحْرَامِ فِيهِ تَسْرِبَلًا  
رَوَى لَيْثُهُمْ عَنْهُ أَبُو الْحَارِثِ الرَّضَاءُ وَحَفْصٌ هُوَ الدُّورِيُّ وَفِي آدِ كَرٍ قَدْ خَلَا »

(١) يشير بهذه الكلمة إلى ما روى عنه أنه كان إذا تكلم بشم من فيه ريح المسك

بسبب قراءة النبي ﷺ في فيه منامًا ؛ كما أخبر نافع بذلك .

تمام القراءة العشرة :

وهالك كلمة عن الثلاثة الذين إذا أضيفوا إلى السبعة السابقين ، تشكل بهم عدّة القراء العشرة أصحاب القراءات العشر المعروفة ، والتي سبق الكلام عليها قريباً .

٨ — أبو جعفر

هو يزيد بن القعقاع القاري ، نسبة إلى موضع بالمدينة يسمى : قارا . وقد سبق أنه أخذ عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة ، عن أبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ .  
توفي أبو جعفر سنة ١٣٠ ثلاثين ومائة ، وكان تابعياً جليلاً القدر ، رفيع المنزلة .  
وقد اشتهر بالرواية عنه أبو موسى عيسى بن وردان الخذاء ، وأبو الربيع سليمان ابن مسلم بن جّاز .

( أما ابن وردان ) فهو أبو موسى عيسى بن وردان ، المدني ، الخذاء ، من أصحاب نافع في القراءة على أبي جعفر . كان مقرئاً ضابطاً ثقة . وتوفي سنة ١٦٠ ستين ومائة .

( وأما ابن جّاز ) فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جّاز . قرأ على أبي جعفر وشيبة بن نصاحة ونافع . وتوفي بعد سنة ١٧٠ سبعين ومائة بالمدينة المنورة .

٩ — يعقوب

هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي . قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل . وقرأ سلام على عاصم وعلى أبي عمرو . توفي يعقوب سنة ٢٠٥ خمس ومائتين .  
ومن اشتهر بالرواية عنه رَوْحُ بن عبد المؤمن ، ومحمد بن المتوكل اللؤلؤي الملقب برؤيس وغيرها .

(أما رُوْحُ) فهو أبو الحسن رُوْحُ بن عبد المؤمن بن عبدة بن مسلم الهذلي النحوي، قرأ على إمام البصرة أبي محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وكان إماماً جليلاً ثقة روى عنه البخاري. وتوفي سنة ٢٣٤ أربع أو خمس وثلاثين ومائتين.

(وأما رُوَيْسُ) فهو أبو عبد الله محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري، المعروف برويس. كان من أصدق أصحاب يعقوب. وتوفي بالبصرة سنة ٢٣٨ ثمان وثلاثين ومائتين.

#### ١٠ - خلف

هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب، قرأ على سليم عن حمزة، وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى، وعلى أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري صاحب المنفلد الضبي، وعلى أبان العطار، وهم عن عاصم. وتوفي خلف سنة ٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين كما سبق في ترجمة حمزة.

ومن اشتهر بالرواية عنه أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبد الله، المروزي، ثم البغدادي، الوراق، المتوفى سنة ٢٨٦ ست وثمانين ومائتين. ومن اشتهر بالرواية عنه أيضاً أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم الحداد البغدادي، المتوفى سنة ٢٩٢ اثنتين أو ثلاث وتسعين ومائتين.

#### تمام القراء الأربعة عشر:

وهالك كلمة مختصرة عن الأربعة الذين إذا أضيفوا إلى العشرة السابقين كملت عدة القراء الأربعة عشر الذين تنسب إليهم القراءات المعروفة بالقراءات الأربع عشرة.



١١ — الحسن البصرى

هو السيد الإمام الحسن بن أبى الحسن يسار أبو سعيد البصرى الفقى بشهرته عن  
تأريفة . المتوفى سنة ١١٠ عشر ومائة .

١٢ — ابن محيىصن

هو محمد بن عبد الرحمن السهمى المكي ، مقرر أهل مكة مع ابن كثير . المتوفى سنة  
١٢٣ ثلاث وعشرين ومائة .

١٣ — يحيى الزيدى

هو يحيى بن المبارك بن المفيرة الإمام أبو محمد المدونى البصرى المعروف باليزيدى .  
المتوفى سنة ٢٠٣ اثنتين ومائتين .

١٤ — الشنبوذى

هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون أبو الفرج الشنبوذى  
الشطوى البغدادى . المتوفى سنة ٣٨٨ ثمان وثمانين وثلاثمائة .

هو لاء الأئمة وأضرابهم هم الذين خدموا الأمة والملة ، وحافظوا على الكتاب والسنة ،  
وفيهم يقول السيوطى بإتقانه : « ثم لما اتسع الطرق ، وكاد الباطل يلتبس بالحق ،  
قام جهابذة الأمة وبالغوث فى الاجتهاد ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعرضوا الوجوه  
والروايات ، وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ ، بأصول أصلوها ، وأركان فصلوها . فأول  
من صنّف فى القراءات أبو عميد القاسم بن سلام ، ثم أحمد بن جبير الكوفى ، ثم إسماعيل

ابن إسحاق المالكي صاحب قالون ، ثم أبو جعفر بن جرير الطبري ، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الدجوني ، ثم أبو بكر مجاهد ، ثم قام الناس في عصره وبعده بالتأليف في أنواعها ، جامعا ومفردا ، موجزا ومسهباً . وأئمة القراءات لا تحصى . وقد صنف طبقاً لهم حافظ الإسلام أبو عبد الله الذهبي ، ثم حافظ القرآن أبو الخير بن الجزري « ٥١ » .  
أسأل الله تعالى أن يعمر الجميع بوسع رحمته ، وأن يميزهم أفضل الجزاء على خدمتهم  
الكتابه . آمين .

### حكم ماراء العشر :

وقع الخلاف أيضاً في القراءات الأربع التي تزيد على العشر وتكمل الأربع عشرة :  
فقيل بتواتر بعضها . وقيل بصحتها . وقيل بشذوذها ، إطلاقاً في السكل . وقيل : إن  
المسألة ليست مسألة أشخاص ولا أعداد ، بل هي قواعد ومبادئ . فأیما قراءة تحققت فيها  
الأركان الثلاثة لذلك الضابط المشهور فهي مقبولة ، وإلا فهي مردودة . لا فرق بين  
قراءات القراء السبع والقراء العشر والقراء الأربعة عشر وغيرهم ، فالميزان واحد في السكل  
والحق أحق أن يتبع .

قال صاحب الشافى : « التمسك بقراء سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثرولا  
سنة ، وإنما هو من جمع بعض المتأخريين فانتشروا . ووهم من قال : إنه لا تجوز الزيادة  
على ذلك . وذلك لم يقل به أحد » ٥١ . بشىء من التصرف .

وقال الكواشى : « كل ما صح سنده ، واستقام وجهه في العربية ، ووافق خط  
المصحف الإمام ، فهو من السبعة المنصوصة . ( يريد السبعة الأحرف في الحديث النبوى  
المعروف ) ثم قال : وقد اشتد إنكار أئمة هذا الشأن على من ظن انحصار القراءات  
المشهوره في مثل ما في التيسير والشاطبية » ٥١ .

وهذا رأى قريب من الصواب ، لولا أنه لم يقصر نظره على ما هو الواقع القائم بيننا اليوم من القراءات ، ولم يطبق الحكم ولم يفصله فيه ، بل أساق الكلام عاماً كما ترى .

والتحقيق هو ما ذهب إليه أبو الخير بن الجزري ، من أن القراءات العشر التي بين أيدينا اليوم متواترة دون غيرها . قال في منجد المقرئين ما يفيد أن الذي جمع في زمننا هذه الأركان الثلاثة ( أى في ذلك الضابط المشهور مع ملاحظة إبدال شرط صحة الإسناد بتواتره ) هو قراءة الأئمة العشرة التي أجمع الناس على تلقيها بالقبول . أخذها الخلف عن السلف إلى أن وصلت إلى زماننا . فقراءة أحدهم كقراءة الباقين في كونها مقطوعاً بها . أما قول من قال : إن القراءات المتواترة لا حد لها فإن أراد القراءات المعروفة في زماننا فقير صحيح ؛ لأنه لا يوجد اليوم قراءة متواترة وراء القراءات العشر . وإن أراد ما يشمل قراءات الصدر الأول فمحتمل .

ثم إن غير المتواتر من القراء على قسمين :

( القسم الأول ما صحَّ سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه ووافق العربية والرسم . وهذا ضربان : ضرب استيفاض نقله وتلقته الأمة بالقبول ، كما انفرد به الرواة وبعض الكتب المعتبرة ، أو كراتب القراء في المدِّ ونحو ذلك ، فهذا صحيح مقطوع به وبأنه منزل من عند الله على النبي ﷺ من الأحرف السبعة . وهذا الضرب يلحق بالقراءة المتواترة وإن لم يبلغ مبلغها ، لأنه من قبيل أخبار الآحاد التي احتفت بها قرآن تفيده العلم والضرب الثاني لم تلقه الأمة بالقبول ولم يستفرض . وهذا فيه خلاف العلماء : منهم من يجوز القراءات والصلاة به ، ومنهم من يمنع القراءة بما وراء العشر منع تحريم لا كراهة . قال ابن السبكي في جمع الجوامع : « ولا يجوز القراءة بالشاذ : والصحيح أن ما وراء العشر فهو شاذ ، وفقاً لبغوي والشيخ الإمام » . ويريد بالشيخ الإمام والده مجتهد العصر أبا الحسن علي بن عبد الكافي السبكي .

( القسم الثاني ) من القراءة الصحيحة : ما وافق العربية وضح سنده . وخالف الرسم ، كلذى يرد عن طريق صحيح من زيادة ونقص ، وإبدال كلمة بأخرى ، مما جاء عن أبى الدرداء وعمر وابن مسعود وغيرهم ، فهذه القراءة تسمى اليوم شاذة لكونها شذت عن رسم المصحف المجمع عليه ، وإن كان إسنادها صحيحاً . فلا تجوز القراءة بها لافي الصلاة ولا في غيرها . قال الإمام أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد : « وقال مالك إن من قرأ في صلاته بقراءة ابن مسعود أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف لم يوصل وراءه . وعلما المسلمين مجمعون على ذلك إلا قوماً شذوا لا يعرف عليهم » .

وحكى ابن عبد البر الإجماع أيضاً على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ .

وقال ابن الجزرى : قال أصحابنا من الشافعية وغيره : لو قرأ بالشاذ في صلاته بطلت صلاته إن كان عالماً . وإن كان جاهلاً لم تبطل ولكن لا تحسب له تلك القراءة . واتفق علماء بغداد على تأديب الإمام ابن شنبوذ واستنابته على قراءته وإقراءته بالشاذ . ذلك كله فيما صح فيه النقل والعربية ولكنه خالف الرسم .

أما ما لم يصح فيه نقل فهو أقل من أن يسمى شاذاً ، ولو وافق العربية والرسم . بل هو قراءة مكذوبة يكفر بمتممها .

حكى المحقق ابن الجزرى أن استفناء رفع من العجم إلى دمشق في حدود الأربعين والستمائة صورته : هل تجوز القراءة بالشاذ ؟ وهل يجوز أن يقرأ القارى عشر كل آية بقراءة ورواية ؟ . فأجاب عليه الإمامان : أبو عمرو بن الصلاح وأبو عمرو ابن الحاجب .

أما ابن الصلاح فقال : يشترط أن يكون المقروء به تواتر نقله عن رسول الله ﷺ قرآناً ، واستفاض نقله كذلك . وتلقته الأمة بالقول ، كهدم القراءات السبع ، لأن المعتبر

في ذلك اليقين والقطع ، على ما تقرر وتمهد في الأصول . فما لم يوجد فيه ذلك كما عدا السبع أو كما عدا العشر فممنوع من القراءة به ممنوع تحريم لا يمنع كراهة في الصلاة وخارج الصلاة ، وممنوع من عرف المصادر والمعاني ومن لم يعرف ذلك ، وواجب على من قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يقوم بواجب ذلك . وإنما نقلها من نقلها من العلماء لفوائد فيها تتعلق بعلم العربية للقراءة بها . هذا طريق من استقام سبيله . ثم قال - والقراءة الشاذ ما نقل قرآناً من غير تواتر ولا استفاضة متلقاة بالقبول من الأمة كما اشتمل عليه المحتسب لابن جنى وغيره . وأما القراءة بالمعنى من غير أن ينقل قرآناً فليس ذلك من القراءات الشاذة أصلاً . والمجتري على ذلك مجتري على عظيم ، وضالٌّ ضلالاً بعيداً ، فيعزَّر ويمنع بالحبس ونحوه ، ولا يُحَلَّى ذو ضلالة ، ولا يحلُّ ذلك للمتمكن من ذلك إمامه . ويجب منع القارى بالشاذ وتأنيمه بعد تعريفه ، وإن لم يمنع فعلية التعزير بشرطه .

وإذا شرع القارى بقراءة ينبغي ألا يزال يقرأ بها ما بقي للكلام تعلق بما ابتدأ به . وما خالف هذا فإنه جائز وممتنع . وعذر المرض مانع من بيانه بحقه . والعلم عند الله تعالى . اه .

وأما ابن الحاجب فقال : لا يجوز أن يقرأ بالقراءة الشاذة في صلاة ولا غيرها ، عالمًا كان بالعربية أو جاهلاً . وإذا قرأ بها قارى ، فإن كان جاهلاً بالتحريم عُرف به وأمر بتركها ، وإن كان عالمًا أدب بشرطه ، وإن أصرَّ على ذلك أدب على إصراره وحبس إلى أن يرتدع عن ذلك . وأما تبديل آتينا بأعظنا ، وسوّلت بزيت ، ونحوه ، فليس هذا من الشواذ ، وهو أشدُّ تحريمًا ، والتأديب عليه أبلغ ، والمنع منه أوجب اه .

فذلك البحث .

يخلص لنا من هذا البحث بعد تحقيق وجوه الخلاف فيه أمور مهمّة ؛ يجدر بنا أن نولينا الالتفات والانتباه الخاص :

أولها - أن القراءة ، لا تكون قرآناً إلا إن كانت متواترة ، لأن التواتر شرط في القرآنية .

ثانيها - أن القراءات العشر الذائعة في هذه العصور متواترة على التحقيق الآنف . وإذن هي قرآن . وكل واحدة منها يطلق عليها أنها قرآن .

ثالثها - أن ما وراء القراءات العشر مما صحّت روايته آحاداً ولم يستفص ولم تقلقه الأمة بالقبول ، شاذٌ وليس بقرآن ، وإن وافق رسم المصحف وقواعد العربية .

رابعها - أن ركن صحة الإسناد المذكور في ضابط القرآن المشهور ، لا يراد بالصحة فيه مطلق صحّة ، بل المراد صحّة ممتازة تصل بالقراءة إلى حد الاستفاضة والشهرة وتلقّي الأمة لها بالقبول ، حتى يكون هذا الركن بقربينة الركنين الآخرين في قوة التواتر الذي لا بد منه في تحقّق القرآنية . كما فصلنا ذلك من قبل .

خامسها - أن القراءة قد تكون متواترة عند قوم ، غير متواترة عند آخرين . والمأمور به ألا يقرأ المسلم إلا بما تواتر عنده ، ولا يكفى بما روى له آحاداً وإن كان متواتراً عند الراوى له ، كما ردّ الشافعي رواية مالك مع صحّتها ، لمخالفتها ما تواتر عنده . ولا تنس ماقاله ابن الجزري في ذلك آنفاً .

سادسها - أن هذا الذي روى من طريق الآحاد المحضة ولم يصل إلى حد الاستفاضة والشهرة ، هو أصل الداء ، ومثار كثير من الشبهات والخلاف . أما الشبهات فقد مرّ عليك منها نماذج ، وأما الخلافات فقد شاهدت منها في هذا البحث ما شاهدت ، وسقاهد ما شاهد ؛ وإني أستعني نظرك إلى أمرين :

أولهما أن طريق الآحاد المحضة هذا هو الذي فُتح باب المطاعن لبعض الأئمة في بعض الروايات الواردة في القراءات السبع ، كابن جرير الطبري الذي ذكر في تفسيره شيئاً من ذلك ، وألف كتاباً كبيراً في القراءات وعللها ، وضمنه بعض تلك المطاعن .

وثانيهما - أن وجود هذه الروايات على ندرتها جعل البعض يشتط ويسرف ، فسحب حكمها على الجميع وقال : إن القراءات السبع وغيرها كلها قراءة آحاد . وهذا قول في نهاية الإسفاف والخطر : أما إسفافه فلأنه لا يليق مطلقاً أن يسحب حكم الأقل الضئيل على الأكثر الجليل ، وأما خطره فلأنه يؤدي إلى نقض تواتر القرآن ، أو إلى عدم وجود القرآن الآن مادام القرآن مشروطاً فيه التواتر ولا تواتر على رأيهم . ولا يعقل أن يكون القرآن المفروض فيه التواتر موجوداً على حين أن وجوه قراءاته كلها غير متواترة ، ضرورة أنه لا يتحقق قرآن بدون أوجه للقراءة .

ذلك ما وصلنا إليه بعد إعادة النظر في هذا الموضوع . والحمد لله الذي هدانا لهذا « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » .

### ج - نقض الشبهات التي أثيرت في هذا المقام

هناك شبهات أثيرت حول القراءات في اختلافها وتعدددها مم في صحتها وتواتر التواتر منها ، وفي القرآن الكريم وتواتره وإجماع الأمة عليه . من تلك الشبهات ما تجده مذكوراً في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف . ومنها ما تجده مذكوراً في مبحث جمع القرآن . فارجع إليها - إن شئت - ولا داعي إلى التطويل بإعادتها .

بيد أن الرواية التي نسبها لابن مسعود في إنكاره قرآنية المؤذنين تكاد تكون أقوى هذه الشبهات ، من جهة أنها وردت بأسانيد صححها بعض

أعلام الحديث يكابن جعفر . وقد سبق عرضها من توجهها وتمحيصها حتى على هذا  
الاحتمال .

وتزيدك هنا في توهم هذه الشبهة أموراً :

( أولها ) أن عاصماً وهو أحد القراء السبعة ، قرأ القرآن كله وفيه الموءذتان بأسانيد  
صحيحة ، بعضها يرجع إلى ابن مسعود نفسه . ذلك أن عاصماً قرأ على أبي عبد الرحمن  
عبد الله بن حبيب ، وقرأ على أبي مرزبان حبيش الأسدي ، وعلى سعيد بن عياش  
الشيباني .

وقرأ هؤلاء على ابن مسعود نفسه ، وقرأ ابن مسعود على رسول الله ﷺ .

( ثانيها ) أن حمزة وهو من القراء السبعة أيضاً ، قرأ القرآن كله بأسانيده الصحيحة  
وفيه الموءذتان عن ابن مسعود نفسه . ذلك أن حمزة قرأ على الأعمش أبي محمد سليمان  
ابن مهران وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب ، وقرأ يحيى على علقمة الأسود ، وعبيد ابن  
فضلة الخزاعي ، وزر بن حبيش ، وأبي عبد الرحمن السلمي . وهم قرءوا على ابن مسعود ،  
على النبي ﷺ .

ولحمزة سند آخر بهذه القراءة إلى ابن مسعود أيضاً . ذلك أنه قرأ على أبي إسحاق  
السبيعي ، وعلى محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ؛ وعلى الإمام جعفر الصادق . وهؤلاء  
قرءوا على علقمة بن قيس ، وعلى زر بن حبيش ، وعلى زيد بن وهب ، وعلى مسروق .  
وهم قرءوا على المنهال وغيره وهم على ابن مسعود وأمير المؤمنين على كرم الله وجهه  
وهما على النبي ﷺ .

( ثالثها ) أن الكسائي قرأ القرآن وفيه الموءذتان بسنده إلى ابن مسعود أيضاً . ذلك  
أنه قرأ على حمزة الذي انتهى بين يديك سنده إلى ابن مسعود من طريقين .



(رابعها) أن خلفاً يقرأ المعوذتين في ضمن القرآن الكريم بسنده إلى ابن مسعود أيضاً . وذلك أنه قرأ علي سليم وهو علي حمزة .

وهذه القراءات كلها التي رويت بأصح الأسانيد ويأجماع الأمة فيها المعوذتان والفاتحة على اعتبار أن هذه السور الثلاث أجزاء من القرآن وداخلة فيه .

فالتقول ببقاء ابن مسعود على إنكار قرآنية هذه السورة محض افتراء عليه . وكل ما في الأمر أنه لم يكتب الفاتحة في مصحفه اتسكالا على شهرتها وعدم الخوف عليها من النسيان حتى تكتب . وكذلك القول في المعوذتين . وقيل إنه لم يكن يعلم أول الأمر أن المعوذتين من القرآن ، بل كان يفهم أنهما رُقِيَّةٌ يعوذ بهما الرسولُ الحسنُ والحسينُ . ومن هنا جاءت روايات إنكاره أنهما من القرآن . ثم علم بعد ذلك قرآنيتهما . ومن هنا جاءت الروايات عنه بقرآنيتهما . كما سُقناه بين يديك عن أربعة من القراء السبعة بأسانيد هي من أصح الأسانيد المؤيدة بما تواتر واستفاض ، وبما أجمعت الأمة عليه من قرآنية الفاتحة والمعوذتين ، منذ عهد الخلافة الراشدة إلى يوم الناس هذا .  
أما بعد فيصح أن نعتبر ما كتب في هذا الموضوع هنا كلاماً عن الشبهة الأولى التي أثيرت فيه .

### الشبهة الثانية :

يقولون : إن التواتر في جميع القرآن غير مسلم ، لأن الدواعي التي ذكرتموها في دليل تواتره ، لا تتوافر في جميع أجزاء القرآن . وآية ذلك أن البسمة على رأى من يجعلها من القرآن لا يجرى فيها التحدى ، ولا يتحقق فيها أنها أصل الأحكام ، حتى يكون ذلك من الدواعي للتوافرة على نقلها وتواترها .

ونجيب (أولاً) بأن التعدي يجري فيها باعتبار انضمامها إلى غيرها من آيتين آخرين،  
ليتألف من الجميع ثلاث آيات يقوم بهن الإيجاز. وذلك كافٍ في أن يكون من دواعي  
الاعتناء بها ونقلها تواتراً.

(ثانياً) أنه يتعلق بنظمها تلك الأحكام المعروفة من أن لقارئها أجراً عظيماً إن كان  
طاهراً، ووعيداً شديداً إن كان جنباً وقرأها بقصد القرآنية أو مسها، ونحو ذلك. وهذا  
من الدواعي المتوافرة على نقلها وتواترها.

#### الشبهة الثالثة :

يقولون : لو كان القرآن متواتراً لوقع التكفير في البسمة ، على معنى أن من يقول  
بقرآنتها يحكم بكفر منكرها ، ومن لا يقول بقرآنتها يحكم بكفر مثبتها . وعلى ذلك  
يكفر المسلمون بعضهم بعضاً .

والجواب : أن قرآنية البسمة في أوائل السور اجتهادية مختلف فيها . وكل ما كان  
من هذا القبيل لا يكفر منكره ولا مثبتته ، شأن كل أمر اجتهادي . وإنما يكفر من أنكر  
متواتراً معلوماً من الدين بالضرورة . وقرآنية البسمة في أوائل السور ليست متواترة  
معلومة من الدين بالضرورة .

أما منكر البسمة التي في قصة كتاب سليمان من سورة النمل . فهو كافر قطعاً ، لأن  
قرآنتها متواترة معلومة من الدين بالضرورة ، ولا خلاف بين المسلمين في قرآنتها حتى  
يكفر بعضهم بعضاً كما يزعم أولئك المعتضون .

#### الشبهة الرابعة :

يقولون : إن استدلالكم على تواتر القرآن بتوافر الدواعي على نقله ، منقوض

بالسنة النبوية، فإنها غير متواترة، مع ذلك تتوافر الدواعي على نقلها، فإنها أصل الأحكام كما أن القرآن أصل الأحكام.

ونجيب (أولاً) بأن توافر الدواعي على نقل القرآن متواتراً، لم يجي من ناحية أصالة الأحكام فحسب. بل جاء منها ومن نواحي الإعجاز والتعدي والتعمد بتلاوته والتبرك به في كل عصر وقراءته في الصلاة ونحو ذلك.

والسنة النبوية لا يجتمع فيها كل هذا. بل يوجد فيها بعضه فقط وذلك لا يكفي في توافر الدواعي على نقلها متواترة.

(ثانياً) أن المراد بأصالة الأحكام الفرد الكامل الذي لا يوجد إلا في القرآن. ذلك لأن أصالة الأحكام فيه ترجع إلى اللفظ والمعنى جميعاً. أما المعنى فواضح. وأما اللفظ فمن ناحية الحكم بإعجازه، وبثواب من قرأه. وبالوعود الكريمة والعطايا العظيمة لمن حفظه، وبالوعيد الشديد لمن نسيه بعد حفظه ولن مسه أو قرأه جنباً، إلى غير ذلك والسنة النبوية ليس لفظها شيء من هذه الأحكام. ولهذا تجوز روايتها بالمعنى. أما معناها فإن كان مما تتوافر الدواعي على نقله وجب تواتره وإلا فلا. ولهذا يقطع بكذب نقل الروافض ما نسبوه إلى رسول الله ﷺ من أنه نص على أن الإمامة العظمى من بعده، محصورة في عليٍّ وولده. رضى الله عنهم. بيان ذلك أنه لو صح ما زعموه لنقل متواتراً، فإنه مما تتوافر الدواعي على نقله، لتعلقه بأمر يتصل بمستقبل الحكم الأعلى والولاية العظمى في الإسلام لجميع بلاد الإسلام.

#### الشبهة الخامسة :

يقولون : إن تواتر القرآن منقوض بأن ابن مسعود وهو من أجلاء الصحابة لم

يوافق على مصحف عثمان بدليل الروايات الآتية وهي :

(١) أن شقيق بن سلمة يقول : « خطبنا عبد الله بن مسعود على المنبر فقال : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . غلوا مصاحفكم . « أى أخفوها حتى لا تحرق » وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت ، وقد قرأت من في رسول الله ﷺ مثله ؟ » رواه النسائي وأبو عوانة وابن أبي داود .

(٢) أن خير بن مالك يقول : « لما أمر بالمصاحف أن تغير ساء ذلك عبد الله بن مسعود فقال : من استطاع أن يغفل مصحفه « أى يخفيه حتى لا يحرق » فليفعل . وقال في آخره : أفأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ ؟ »

(٣) أن الحساكم يروى من طريق أبي ميسرة قال : « رحْتُ فإذا أنا بالأشعري وحذيفة وابن مسعود . فقال ابن مسعود : « والله لأدفعه بعني مصحفه . أقرأني رسول الله ﷺ » فذكره .

ونجيب (أولاً) بأن هذه الروايات لا تدل أبداً ، على عدم تواتر القراءات ولا على عدم تواتر ما جاء في مصحف عثمان . غاية ما تدل عليه أن ابن مسعود لم يوافق أول الأمر على إحراق مصحفه . وهذا لا ينقض تواتر ما جاء في مصحف عثمان . لأنه ليس من شرط التواتر على ما في مصحف عثمان أن يحرق ابن مسعود مصحفه ، ولا أن يحرق أحد مصحفه . بل المحقق للتواتر أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة . وهذا موجود في مصحف عثمان لأن ما فيه رواه ووافق عليه جموع عظيمة من الصحابة محال أن تكذب وحسبك عثمان ودمستوره في جمع القرآن . فارجع إليه إن شئت .

(ثانياً) أنه على فرض مخالفة ابن مسعود لمصحف عثمان ، فإن هذه المخالفة لا تذهب بتواتر القرآن . لأن أركان التواتر متحققة في المصحف العثماني على رغم هذه المخالفة المفروضة ولم يقل أحد في الدنيا : إن من شرط التواتر ألا يخالف فيه مخالف حتى تكون مخالفة ابن مسعود لمصحف عثمان ناقضة لتواتر القرآن .

(ثالثاً) أن هذه الروايات التي ساقوها طعننا في تواتر القرآن ، لا تدل على أن ابن مسعود يخالف في القراءة بمصحف عثمان . بل هو يقرأ به كما يقرأ بروايته التي انفرد بها وسمعا وحده من فم النبي ﷺ . ألا ترى إلى قوله : « وقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله » فإن كلمة « مثله » فيها اعتراف منه بأن زيد بن ثابت قرأ مثله من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ما انفرد ابن مسعود به تعتبر روايته آحادية . وأنت خير بأن رواية الآحاد لا تكفي في ثبوت القرآنية . لذلك لم يوافق الصحابة على ما انفرد به ابن مسعود ، بخلاف مصحف عثمان فقد وافقه عدد التواتر ، وظهر بإجماع الأمة ولم يكتب فيه إلا ما استقر في العريضة الأخيرة من غير نسخ لتلاوته ، على ما سبق بيانه هناك في مبحث جمع القرآن .

(رابعاً) أن عدم دفع ابن مسعود مصحفه ليحرق كان توقعاً منه في أول الأمر . ثم عاد بعد ذلك وحرقه حين بلغه أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كرهوا ذلك في مقالته ، كما جاء في حديث شقيق من رواية ابن أبي داود عن طريق الزهري . وبهذا أتحدت الصفوف ، واتفقت الكلمة ، وتم للمصالحف العثمانية الظفر من كل وجه بإجماع الأمة حتى ابن مسعود . والحمد لله على هذا السكرم والجود . حمداً يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده ، ويستنزل رضاه ، آمين .

# فهرس

الموضوع	صفحة
خطبة الكتاب	٢
مقدمة الكتاب	١٠
المبحث الأول في معنى علوم القرآن	١٢ - ٢٨
العلم عند الحكماء والمتكلمين	١٢
العلم في لسان الشرع العام	١٢
العلم عند الماديين وعلماء التدوين	١٣
القرآن في اللغة	١٤
القرآن في الاصطلاح	١٥
القرآن عند المتكلمين	١٧
القرآن عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية	١٩
هل القرآن علم شخص؟	٢١
هل تصاغ للأعلام تعاريف؟	٢١
إطلاق القرآن على الكل وعلى أبعاضه	٢٢
معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافي	٢٣
القرآن كتاب هداية وإعجاز	٢٤
القرآن يحض على الانتفاع بالكون	٢٥
إعجاز علمي للقرآن	٢٥
علوم القرآن بالمعنى المدون ، وموضوعه ، وقائده .	٢٧
المبحث الثاني في تاريخ علوم القرآن	٢٨ - ٤٠
عهد ما قبل التدوين	٢٨
عهد التمهيد لعلوم القرآن	٣٠
عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإضافي	٣١

الموضوع	صفحة
أول عهد لظهور هذا الاصطلاح	٣٤
علوم القرآن في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع	٣٦
علوم القرآن في العصر الأخير	٣٨
خلاصة	٣٩
كلمة لا بد منها	٣٩
المبحث الثالث في نزول القرآن	٤٠
معنى نزول القرآن	٤٠
تنزيلات القرآن	٤٣
التنزيل الأول إلى اللوح المحفوظ	٤٣
التنزيل الثاني إلى بيت العزة	٤٤
التنزيل الثالث على النبي ﷺ	٤٧
كيفية أخذ جبريل القرآن ، وعن أخذ ؟	٤٧
ما الذي نزل به جبريل ؟	٤٨
ما نزل على النبي ﷺ مما سوى القرآن	٥٠
مدة النزول على النبي ﷺ	٥١
دليل تنجيم هذا النزول	٥٢
الحكم والأسرار في تنجيم القرآن	٦٢-٥٣
الحكمة الأولى بوجوهها الخمسة	٥٣
الحكمة الثانية بوجوهها الخمسة أيضاً	٥٥
الحكمة الثالثة بوجوهها الأربعة	٥٨
الحكمة الرابعة الإرشاد إلى مصدر القرآن	٦٠
الحركة الطاحنة بين معتقدي الوحي ومنكريه ( وهو بحث جديد مفيد )	٩١-٦٣

الموضوع	صفحة
حقيقة الوحي وأنواعه وكيفية آياته	٦٣
الوحي من ناحية العلم	٦٥
الدليل الأول التنويم المغناطيسى	٦٦
الدليل الثانى بعض عجائب المخترعات	٦٩
الدليل الثالث الحاكي « القونفراف »	٧٩
الدليل الرابع عجائب بعض الحيوانات الدنيا	٧٠
الدليل الخامس العبقرية	٧١
الدليل السادس المظاهر الروحانية فى بعض الناس	٧٢
الوحي من ناحية العقل	٧٣
المعجزة	٧٣
دفع الشبهات عن الوحي	٧٦
الشبهة الأولى وجوابها	٧٦
الشبهة الثانية وجوابها	٧٦
الشبهة الثالثة والرابعة والخامسة وجوابها	٧٧
الشبهة السادسة وجوابها	٧٨
الشبهة السابعة وجوابها	٧٩
الشبهة الثامنة وجوابها	٨١
الشبهة التاسعة وجوابها	٨٢
الشبهة العاشرة وجوابها	٨٤
ذيل لهذه الشبهة والجواب عليه	٨٢
خاتمة المبحث	٩١
المبحث الرابع فى أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن	٩٢ - ١٠٥
فوائد الإسلام بأول ما نزل وآخره	٩٢



الموضوع	الصفحة
القول الأول في أول ما على نزل الإطلاق	٩٣
القول الثاني في أول ما نزل على الإطلاق	٩٤
القول الثالث في أول ما نزل على الإطلاق	٩٥
القول الرابع في أول ما نزل على الإطلاق	٩٦
آخر ما نزل على الإطلاق	٩٦
القول الأول والثاني والثالث في آخر ما نزل على الإطلاق	٩٧
القول الرابع والخامس في آخر ما نزل على الإطلاق	٩٨
القول السادس والسابع والثامن والتاسع	٩٩
القول العاشر	١٠٠
مثلان من أوائل وأواخر مخصوصة	١٠١
ما نزل في الحجر	١٠١
ما نزل في أمر الجهاد والدفاع	١٠١
شبهة في هذا المقام	١٠٢
جواب هذه الشبهة	١٠٣
ملحوظة وتحقيق	١٠٤
المبحث الخامس في أسباب النزول	١٠٦ - ١٣٦
معنى سبب النزول	١٠٦
فوائد معرفة أسباب النزول	١٠٩
الفائدة الأولى والثانية	١٠٩
الفائدة الثالثة والرابعة	١١٢
الفائدة الخامسة والسادسة والسابعة	١١٣
طريق معرفة سبب النزول	١١٤

الموضوع	الصفحة
التعمير عن سبب النزول	١١٤
تعدد الأسباب والنازل واحد	١١٦
شبهة في الموضوع وجوابها	١٢١
تعدد النازل والسبب واحد	١٢١
العموم والخصوص بين لفظ الشارع وسببه	١٢٣
عموم اللفظ وخصوص سببه	١٢٥
أدلة الجمهور	١٢٧
شبهات المخالفة وتفنيدها	١٣٠
شبيه بالسبب الخاص من اللفظ العام	١٣٥
المبحث السادس في نزول القرآن على سبعة أحرف	١٣٧ - ١٩١
أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف	١٣٩
شواهد بارزة في هذه الأحاديث الواردة	١٤٥
فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتعدد الحروف	١٤٦
معنى نزول القرآن على سبعة أحرف	١٥٣
الوجوه السبعة في المذاهب المختار	١٥٥
لماذا اخترنا هذا المذهب ؟	١٥٧
الذين قالوا بهذا المذهب	١٥٨
النسبة بين هذه المذاهب ومذهب الرازي	١٦١
دفع الاعتراضات الواردة على المذهب المختار	١٦٤
بقاء الأحرف السبعة في المصاحف	١٦٨
الأقوال الأخرى ودفعها	١٧٢
القول الأول	١٧٢

الموضوع	صفحة
القول الثاني إلى القول السابع	١٧٣
القول الثامن والتاسع	١٧٤
المنافاة بدفع هذا القول لقوة شبهته	١٧٥
القول العاشر ودفعه	١٨٠
القول الحادى عشر إلى الأربعين	١٨٢
ردود إجمالية لهذه الأقوال الأخيرة	١٨٣
علاج الشبهات الواردة على أصل الموضوع	١٨٤
الشبهة الأولى وجوابها	١٨٥
الشبهة الثانية وجوابها	١٨٧
الشبهة الثالثة وجوابها	١٨٩
الشبهة الرابعة وجوابها	١٩٠
للمبحث السابع فى المكى والمدنى من القرآن الكرىم	١٩٢ - ٢٣٨
الاصطلاحات فى معنى المكى والمدنى	١٩٣
فائدة العلم بالمكى والمدنى	١٩٥
الطرىق الموصل إلى معرفة المكى والمدنى	١٩٦
الضوابط التى يعرف بها المكى والمدنى	١٩٦
السور المكىة والمدنىة والمختلف فىها	١٩٨
أنواع السور المكىة والمدنىة	١٩٩
وجوه تتعلق بالمكى والمدنى	٢٠٥
فروق أخرى بين المكى والمدنى	٢٠٢
نقض الشبهات التى أثبتت حول هذا الموضوع	٢٠٥
الشبهة الأولى وفى طيها شبهات أربع	٢٠٦
ظاهرة مسكنة	٢١٣

الموضوع	الصفحة
الشبهة الثانية وجوابها	٢١٦
الشبهة الثالثة وجوابها	٢١٨
الشبهة الرابعة وجوابها	٢٢٠
الشبهة الخامسة وجوابها	٢٢٥
رأى في فواتح السور المعترض بها	٢٢٥
الرأى الثانى فى تلك الفواتح وتشتمل على وجوه مهمة	٢٢٨
الشبهة السادسة وجوابها	٢٣٧
المبحث الثامن فى جمع القرآن الكريم وما يتعلق به	٢٣٩ - ٢٨٨
جمع القرآن بمعنى حفظه فى الصدور	٢٤٠
جمع القرآن بمعنى كتابته فى عهد رسول الله ﷺ	٢٤٦
جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه	٢٤٩
دستور أبى بكر فى كتابة الصحف	٢٥٢
مزايا هذه الصحف	٢٥٣
جمع القرآن على عهد عثمان رضى الله عنه	٢٥٥
تنفيذ عثمان لقرار الجمع ودستوره فى كتابة المصاحف .	٢٥٧
تحميق عثمان للمصاحف والصحف المخالفة	٢٦٠
فذلكة البحث	٢٦٢
الرد على ما يثار حول جمع القرآن من شبه	٢٦٣
الشبهة الأولى وهى تعتمد على سبع شبه	٢٦٣
نقض هذه المزاعم الباطلة	٢٦٥
الشبهة الثانية وجوابها	٢٧٥
الشبهة الثالثة وجوابها	٢٨٠

الموضوع	الصفحة
» الرابعة وجوابها	٢٨٣
» الخامسة وجوابها	٢٨٤
» السادسة وجوابها	٢٨٦
خط منيع من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة (وهو بحث جديد مهم)	٢٨٩-٣٣٧
الجبهة الأولى في عوامل حفظ الصحابة للكتاب والسنة	٢٩١
العامل الأول أنهم كانوا أميين	٢٩١
العامل الثاني أنهم كانوا مضرب المثل في الذكاء والحفظ	٢٩٣
» الثالث بساطة معيشتهم والعامل الرابع حبهم لله ورسوله	٢٩٤
» الخامس إيجاز القرآن وبلاغة النبي عليه الصلاة والسلام	٢٩٦
» السادس ترغيبهم في الإقبال على الكتاب والسنة	٢٩٧
» السابع منزلة الكتاب والسنة من الدين	٢٩٩
» الثامن ارتباط كلام الله ورسوله بما يثير الاهتمام	٣٠٠
» التاسع اقتران الكتاب والسنة بأمر خارق للعادة	٣٠٢
» العاشر حسن سياسة الكتاب والسنة لهذه الأمة	٣٠٤
» الحادى عشر الترغيب والترهيب اللذان في الكتاب والسنة	٣٠٨
» الثانى عشر عمل الصحابة بالكتاب والسنة	٣١١
» الثالث عشر وجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم	٣١٢
عوامل خاصة بالقرآن الكريم أولها التحدى	٣١٢
ثانيها العناية بكتابة القرآن الكريم وثالثها تشريع قراءته في الصلاة	٣١٣
رابعها الترغيب في تلاوة القرآن في غير الصلاة	٣١٣
خامسها عناية الرسول بتعليم القرآن وإذاعته ونشره	٣١٤
سادسها القداسة التي امتاز بها القرآن	٣١٥

الموضوع	صفحة
الجهة الثانية في عوامل ثبت الصحابة من الكتاب والسنة	٣١٦
العامل الأول أمر القرآن بالثبوت ونهيه عن التهجم	٣١٦
العامل الثاني الترهيب الشديد في الكذب على الله ورسوله	٣١٧
العامل الثالث الحض على الصدق والتفكير من الكذب	٣١٨
العامل الرابع غرام الصحابة بالتفقه والتعلم	٣٢٠
العامل الخامس بسر الوسائل لدى الصحابة إلى أن يقبلتوا	٣٢١
العامل السادس شجاعة الصحابة وصراحتهم	٣٢٢
العامل السابع تكافل الصحابة تكافلاً اجتماعياً	٣٢٣
العامل الثامن ترويضهم على الصدق عملاً	٣٢٥
العامل التاسع الأسوة الحسنة التي كانوا يمدونها في رسول الله ﷺ	٣٢٦
العامل العاشر سمو تربية الصحابة على فضائل الإسلام	٣٢٩
عوامل أخرى	٣٣٠
مظاهر هذا التثبيت	٣٣١
نتيجة ذلك	٣٣٤
الموقف خطير	٣٣٥
شهادة علياً من الله للصحابة	٣٣٦
شهادة الرسول ﷺ لأصحابه	٣٣٧
حكمة الله في اختيار الصحابة لحمل شريعته الخلقامية	٣٣٧
المبحث التاسع في ترتيب آيات القرآن وسوره	٣٣٨ - ٣٦٠
معنى الآية	٣٣٨
طريق معرفة الآية	٣٤٠
عدد آيات القرآن	٣٤٣

الموضوع	صفحة
سبب الاختلاف في عدد الآيات	٣٤٤
فوائد معرفة الآيات	٣٤٤
ترتيب آيات القرآن	٣٤٦
ملاحظة في عدد كلمات القرآن وحروفه	٣٤٨
شبهة تتصل بالموضوع وتفنيدها	٣٤٩
معنى السورة	٣٥٠
حكمة تسوير السور	٣٥١
أقسام السور	٣٥٢
المذاهب في ترتيب السور	٣٥٣
احترام هذا الترتيب	٣٥٨
شبهتان خفيفتان وجوابهما	٣٦٠
المبحث العاشر في كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه	٣٦١ - ٤١٠
الكتابة	٣٦١
شأن الكتابة في الإسلام	٣٦٣
هل كان النبي ﷺ يقرأ ويكتب؟	٣٦٤
كتابة القرآن	٣٦٧
رسم المصحف وقواعد هذا الرسم	٣٦٩
قاعدة الحذف	٣٦٩
قاعدة الزيادة	٣٧٠
قاعدة الممز وقاعدة البدل	٣٧١
قاعدة الوصل والفصل وقاعدة ما فيه قراءتان	٣٧٢
مزايا الرسم العثماني	٣٧٣

الموضوع	صفحة
هل رسم المصحف توقيفي؟	٣٧٧
الرأى الأول أنه توقيفي	٣٧٧
الرأى الثانى أنه اصطلاحى لا توقيفى	٣٨٠
و الثالث وسط بين الرأين	٣٨٥
الشبهات التى أثبتت حول كتابة القرآن ورسمه	٣٨٦
الشبهة الأولى	٣٨٦
جواب هذه الشبهة	٣٨٦
الشبهة الثانية وجوابها	٣٨٨
الشبهة الثالثة وجوابها	٣٨٨
الشبهة الرابعة وجوابها	٣٨٩
الشبهة الخامسة	٣٩٠
جواب الشبهة الخامسة وتصوير الشبهة السادسة	٣٩٠
جواب السادسة وتصوير السابعة وجوابها	٣٩١
الشبهة السابعة وجوابها	٣٩٢
الشبهة الثامنة وجوابها	٣٩٣
تصوير الشبهة التاسعة	٣٩٥
جواب التاسعة وتصوير العاشرة وجوابها	٣٩٦
خلاصة الدفاع	٣٩٦
شبهة على التزام الرسم العثمانى فى هذا المصمر	٣٩٧
جواب هذه الشبهة	٣٩٧
المصاحف تفصيلا والحروف السبعة فى المصاحف العثمانية	٣٩٩
المصحف والمصاحف	٤٠١



الموضوع	الصفحة
عدد المصاحف العثمانية	٤٠٢
كيف أتخذ عثمان المصاحف العثمانية	٤٠٣
أين المصاحف العثمانية الآن؟	٤٠٤
المصاحف في دور التجويد والتصحيح	٤٠٥
إجمام المصاحف	٤٠٦
شكل المصاحف	٤٠٧
حكم نقط المصحف وشكله	٤٠٨
تجزئة القرآن	٤٠٩
احترام المصحف	٤١٠
٤٧٥ - ٤١٢ البحث الحادى عشر فى القراءات والقراء والشبهات فيها	٤١٢
القراءات	٤١٢
نشأة علم القراءات	٤١٢
طبقات الحفاظ المقرئين الأوائل	٤١٤
أعداد القراءات	٤١٦
ضابط قبول القراءات	٤١٨
منطوق هذا الضابط ومفهومه	٤٢٣
ملاحظة فى الاكتفاء بصحة الإسناد فى الضابط المذكور	٤٢٧
أنواع القراءات من حيث السند	٤٢٩
تواتر القرآن الكريم	٤٣١
الآراء فى القراءات السبع	٤٣٥
الآراء فى القراءات الثلاث المتممة للعشر	٤٤٠
التحقيق تواتر العشر كلها	٤٤١

الموضوع	صفحة
القرءاء	٤٥٦
ابن عامر	٤٥٦
ابن كثير	٤٥٧
عاصم	٤٥٨
أبو عمرو	٤٥٩
حزرة	٤٦٠
نافع	٤٦١
الكسائي	٤٦٢
أبو جعفر ويعقوب	٤٦٣
خلف	٤٦٤
الحسن البصرى وابن محيصن ويحيى اليزيدى والشنبوذى	٤٦٥
حكم ماوراء العشر	٤٦٦
فذلكة هذا البحث	٤٧٠
نقض الشبهات التي أثيرت في هذا المقام	٤٧١
الشبهة الأولى وجوابها	٤٧١
الشبهة الثانية	٤٧٣
الشبهة الثالثة والرابعة	٤٧٤
الشبهة الخامسة	٤٧٥

## شكر ورجاء

أما بعد شكر الله تعالى وحده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فإنني أتوجه بأجزل الشكر إلى كل من عاونني في هذا الكتاب برأيه ، أو بسعيه ، أو بقراءته والإقبال عليه ، أو بتقديره وتشجيعي على المضي فيه .

وأرجو كل من يطلع عليه أن يلمس لي العذر إن كنتُ قصرت ، وأن يرشدني إلى شاكلة العيوب إن كنتُ أخطأت ، وأن يصحح نسيخته على ما جاء في هذه الطبعة ، وأن يعلم أنني حاولت جهد طاقتي حسن الإخراج وجودة الطبع ، ولكن الظروف أبت إلا أن تقف بي عند هذا الحد . ولعلني سددتُ أو قاربتُ ، وعلى كل حال فالعودُ أحمدُ إن شاء الله .

وأستغفر الله من كل خطيئة وزلل ، وأسأله أن يقابل بالقبول ما وقفنا إليه من نافع العلم وصالح العمل ، وأن يصلح منا جميعاً الحال والمآل ، وأن يحقق للإسلام والمسلمين جميع الآمال . والحمد لله الذي بنعمته تمَّ الصالحات . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان في البدايات والنهايات ، آمين . وسلامٌ على المرسلين ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ